

رجب البنا

# النصفون للإسلام في الغرب



دار المعارف

تصميم الغلاف  
الفنان محمد أبو طالب (الصغير)

تنفيذ المتن والغلاف  
بالمركز الإلكتروني  
دار المعارف



---

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع  
هاتف : ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس : ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg



إلى الذين يؤمنون بالتسامح  
وبالتعايش بين الأديان ..  
وبأن الله الذى يعبد جميع المؤمنين على اختلاف  
دياناتهم هو إله واحد .  
إلى الذين وهبهم الله البصيرة والإنصاف .  
ونحمد الله أنهم ليسوا قلة فى هذا العالم .



## مقدمة

فى كتابى «صناعة العداء للإسلام» أردت أن أنبه إلى ما يجرى فى الغرب من محاولات لتشويه صورة الإسلام، وما ينشر من أفكار ونظريات تثير الكراهية والعداء للإسلام والمسلمين. فنقلت بعض ما قيل ونشر بالحرف، دون تدخل من جانبى بالإضافة أو الحذف لكى تكون أمام القارئ صورة أمينة لما يجرى فى الغرب من تحريض على الإسلام.

وكننت بذلك أرجو أن يدرك المسلمون أن هناك خطراً حقيقياً يترىص بهم ومعظمهم غافلون، ولم يكن قصدى أن أبعث الخوف فى قلوب المسلمين، أو أن أثير فيهم مشاعر الكراهية للغرب عملاً بمبدأ المعاملة بالمثل كما يدعو البعض، لأننى أرى أن مقابلة الكراهية بالكراهية، والعداء بالعداء منافية لروح الإسلام ودعوته، وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو القدوة لنا فى التسامح والعفو. كان هدفى أن أضع الحقيقة المؤلمة أمام الهيئات والمؤسسات والجامعات - والحكومات - فى الدول الإسلامية، لكى تتحرك، ويتحرك المفكرون المسلمون، ويبدءوا فى وضع استراتيجيات لتصحيح صورة الإسلام والدفاع عنه. وكننت أيضاً أريد أن أوجه النقد إلى هذه المؤسسات، وربما الاتهام أيضاً، للتقصير فى أداء واجبها. وواجبها ألا تكتفى بالحديث إلى المسلمين لإقناعهم برسالة الإسلام ومبادئه، فإن الحديث إلى النفس لا يغنى عن الحديث إلى الآخر، والواجب أن نذهب نحن إلى الغرب - بأفكارنا ومفكرينا وأبحاثنا وإعلامنا - وأن ننظم قوافل تطوف بدول أوروبا وأمريكا وتلتقى برجال الدين، وبالمفكرين، وبالباحثين فى الجامعات ومراكز البحوث، وبالكتاب والصحفيين، وبرجال الحكم وقيادات الأحزاب، لتشرح - بالدليل والمنطق وباللغة التى يفهمها الغرب - حقيقة الإسلام، وتكشف زيف الدعايات المضللة عنه.

كننت أرجو أن تقوم المؤسسات الإسلامية بعمل منظم ودائم لإزالة آثار العدوان على الإسلام الذى استمر فى الغرب زمناً طويلاً، منذ الحروب الصليبية، وحتى من قبلها. خاصة وقد لمست بنفسى فى زيارات ولقاءات فى أمريكا ودول أوربية مدى تأثير اتهام الإسلام بأنه ضد الحرية الدينية، فى زمن أصبحت فيه الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان أسلحة تشهر فى وجه الدول، واتهام شعب بمعاداة هذه المبادئ أصبح كافياً لتعرضه للعقوبات السياسية والاقتصادية، بل وللغزو العسكرى والاحتلال!

كنت أرجو أن تقوم هذه الحملة الإسلامية المنظمة والدائمة على شرح المبادئ الأساسية للعقيدة كما جاءت في القرآن الكريم حيث حرية الإنسان هي الأصل في العقيدة ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦) و﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف ٢٩). وعقيدة الإسلام قائمة على أن حكمة الله وإرادته أن تتعدد الديانات وتتعدد الطرق المؤدية إليه في النهاية. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩). وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا تَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ \* إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود ١١٨-١١٩). والمبدأ الإسلامي في معاملة المسلمين مع من يختلفون معهم في العقيدة، وحتى مع الكفار الذين لا يؤمنون بالله هو: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون ٦). واجب المؤسسات والمفكرين في العالم الإسلامي أن يسارعوا بالتصدي للهجمة الشرسة التي تربط بين دين الإسلام وبين الإرهاب والعنف. فقد نجحت الدعايات المضادة للإسلام في تحويل الرابطة بين الإرهاب وبين من يقومون به كأفراد ضلوا السبيل، ليجعلوها بين الإرهاب وبين المسلمين في عمومهم، ثم يجعلوها بين الإرهاب وبين أصول ومبادئ العقيدة الإسلامية، مستغلين في ذلك تشويه مفهوم الجهاد في الإسلام والادعاء بأنه تحريض على محاربة غير المسلمين على الإطلاق ودون تمييز، حتى استقر في أذهان الغالبية من المثقفين والعامّة في الغرب أن الجهاد في الإسلام معناه العدوان، مع أن مفهوم الجهاد في العقيدة الإسلامية مفهوم دفاعي، وليس مفهوماً هجوماً أو عدوانياً. بل إن الله يدعو المسلمين إلى العفو عن يئس إليهم، وإذا عاقبوا فلا يزيد العقاب عن المثل. ﴿وَإِن عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل ١٢٦). وإذا قبل المعتدى السلام العادل، فإن أمر الله للمسلمين أن يقبلوا ذلك: ﴿وَإِن جَاحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَحْ لَهُا﴾ (الأنفال ٦١) و﴿فَإِن أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَاْجَعَلِ اللَّهُ لَكُمْ لَعْنَةً سَكِينًا﴾ (النساء ٩٠).

هذه المبادئ الإنسانية الراقية التي تمثل أقصى ما يمكن أن تصل إليه العلاقات بين الناس على اختلاف عقائدهم، وبين الدول والشعوب، هي التي يحتاج الغربيون إلى تفهمها، وهذا ما يفرض على المؤسسات الإسلامية - وعلى رأسها الأزهر الشريف قلعة الإسلام الكبرى - مخاطبة الغرب بلغته، وليس بلغتنا، للرد على كثير من الاتهامات الظالمة مثل اتهام الإسلام بأنه يدعو إلى التواكل والكسل، أو أنه السبب في تخلف المسلمين عن ركب الحضارة والتحديث، أو أنه يتعارض مع القيم الحضارية والإنسانية.. ويحرم المرأة من حقوقها الإنسانية إلى آخر ما في قائمة الاتهامات التي أوردت الكثير منها في كتاب (صناعة العداء للإسلام).

في هذا الكتاب كنت أريد أن أقدم للمسلمين عريضة الاتهام الموجهة لهم ولدينهم كما هي منشورة في كتب ومقالات وأفلام منتشرة في الغرب، وعلى ألسنة بعض كبار القادة والسياسيين أيضاً، لكي

أستثير الحمية للدفاع عن دين الله، خاصة وأن العداء للإسلام والمسلمين ليس مقصوراً على الفكر والمشاعر والمعتقدات، وإنما له نتائج خطيرة تؤثر في حياة واستقلال ومستقبل المسلمين وبلادهم.

كنت أريد أن أنبه إلى خطأ الأسلوب الذي تتبعه الهيئات والحكومات الإسلامية بإرسال مفكرين إلى بعض البلاد الغربية لبضعة أيام، ليلتقوا بعدد من المفكرين ويشاركوا في حوار هنا أو هناك، ويقولوا كلمتهم، ثم يعودوا إلى بلادهم، وينتهي الأمر عند هذا الحد، وكأن هذه الرحلة، أو الندوة، أو هذا الحوار هو عصا موسى التي ستقضي على المؤامرة الكبرى على الإسلام. خاصة وقد أصبحت نظرية صراع الحضارات في الغرب عقيدة تحرك السياسات والجيوش، وأصبحت دعوة صاحب هذه النظرية (صمويل هانتنجتون) هي المحرك للدول الكبرى للضغط على الدول الإسلامية بكل الوسائل لتغيير بعض المبادئ في العقيدة الإسلامية وغرس منظومة متكاملة من القيم الغربية لتحل محل القيم الإسلامية، ويكون ذلك - كما قال هانتنجتون - الضمان لتحديث المجتمعات الإسلامية لكي تذوب الحضارة الإسلامية في الحضارة الغربية وينتهي الصراع بين الحضارتين!

ولقد اكتفت الجهود في العالم الإسلامي بإعلان الرفض لنظرية صراع الحضارات والقول بأن الإسلام يدعو إلى حوار الحضارات والشعوب، وكان من الطبيعي ألا تصل هذه الرسالة إلى الغرب، وما زالت هذه المهمة تنتظر من يقومون بها بشجاعة ومثابرة، ولا يكفي أن يقوم بها داعية واحد أو عشرة من الدعاة، فهي مهمة تحتاج إلى انتشار، وإلى النفس الطويل، كما تحتاج إلى تخطيط، وتنسيق وتمويل، وحشد الكفاءات المؤهلة لمخاطبة العقل الغربي. كما تحتاج إلى إنشاء مراكز علمية إسلامية في الغرب وترجمة كتب العقيدة والفقه والأخلاق الإسلامية إلى اللغات المختلفة.

هذا ما كنت أهدف إليه من كتابي (صناعة العداء للإسلام). وبعده شعرت بأن واجبي أن أقدم الجانب الآخر من الحقيقة، وهو أن في الغرب مفكرين وباحثين لهم قيمة وتأثير، درسوا الإسلام بموضوعية وبدون تحيز، فاكتشفوا ما فيه من قيم تقدمية وحضارية وإنسانية كبرى، ولم يترددوا في إعلان ذلك، ولم يتوانوا في الدفاع عن الإسلام.

وكما أن المسلمين في غفلة عن أعدائهم، فإنهم أيضاً في غفلة عن أصدقائهم. فلم يهتموا بدعوة هؤلاء المنصفين للإسلام، وتكريمهم، والمساهمة في نشر أفكارهم بكل وسائل النشر، حتى تكون موجة الإنصاف قادرة على مواجهة موجة العداء الظالمة.

لذلك رأيت أن أشير إلى بعض هؤلاء الذين أنصفوا الإسلام من الغربيين، تعريفاً بهم، وتحية لهم، واعترافاً بفضلهم.

وأرجو أن أكون قد وفقت.

وما توفيقي إلا بالله.

عبد الباق





# أنا ماري شميل أعظم من أنصف الإسلام

أنا ماري شميل، أعظم المستشرقين الذين أنصفوا الإسلام، ودرسوه بموضوعية ودون انحياز ضده.

كانت تربطني بها علاقة روحية، بدأت مع أول لقاء معها، في باكستان، وكنت في صحبة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر، وهناك علمت بوجودها فسعيت إلى الاتصال بها لتحيتها، فسألتني إن كان من الممكن أن ألتقي بشيخ الأزهر لأنها معجبة بآرائه السمحة المعتدلة، والتقينا ودار حوار طويل حول الحرية الدينية في الإسلام، وسماحة الإسلام مع أصحاب الديانات الأخرى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ و﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.. وامتد الحديث إلى مكانة المرأة في الإسلام، والاتهامات الظالمة للإسلام بأنه يظلم المرأة، ويعادي الديمقراطية وحقوق الإنسان.. إلى آخر هذه الاتهامات التي تتردد بين المستشرقين والسياسيين. وأذكر أنني سألتها: هل وجدت في دراساتك للإسلام أنه دين يدعو إلى الإرهاب؟.. ولن أنسى منظرها وهي تستمع إلى سؤالي، وقد انتفضت من مقعدها وقالت باللغة العربية وبصوت عال: معاذ الله!

وشعرت بعد هذه المقابلة أن هذه الأستاذة العظيمة تستحق الاحترام. بعد ذلك ذهبت في رحلة إلى ألمانيا بصحبة الإمام الأكبر أيضا، وكان برنامجه يتضمن حضور لقاء في المركز الإسلامي في بون وكانت هي عاصمة ألمانيا قبل أن تنتقل العاصمة إلى برلين - وفي هذا اللقاء فوجئت بحضور الدكتورة أنا ماري شميل، وقالت: إنها جاءت سيرا على الأقدام لأنها لم تجد سيارة أو (تاكسي) وخشيت أن تتأخر عن الموعد، وبعد أن ألقى شيخ الأزهر حديثه، جلسنا معا في صالون ودار حوار شائق حول دراساتنا عن التصوف وعن المدارس الفقهية الإسلامية، وقالت: إنها عائدة لتوها من إيران، حيث دعيت لإلقاء محاضرات في الجامعة في طهران وأنها كانت أيضا في باكستان وتركيا لإلقاء سلسلة محاضرات عن الإسلام.

وحين عدنا إلى القاهرة اتصلت بالدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف واقترحت عليه أن يدعوها لزيارة القاهرة والالتقاء بأستاذة الأزهر ومفكرين إسلاميين في مصر، فقال لي: إنه يعرفها جيدا، ويعرف مكانتها العلمية، وهي صاحبة مدرسة في الاستشراق ولها تلاميذ كثيرون هم الآن من كبار أساتذة الدراسات الإسلامية في الجامعات الألمانية، وقال: إنه سيدعوها لحضور مؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وحضرت فعلا إلى القاهرة ولقيت التكريم من شيخ الأزهر ومن وزير الأوقاف وهو أصلا أستاذ للفلسفة الإسلامية، وحصل على الدكتوراه من ألمانيا، ويجيد اللغة الألمانية، ومعروف جيدا في الأوساط العلمية هناك، وكانت هذه الزيارة فرصة لأدعوها للالتقاء بمجموعة كبيرة من الصحفيين والكتاب من مجلة (أكتوبر) وقضينا سهرة طويلة في حوار ممتع نشرنا ملخصه في مجلة (أكتوبر)..

وامتدت صداقتنا، والتقينا مرة أخرى في زيارة ثانية لها للقاهرة، وكنت على موعد للقائها في ألمانيا في صيف ٢٠٠٤، ولكن الله لم يشأ أن يتحقق ذلك.



ومن حسن حظي أني وجدت الباحث المصري الدكتور ثابت عيد في جامعة زيورخ في سويسرا وثيق الصلة بالدكتورة أنا ماري شيميل، وتفضل بإرسال مجموعة من دراساته عنها وترجماته لأعمالها إليّ فكان ذلك جميلا منه لأنني تعرفت أكثر على عظمة الدور الذي تقوم به هذه الأستاذة العظيمة خاصة أن ما تكتبه وما تقوله له تأثير على كثير من المستشرقين والألمان بصفة خاصة، ويمتد تأثيرها إلى بقية دول أوروبا، لأنها دائمة السفر واللقاء المحاضرات في الجامعات الأوروبية الكبرى.

وفى ١٨ يناير ٢٠٠٢ تابعت الاحتفال الكبير الذي أقيم لها في مؤسسة معهد جوته في بون بمناسبة بلوغها سن الثمانين في العاشر من شهر أبريل ٢٠٠٢، وباعتبارها أكبر متخصصة في العلوم الإسلامية، واللغات العربية والشرقية وتعمل أستاذة في جامعة بون، وحائزة على جائزة السلام للناشرين الألمان التي تعتبر أهم الجوائز الثقافية والفكرية المرموقة التي تقدم كل عام إلى إحدى الشخصيات الثقافية والعلمية ذات المكانة الخاصة..

وفي هذا الاحتفال قامت بإلقاء محاضرة موضوعها (مظاهر وأركان الإسلام) وتجمع عدد كبير من الباحثين والمفكرين والكتاب للاستماع إليها، خاصة بعد أن أصبح الإسلام مركز اهتمام السياسيين والمثقفين ورجال الإعلام في ألمانيا وفي العالم بعد الهجومات الإرهابية على مركز التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والصورة السلبية التي أبرزتها وسائل الإعلام الغربية للإسلام والمسلمين، وحين قدمها الدكتور فالتر نوافك، سفير ألمانيا السابق في عدة عواصم عربية قال: إن هذه الأستاذة الكبيرة هي أفضل من يوضح الصورة الحقيقية للإسلام

ويشرح العلاقة بين الإسلام والديانات الأخرى. وتحدثت الدكتورة أنا ماري شيمل عن بداية ظهور الإسلام، وسيرة الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ونضاله من أجل نشر العقيدة الإسلامية، واضطهاد قريش له ولأتباعه من المؤمنين، ثم هجرته إلى المدينة المنورة، وانتصاره على المشركين، ومولد الدولة الإسلامية، وانتشار الإسلام في العالم القديم. ثم تحدثت عن المصادر الرئيسية للدين الإسلامي وهي القرآن، والسنة والإجماع، والقياس، وأركان الإيمان في العقيدة الإسلامية وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر دون تفرقة بين أحد من الرسل، وقامت بشرح دقيق وتفصيلي لكل ركن من هذه الأركان، وتوقفت طويلا حول عقيدة (الله الواحد الأحد) والإيمان بالملائكة، ودور جبريل في نقل الوحي إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وشرحت شرحا كاملا الآية: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وبعض الآيات الأخرى، وأشارت إلى مدى صعوبة ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، لأنه بالترجمة يفقد بعض الجلال الذي يشعر به كل من يقرأه باللغة العربية، كما يفقد البلاغة المعجزة في صياغته، وعندما شرحت (الإيمان بالرسل جميعا) باعتباره ركنا أساسيا من أركان العقيدة الإسلامية، توقفت طويلا بالشرح لما جاء في القرآن من اعتراف وتكريم للنبي موسى وللمسيح عيسى بن مريم - عليهما الصلاة والسلام - ورسالتهما السماويتين، وعددت سلسلة الرسل من آدم إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء، مع مقارنة موجزة بين الإسلام والمسيحية، وتحدثت عن احتفال الدول الإسلامية بعيد ميلاد المسيح، ومولد الرسول محمد - عليهما الصلاة والسلام -، كما تحدثت بالتفصيل عن سورة مريم وما فيها. وشرحت ركن (الإيمان) في الإسلام فقالت: إنه الإيمان بالله، وبالكتب السماوية وتشمل القرآن وما قبله من كتب، والإيمان باليوم الآخر، والبعث والحساب و الجنة والنار، وقارنت بين مفهوم الجنة لدى المسيحيين والمسلمين، وفكرة القضاء والقدر خيره وشره، ثم انتقلت إلى مسيرة الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وشرحت الفروق بين السنة وبين الشيعة وآل البيت، والأئمة، والأوضاع السياسية والاجتماعية في الدول الإسلامية في الوقت الحاضر، وفي النهاية أجابت بسهولة وعمق عن سيل من الأسئلة.

وهكذا كانت أنا ماري شيمل دارسة بموضوعية للإسلام، حريصة على أن تنظر إليه بعين العالم، وبالنهج العلمي دون تحيز أو أحكام مسبقة، ولذلك كانت موضع تقدير كبير عند كل من يعرف قدرها في العالم الإسلامي، وإن كان اسمها لم يتردد في مصر إلا مؤخرا.

وأنا ماري شيمل ولدت عام ١٩٢٢ في مدينة في وسط ألمانيا اسمها (إيرفورت) ودرست اللغة العربية - قبل أن تختار التخصص في تاريخ العلوم، واللغات الشرقية - على يد المستشرق الألماني الدكتور (ريتشارد هارتمان) في برلين وحصلت على الدكتوراه في الاستشراق عن رسالة موضوعها (القضاء الإسلامي في مصر في القرون الوسطى) وبعد الحرب العالمية الثانية واصلت دراستها في

الآداب العربية، والتركية، والفارسية، وحصلت على درجة أستاذ (بروفيسور) في منتصف الأربعينات، ثم حصلت على دكتوراه ثانية في أوائل الخمسينات، وعملت في تدريس الشريعة الإسلامية في جامعة أنقره بتركيا، وفي جامعة هارفارد بالولايات المتحدة، ثم احتلت كرسي الأستاذية في قسم العلوم الإسلامية واللغات الشرقية في جامعة بون وهي أعرق الجامعات الألمانية، وبعد سنوات تفرغت للكتابة والتأليف، وإلقاء المحاضرات، ونشرت أبحاثها في المجالات العلمية المتخصصة في الاستشراق حول موضوعات الفلسفة الإسلامية، والمعتزلة، والصوفية، كما قامت بإنشاء مؤسسة خاصة لتقديم المنح الدراسية للعلماء والطلبة المسلمين، بالتعاون مع جامعة بون، وفي عام ١٩٩٥ حصلت على أكبر جائزة ثقافية وفكرية في ألمانيا هي (جائزة السلام).



ولم يسبق أن لقيت باحثة ألمانية في الإسلام مثل هذا الاهتمام الواسع خارج ألمانيا مثل أنا ماري شيميل، فقد ترجم معظم أعمالها إلى عدة لغات، وصدر أكثر من ٢٠٠ كتاب عنها وعن أبحاثها وأفكارها، وهي معروفة عالميا ومقروءة باللغات الإنجليزية والفرنسية والفارسية، والتركية، والأوردو، والعربية، وترجمت بعض أعمالها أخيرا إلى اللغة الإندونيسية، وفي عام واحد هو عام ٢٠٠٠ قامت برحلات إلى إحدى عشرة دولة في أوروبا وأمريكا وآسيا وفي دول الخليج، وكانت تشرف على برنامج تليفزيوني عن الإسلام في ٨ حلقات عرضه التليفزيون الألماني وعرض أيضا في بعض الدول العربية.

وخلال نصف قرن كانت أنا ماري شيميل نموذجا للباحثة المخلصة للحق والحقيقة في دراساتها للعقيدة والشريعة والعلوم الإسلامية، وظلت تعمل بنشاط كبير على مد جسور التفاهم والتقارب بين العالم الإسلامي وبين الغرب المسيحي، وفي عام ١٩٩٥ تعرضت لأزمة شديدة بسبب تعبيرها عن رأيها في قضية سلمان رشدي، فقد أثارت رواية (آيات شيطانية) التي كتبها سلمان رشدي البريطاني الجنسية الهندي الأصل، والذي كان مسلما وارتد، ووجه في هذه الرواية شتائم مفرقة للقرآن، والوحى، وإلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وزوجاته وبناته، وأثارت الرواية الغضب الشديد في العالم الإسلامي، وأصدر الخميني فتوى بإصدار دم سلمان رشدي، واستغل الإعلام في جميع الدول الأوروبية وأمريكا هذه الفتوى للهجوم على الإسلام والمسلمين، لعدم اعترافهم بحرية الرأي. وفي عام ١٩٩٥ كانت أنا ماري شيميل تتسلم أكبر جائزة ألمانية، وفي حفل تكريمها قالت: إنها تستطيع أن تفهم لماذا شعر المسلمون بالاستياء تجاه هذه الرواية، وكانت هذه العبارة سببا في تعرضها لهجوم لم يسبق له مثيل، ولا يليق بمكانتها العلمية، فقد عاملتها جامعة بون بقسوة، واتهمتها بأنها بهذا التصريح تؤيد فتوى الخميني بالقتل. وتعمد المنتقدون لها انتهاز الفرصة لتوجيه الاتهامات إليها وإلى الإسلام.. بل وتعرضت للتشكيك في نواياها وقيمة أعمالها، وأصبح

الحوار الساخن في طول ألمانيا وعرضها يدور حول البروفيسور أنا ماري شيميل: هل تستحق الجائزة الكبرى التي حصلت عليها أو لا تستحقها؟ وظهرت صحابات الشكوك حول الأستاذة العظيمة. وحين سألتها عن هذه الفترة قالت باقتضاب وملامح وجهها مليئة بالحزن والمرارة: لقد كان وقتا صعبا.. وأرجوك.. لا أحب الحديث عن تلك الفترة. وهكذا كانت إجابتها عن كل من كان يسألها عما حدث لها في بلد الديمقراطية، وحرية البحث العلمي وحرية الرأي.. وامتد الهجوم عليها إلى بلاد الديمقراطية الأخرى: أمريكا ودول أوروبا.



كان هدف هذه الأستاذة العظيمة دائما أن يتفهم الغرب حقيقة الإسلام، وفي رأيها أن الإسلام أكثر الديانات عرضة للهجوم، وللأحكام المسبقة، ولذلك كانت تتحمل بمبر وابتسام هادئة نصيبها من الهجوم هي الأخرى بسبب دفاعها عن الإسلام، وتتحمل الأسئلة والملاحظات الجارحة التي وصلت إلى حد الاتهامات.

أجابت عن سؤال حول السبب في اهتمامها بالإسلام فقالت: إن ذلك يعود إلى اهتمامها منذ صباها بالشرق وسحره وحضارته، وأنها كانت في طفولتها تنجذب إلى الكتب التي تقع في يدها عن الشرق وتقرأها بشغف، وكانت معجبة بشكل الحروف العربية، وترى فيها جمالا يجذبها، وتحاول تقليدها ورسمها. وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها بدأت تتعلم اللغة العربية على يد أستاذ معروف لم تكن دروسه تقتصر على اللغة العربية وقواعدها.. بل كان يلقي المحاضرات عن تاريخ الحضارة في العالم الإسلامي، وتقول: الفضل يرجع إلى تشجيع أبي وأمي في هوايتي هذه، وكانت والدتي أشد الناقدين لأعمالي حتى توفاه الله في عام ١٩٧٨.

إنتاج أنا ماري شيميل المنشور بلغ أكثر من ثمانين مجلدا عن تاريخ الشرق والإسلام، وكانت لها اتصالات في جميع أرجاء العالم الإسلامي، وبالإضافة إلى ذلك ترجمت الكثير من النثر والشعر من اللغات العربية والفارسية والتركية إلى اللغة الألمانية، وكانت تقول: إن أعمالي قصة حب كبيرة بيني وبين الشرق الإسلامي.. وفي نفس الوقت كانت تؤكد وتكرر: أنا باحثة فقط وليس لي شأن بالسياسة، فأنا ملتزمة التزاما شديدا بالحياد السياسي.. بل أنا خارج الساحة السياسية تماما، ولا أعرف الكثير عنها، ولا أستطيع الحديث عن شأن من الشؤون السياسية. ولكنها مع ذلك واجهت انتقادات من باحثين غربيين ومن فئات إسلامية، وظلت محتفظة بهدوئها ووقارها العلمي وبدعوتها إلى التسامح، كما ظلت إلى آخر يوم في حياتها على موقفها من الدعوة إلى السلام بين الشعوب وبين أبناء الوطن الواحد، وتقول: إن السلام يساعد الناس على الشعور بالأمل والقوة. وتدافع عن الدين الإسلامي، وتقول: إن الإسلام أضاف إلى الدنيا الكثير من المبادئ والقيم النبيلة،

وساعد على تقدم العلوم والفنون، ويحز في نفسه أن يتعرض الإسلام علنا، وبصورة مستمرة، ومتعمدة في أغلب الأحيان، إلى أحكام مسبقة غير دقيقة تصوره على أنه دين شرير!

ولم تقتصر البحوث التي قامت بها أنا ماري شيمل في رحلة عطائها العلمي التي بدأت عام ١٩٣٧ على تبادل الآراء مع كبار الباحثين في التصوف الإسلامي، ولكنها كانت تلتقي بالمسلمين العاديين في كل بلد تزوره، وتستمع إليهم، وتتعرف إلى آرائهم وعقائدهم وعاداتهم.

وقالت: في عام ١٩٤٢ كتبت رسالة الدكتوراه، وفي عام ١٩٤٦ أنهيت رسالتي التي منحتني بها الجامعة درجة بروفييسور، وهذه الرسالة لم تنشر مع الأسف الشديد، وهي عن حضارة الماليك في مصر، وهذه مرحلة تاريخية طالما وجدت نفسي مشدودة للعودة إليها، وتسليط الضوء عليها، ثم اكتشفت ابن خلدون فترجمت إلى الألمانية بعض فصوله من مقدمته الشهيرة.. أما الذي يوجب روحى ويسيطر على نفسى فهو الشعر.. الشعر العربى.. والشعر الفارسى أكثر.. وعلى الأخص الشعر الفارسى الصوفى، ولذلك فإن أول كتاب نشر لى كان دراسة عن لغة التصوير الخيالى فى شعر جلال الدين الرومى (١٢٠٧ - ١٢٧٣) وهذا الشاعر كتبت عنه كثيرا، ولى عدة كتب باللغتين الألمانية والإنجليزية فى دراسة أفكاره وأعماله، وترجمت الكثير من أعماله إلى اللغة الألمانية، وبدأت اهتمامى بترجمته منذ كان عمرى ثمانية عشر عاما ولم تمر فترة طويلة حتى استحوز الشاعر الكبير محمد إقبال، على فكرى، وهو الأب الروحى لدولة باكستان الحديثة، وتوفى عام ١٩٣٨، وقد تفرغت لإعداد كتب عديدة عنه، ونقلت ديوانه (رسالة الشرق) وهو فى الرد على الكاتب الألمانى المعروف جوته الذى كتب (الديوان الشرقى الغربى). ونقلت لإقبال أيضا كتاب (سير الأفلاك) شعرا إلى اللغة الألمانية، ونثرا إلى اللغة التركية. ووضعت عدة مؤلفات عن شعراء عظام من شبه القارة الهندية الباكستانية من أمثال الصوفى الكبير (ميررد) المتوفى عام ١٧٨٥، وشاعر اللغة السنديّة الكبير (شاه عبد اللطيف) المتوفى عام ١٧٥٢، كما قمت بإعداد بحوث نشرتها فى كتب عديدة عن التاريخ الأدبى والسياسى للمسلمين فى شبه القارة الهندية الباكستانية. ونقلت إلى الألمانية كثيرا من أبيات الشعر عن الفارسية والأوردية، ولغة السند، ولغة الباشتو. وقمت بتأليف كتب عن تركيا، وترجمت أشعارا تركية، كما ترجمت رواية تركية إلى الألمانية. ومع كل ذلك ظل الحب لفن الكتابة والخط العربى فى قلبى، مما جعلنى أخصص سنوات لدراسته ومعرفة أسرارهِ، وذهبت من أجل ذلك إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك إلى أن تمكنت من معرفة الكثير من أسرارهِ الجميلة، وبعد أن تقدمت برسالة الدكتوراه الثانية فى عام ١٩٥١، عن تاريخ الأديان، وقعت أسيرة هذا الموضوع (تاريخ الأديان) وخاصة علم الظواهر الدينية، حيث حاولت الاعتماد على ذلك فى فهم الإسلام.



يقول الكاتب البريطاني بيرتراند راسل في بحثه عن أنا ماري شيمل: إن أبرز مؤلفاتها جميعا كتاب (الأبعاد الصوفية للإسلام) وهو خلاصة لجوهر أعمالها عن التصوف والصوفية في الإسلام.. ويقول أيضا: إن أنا ماري شيمل بعيدة كل البعد عن التطرف الديني، وهذا ما تؤكد كتاباتها، ومحاضراتها، ولذلك كانت حريصة على الابتعاد عن الحديث عن الإسلام السياسي، وظلت ترفض كل المحاولات التي كانت تسعى إلى جرّها للاشتراك في النقاش الدائر حول الإسلام السياسي، وجماعات الإسلام السياسي، وتقول: إن هذا النقاش يسئ إلى صورة الإسلام، فنحن حين ندرس مبادئ وقيم الإسلام نجد حقيقته، وحين ننحرف إلى الحكم على الإسلام بما تقوله وما تفعله جماعات الإسلام السياسي فسوف نجد صورة تسئ إلى الإسلام، وهذه الصورة ليست للإسلام، ولكنها من صنع هذه الجماعات، فلماذا أترك الأصل وأجرى وراء الصورة غير الصحيحة؟

وهذا هو السبب في أنها بالرغم من اهتمامها بالإسلام في سن مبكرة جدا، منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، وظلت تبحث وتدرس وتكتب وتحاضر عن كل جوانب الإسلام، فإنها مع ذلك لم تشارك في أي نشاط سياسي من أي نوع حتى في داخل ألمانيا ذاتها، ولم يكن للسياسة أي تأثير على أفكارها ومواقفها، وظلت محتفظة بهذا الموقف العلمي الحيادي حتى عندما انتدبتها جامعة هارفارد الأمريكية للتدريس في قسم الثقافة الهندية والإسلامية.

حصلت أنا ماري شيمل على جوائز تقدير عديدة من أنحاء العالم يصعب حصرها، منها وسام الاستحقاق الكبير، أعلى وسام ألماني في عام ١٩٨١، وظلت تعمل بنشاط، تحسد عليه، دون أن تشكو من التعب حتى بعد أن تجاوزت الثمانين من عمرها، وكانت تقول: أريد متابعة أسفاري، ولقاء المفكرين والعلماء، والقاء المحاضرات، وترجمة الكتب والأشعار في الموضوعات الخاصة بالإسلام حتى آخر لحظة من عمري. وهذا ما فعلته.



وفى المحاضرة التي ألقته بمناسبة تكريمها وحصولها على جائزة السلام قالت: إن تفهم الثقافات الأجنبية والتسامح معها يجب أن يكون جزءا من السياسة الألمانية. ولقد تعرضت لحملة شديدة الضراوة كانت تبدو وكأنها تهدف إلى تفويض الرسالة التي خصت حياتي من أجلها، وهي تحقيق التفاهم بين الشرق وبين الغرب، ومع ذلك لم تدفعني هذه الحملة إلى الانزواء، لأنني أشعر بالالتزام بأن يكون عملي وعمل المستشرقين هو السعي إلى الحوار الهادئ مع جميع ذوى النوايا الحسنة في العالم الإسلامي. ورسالتى أيضا التي قضيت نصف قرن من عمري في أدائها لكى أتعلم أن منهج العلم مختلف عن منهج الصحافة والسياسة، وإن كان من المفروض أن يجمع بينهما الحرص على حرية الكلمة، وقد أعلنت أنى أرفض الفتوى الخاصة بسلمان رشدى، وسوف أسعى بأسلوبى الخاص إلى الدفاع عن حرية الرأى وحرية الكلمة.



وقالت: إنني أدرك أن الشعر هو (اللغة الأم للجنس البشري) التي تربط بين الشعوب، لأنه من أهم مكونات جميع الحضارات، فالشعر هو وسيط السلام، وقد اختلفت كثيرا علاقات الغرب مع العالم غير الغربي، فقد تابع الغرب بذعر تقدم المسلمين في حوض البحر الأبيض في القرنين الثامن والتاسع، ولكن الغرب في ذلك الوقت أخذ عن العرب في الأندلس أصول العلوم الطبيعية المعروفة اليوم، وظلت مؤلفات الرازي، وابن سينا، المراجع المعتمدة في الطب في أوروبا حتى مطلع العصر الحديث. وأثمرت كتابات ابن رشد مناقشات في اللاهوت مهدت الطريق إلى عصر التنوير في أوروبا. وساعد المترجمون في طليطلة على نقل التراث العلمي إلى أوروبا. وكان اليهود والمسيحيون والمسلمون يتعايشون في سلام في ظل الحضارة الإسلامية، ويعملون على نقل العلوم العربية إلى بلاد الغرب. وقد علم (لؤل الكاتالوني) احترام الأديان بعضها بعضا، والحوار بينها من أجل السلام، ثم كان الحصار التركي لعاصمة النمسا فيينا عام ١٥٢٩ وما تبعه من مجازر سالت فيها الدماء أنهارا، غير أن العالم الغربي تعرف في ذلك الوقت إلى الحياة في الشرق من خلال تقارير الرحالة والتجار. وصدرت الترجمة الفرنسية الأولى لروايات ألف ليلة وليلة في مطلع القرن الثامن عشر، فعرفت أوروبا سحر الشرق، والمغريات الحسية، وكان ذلك مصدر إلهام لأجيال من الشعراء، والرسامين، والموسيقيين. كما ساعدت الدراسات العربية والإسلامية والهندية على إثراء عصر التنوير في أوروبا، وأصبحت جميعها تخصصات مستقلة في تاريخ العلوم. وكانت الأعمال العلمية والترجمات من العربية هي الباعث على ظهور الشعر الاستشراقي في اللغة الألمانية الذي يحتل (جوته) مكان الصدارة فيه، خاصة ديوانه (الديوان الشرقي) بما فيه من تعليقات وحواش قام فيها بتحليل الحضارة الإسلامية تحليلًا مازال صالحا حتى اليوم، كما نشر (روكرت) عام ١٨٢٠ بعد صدور ديوان جوته بعام واحد - قصائده الأولى المستوحاة من الشعر الفارسي، وكان الألمان يستحسنون سماع الأشعار التركية.

وقالت: نحن لا نتلقى من وسائل الإعلام. ما يضيف إلينا معرفة جديدة، ولكن الإعلام يقدم لنا كل يوم صورة للعالم تملأ نفوسنا رعبا وقلقا، فهل نستطيع أن نكون من الإعلام صورة إيجابية حقيقية عن الحضارة الإسلامية، وهي صاحبة فضل علينا؟ إن الحضارة الإسلامية تبدو غريبة على معظم الأوروبيين اليوم، لذلك فإنهم يزعمون أن الحضارة الإسلامية لم تعرف أبدا الإصلاح أو التنوير! ولذلك رفض (جاكوب بوركههارت) هذه الحضارة الإسلامية منذ قرن من الزمان رفضا باتا وقال: إن هذه الحضارة غير قادرة على التغيير، وكثير ممن يسيئون فهم الحضارة الإسلامية لا يدركون قيمة الانجازات الحضارية والثقافية في العالم الإسلامي من غرب أفريقيا حتى إندونيسيا، وما في الحضارة الإسلامية من قدرة على العطاء والنمو بأساليب مختلفة عن الأساليب الغربية، ولكنها تتفق في أساس مشترك، هو الإيمان بالله الواحد الأحد.





وقالت أيضا: إنه يكاد يكون مستحيلا في هذا العصر التعرف على الجوانب الإيجابية للإسلام في الحياة اليومية، لأننا في عصر الطوفان الإعلامي الغربي، وتغمرنا نشرات الأخبار المتتالية الموجهة إلينا بأسلوب الإعلانات التجارية. ولذلك لا نتمكن من التعرف على الجوانب المتعددة والإيجابية في الإسلام.

وقالت: إن المثل القائل (الإنسان عدو ما يجهل) ليس مثلا خاصا باللغة اليونانية، فهو معروف في اللغة العربية أيضا. ويروي الشاعر الكبير جلال الدين الرومي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي في كتاب ألفه نشره باللغة الفارسية (أن صبيا شكا إلى أمه أنه يرى كائنا أسود فيصاب بالرعب في كل مرة، فنصحته أمه بأن يخاطب هذا الكائن المخيف لكي يعرف من طريقة إجابته طبيعته وشخصيته، وبذلك يحدد كيف يتعامل معه)، والمعنى الذي أراد جلال الدين الرومي أن يقوله هو: أن (الكلمة) هي التي تدل على شخصية المتكلم، كما تدل كعكة اللوز بما فيها لن يأكل منها.

وفي القرآن ﴿لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ (سورة إبراهيم آية ٢٤).. كما أن في معظم الديانات أن الكلمة قوة خالقة وحاملة للوحي، سواء كانت كلمة الله التي أصبحت لحما ودما، كما حدث في خلق المسيح - عليه السلام - أم كلمة الله التي أصبحت في الإسلام قرآنا.. فالكلمة هي الأمانة التي حملها الإنسان، وعليه أن يراها، ولا يجوز له أن يحط من شأنها، أو يقلل من قدرها، أو يحرف معناها، أو يقتلها، كما يحدث غالبا في هذا الزمان.. لأن الكلمة لها طاقة تفوق تقديرنا لها. ومسئولية الشاعر الكبرى، أن يراعى سلطان الكلمة. ومسئولية المترجم أيضا أن يحفظ للكلمة معناها بركة، فإن خطأ طفيفا في الترجمة قد يؤدي إلى سوء فهم كبير!

والعرب القدماء كانوا يعتقدون أن كلمات الشاعر لها تأثير لا يقل عن فعل السهام، ولذلك كان كل حاكم دكتاتور يستخدم الشعراء ليعلموا عن أمجاده وانتصاراته، وهذا الدور المهم للكلام المنظوم في الحضارة الإسلامية يفوق - بما لا يقاس - مثيله في الحضارة الغربية حتى يومنا هذا. فإذا كنا نهتز للموسيقى، فإن المسلم يهتز حين يستمع إلى إيقاع اللغة. وتقول: لقد عرفت استانبول عن طريق الشعر، حين اطلعت على قصائد الشعراء الأتراك التي نظموها طوال القرون الخمسة الماضية في هذه المدينة الساحرة. في كل ركن فيها، وجعلتني هذه القصائد التي يتردد صداها في باكستان أزداد شغفا بحضارة الإسلام. وقد تعرض أحد طلابي في جامعة هارفارد إلى مأساة، إذ كان ضمن الرهائن الأمريكيين في طهران، فلما تحدث إلى حراسه الإيرانيين وأنشدتهم بعضا من الشعر الفارسي لجلال الدين الرومي وحافظ الشيرازي وإقبال تغير موقفهم منه، ونشأت بينه وبينهم لغة مشتركة ساعدت على تجاوز الاختلاف الأيديولوجي بين الطرفين.. لذلك فإنني أميل إلى رأي (هرد) الذي قال: لاشك أننا نتعرف بالشعر على العصور، وعلى الأمم بصورة أعمق مما نتعرف عليها بالأساليب المضللة الفجة في التاريخ السياسي أو العسكري.

هذه قطرة في بحر هذه المستشرقة العظيمة.. التي ذهبت.. وتركت عصر المحبة والإنصاف للإسلام والمسلمين.

وهناك الكثير جدا مما يقال عنها: لكي نعرفها.. ونضعها في مكانها اللائق على رأس قائمة غير المسلمين الذين قالوا كلمة حق عن الإسلام.

ولقد سار في جنازة أنا ماري شيميل يوم الثلاثاء (٤ فبراير ٢٠٠٣) عدد كبير من المسلمين، كان في مقدمتهم الدكتور محمد زكي اليماني وزير البترول السعودي الأسبق ومعه مجموعة من المفكرين جاءوا من أنحاء العالم الإسلامي ليعبروا عن تقديرهم لنزاهة وموضوعية هذه المستشرقة العظيمة التي تفرغت لأكثر من نصف قرن في إعداد الدراسات الأكاديمية، والكتابة في المجالات العلمية، وإلقاء المحاضرات في أنحاء أوروبا وأمريكا لتقديم الإسلام للغرب بما يستحقه من الاحترام.

في كل زيارة لها إلى القاهرة كانت تؤكد قائلة: إن شغفي الأكبر بالحضارة الإسلامية بدأ منذ طفولتي ويزداد عمقا كلما تعمقت في دراسة التراث الفكري والشعري والصوفي، وهذه الثروة الروحية والعلمية الهائلة التي تركها شيوخ وعلماء الإسلام.

وحين زارت مجلة أكتوبر كان حديثها يدور حول الظلم الذي يتعرض له الإسلام على يد من لم يحسنوا دراسته، فالإسلام - كما استخلصت من دراساتها - دين يحترم الحرية الدينية والفكرية، والكرامة الإنسانية، ويدعو إلى العمل وإعمار الكون، كما يدعو المسلمين إلى أن يعيشوا الحياة ولا ينعزلوا عنها، ويعملوا لدينهم يعيشون إلى الأبد، ويعملوا في نفس الوقت لآخرتهم كأنهم يموتون غدا، وهذه هي قمة الحكمة على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم -.. وقالت: إن الإسلام يحترم المرأة - على عكس ما يردده البعض - يكفي قول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: إن الجنة تحت أقدام الأمهات، وكل امرأة هي أم أو ستكون أما! وقالت أيضا: إن الإسلام بريء من الإرهاب على النحو الذي يحاول به البعض الربط بين الإسلام وبين الإرهاب والادعاء بأن في الإسلام دعوة لإرهاب الآخرين.

وقالت أيضا: لقد بدأ اهتمامي بالإسلام والشرق وثقافته عندما قرأت حديثا نبويا يقول: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ولم أكن أعرف أنه حديث نبوي، فتعلمت اللغة العربية.. وقد عملت أستاذة في جامعة بون في ألمانيا، وأنقرة في تركيا، ولاهور في الهند، ثم في جامعة هارفارد الأمريكية، ولكنني في أمريكا لم أشعر بالألفة، ولذلك كنت دائما أعتبر فترة إقامتي في أمريكا غربة غريبة كما يقول الصوفية، أما في بلاد الشرق فإنني أشعر دائما بالراحة النفسية وأجد فيها نوعا من السمو الروحي لا يعرفه إلا من يمتلئ قلبه بحب الشرق.

وإجابة عن سؤال عن رأيها في الإسلام قالت بوضوح: إنني أحب الإسلام، ولولا أنني أحبه ما كتبت عنه أكثر من ثمانين كتابا، وقد وجدت فيه دين تسامح، وروحانية وتوقفت كثيرا عند

كلمات القرآن: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦). وقد قلت لمن وجهوا إليّ النقد: إنني أحب الرسول محمداً - صلى الله عليه وسلم -، وعندما سألوني عن رأيي في غضب المسلمين بسبب رواية سلمان رشدي: آيات شيطانية قلت: لقد جرح سلمان رشدي مشاعر المسلمين. وتعرضت بسبب كلماتي هذه إلى حملة اضطهاد شديدة، ولولا أن الرئيس الألماني في ذلك الوقت كان يساندني لكانت الذئاب قد افترستني، ولكنني مع ذلك قضيت في هذه المحنة ستة شهور.

وفى كل مرة كانت تزور فيها القاهرة كانت تذهب لزيارة قبر القطب الصوفي الكبير ابن عطاء الله السكندري في المقطم.. ولأنها أقامت سنوات في تركيا وظلت بعد ذلك كثيرة التردد عليها، فقد زارت قبر جلال الدين الرومي مائة مرة كما تقول لأنها أحبت شعره الصوفي ووجدت فيه نداءات استجابت لها روحيا.

ولشدة إعجاب المثقفين في باكستان بها أطلقوا اسمها على شارع في مدينة لاهور.



وفى رأيها أن التشهير بالإسلام والمسلمين في الغرب قضية لها جذور وعمق تاريخي، ويمكن فهم الأسباب من كلمات (جلاد ستون) الزعيم السياسي البريطاني المعروف التي قال فيها: (لن تستطيع أوروبا أن تسيطر على دول الشرق، بل لن تستطيع أن تعيش في مأمّن ما بقي هذا القرآن حيا يُتلى)، وقد ظل هذا الموقف يتصاعد عبر الزمان إلى أن تبلور على يد المفكر الاستراتيجي الأمريكي صمويل هنتنجتون في نظرية صدام الحضارات، ولكن يجب ألا ننسى أن هناك كتابات أخرى تعبر عن الاحترام للإسلام، فالفيلسوف الألماني (شبنجلر) في كتابه (أفول الغرب) قال إن حضارة الإسلام حضارة جديدة أوشكت على الظهور في أروع صورة، والإسلام يملك اليوم أقوى قوة روحانية عالمية نقية.. والحقيقة كما قال (جاردنر): إن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف الغرب. وكذلك نجد مفكرا كبيرا مثل (بول ديورانت) يقول: إذا حكمنا على العظمة بما كان للرجل العظيم من أثر في الناس، فلا بد أن نقول إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان أعظم عظماء التاريخ.. ثم تقول: المشكلة تكمن في أن المسلمين مقصّرون في حق أنفسهم، ولا يعرفون كيف يقدمون للعالم أنفسهم، وتاريخهم، وعقائدهم، وسياساتهم.. المسلمون لا يستخدمون وسائل الإعلام كما ينبغي.. ولا يجيدون فنون الدعاية والإقناع.. ولا يدرسون ما في الغرب من تيارات فكرية وسياسية واستراتيجية واقتصادية.. وأعتقد أن العولمة تمثل أحد المفاهيم الاستعمارية المخادعة.. وأرى أن على المسلمين أن ينهضوا، ويقدموا أنفسهم للعالم من جديد.



وفى حوار معها قالت أنا ماري شيمل: إن مشكلة العالم الإسلامي أنه لا يزال جامداً، وواقفاً عند النقطة التي كان عليها منذ قرون لم يتحرك، ولم يتطور، ولم يساير حركة التاريخ، ولذلك أصبح

المسلمون كيانا كبيرا من حيث العدد، ولكنهم ليسوا كيانا سياسيا، وليسوا تكتلا اقتصاديا، ولم يستطيعوا التوحد، ولذلك فإن كلامهم كثير وأفعالهم قليلة.. وأصواتهم عالية بدون تأثير.. وهذا معناه أن المسلمين حكموا على أنفسهم بالاغتراب.

وفى محاضرة لها فى مكتبة مبارك فى القاهرة قالت: إن الذى يجب أن يعرفه المسلمون هو أن الاستشراق ليس عدوا للإسلام، ولكنه وسيلة جيدة لتعلم منهج وعقيدة الإسلام، ولذلك حين سألونى فى الخرطوم: هل أنت مستشرقة؟ قلت: نعم.. أنا مستشرقة.. وأفخر بذلك.. فالاستشراق نافذة للتفاهم بين الأديان والحضارات والثقافات. والإسلام عندى دين عميق فيه التوكل على الله، وفيه الخصوصية الروحية، وأنا دائما أضع أمامى عبارة المؤرخ (ديكنز) فى كتابه: (معالم تاريخ الإنسانية) التى قال فيها: (إن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعى وسياسى ظهر فى التاريخ).

وقالت أيضا: إننى أدعو المسلمين إلى إنشاء أقسام لدراسة الغرب دراسة متخصصة لما فيه من عقائد، وأفكار، وثقافات، وتاريخ قديم وحديث، والتعرف على ما يظهر فى الغرب من تيارات معاصرة، وبذلك يصبح لدى المسلمين أدوات الفهم للغرب، والقدرة على التعامل معه وعلى مواجهته أيضا، وأيضا يكتسبون القدرة على المقاومة لحماية أنفسهم من أن تسحقهم موجات التغريب التى تكتسح دول العالم، خاصة مع سيطرة الغرب بما لديه من تقدم تكنولوجى.

لقد أنفقت أنا ماري شيميل عمرها فى دراسة الفكر والتصوف الإسلامى، ومقارنة الأديان، وترجمة النصوص والأشعار الإسلامية.. ولذلك فإنها تعتبر فى ألمانيا وغيرها من الدول والمؤسسات الدولية (مرآة الإسلام وسفيرة الإسلام فى الغرب).. وقد أعلنت أكثر من مرة: أنا أحب الإسلام كثيرا، وسأظل أدافع عنه حتى وفاتى، مهما كانت هناك مقاومة عنيفة من جانب الغرب ضد الإسلام.. فإننى سأظل أجتهد.. وأجاهد.



أنا ماري شيميل لم تتزوج.

سئلت: ما ديانتك؟ فأجابت: الله أعلم.

فى عام ١٩٩٢ أقيم احتفال كبير فى ألمانيا لتكريمها باعتبارها صاحبة مدرسة فى الاستشراق ودراسة الإسلام وبمناسبة بلوغها سن السبعين، وألقى تلميذها البروفيسور يوحنا كريستوف بيرجل محاضرة عنها نشرها بعد ذلك فى كتاب بعنوان: (إن الله جميل يحب الجمال). قال فيها: إنها دائما تكرر ملاحظتها عن عدم اهتمام الدول العربية بدرجة كافية بما فى الدول الإسلامية غير العربية من مذاهب وأفكار وتيارات إسلامية، ولذلك تخلو المكتبة العربية من المراجع المتخصصة فى الآداب الإسلامية فى إيران، والهند، وباكستان، وتركيا، وإندونيسيا وغيرها، فهل هناك

خصام بين الدول العربية وبين هذه الشعوب الإسلامية يحول دون ترجمة آثارها وآدابها إلى اللغة العربية، بينما يهتم بها المستشرقون، ولهم السبق في اكتشاف هذه الآداب الإسلامية وترجمتها إلى اللغات الأوروبية، بينما ما زالت هذه الآداب مجهولة تقريبا للمثقف العربي؟! وتقول: إن عظمة الإسلام تظهر في قبوله لكل الأديان السماوية، وهي معجبة بأبيات الشعر التي قال فيها الصوفي الكبير محيي الدين بن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة      فمرعى لغزلان، ودير لرهبان  
وبيت لأوثان، وكعبة طائف      وألواح توراة، ومصحف قرآن  
أدين بدين الحب أتى توجهت      ركائبه، فالحب ديني وإيماني

وتقول: هذا الكلام قمة التسامح، وتعبير عن القلب الإسلامي الكبير الذي لا يضيق بأى إنسان.. ولا يعادى إنساناً بسبب عقيدته.. ويتعامل مع الإنسان على أنه إنسان.. ويفتح قلبه لكل إنسان مهما تكن عقيدته.. ولم أجد في كل ما قرأت مثل هذه الدرجة من التسامح ومحبة الإنسانية..



وأنا ماري شيمل لها تلميذ مصري مفتون بها.. ترجم بعض أعمالها.. وكان مرتبطاً بها.. هو الدكتور ثابت عيد الباحث في إحدى جامعات سويسرا، وكثيراً ما كان يسافر إلى ألمانيا لكي يلتقي بها.. وقد ترجم عن الألمانية مقال تلميذها المستشرق الألماني يوحنا كريستوف بيرجل عن حياتها وأعمالها، ويحكي بيرجل كيف بدأت علاقته بها، فيقول: تعرفت عليها في شتاء ١٩٥٦ في أنقرة، وكنت قد ذهبت إلى تركيا كطالب شاب بمنحة تبادل ثقافي، وكانت هي تدرّس هناك باللغة التركية - في كلية أصول الدين - تاريخ الأديان المقارن، والفن الإسلامي، فأصبحت أحد أفراد المجموعة التي تتلمذت على يديها، وكان بعض كبار المستشرقين الألمان ينظرون إليها في ذلك الوقت على أنها فتاة حاملة، مفتونة بالشرق الإسلامي، ولو كانوا قد استمعوا مثلي إلى محاضراتها وقرأوا إنتاجها الغزير باللغة التركية لكانت هذه الغطرسة قد تبددت على الفور، لكن كبار المستشرقين الألمان لم يكونوا على علم باللغة التركية، وعندما صدر كتابها: (مقدمة في تاريخ الأديان المقارن) وكتاب: (سيرة الصوفي ابن الخفيف الشيرازي) في عام ١٩٥٥ أثبتت بهما أنها عالمة كبيرة، وأعلنت حبها للإسلام وللتصوف الإسلامي، ودائماً كانت تقول: لا أستطيع أن أبحث في موضوع لا أحبه، فالحب عندي شرط أساسي للبحث العلمي في أى موضوع، وكل موضوع أحبه يثمر عملاً مكتوباً.

ويقول تلميذها بيرجل: كانت شيمل تحب القطط، وكنا نراها عندما نغادر الجامعة في تركيا بعد انتهاء المحاضرة تنحنى على الأرض لترفع إحدى القطط وتضمها إلى صدرها، وبعد سنوات نشرت كتاباً بعنوان: (القطّة الشرقية) صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٨٣ والثانية سنة ١٩٨٩..

وكان التشوق إلى الله يملأ قلبها، وهذا ما جعلها تتعلق بالشاعر الصوفي التركي جلال الدين الرومي مؤسس الطريقة المعروفة باسم (الدرأويش) في مدينة قونيا بتركيا، وفي هذه المدينة كانت تتجه إلى قبر جلال الدين الرومي، وقد تحول إلى متحف يسوده الهدوء وتقضى فيه أوقاتا طويلة خاشعة تتأمل. واهتمت أيضا بدراسة الإسلام في باكستان والهند، وركزت أبحاثها حول الإسلام في هذه المنطقة فترة استمرت ٢٥ عاما كانت خلالها أستاذة كرسى مادة (الإسلام في الهند) في جامعتي هارفارد وماشوستس. وظلت تقول طوال حياتها إنها شعرت في أمريكا بالغربة الغريبة، بينما وجدت الراحة في الشرق (موطن الروح والنور).

وهي حاصلة على عشرات الأوسمة والجوائز العلمية من مختلف أنحاء العالم.. من ألمانيا.. والولايات المتحدة.. وتركيا.. وإيران.. وباكستان.. ولقيت التكريم من الجامعات ومراكز الأبحاث ومن الدول أيضا.. ففي سنة ١٩٦٥ حصلت على وسام نجم القائد الأعظم أكبر وسام في باكستان، وفي سنة ١٩٨٣ منحتها الحكومة الباكستانية وسام هلال الامتياز، وفي سنة ١٩٨٩ حصلت على نوط الاستحقاق الكبير من الحكومة الألمانية، وفي سنة ١٩٩٣ حصلت على ميدالية جامعة تيينجن تقديرا لأعمالها التي تدعم الفهم الصحيح للأديان، وفي سنة ١٩٩٥ حصلت على جائزة السلام أكبر جائزة في ألمانيا. وحصلت على أكثر من عشرين شهادة دكتوراه فخرية. وفي سنة ١٩٨٢ أطلق اسمها على شارع في مدينة لاهور في باكستان. وفي سنة ٧٢ أصدرت مجلة (فكر وفن) الثقافية باللغتين العربية والألمانية، وأصبحت رئيسا للجمعية الدولية لعلم الأديان المقارن من سنة ١٩٨٠ حتى سنة ١٩٩٠، وكانت رئيسا للمنتدى الألماني- الباكستاني، ورئيسا لجمعية إقبال في أوروبا، وعضوا فخريا في الجمعية الألمانية الشرقية، والجمعية الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط، والجمعية الأوروبية للدراسات الإيرانية.. فهي أذن شخصية لها ثقل عالمي ومكانة علمية مما يجعلها بحق صوت الإسلام في العالم كله شرقا وغربا.



وفي حديث لها مع الدكتور ثابت عيد نشر في (مجلة أكتوبر) في عدد ١٠ مارس ١٩٩٦ أكدت أنا ماري شيميل استنكارها لسلوك الغرب تجاه الإسلام، ووجهت إنذارا شديد اللهجة إلى أعداء الإسلام، لأنهم على باطل، قالت فيه: إن الفكرة السائدة في الغرب بأن الإسلام يعادى المرأة فكرة خاطئة، بل إن في الغرب مفكرين يقولون: إن المرأة في الإسلام كائن بلا روح، ولكي نعرف كذب هذا الادعاء نعود إلى القرآن الكريم، وسوف نرى أنه يسوّى بين الذكر والأنثى، وبين المؤمنين والمؤمنات، ولم يفرق بينهما في مجال الفرائض الدينية، وإذا قيل: إن للمرأة نصف نصيب الرجل في الميراث فإن ذلك لسبب عملي، فالمرأة حين تتزوج تحصل على مهر مناسب، والزوج هو المسئول شرعا عن الإنفاق عليها، وهكذا تظهر العدالة في توزيع الأعباء والمسؤوليات وفي النهاية

سنجد أن المرأة هي الرابعة، كذلك ما يقال عن تعدد الزوجات في الإسلام، فالقرآن يعطى رخصة ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَتِلْكَ وَرِيعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء - ٣) نجد أولاً أن التعدد ليس واجبا أو فرضا ولكنه رخصة وهو مشروط بشرط العدل، ومجرد الخوف من عدم القدرة على تحقيق العدل يعنى عدم السماح بالتعدد. ومن الناحية العملية فإن وجود سيدات أرامل كثيرات في الحروب سبب يجعل التعدد لصالح المرأة ولحمايتها. ويجب أن نعلم أن الرجل في الجاهلية كان يحق له الزواج بعدد غير محدود من النساء، فجاء الإسلام وحدد العدد وجعل لهذا التعدد شرطا لازما وهو العدل، مما جعل بعض رجال الإصلاح في الفقه يقولون إن الزوجة الواحدة أفضل من الناحية الشرعية، لأن الرجل يصعب عليه أن يحقق العدل في مشاعره بين زوجاته.

أما عن عزل المرأة المسلمة وتحريم مشاركتها للرجال في المجالس، فتقول: إن ذلك ليس من الشريعة، ولكنه نتيجة تطورات اجتماعية وسياسية، ولن نجد آية في القرآن تفرض على المرأة الانعزال عن المجتمع، أو إبعادها عن أنشطة الحياة. وما حدث من فرض العزلة على المرأة جاء نتيجة أفكار لا وجود لها في القرآن، ونتيجة التفسير الشعبي الساذج للقرآن، والتفسير المتأثر بالأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية في مجتمع من المجتمعات الإسلامية، أو نتيجة جمود العادات وتأثير حضارات أخرى غير إسلامية على بعض مجتمعات المسلمين. ففي الهند مثلا، وتحت تأثير الهندوسية لم يكن مسموحا للأرملة المسلمة بأن تتزوج مرة أخرى، وهذه ليست من أحكام الإسلام ولكنها من التعاليم الهندوسية، ولذلك بدأ مسلمو الهند في محاربة مثل هذه التأثيرات الغريبة عن الإسلام. وهكذا يجب أن ننظر إلى كثير من الأمور من منظور اجتماعي وتاريخي.

وقالت: إننى أقول دائما للغربيين الذين يشوهون صورة الإسلام: إن الإسلام منح المرأة حق الاحتفاظ باسمها، وبما تملكه من مال قبل زواجها، وبما تكسبه بعد الزواج، وهذا يتضمن حق المرأة في أن تعمل وتكسب من أية مهنة أو تجارة، والمرأة في أوروبا لم تتوصل إلى حق الاحتفاظ بما تملكه من مال بعد زواجها إلا منذ فترة قريبة.

وتقول: إننى كمؤرخة للأديان أقف بإعجاب عند الآية ١٨٧ من سورة البقرة التى تحدد العلاقة بين الرجل والمرأة في إطار الزواج: ﴿هُنَّ لِيَكُنَّ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَكُنَّ لِهِنَّ﴾ واللباس يعنى الذات الأخرى، أو النفس الأخرى، وبذلك يكون معنى الآية أن الرجل والمرأة يكمل كل منهما الآخر، وأن كلا منهما هو النصف الأفضل للآخر، وأعتقد أنه يجب تسليط الضوء على هذه الآية عند الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام، لأن هذه الآية تؤكد المساواة بين الرجل والمرأة بما لا يدع مجالا للشك.





وتقول: إن ما يقال في الغرب من أن العقيدة الإسلامية عقيدة منحرفة، اتهام باطل وجهه مسيحيو القرون الوسطى إلى الإسلام. ومسيحيو القرون الوسطى اعتبروا الإسلام هرطقة مسيحية، بل إن بعض الأساطير في القرون الوسطى تقول: إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كاردينال مسيحي استاء لعدم اختياره باباً، فقام بالانفصال عن الكنيسة، وأسس لنفسه ديانة جديدة، وقد أثارت مثل هذه الكتابات الفزع من الإسلام ومن الرسول في نفوس المسيحيين العاديين في الغرب، لأنهم اعتقدوا أنه ليس من الممكن أن تظهر ديانة سماوية أخرى بعد المسيحية، وهذا الرأي ما زال شائعاً بين الكثير من الأوساط المسيحية حتى يومنا هذا. ومن المؤسف أن مثل هذه الأفكار الخاطئة تبقى إلى وقت طويل في ذاكرة الأفراد، وفي (الوعي الجماعي) و(اللا شعور الجماعي) في الغرب، ويمكن إحيائها في أي وقت.



### هل انتشر الإسلام بحد السيف؟.. وهل الإسلام دين عنف؟

تقول أنا ماري شيمل: هذا ادعاء شائع في الغرب، ويتجاهل القائلون به حقيقة ثابتة، هي أن جميع الديانات استخدمت الحديد والنار في حروبها الدينية، بما في ذلك المسيحية. والفتوحات الإسلامية تمت لأسباب ودوافع سياسية بحتة، ولم تحدث لنشر ديانة الإسلام. وعلى سبيل المثال فإن القائد الإسلامي الكبير تيمور (توفي سنة ١٤٠٥) دمر دولة المسلمين من الترك والفرس والعرب، ولم يفعل ذلك لنشر الإسلام، لأن الذين حاربهم كانوا مسلمين، ولكنه حارب لأسباب سياسية، من أجل تدعيم سلطته. ومثل هذه الأحداث، وخاصة فتوحات تيمور كان لها أثر كبير في أوروبا، وساهمت في تعميق وتثبيت فكرة العنف في الإسلام. مع أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف في شبه القارة الهندية، وماليزيا، والصين وغرب أفريقيا، بل انتشر عن طريق الصوفيين والتجار الذين قدموا العقيدة الإسلامية بطريقة بسيطة لهذه الشعوب.

وعلى العموم حديث الدكتورة أنا ماري شيمل طويل، وعميق، ومهم جداً، وأتمنى أن تهتم وزارة الأوقاف، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وجامعة الأزهر بالعودة إليه والاستفادة بما فيه من دفاع عن الإسلام على أساس عقلاني وعلمي ومستند إلى الوقائع التاريخية دون حماسة أو بلاغة خطابية، ولذلك فإن الحجج التي تسوقها تصل إلى العقل وتقطع الطريق على من يوجه اتهامات ظالمة إلى الإسلام.

وهي تقول في هذا الحديث: إن الكتابات الغربية في الفترة ما بين ١٥٢٩ و١٦٨٣ تدل على أن وصول جيوش الأتراك إلى قلب أوروبا وحصارهم فيينا عاصمة النمسا سبب صدمة شديدة للأوروبيين، ومنذ ذلك الوقت سعى الغربيون إلى إلصاق كل الصفات السلبية والقيحية بالمسلمين والأتراك،



وأحيانا يراودنى إحساس، وقد يكون هذا إحساسا شخصيا، بأن هذا الخوف الغريب من اقتحام الأتراك لفيينا ما زال مسيطرا على الألمان بطريقة لا شعورية، وأن ذلك يظهر بوضوح في سلوكهم تجاه العمال الأتراك في ألمانيا، وربما يكون الألمان أنفسهم لا يدركون هذه الحقيقة، ولكن هذا الحدث التاريخي المخيف بحصار فيينا ترك أثرا شديدا في أعماق الأوروبيين، وما زالوا يحتزنون ذكريات هذه الأيام ويتوارثونها حتى يومنا هذا، حتى بعد أن اختلفت الظروف.. وزال دواعي الخوف.. وهذا شيء مؤسف حقا، لأننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن الأتراك المسلمين كانوا بعد ذلك من أقرب أصدقاء ألمانيا، وكان لفظ (ألماني) يمثل بالنسبة للأتراك قيمة مهمة عزيزة عليهم، ولذلك يحزننى جدا أن أرى السلوك السلبي للألمان تجاه الأتراك، وكثيرا ما تحدثت مع عمال بسطاء منهم، فأجدهم في غاية التأثر والشعور بالإحباط من المعاملة غير الطيبة التي يلاقونها من الشعب الألماني وهو الشعب الذى يعتبر بالنسبة لهم الشعب المثالى.

وهل الإسلام دين الشهوات الحسية حتى إن وصف الجنة ذاته يجسد ذلك؟

تقول: إن هذا القول راجع إلى الترجمات الأوروبية فى القرون الوسطى لبعض آيات القرآن التى تصف الجنة على أنها حديقة كبيرة، مملوءة بالخور العين، وأصناف المتع الحسية، وقد صدمت هذه الأوصاف الأوساط المسيحية المتمسكة بالتبتل والتطهر والروحانيات، كذلك صدم هذه الأوساط أن نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - لم يكن عزباً مثل المسيح، ولكنه مارس حياة زوجية طبيعية، وكان المتدينون من المسيحيين فى القرون الوسطى يعتبرون هذه الأمور مما لا يليق بالإنسان الكامل، المؤمن، المحب لله. وساهم ذلك المفهوم فى نشر صورة الإسلام الشهوانى فى القرون الوسطى، وما زالت هذه الصورة موجودة حتى عصرنا الحالى، ومنذ نشر ألف ليلة وليلة فى أول ترجمة فرنسية بقلم جالان Gallan فى القرن الثامن عشر، التى ساهمت بما فيها من جو خيالى فى تأكيد صورة الإسلام الشهوانى فى الكتابات والفنون الغربية، وظهر ذلك فى الفنون التشكيلية فى القرن التاسع عشر وكيفية تصوير المرأة الشرقية والحريم وهكذا.. وهناك مراجع أوروبية كثيرة عن الشرق فى الفنون الغربية أبرزت المناظر الجنسية الشهوانية وهى من خيال الرسامين الذين لم يذهبوا إلى الشرق على الإطلاق، ولكنهم استغلوا الشرق لكى يرسموا ما لم يكن مسموحا لهم بأن يعبروا عنه فى رسومهم عن البيئة الغربية. وما دامت هذه الصور عن الشرق فهى مباحة، وقد أدى ذلك إلى زيادة تأكيد صورة المسلمين على أن الشهوات الحسية هى التى تستغرق تفكيرهم فى الدنيا والآخرة.

والإساءة إلى الإسلام كانت شائعة فى القرون الوسطى ويظهر ذلك فى الشعر الفرنسى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، كما يظهر فى الأدب الإنجليزى والاسكتلندى، حتى إنهم حرفوا اسم النبى (محمد) إلى Mahaund وهو اسم يتكون من مقطعين، والمقطع الثانى haund

يعنى (كلب)، وفي نصوص أخرى نجد أن اسم النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - تحول إلى اسم معناه الشيطان، وحتى في الأشعار الألمانية الرومانسية سنة ١٨٠١ نجد اسم محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد تحول إلى Mahom (ماحوم) وإشارات إلى أن المسلمين يعبدون أصناما ذهبية لمحمد - صلى الله عليه وسلم - .. وهكذا.. لا يوجد شيء سلبي لم يلصقه الغربيون بالإسلام، من القرن الثامن حتى القرن العاشر، وازدادت مع بداية الحروب الصليبية. وفي نوفمبر ١٩٩٥ تحدث الكتاب الغربيون بفخر عن ذكرى مرور ٩٠٠ سنة على انطلاق أول حملة صليبية، مما يدل على أن تلك الحقبة مازالت حية في عقول الغربيين!



### وهل الإسلام يحمل العداء للغرب ؟

تقول أنا ماري شيمل: إن هذا صحيح جزئيا، لأن المسلمين عانوا طويلا من الاستعمار الغربي في القرنين الماضيين، وقد أصاب المسلمين الفزع عندما جاء إليهم المبشرون الإنجليز وسعوا إلى تشكيكهم في عقيدتهم الإسلامية، وأشعروهم بأنهم بشر من الدرجة الثانية، ومن السهل أن نلمس الإحساس بالاستياء والكراهية تجاه الاستعمار، وتجاه التبشير المسيحي لدى المسلمين في الهند، وينطبق ذلك على بقية الشعوب الإسلامية أيضا. أما في العصر الحديث فإن الخوف لدى المسلمين من التكنولوجيا الحديثة والتصنيع وأسلوب الحياة الأمريكية، وهو استياء موجه إلى الجوانب السلبية في الحضارة الغربية، كما يراها المسلمون، مثل المبالغة في التحديث، والإباحية الجنسية، والمبالغة في فرض الفكر الغربي وأسلوب الحياة الغربية على المسلمين، كل ذلك يؤدي إلى ظهور أعراض الحساسية لديهم. ومع ذلك فإن من الخطر أن يمتد رفض المسلمين للمظاهر الخارجية السلبية للحضارة الغربية فيرفضوا أن يتعلموا من الغرب ما وصل إليه من مناهج البحث العلمي، والدقة العلمية، والتكنولوجيا الحديثة. وكثير من المصلحين الإسلاميين نبهوا إلى ذلك، مثل محمد إقبال في باكستان، وقالوا إن من الممكن أن يظل المسلم مسلما وفي الوقت نفسه يأخذ من الغرب العلوم الحديثة والتكنولوجيا، وهذا موقف إيجابي، أفضل من الموقف الذي لا يرى في الغرب سوى الجوانب السلبية فقط، وهذا هو ما يقود إلى الأحكام الخاطئة، والتصورات المشوهة عن الغرب، تماما مثل التصورات المشوهة عن الإسلام في الغرب.. فالمشكلة على الجانبين سببها الجهل..



### وكيف فهمت أنا ماري شيمل (الجهاد) في الإسلام ؟

تقول: إن الذين يتحدثون عن الجهاد في الإسلام على أنه الحرب المقدسة، يستخدمون اللفظ المسيحي المرتبط بالحروب الصليبية، وتعبير (الحرب المقدسة) ليس له علاقة بالإسلام، وترجمة الجهاد بهذا التعبير تضايقتني، ويحزنني أكثر أن بعض المسلمين أصبحوا هم أيضا يتحدثون عن

الحرب المقدسة، بينما الجهاد أصلا معناه بذل كل الطاقة، والتعب في سبيل تحقيق هدف معين. والجهاد في سبيل الله معناه الاجتهاد والعمل والجهاد لرضا الله، وقد يتضمن ذلك محاربة من يحاربون الإسلام والمسلمين.

وتقول: إن البعض يتحدث عن الإسلام وكأنه يوجد إسلام واحد، بينما الإسلام مثل المسيحية يشتمل على تيارات متباينة، وكما أن في المسيحية اختلافات بين الكنيسة الأرثوذكسية الروسية والكنائس الأمريكية الحرة، فإن هناك اختلافات بين المسلمين باختلاف ثقافتهم وإن كانوا جميعا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. فالأساس واحد، والفروع تتنوع بتنوع الشعوب والأجناس والثقافات..



وهي تقول أيضا: إن ما يقال في الغرب من أن الإسلام يعادى العلم ليس صحيحا، ولكنه ينطبق على العصور المتأخرة فقط، ما بعد سنة ١٢٥٨، بعد تدمير المغول لبغداد. وإسهامات العرب العلمية تُكذَّب هذا الادعاء، فالعرب هم الذين وضعوا أسس العلوم الطبيعية في أوروبا، من خلال ما نقلوه عن اليونان في العصور الوسطى من ناحية، وتطويرهم لهذه العلوم من ناحية أخرى. فما قدمه الرازي وابن سينا في علوم الطب من إنجازات كان يدرس في جامعات أوروبا حتى عصر النهضة، وخاصة المؤلفات الخاصة بطب العيون، وكذلك المؤلفات الخاصة بالرياضيات، وعلم الفلك.



ومن كتابات أنا ماري شيميل نلمس أنها فهمت الإسلام فهما صحيحا، وقدمته للغرب بموضوعية ونزاهة علمية يجب أن تكون محلا لتقدير العالم الإسلامي، لأنه لم يظهر بين المسلمين من خاطب الغرب خمسين عاما فيما يشبه الجهاد، أو التجنيد لتوضيح حقائق الإسلام كما فعلت هي. وهي تنفى عن الإسلام الاتهامات الظالمة المتراكمة في الغرب منذ قرون، وقدمت في أكثر من ٨٠ كتابا جهدا علميا خارقا لتوضيح حقيقة العقيدة الإسلامية، بدراساتها المتعمقة التحليلية المحايدة للقرآن، والفقه، والتاريخ الإسلامي، وتاريخ الأديان الأخرى، وبمعايشتها للإسلام في مواطنه في أنحاء العالم من تركيا وإيران إلى الهند وباكستان، وقد قرأت باللغة العربية التراث العظيم للعلوم والفلسفة والتصوف في الحضارة الإسلامية في مراحلها المختلفة، بما فيها من مراحل ازدهار، ومراحل انحطاط، ومن مراحل تقدم ومراحل تخلف، ووضعت يدها على الأسباب الحقيقية لتخلف المجتمعات الإسلامية بعد أن كانت للحضارة الإسلامية قيادة الحضارة العالمية.

تقول: إن الإسلام يقرر بوضوح حرية الإرادة للإنسان، ويقرر في نفس الوقت مسئولية كل إنسان في الدنيا والآخرة عن كل ما يفعل.. والله كرم الإنسان كما جاء في الآية (٧٠ من سورة

(الإسراء) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، وأعطاه الأمانة كما في سورة (الأحزاب الآية ٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾.

كما كانت تقول: إن إقبال كان نموذجاً للمفكر الإسلامي الذي استطاع مخاطبة الناس بسهولة بالشعر الذي يسهل حفظه لدعوة المسلمين إلى العمل بدلاً من مفهوم التوكل على أنه الاستسلام للكسل. كان إقبال يدعو إلى إسلام ديناميكي، إسلام يكلف الله فيه الإنسان بأن يعمر الأرض، ويأخذ بالعقل والتكنولوجيا ومعهما الإيمان، فالعلم والعمل والإيمان ثلاثية تمثل حقيقة الإسلام، وبتفاعلها معا يتقدم المجتمع الإسلامي نحو المستقبل.

وكانت تقول: إن الحب يجعلني أرى بألم بالغ خطايا المحبوب، ونحن الذين قضينا حياتنا في دراسة عالم الإسلام شديد التنوع، نحاول تقديم جوانبه الإيجابية إلى جمهور لا يكاد يعرف شيئاً عن الإسلام وعالمه. ونحن نشعر بالصدمة عندما نرى التطورات التي حدثت في العقود الأخيرة من القرن العشرين في بعض أجزاء العالم الإسلامي، فإذا كانت التحية في الإسلام هي (السلام) فإننا نرى ظهور اتجاه مخيف إلى التشدد والتضييق في المواقف العقائدية والتشريعية في الوقت الحاضر، وكان الاعتقاد في البداية أن هذا الاتجاه لمقاومة التأثير الغربي المتزايد على العالم الإسلامي، ومن أجل تخليص الإسلام من التأثير بعوامل أجنبية، لكن المسألة لا تبدو كذلك، فإن الذين يجب عليهم اتباع الطريق الذي رسمه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - لا يفعلون ذلك، ولا يتبعون تعاليمه اتباعاً صحيحاً، فنحن نواجه تعبيراً عن سياسة القوة، وأيديولوجيات تتخذ الإسلام شعاراً لها، بالرغم من أنها تنطوي على أفكار ودعوات ليس لها أساس صحيح في الإسلام، وفي أصول العقيدة الإسلامية. فأنني - مع طول دراستي للإسلام - لم أجد في القرآن، أو في الحديث، أية دعوة إلى الإرهاب، أو احتجاز الرهائن، ولم أجد ما يشير ولو إشارة إلى مجرد السماح أو القبول بمثل هذه الأفعال، ووجدت دائماً تجسيدا للقاعدة الذهبية التي تقول: (عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به) ووجدت أن هذه القاعدة الذهبية ركن مهم في علم الأخلاق الإسلامي، فليس هناك إنسان عاقل يمكن أن يؤيد أعمال الإرهاب، في أي مكان على الأرض، وأياً كانت عقيدة مرتكبيها، وسوف نكون - نحن المستشرقين - أكثر الناس سعادة حين تلغى أحكام الإعدام، وتلغى أيضاً أحكام السجن على أصحاب الآراء المخالفة والناقدة، ولكن يبدو أن كثيرين من الأصوليين المتطرفين ينسون أن القرآن نَبّه إلى أنه (لا إكراه في الدين) في سورة البقرة (آية ٢٥٦) وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - حذر من الحكم بالكفر على أحد من الناس. وشدد في التحذير من أن يُكفر الناس بعضهم بعضاً.. ويحاول الأصوليون المتطرفون أن يجذبوا أنصاراً لهم من بين الشباب الحائر الذي يعاني من البطالة، وأن يعملوا على تعبئة مشاعرهم ببعض الشعارات والتعبيرات، بعضها كلمات حق يراد بها باطل وأكثرها ليس من الإسلام أصلاً. والإسلام بذلك يتعرض لإساءة استخدامه لتحقيق أهداف سياسية تختلف عن الأهداف الحقيقية

للإسلام الصحيح.. هؤلاء الأصوليون المتطرفون يقدمون الإسلام في صورة كاريكاتورية كما قال الطاهر بن جلون، ويساندون مذهباً سياسياً لم يسبق أن كان له وجود من قبل في العالم العربي الإسلامي.



على الجانب الآخر تنبيه أنا ماري شيميل إلى أن صورة الغرب أيضاً مشوهة في الإعلام في معظم البلاد الإسلامية، ولذلك فإن التفاهم من الجانبين، وتوضيح الأمور من أهم الواجبات الآن. وتقول إن الغريب أن معرفة المسلمين أنفسهم بتاريخهم محدودة، وما حققوه من منجزات في مناطق عديدة من العالم الإسلامي مجهولة بالنسبة لهم، والمتعلمون الليبراليون أيضاً معرفتهم محدودة بما تحقق في أنحاء مختلفة من العالم على يد المسلمين، ولذلك فإنهم يحتاجون إلى من يذكرهم بأسلوب هادئ بالتقاليد العظيمة لحضارتهم التي يبدو أنها أصبحت حضارة منسية حتى بالنسبة للمسلمين.. هذه الحضارة العظيمة تم تجميدها وإبعادها عن التطور عدة قرون، مع أن هذه الحضارة الإسلامية إذا تحققت لها البعث بثورة صحيحة، وإذا آمن أصحابها بأنها قابلة لمسيرة تطورات العصر، فإنها ستكون هي الطريق إلى مستقبل جديد للعالم الإسلامي.

وتقول: إن المسلمين يحتاجون إلى الأسلوب الهادئ لتصحيح المفاهيم المشوهة، ولا يحتاجون إلى القسوة التي قد تثير فيهم ردود فعل سلبية، وقد تذكرهم (بالاستعمار الثقافي).

وتقول لتأكيد احترام المسلمين للمرأة: لقد دعتني كلية الشريعة بجامعة أنقرة لشغل كرسي الأستاذية لتاريخ الأديان فيها، ولتدريس تاريخ الكنيسة، وتاريخ العقائد، وكنت في ذلك الوقت سيدة شابة غير مسلمة، في حين لم يكن في أية جامعة ألمانية كرسي أستاذية تشغله سيدة، ونحن - في الغرب - ننسى الأهمية التي يؤليها القرآن لكل من المسيح (روح الله)، وأمه العذراء، والمسلمون يحملون لهما الاحترام والتبجيل.

والإسلام - كما تقول - دين السلام. والسلام هو عملية النمو الحيوي التي يجب أن يؤمن بها كل إنسان، ولذلك نجد أن (الجهاد) عند المتصوفين المسلمين هو جهاد النفس وتطهيرها من صفاتها السيئة. وجهاد النفس هو الطريق للوصول إلى الله، فإذا نجح إنسان في الوصول إلى (السلام) داخل نفسه، فإنه يصبح قادراً على تحقيق السلام في العالم.



وتقول أنا ماري شيميل: ربما يرى البعض أن الصورة التي أرسمها للإسلام صورة مثالية بعيدة عن الواقعية السياسية، غير أنني تعلمت، وأنا باحثة في الأديان أن المقارنة ينبغي أن تكون بين النظائر، أي بين المثالية والمثالية، ولا تكون المقارنة مع الصورة المشوهة الناشئة عن الضعف البشري والانحراف. وأن معرفتي للإسلام مستمدة من البحث عشرات السنين في الآداب والفنون الإسلامية،

ومن معاشرة الأصدقاء المسلمين من طبقات الشعب في جميع أنحاء العالم الذين استقبلوني في بيوتهم بود بالغ، وسأعدوني على معرفة حضارتهم معرفة دقيقة، وإذا أردتم نموذجاً للتسامح الإسلامي فتذكروا السيدة التركية (مولودة جنتش) التي تعيش في (مولينجن) بألمانيا، فقد أعلنت عفوها عن قتل أسرتها، هذا العفو هو روح الإسلام. وإن تقبل الطرف الآخر هو الأساس لكل حوار، وينطبق ذلك على علاقة الغرب بالعالم الإسلامي، خاصة أن الإسلام أصبح يصور على أنه العدو الجديد للغرب - نظرية صمويل هنتنجتون - بعد انتهاء المواجهة بين الكتلتين الغربية والشرقية، وإنني على يقين بأن الشعوب يمكنها أن تتجاوز على أساس احترام كل طرف للطرف الآخر دون أن يعني ذلك ضرورة إزالة الخلافات بينهما، بل السعى إلى تجاوز هذه الخلافات هو الأهم.

وأجمل ما قالته أنا ماري شيميل: إن وسيلتها للحديث عن الإسلام ليست بإصدار البيانات، أو بالظهور المسرحي، ولكنها تؤمن بأن المياه التي تسير سيرا هادئاً وباستمرار قادرة مع الزمن على أن تذيب الحجر الصلب.

وكانت تحب أن تكرر أبياتاً من شعر إقبال تقول: لله الشرق، ولله الغرب، والشمال والجنوب. السلام في راحتيه.. وهو الوحيد العادل.. ويريد العدل للجميع.. فلتبارك من أسمائه الحسنى اسم السلام.



كانت أنا ماري شيميل مهتمة بالدفاع عن التصوف الإسلامي المعتدل، ولها دراسات ومحاضرات كثيرة للتعريف بالتصوف، والصوفية، وقد ترجم الأستاذ ثابت عيد مقالاً لها عن التصوف نشرته في مجلة du السويسرية في صيف عام ١٩٩٤.

وقال ثابت عيد في تعليقه على المقال: إن شيميل تختلف في معالجتها للإسلام عامة، وللتصوف خاصة، عن الغالبية العظمى من المستشرقين، لأن ما يربطها بالإسلام صلة حب، أما الغالبية العظمى من المستشرقين فيربطهم بالإسلام علاقة عنصرية استعمارية. والحب نور يكشف المحاسن والإيجابيات، بينما العنصرية لا تبحث إلا عن العيوب والمساوئ، ولا ترى - بل لا تريد أن ترى - المحاسن والإيجابيات.

وأشهر من تخصص في دراسة التصوف الإسلامي من المستشرقين هم: السويسري فريتز ماير، والفرنسيان هنري كوريان، ولويس ماسينيون، والبريطاني نيكلسون. ولم تكن رؤيتهم للتصوف الإسلامي موضوعية، حتى إن هنري كوريان رأى أن التصوف الإسلامي ليس سوى عودة إلى عقيدة التثليث المسيحية، ورأى ماسينيون أن التصوف الإسلامي نتاج الفلسفات الفارسية ولم يكن نتاج العقلية العربية. أما أنا شيميل فترى أن التصوف الإسلامي نابع من روح إسلامية، ومن البيئة

العربية الإسلامية التي تفاعلت مع حضارات وثقافات الشرق والغرب دون استعلاء أو نفور. وخلاصة الصوفية، أنها الغناء في الله. والغريبيون يصورون المتصوفين المسلمين في صور غريبة، فيصورون الصوفي مرة في صورة فقير يأتي بكرامات عجيبة، أو درويش جوال، أو أشعث أغبر كما في ألف ليلة، أو في صورة مجذوب يدور حول نفسه ويطوح رأسه وذراعيه. بينما التصوف الحقيقي حركة روحية ظهرت في أرض إسلامية، واشتق الاسم من رداء الصوف المتواضع الذي كان يرتديه الصوفي علامة على الزهد في زخرفة الدنيا، والبعد عن المباهاة بالمظهر، والتمسك بجوهر: المبادئ الأخلاقية التي جاءت في القرآن والأحاديث، والاستعداد في كل لحظة للقاء الله والحساب على كل ما فعلوه في دنياهم. والقرآن هو عالمهم الخاص الذي يعيشون فيه ويستلهمون منه معتقداتهم، وكانت رابعة العدوية (المتوفية سنة ٨٠١م) هي التي أدخلت فكرة الحب الإلهي الطاهر في الفكر الصوفي، وأرست مبدأ الصلة بالله على أساس الحب وليس أملا في ثوابه أو خوفا من عقابه، وصار الحب بعدها من أساسيات الفكر الصوفي. وصارت المجاهدة الدائمة للنفس الأمارة بالسوء هي الجهاد الأكبر، والوسيلة لذلك ذكر الله دائما وفي كل حين. وشيخ الطريقة الصوفية هو المرشد الروحي، والخلو هي الوسيلة لصفاء النفس وتخلصها من الأفكار الشريرة، وقد لعبت الطرق الصوفية دورا هاما في نشر الإسلام في مناطق عديدة مثل الهند وأفريقيا، حيث كان الصوفية يدعون إلى المبادئ البسيطة للإسلام وإلى حب الله ورسوله دون التطرق إلى مسائل دينية معقدة أو الخوض في مشاكل فقهية دقيقة. ومع انتشار الإسلام دخل فيه أهل ثقافات متعددة تأثروا بالإسلام وأثروا في الفكر الإسلامي وفي التصوف، وبذلك ظهر النظام الهرمي المعقد للجماعات الصوفية، وظهر تقديس الأولياء والتعلق بالأضرحة وغير ذلك من عادات غير إسلامية وافدة من ثقافات أخرى. وظهر بعد ذلك صوفية الحب، كما ظهرت فكرة المعراج الصوفي أو الطريق إلى الصفاء.

واهتمت أنا ماري شميل بدراسة شخصيات المتصوفة الكبار أمثال رابعة العدوية، والحلاج شهيد الحب الإلهي، وابن عربي صاحب نظرية وحدة الوجود التي أثرت في حركة التصوف في الغرب، وسنائي الغزنوي، وفريد الدين العطار، وجلال الدين الرومي. كما اهتمت بدراسة أثر الفكر الصوفي في الثقافة الإسلامية وخاصة في تركيا، والهند، وإيران، وعلى رغم ما لحق بالتصوف من بدع ومنكرات إلا أن التصوف الحقيقي النقي - في رأي أنا ماري شميل - أسهم في تعميق الرسالة الأساسية للإسلام وهي عبادة الله الواحد الأحد. أسهم منشدو الصوفية في تطوير اللغات الشعبية في أندونيسيا وغرب أفريقيا، وغرسوا قواعد السلوك والأخلاق الإسلامية الصحيحة في مناطق واسعة.

وقد تركت المستشرقة العظيمة عشرات الكتب والأبحاث، كما تركت مئات من تلاميذها في ألمانيا وغيرها من الدول التي كانت تحاضر في جامعاتها. وقامت بما لم تقم به المؤسسات

الإسلامية للدفاع عن الإسلام وإظهار ما فيه من قيم أخلاقية وإنسانية وروحية تجعله جديرا باحترام الغرب.



هذه هي المستشرقة العظيمة التي عرفت الإسلام حق المعرفة، وتفرغت لدراسته أكثر من ستين عاما، وعبرت عن احترامها للعقيدة والمبادئ الإسلامية، وعن حبها للمسلمين، واستطاعت التفرقة بين المسلمين والجماعة محدودة العدد من المتطرفين والإرهابيين الذين لا يعبرون عن حقيقة الإسلام.. وهي بحق - كما قيل عنها - دائرة معارف، عاشقة لعلمها، ويصعب إحصاء مؤلفاتها باللغات الألمانية، والإنجليزية، والتركية..

وبعد لقاءات متعددة معها وأحاديث طويلة وصريحة أحسست أن روحها تحلق مع القيم السامية للإسلام، ولمست أن روح التصوف تمكنت منها فأصبحت هي أيضا من كبار المتصوفة، بعد أن تعمقت في دراسة التصوف الإسلامي في مختلف البلاد والعصور الإسلامية، وعاشت الحلاج، وابن عربي، ورابعة العدوية، وإقبال، وجلال الدين الرومي، والمثنوي، وغيرهم، وغيرهم، حتى أصبح التصوف رسالتها في الحياة. ورأت أنه ركن أساسي في التدين الإسلامي لأنه الحب بمعناه الواسع.. حب الله.. وحب الناس.. وحب الطبيعة.. وحب الأشياء.. وحب الحيوان.. وحب كل ما خلق الله.. فكل ما في الكون تجليات القدرة الإلهية.. وعبرت عن ذلك بقولها: إن التصوف هو لب الدين الإسلامي وهو إطار الإسلام كذلك.

وحين سئلت: إذا كنت تحبين الإسلام كل هذا الحب فلماذا لم تعتنقي الإسلام؟ أجابت: هذا سؤال محرج، لا أعرف كيف أجيب عنه.

وحين سئلت: إنن فما ديانتك؟ قالت: الله أعلم!

إننى شخصا أقرأ الفاتحة على روحها كثيرا وأدعو لها جزاء ما قدمت للإسلام.



# أساطير وأوهام الخطر الإسلامى

المستشرق البريطانى البروفيسور فريد هاليدى له مؤلفات عديدة عن الإسلام تتميز بالتحليل العلمى للموجة العدائية للإسلام السائدة فى بريطانيا والتي يسميها الباحثون البريطانيون (إسلاموفوبيا) أى مرض الخوف من الإسلام.

والبروفيسور هاليدى أستاذ فى جامعة لندن، وهو الذى تصدى لتفنيد نظرية صراع الحضارات التى ظهرت وانتشرت فى الولايات المتحدة، وهى النظرية القائمة على حتمية الصراع بين الغرب والإسلام، ويعتبر هاليدى هذه النظرية خرافة ولا تستند إلى أساس علمى أو تحليل واقعى، وهو يرفض أيضاً الفكرة السائدة لدى كثير من مفكرى الغرب القائلة بأن شعوب الشرق الأوسط وطريقة تفكيرها تمثل حالة خاصة وأنها شعوب تختلف اختلافاً جوهرياً عن بقية شعوب العالم.

وهو أيضاً يرفض الفكرة السائدة بأن هناك نظاماً عالمياً جديداً ظهر بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وتنفرد بقيادته الولايات المتحدة، ويرى أنه من الصعب الحديث عن وجود نظام عالمى جديد حتى الآن، وليس هناك ما يؤيد ذلك سوى إعلان الرئيس الأمريكى السابق جورج بوش الأب عن ظهور هذا النظام العالمى الجديد. والحديث عن هذا النظام العالمى وعن قيادة الولايات المتحدة للعالم لا ينطلق إلا من الولايات المتحدة نفسها، ويتردد فى دول العالم الثالث التى خضعت لهذه الأسطورة، وهى مجرد أسطورة لأنها تبالغ فى تقدير القوة السياسية والثقافية الأمريكية وقدرتها على الهيمنة على العالم. وكل ما يحدث منذ انتهاء الحرب الباردة أن طغى الخطاب عن الإسلام كخطر وعدو جديد للغرب، وهذا ما طرحه الباحث الأمريكى صمويل هنتنجتون، وردده الخمينى فى إيران، بينما هذا الصدام المزعوم بين الغرب والإسلام لا أساس له، ومعظم الحروب والنزاعات لم ولن تنشأ بين الحضارات وإنما تنشأ حين تتعارض المصالح والأطماع، كما حدث فى الحرب بين إيران والعراق، والبلدان مسلمان وينتميان إلى حضارة واحدة، وقبل ذلك قامت الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية بين دول تنتمى إلى الحضارة الغربية (ألمانيا

وفرنسا وبريطانيا). كذلك فإن التناقض الذي نشهده في العالم اليوم قائم بين الصين واليابان وهما ينتميان إلى حضارة واحدة.



### فلماذا إذن ظهرت نظرية الصدام بين الغرب والإسلام؟

يرى هاليداي أن هناك أكثر من سبب؛ السبب الأول أن الحكومات والقادة السياسيين يروجون لهذه النظرية لإخفاء الدوافع الحقيقية للصدام، وهي في الأساس دوافع اقتصادية واستراتيجية، وإلا فكيف تُفسّر التخوف في بريطانيا من نفوذ السوق الأوروبية المشتركة ومن خطر الثقافة الأمريكية، وكيف تُفسّر تخوف أوروبا من الهجرة من العالم الثالث؟ والسبب الثاني: هو الخوف في الغرب من التعددية الثقافية داخل البلد الواحد، هذا الخوف ظاهر في الولايات المتحدة كما عبّر عنه صمويل هنتنجتون الذي حذر من خطر تعدد الديانات واللغات والثقافات في المجتمع الأمريكي ولهذا فهو مجتمع غير متجانس، ودعا إلى بناء وحدة ثقافية في المجتمع الأمريكي لصهر كل من يعيش فيه في بوتقة واحدة تجعل الجميع أمريكيين، ولاؤهم وانتماؤهم لأمريكا وحدها، وثقافتهم هي الثقافة الأمريكية. وهكذا نرى أن الأزمة ليست بين الحضارات وإنما هي أزمة داخل المجتمع الأمريكي، وهو مجتمع له طبيعة خاصة، لأنه مكون من مجموعات من المهاجرين من حضارات متعددة ولهم ديانات ولغات وثقافات وعادات وقيم مختلفة مما يهدد وحدة المجتمع الأمريكي في رأى هنتنجتون في كتابه (من نحن؟).

ويشير هاليداي إلى موقف بعض المفكرين الغربيين من الإسلام، ويضرب مثالا بالمفكر الألماني (جيرهارد لبراند) الذي جعل محور كتاباته التأكيد على ضرورة احتواء الحركة الإسلامية وتوجيهها لتحقيق مصالح أوروبا. ثم راجت أفكار تدعى أن الإسلام دين يعادى كل جديد، ويرفض التحديث والتقدم العلمي والحضارى ولا يتقبل الديمقراطية، ويتناقض مع قيم الحضارة الحديثة عموماً. ويستدل جيرهارد لبراند على ذلك بتصادم الحركات الأصولية المتشددة في عدد من الدول الإسلامية، ويرد هاليداي على هذه الأفكار بأن السبب الرئيسى لتصادم الحركات الأصولية المتشددة في العالم الإسلامى يرجع إلى الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تعاني منها هذه الدول لأنها دول نامية وليس لأنها دول إسلامية، خاصة أن حكوماتها لم تنجح فى حل هذه المشكلات.. فالشاه فى إيران مثلاً لم ينجح فى حل المشكلات التى كان يعاني منها الشعب الإيرانى. ويعتبر هاليداي أن نظام عبد الناصر فى مصر لم يستطع أيضاً حل مشكلات المجتمع المصرى. وهذا هو ما حدث فى أندونيسيا، والجزائر، وباكستان وغيرها من البلاد الإسلامية. ومن هنا ظهرت الأصولية كحركة سياسية اجتماعية تستغل إخفاق التجربة الوطنية العلمانية وتدعو إلى حلول أخرى، ولكن

هذا التيار الأصولى - كما يقول - لا يملك هذه الحلول، ولكنه يملك فقط خطاب الإغواء والإثارة. بينما يتنكر هذا التيار للديمقراطية والتحديث ويرفض الثقافة الغربية عموماً. وهذا ما جعل بعض المفكرين الغربيين يروجون لفكرة وجود قطيعة بين الإسلام من ناحية وبين الديمقراطية والتحديث والغرب عموماً من ناحية أخرى، وهذا غير صحيح، ومن يدرس الإسلام يجد أنه لا يوجد تناقض بينه وبين الديمقراطية والتحديث وحقوق الإنسان وإنصاف المرأة، وإن كانت بعض الحركات الإسلامية تظهر الرفض لهذه المبادئ إلا أن هؤلاء لا يمثلون الإسلام والمسلمين جميعاً.

أما موقف هاليدى من المستشرقين فإنه يلخصه بقوله إن هناك جانبين أولهما دور إيجابى، والثانى دور سلبى، والسبب فى ذلك أن كل عمل أكاديمى تاريخى أو ثقافى يرتبط بقوى سياسية واقتصادية معينة، وليس هناك عمل أكاديمى منفصل عن الأهداف السياسية، وبعض المستشرقين ارتبطوا بالقوى والأهداف السياسية لبلادهم، وعملوا مستشارين لحكومات أو لمخابرات أو لقوى اقتصادية وسياسية، وهناك مستشرقون يعملون لخدمة الاستعمار، ولكن يجب ألا نغفل وجود مستشرقين آخرين يقفون إلى جانب شعوب العالم الثالث. والمثال لذلك المستشرق الفرنسى ماكسيم رودنسون الذى دافع عن حقوق الشعب الفلسطينى، وعن النضال العربى للتحرر من الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ومن الاستعمار عموماً. كذلك كان المستشرق الفرنسى جاك بيرك، وغيرهما من المستشرقين الذين ربطوا بين عملهم الأكاديمى وتضامنهم مع حقوق الشعوب الإسلامية. وتستحق آراء هاليدى أن تعرض لها بشيء من التفصيل.

### خطر الإسلام أم خطر على الإسلام؟

يرى فريد هاليدى أن نظرية التهديد الإسلامى - التى انتشرت فى الغرب منذ السبعينات من القرن العشرين، وازداد انتشارها بعد قيام الثورة الإيرانية فى عام ١٩٧٨ و١٩٧٩، حتى أصبحت قضية تحدى الإسلام للغرب هى القضية التى تشغل السياسيين والقادة والمفكرين فى دول الغرب - ليست سوى خرافة. والغريب أن عدداً من القادة المسلمين شاركوا فى تأكيد هذه الخرافة. ونتيجة لتعمق هذه النظرية فى المجتمعات الغربية نشأ شعور بمعاداة الإسلام واتجاه إلى العدوان على المسلمين.

ويعلم هاليدى بوضوح فى كتابه (الإسلام والغرب: خرافة المواجهة) أن القول بأن الإسلام يمثل تهديداً للغرب هو قول مضلل ولا أساس له. وفى الحديث عن الإسلام فى الغرب هناك خلط بين المبادئ والمعتقدات والعقيدة الإسلامية وبين ما تطرحه جماعات الإسلام السياسى والجماعات المتعصبة من فتاوى وأفكار. صحيح أن الجميع مسلمون، ولكن الجميع ليسوا فى هذه الجماعات أو تلك، كذلك ليس كل المسلمين فى إيران التى تعتنق أفكاراً خاصة ولها أهداف سياسية وتسعى إلى

تصدير الثورة، مؤيدين للجماعات التي تختطف الرهائن أو تقتل الأجانب. ومع ذلك لا يمكن إنكار المخاوف التي تشعر بها أوروبا نتيجة لوجود تيار إسلامي متشدد على الجانب الآخر من البحر المتوسط، وامتداد أفكار وتوجهات هذا التيار إلى داخل الدول الأوروبية.. خاصة أن في أوروبا ستة ملايين مسلم مهاجرين من دول إسلامية وبعضهم يحملون معهم مشاعر عداوية متأثرة بالأزمات التي تعاني منها بلادهم.

وتستند خرافة التهديد الإسلامي للغرب على ثلاثة أسباب أخرى؛ السبب الأول هو التاريخ القديم للصراع بين الغرب المسيحي والعالم الإسلامي منذ أكثر من ألف سنة، فمن غزوات إيبيريا في القرن السابع إلى الحملات الصليبية التي بدأت في القرن الحادي عشر، ثم إلى الحروب والصراعات مع الإمبراطورية العثمانية التي استمرت من القرن الخامس عشر حتى انهيار هذه الإمبراطورية في سنة ١٩١٨، وهذا التاريخ مقل في العقل الغربي بذكريات غزو المسلمين لأسبانيا وتحويلها إلى دولة إسلامية وإقامة حضارة إسلامية فيها إلى أن تم استعادتها وتحويلها من (الأندلس) إلى (أسبانيا) في عام ١٤٩٢. وحتى اليوم ما زالت آثار الوجود الإسلامي في الدول السلافية. ويضاف إلى ذلك انتشار الأفكار المعادية للأتراك وللإسلام.. وباختصار فإن رأى هاليداي أن في الغرب حالة يسميها (القلق التاريخي) من الإسلام.

**السبب الثاني** لدعم خرافة الخطر الإسلامي أن الغرب بعد انتهاء الحرب الباردة، ظهرت فكرة ضرورة وجود عدو جديد للغرب وتم اختيار العالم الإسلامي ليكون هو العدو وذلك بتأثير المصالح من ناحية، وذكريات الصراع القديم من ناحية أخرى، حتى إن بعض التحليلات فسّرت غزو الولايات المتحدة للعراق بأن الغرب ذهب للقضاء على صدام حسين باعتباره العدو الجديد بديلا عن الاتحاد السوفيتي العدو السابق.

**والسبب الثالث** لانتشار خرافة التهديد الإسلامي للغرب هو تزايد الهجرة من البلاد الإسلامية إلى دول الغرب، وتخوف الغرب من انتشار الثقافة الإسلامية مع ازدياد أعداد المسلمين، مما يهدد طبيعة هذه المجتمعات باعتبارها مجتمعات مسيحية وثقافتها تستمد جذورها من الثقافة اليهودية المسيحية.



وخرافة التهديد الإسلامي للغرب- في رأى هاليداي- تخدم مصالح الذين يمتلكون القوة في الغرب وهم مسيحيون، رأسماليون، أغنياء، امبرياليون، وهم وإن كانوا يوجهون إلى شعوبهم إنذارا من خطر الإسلام فهو في الحقيقة إنذار كاذب، لا يختلف عن الادعاء السابق بأن الاتحاد السوفيتي كان يمثل قوة عسكرية تهدد الغرب وتبين بعد ذلك أن هذا الادعاء لم يكن صحيحا وأن

الغرب هو الأقوى عسكرياً وهو الذي هدد وفكك الاتحاد السوفيتي. ومثل الادعاء بأن العراق يمثل قوة عسكرية مسلحة بأسلحة الدمار الشامل ويمثل تهديدا للغرب وتبين بعد ذلك كذب هذا الادعاء، وكذلك ما قيل من أن الترابي في السودان يمثل خطراً يهدد أمن الدول الغربية ولم يظهر شيء يؤكد هذا الادعاء، وكل ذلك ليس سوى ادعاءات، ودعايات، لتأكيد الفكرة بأن الإسلام هو العدو.



والحرب على الإسلام تشمل اتهامه برفض أحكام القانون، وعدم الاعتراف بحقوق المرأة ووضعها في مكانة مهينة بالنسبة للرجل، وعدم المساواة بين المسلمين وغير المسلمين، ومعاداة الغرب، بل إن هذه الاتهامات تشمل اتهام الإسلام- والمسلمين- باعتبار الصراع مع الغرب واجبا دينيا، وتشمل أخيراً الادعاء بأن الجهاد في الإسلام هو محاربة غير المسلمين في العالم كله.

هذه الاتهامات- كما يقول هاليداي- ليست سوى تعبير عن الدعايات السياسية التي يروج لها بعض المفكرين والصحفيين في الغرب لنشر العداء للإسلام وتبرير العدوان على بلادهم. وهذا ما جعل الاستعمار الغربي في شمال أفريقيا يتحدث عن أهل هذه البلاد باعتبارهم مسلمين وكان ذلك هو المبرر لاحتلال أوطانهم. وهذا ما جعل التشدد الديني يظهر في العالم الإسلامي، فما دام هذا العدوان علينا لأننا مسلمون، فإننا نتمسك بأننا مسلمون، ونخوض حرب التحرير بهذه الصفة. وهكذا كان الغرب هو الذي اخترع تعريف المسلمين على أنهم فئة ثقافية وعرقية مختلفة عن الغرب، وأن الصراع بينها وبين الغرب هو صراع دائم. وقد لجأت الدعاية السياسية الغربية إلى تقديم الخميني وثورته في إيران في صورة مكروهة، وادعت بعد ذلك أن هذا هو التجسيد والنموذج للإسلام والدولة الإسلامية، وقد ساعد الخميني نفسه على تأكيد هذه الصورة بدعوته للجهاد ضد أمريكا واعتبارها الشيطان الأكبر، والتحريض على الجهاد ضد الغرب.

ويقول هاليداي: إذا كانت هناك أكاذيب وخرافات حول الإسلام، فهي خرافات يتم اختراعها ونشرها ليس فقط في أوروبا وأمريكا، ولكن يتم اختراعها ونشرها أيضاً في العالم الإسلامي ذاته، ولذلك فإن استعادة الصورة الصحيحة عن الإسلام يجب ألا تكون بمطالبة الغرب وحده بذلك، بل يجب مطالبة المسلمين بذلك أيضاً.

وينبه هاليداي إلى عدم الاستهانة بالخرافات التي تسمى إلى الإسلام، على أساس أنها خرافات وسوف تنحسر تلقائياً وتظهر الحقيقة، لأن الخرافات بعد أن تنتشر تكتسب مع الزمن قوة خاصة بها، ولا يتم القضاء عليها بسهولة، والمثال على ذلك الخرافة الشائعة في

الغرب بأن الإسلام يتضمن دعوة المؤمنين به لممارسة الإرهاب، ومعلوم للدارسين للإسلام أنه لا توجد علاقة بين الدين الإسلامى والإرهاب، وعندما ظهر الإرهاب بمعناه المعاصر فى القرن التاسع عشر لم يكن المسلمون هم الذين روجوا له، وفيما بعد نشأ الإرهاب فى أيرلندا الشمالية، وسريلانكا، وغيرهما من المجتمعات التى لا تدين بالإسلام. وإذا كان المقصود بالإرهاب هو النزعة للتعصب، وقمع المجموعات العرقية والدينية الأخرى، فسوف نجد فى تاريخ المجتمعات الإسلامية جرائم من هذا النوع، إلا أن المجتمعات الإسلامية ليست الوحيدة التى ظهرت فيها هذه الجرائم، فالمجتمعات الإسلامية لم تمارس التعذيب والإبادة العرقية لليهود ولكن حدث ذلك فى الغرب فقط وفى ألمانيا النازية بالذات، كما حدث نفى اليهود الشرقيين من أسبانيا، واليوم نجد أن الشعوب المسلمة هى ضحايا القمع والرعب من الغرب، ولا يستطيع أحد أن يدعى أن الشعوب الإسلامية التى تناضل من أجل تحرير أرضها ومن أجل الاستقلال هى المسؤولة عن الإرهاب. فهناك فرق بين الارهابيين والمقاتلين من أجل الحرية.



يكرر هاليداي فى كتاباته أن نظرية التهديد الإسلامى هى ذاتها من الأوهام السائدة فى الغرب، ويرفض التركيز على أحداث نشأ فيها الصراع بين العالم الإسلامى وبين العالم الغربى عبر التاريخ. والادعاء بأن ذلك كان بسبب عقيدة الإسلام العدوانية ويقول: إن ذلك أيضا هراء وتضليل، والاعتقاد بأن العالم الإسلامى فى عموميه يهدد الغرب اعتقاد سخيف، فقد زال التهديد العسكرى الذى كانت تمثله القوات الإسلامية الموحدة فى الإمبراطورية العثمانية منذ زمن طويل، وبعد طرد هذه القوات التى كانت قد وصلت حتى أبواب العاصمة النمساوية فيينا والعاصمة المجرية بودابست فى القرن السابع عشر لم يعد لهذه القوة العسكرية الإسلامية وجود منذ عام ١٩١٨. وحتى لو افترضنا إمكان توحيد العالم الإسلامى وتجمع قواه العسكرية فلن تمثل هذه القوة تهديدا حقيقيا للغرب لعدم التكافؤ مع القوة العسكرية للغرب، فضلا عن استحالة تحقيق هذا الفرض على رغم كثرة الحديث عن هذه القوة والدعوة إلى تحقيقها، لأن الدول الإسلامية أصبحت منفصلة عمليا، ومتوحدة نظريا وفى الخطب والاحتفالات فقط. وعمليا فإن كل دولة إسلامية تعمل لتحقيق مصالحها الخاصة دون مراعاة لمصالح غيرها من الدول الإسلامية، بل إن الحروب تنشأ بين الدول الإسلامية، والنزاعات على الحدود بينها لا تكاد تخدم حتى تشتعل من جديد، وليس لدى أية دولة إسلامية، ولا لدى الدول الإسلامية مجتمعة أسلحة مثل إسرائيل أو الصين مثلا. وهكذا تبدو واضحة خرافة التهديد الإسلامى للغرب عند التحليل.

وعنصر آخر يشير إليه هاليداي من عناصر الخرافة السائدة عن التهديد الإسلامى للغرب. هو النظرية التى يؤمن بها كثيرون فى الغرب عن ضرورة وجود عدو، وقد يكون ذلك مفيدا لأن وجود

العدو والشعور بالتهديد يؤدي إلى استمرار الاستعداد والتحضر وعدم الاسترخاء، كما يحفز على تطوير صناعة السلاح، وعلماء الاجتماع يرون أن وجود تحديات خارجية له دور في استمرار حيوية ونهضة المجتمعات، ويدللون على ذلك بوجود التحدي السوفيتي أثناء سنوات الحرب الباردة الذي كان الدافع للإسراع بتحقيق القوة الاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية للغرب، وهذه النظرية قابلة للنقد وإثبات عدم صحتها، لأن النظام الرأسمالي في الغرب هو الدافع الحقيقي لإحراز القوة العسكرية، فهذا النظام أساسه السعى إلى السيطرة على الأسواق وعلى المواد الخام والثروات، فهو في ذاته قوة توسعية تتجه إلى إخضاع العالم لهيمنتها وتسخيرها لزيادة مكاسبها الاقتصادية، ولذلك كانت الدول الرأسمالية أول من قام باستعمار الدول الأخرى التي لم تكن عدوا لها بأية حال من الأحوال، بل كان العكس هو الصحيح. فالنظام الرأسمالي القائم على المنافسة والريح والسيطرة على الأسواق ومصادر الثروة هو الدافع لاستثارة بناء القوة العسكرية، وليس وجود العدو. ولا يستلزم التقدم واستمرار تفوق الغرب وجود عدو، سواء كان هذا العدو هو الشيوعية، أو اليابان أو الصين، أو الإسلام.



هكذا يرفض هاليداي نظرية (ضرورة وجود عدو) السائدة في الفكر السياسي والاستراتيجي والعسكري في الغرب، كما يرفض تفسير الغرب للجرائم والانحرافات التي يرتكبها مسلمون على أنها التعبير عن الإسلام ذاته، ويقول إن الإسلام مثل كل دين، قائم على النصوص الواردة في كتابه المقدس وعلى السنة واجتهاد الفقهاء والمتخصصين في الدراسات العلمية الإسلامية، ولا بد من التفرقة بين النصوص، وتفسير وفهم البعض لهذه النصوص، فالنص القرآني له قداسة عند المسلمين ولا يمكن المساس به أو التفكير - مجرد التفكير - في مراجعته أو تغييره، ولكن الفهم والتفسير للقرآن هما الخاضعان للتغيير نتيجة تطور المجتمعات وتغير الظروف. وهذا أمر طبيعي ينطبق على كل الديانات الأخرى. فالكتب المقدسة تضع المبادئ التي تحدد علاقة المؤمن بربه، وعلاقته بغيره من البشر، وليس في الكتب المقدسة نظريات سياسية أو اقتصادية أو علمية، بمعنى أنه لا يمكن القول بأن الكتاب المقدس في ديانة من الديانات يتحدث عن سلطات الدولة، أو عن تفضيل النظام الرأسمالي أو الاشتراكي، أو عن حتمية توحيد أهل الديانة الواحدة في دولة أو في كيان سياسي واحد، أو الإبقاء على تعدد واستقلال الدول مع اتفاقها في العقيدة الدينية، وليس هناك نصوص في كتاب مقدس تتعارض مع الحداثة أو التطور والتجديد، وإن كان هناك من يمارسون التعسف في تفسير النصوص وتحميلها ما لا تحتل لتبرير أهدافهم. فهؤلاء لا يمثلون الدين، ولكن يمثلون أنفسهم، ولا يتحدثون عن الدين ولكن يتحدثون عن المفاهيم التي يريدون صب الدين فيها. وبناء على ذلك فليس كل ما تقوله جماعة مسلمة تعبير عن الإسلام، ولكنه تعبير عن



مواقفهم ونزعاتهم التى يكسبونها طابعا دينيا لكى تصيح لها قداسة ويكون رفضها أو الخروج عليها عدوانا على الدين.

يقول هاليداي: إن الإسلام ليس عقيدة جامدة، بل إنه دين يقبل التفسيرات المتجددة التى تسير كل عصر، وإن كانت هناك جماعات جمدت عقولها وأفكارها وحصرت نفسها فى تفسيرات تنتمى إلى عصور الماضى ويستندون إليها لرفض مسايرة تطورات الحاضر، فهؤلاء يعبرون عن التكوين النفسى والعقلى الخاص بهم ولا يعبرون عن العقيدة ذاتها. كذلك فإن الذين يتحدثون عن علم الإحصاء الإسلامى، أو علم الكيمياء الإسلامى، وغير ذلك، فإنهم يجهدون أنفسهم فيما لا طائل وراءه. لأن علم الإحصاء هو هو فى كل الدنيا وكذلك سائر العلوم، وكلها تخضع للتطور والتغير بينما الدين ثابت، وليس صحيحا ما يراه البعض فى العالم الإسلامى من ربط المتغير بالثابت، لأنهم لا يدركون أن فى ذلك إساءة إلى الدين حين تظهر عدم صحة نظرية علمية بعد أن قيل: إنها من عند الله!



ويرى هاليداي أنه ليس هناك شعب مسلم واحد فى سائر بلاد العالم، ولكن هناك شعوبا مسلمة لها لغات وأصول عرقية وعادات وثقافات متعددة يجمع بينها دين واحد هو الإسلام، وهذا هو المفهوم الواقعى عند الحديث عن (الأمة الإسلامية). فليس هناك أمة تتكون من شعوب لكل منها هوية مميزة وتاريخ خاص وسمات اجتماعية تختلف عن غيرها، وإلا فسوف يقال إن الأمة المسيحية أمة واحدة على رغم الاختلافات الجوهرية بين الشعوب التى تعتنق المسيحية، وحتى إذا نظرنا إلى دولة قامت على أساس الدين وهى باكستان نجدها متعددة القوميات من البنجاب، والبهانينيين، والبنغال والموهاجيرز. هذه الفكرة التى يطرحها هاليداي تحتاج إلى مناقشة من المتخصصين فى علوم السياسة والانثروبولوجيا والديانات.

ويناقش هاليداي الفكرة السائدة فى كثير من دول العالم عن الإسلام على أنه يتعارض مع الديمقراطية. ويستدلون على ذلك بأنظمة حكم إسلامية ليس فيها أية صورة من صور الممارسة الديمقراطية بالمفهوم العلمى الحديث. وكثير من الدعاة والحكام فى الدول الإسلامية يكررون الحديث عن فشل الديمقراطية الغربية، وفى رأى هاليداي أن غياب الديمقراطية فى الدول الإسلامية ليس بسبب كونها مسلمة أو أن التطبيق للإسلام الصحيح يعادى الديمقراطية، ولكن السبب يرجع إلى الخصائص والظروف السياسية التى تشترك فيها الدول الإسلامية، وأيضا بسبب التخلف وانخفاض مستويات المعيشة ومعدلات التنمية، وترسخ ثقافات سياسية تعادى التنوع والتسامح، وتبرر سيادة الحاكم اعتبار كلمته فوق القانون، ويتم تبرير كل ذلك بأنه التطبيق والالتزام بتعاليم الإسلام.. لذلك يؤكد هاليداي على ضرورة الفصل بين الإسلام وبين الصورة التى يمارس بها البعض



تعاليم الإسلام. فإن هؤلاء يحرصون على ربط كل تصرفاتهم بالدين لقطع ألسنة المعارضة. وهم أيضا الذين شجعوا على تشويه مفهوم العلمانية. والعلمانية مفهوم ظهر في أوروبا في مواجهة سيطرة الكنيسة على شئون الحكم، واضطهاد - بل وقتل - من يخالف حكم الكنيسة بادعاء أنه يخالف حكم الله. وفي ظل هذا المفهوم تم ارتكاب جرائم وتخلفت دول أوروبا، وتوقف نمو الفكر والعلوم، وعاشت أوروبا في عصور الظلام. وعندما بدأ عصر التنوير ظهر مفهوم العلمانية، بمعنى أن يكون للكنيسة مكانة عالية، ويرعى الناس تعاليم الدين، ويحرصون على علاقتهم بالله، وأما شئون الدولة والسياسة والحكم فإنها من أمور الدنيا ومرتبطة بمصالح الناس، ولذلك يجب أن تكون في يد رجال السياسة والحكم، وهؤلاء يخضعون للنقد والمحاسبة والمطالبة بتغييرهم وليست لهم قداسة لأن كل تصرفاتهم منسوبة إليهم ونابعة من فكرهم وإرادتهم وليست منسوبة إلى الله. فالعلمانية لا تتعارض مع الإيمان ولا تحارب العقيدة الدينية، ولكنها تضع الحاكم في مكان غير المكان الذي تضع فيه رجل الدين حتى يمكن إخضاع الحاكم للمحاسبة، وبدون خضوع الحاكم للقانون وللرقابة والنقد والحساب لا يمكن القول بوجود ديمقراطية. وبدون السماح بتعدد الأفكار والاجتهادات والحلول لمشاكل المجتمع، وبحرية التعبير عن الرأي دون خوف من اتهام لا يمكن رده، لا يمكن قيام ديمقراطية.



ويضرب هاليداي مثالا ببعض القوميات في أوروبا مثل القومية الأيرلندية، والقومية البولندية، وهما يتمسكان بالدين بقوة، ومثلهم في التشدد الديني مثل الأرثوذكس في اليونان، وروسيا، وقبرص، وصربيا. وهؤلاء يربطون بين الدين والسياسة ويتحدثون عنهما على أنهما شيء واحد. وفي هذا المناخ يكتسب السياسيون عصمة لا ينبغي أن يتحصنوا بها ضد المحاسبة والعزل عن طريق الانتخابات، وهذا ما جعل رجال السياسة في بلاد غير إسلامية يستترون بالدين ليكتسبوا لأنفسهم هذه العصمة وهذه الحصانة، ففي الهند ملايين يخلطون بين الدين والسياسة لتأكيد النزعة الشوفينية الهندية في مواجهة النزعة الشوفينية الباكستانية، وكذلك في الولايات المتحدة كان للربط بين الدين والسياسة دور في قرارات وإجراءات لم يكن من الممكن تمريرها لو لم يتم تقديمها في إطار ديني وكأنها تنفيذ لإرادة الرب وتعاليم الكتاب المقدس!

ويناقش هاليداي الاتهام الموجه للإسلام استنادا إلى العنف الذي تمارسه الجماعات، فيقول: إن هذه الجماعات ليست المعبرة عن روح الإسلام، وهي لا تقدم المبادئ الإسلامية، ولكنها تقدم ما يبرر ممارساتها العدوانية. وهذه الجماعات لا تمثل ظاهرة إسلامية بل تمثل قوى نشأت في مجتمعات معينة كرد فعل للمشكلات التي تعاني منها هذه المجتمعات، وهي مشكلات اجتماعية وسياسية، كما أنها رد فعل لما تشعر به هذه المجتمعات من مخاطر الهيمنة الخارجية، وما تتعرض له من رياح

التغيير الاجتماعى والثقافى وخاصة بالنسبة لتغيير الوضع التقليدى للمرأة السائد فى مجتمعات بدوية، ولذلك فإن الغرب يخطئ حين يستسلم لادعاء هذه الجماعات بأنها إسلامية، بدلاً من دراسة الظروف التى أدت إلى نشأة هذه الجماعات وهى ظروف خاصة بكل مجتمع من المجتمعات الإسلامية، ونتيجة لذلك فإن صورة الإسلام الشائعة فى الغرب ليست صحيحة غالباً، ولا بد من دراسة تأثير التفاعل بين مفكرين إسلاميين فى بلاد مختلفة فى ظروفها السياسية والاجتماعية، وانتقال الأفكار نتيجة وسائل الاتصال الحديثة. والمثال على ذلك انتقال أفكار المفكر الباكستانى أبو الأعلى المودودى الذى كان يعيش فى الهند فى ظل اضطهاد جماعات السيخ والهندوس وغيرها من الجماعات المعادية للمسلمين.. إلى سيد قطب فى مصر الذى كان يعيش فى ظروف مختلفة. وفى التحليل النهائى فإن هذه الجماعات تهدف إلى القفز على سلطة الدولة عن طريق العنف ومستخدمه الغطاء الدينى. وهى تدعى أن انتماءها إسلامى وليس قومياً. ولكن التجربة أثبتت العكس، فقد قامت الحرب بين العراق وإيران وهما دولتان مسلمتان، وكان الدافع للحرب قومياً - سياسياً واقتصادياً - وليس دينياً. وليست الحرب العراقية الإيرانية هى الوحيدة التى نشبت داخل المعسكر الإسلامى، فقد تحركت الجيوش العراقية لغزو الكويت بهدف الاستيلاء عليها وكلاهما دولة مسلمة.. والجماعات الإسلامية فى أفغانستان يدور بينها قتال دموى يسقط فيه المئات.. وهكذا فإن الخلافات بين الدول والفرق والجماعات الإسلامية ذاتها أكبر وأعمق من خلافاتها مع الغرب، وعلى ذلك فإن الحديث عن الخطر الإسلامى، أو التحدى الإسلامى، مجرد وهم، أو هو وسيلة من وسائل الدعاية السياسية الغربية لأهداف أخرى.



ويعترف هاليدى أن من أسباب الخوف من الإسلام فى الغرب أن الإسلام ينتشر فى أوروبا والولايات المتحدة، ليس بين السود والمضطهدين كما كان يقال، ولكن بين مفكرين وسياسيين وشخصيات لها تأثيرها فى المجتمعات الغربية. والفيلسوف المعروف روجيه جارودى ليس المثال الوحيد، ومعروف أنه كان شيعوياً ثم تحول إلى الإسلام وأصبح اسمه رجاء جارودى، ومثاله فى الغرب كثيرون. يضاف إلى ذلك تزايد هجرة المسلمين إلى الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وهولندا، والدانمرك، وسويسرا، والسويد، وبقية دول الغرب وقد نشأت فى داخلها مجتمعات إسلامية ومن المستحيل معرفة الأعداد الدقيقة للمسلمين فى الغرب، ولكن لا يقل عددهم فى بريطانيا عن مليون مسلم. وفى فرنسا أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، وفى ألمانيا ما يقرب من مليونى مسلم. وفى الولايات المتحدة تتراوح التقديرات بين أربعة ملايين وعشرة ملايين مسلم. ويظهر تأثير هذه الجماعات المسلمة فى انتشار المساجد فى أنحاء أوروبا وأمريكا. وفى فرنسا أكثر من ألف مسجد، وفى بريطانيا ما يقرب من ٤٠٠ مسجد، بالإضافة إلى تزايد الاتحادات والجمعيات

الإسلامية حتى وصل عددها إلى المئات، وترتب على ذلك ظهور قضايا لم تكن تعرفها المجتمعات الغربية مثل الدفن الشرعى والذبح الشرعى واللحم الحلال، وملابس المرأة المسلمة وعزلها عن المجتمع، والمدارس الدينية الإسلامية، والصيام فى رمضان، ورحلات الحج من دول أوروبا.. كل هذه الظواهر تثير المخاوف فى الغرب وتجعل البعض يحذرون من عدم قدرة الغربيين على السيطرة على مجتمعاتهم بعد أن أصبحت هذه الثقافة الغربية عن الثقافة الغربية تشارك وتؤثر فى الحياة السياسية والاجتماعية.. هذه المخاوف من التأثير الإسلامى من داخل المجتمعات الغربية أكبر من المخاوف من التأثير الإسلامى الخارجى، وقد أدت القيود على الهجرة التى فرضتها دول الغرب إلى زوال المخاوف من تزايد المسلمين، كما أن النزعة العنصرية ضد المسلمين فى الغرب لم تشجع كثيرا من المسلمين على الهجرة، ففى فرنسا اشتدت حملة الزعيم لوبن العنصرى المعادى للمهاجرين وللعرب والمسلمين، وفى ألمانيا انتشرت نزعات اليمين المتشدد ضد المسلمين. ومن ناحية أخرى فرضت القيود على تلقى الجمعيات الإسلامية فى الغرب للتبرعات والمساعدات من الدول الإسلامية. وكذلك فإن الجيل الثانى من أبناء المهاجرين المسلمين أصبح أقل تمسكاً بالثقافة الإسلامية وأكثر ميلا للاندماج فى المجتمع الغربى وثقافته.



ويرى هاليداي أن تأثير الفكر الإسلامى الوافد من الخارج على الجماعات المسلمة فى الغرب تضاعل. وعلى سبيل المثال كان بعض المهاجرين إلى بريطانيا فى الثلاثينيات يعتنقون أفكار الطائفة العلوية التى تأسست فى الجزائر، وكان فى فرنسا جماعات من المهاجرين المسلمين من شمال أفريقيا يعتنقون أفكار جماعات (التبليغ) التى تأسست فى الهند عام ١٩٢٧ وأصبح لها مراكز فى بريطانيا. وفى بريطانيا - على سبيل المثال - مهاجرون مسلمون من باكستان، والهند، وقبرص التركية، والبوسنة. وفى ألمانيا مسلمون قادمون من تركيا والبوسنة. وفى فرنسا مهاجرون من الجزائر، والمغرب، وتونس، والسنغال، وموريتانيا، وتركيا. وليست كل هذه الجماعات كتلة واحدة، فكلهم مسلمون، ولكنهم مختلفون فى فهم كل جماعة منها للإسلام، ومختلفون فى الثقافة والعادات والتقاليد الإسلامية، أما موقف الدول الغربية من المسلمين المهاجرين فهو يختلف بين دولة وأخرى. ففى بريطانيا يتمتع المهاجرون المسلمون من دول الكومنولث بحق التصويت. ولكن فرنسا وألمانيا لا تسمح بذلك. وفرنسا سمحت ببناء المساجد فى الأرض التى يملكها مسلمون. وسمحت بعض الشركات للمسلمين بأداء الصلاة فى وقت العمل، ولكن بريطانيا لا تعطى لهم هذا الحق.

ولكن الدول الغربية تشكو من تدخل حكومات بعض الدول الإسلامية وسعيها لاستقطاب المهاجرين المسلمين فى أوروبا وتجميعهم فى تكتل يخدم مصالحها، وتقدم لهم الأموال وتساعدهم

على بناء المساجد. وفي بعض الدول الإسلامية منظمات تتخطى الحدود وتعمل داخل الدول الأوروبية مثل منظمة العالم الإسلامى بمكة، ومثل الأنشطة التي تديرها إيران، وكان نظام الحكم في العراق بقيادة صدام حسين يفعل ذلك أيضا لأغراض سياسية. وبعض الأحزاب السياسية والدينية في الدول الإسلامية أنشأت لها فروعاً وشبكات في دول أوروبية، وأكبر مثال هو المنظمات الباكستانية في بريطانيا.

وتعانى دول الغرب من الصراعات داخل جماعات المهاجرين المسلمين بين العرب وغيرهم، فالأئمة الأتراك في فرنسا مثلاً يعتقدون أنهم أكثر معرفة بالقرآن وبالإسلام من العرب، والعرب يعتقدون أنهم هم الأكثر فهماً للإسلام، ويعتبر هاليدى ذلك دليلاً آخر على أن المسلمين ليسوا أمة واحدة.



والخلاصة أنه لا يمكن إنكار أن صوت الإسلام أصبح مسموعاً في الغرب أكثر من أى وقت مضى. وأن المسلمين أصبحوا يشكلون في بعض دول الغرب قوة سياسية، وهم في طريقهم إلى أن يصبحوا كذلك في بقية الدول الغربية، فقد بلغ عدد الاتحادات الإسلامية في بريطانيا - في عام ١٩٨٧ - ٢٤ اتحاداً وأصبحت هذه الاتحادات في موقف يسمح لها بالتقدم بمطالبها المتعلقة بتدريس الإسلام، والسماح بإنشاء مدارس إسلامية، ومنع تعليم التلاميذ المسلمين الرقص، والاستحمام المختلط للبنات والبنين، ودراسة الجنس، وغير ذلك من الأمور المسموح بها في المجتمعات الغربية.. وهذا ما يثير المخاوف في دول الغرب من أن يؤدي استمرار هذا المد الإسلامى إلى تغيير في ثقافة وقيم المجتمعات الغربية.

وهذا ما يستند إليه الذين يدعون وجود الخطر الإسلامى على الغرب.

وهو ما يجعل المسلمين الذين يعيشون في الغرب يشعرون أيضاً بأنهم معرضون للتهديد.

# حقائق وخفايا وراء العداء للإسلام

ربما كان المستشرق البريطاني فريد هاليداي أول من اعترف صراحة بأن الشعور في الغرب بالعداء للإسلام يكتسب أبعادا جديدة كل حين، وأن المسلمين الذين يعيشون في المجتمعات الغربية يعانون من التمييز العنصري في هذه الدول. ففي فرنسا يلاقى المسلمون مضايقات يومية. وفي الولايات المتحدة انتقلت اللغة المعادية للإسلام والمسلمين من الإعلام إلى الخطاب الديني ثم إلى الخطاب السياسي. وفي الهند يزداد العداء لدى اليمين الشوفيني. وفي دول أوروبا عموما أصبحت نغمة العداء للإسلام والمسلمين ترديدا للقوالب الفكرية والأحكام الجاهزة، وتحولت إلى أيديولوجيا أو نظرية عنصرية.

ويتساءل هاليداي: لماذا ينتشر ويتعمق هذا الشعور في الغرب؟

ويجب عن هذا السؤال بأن هذه الظاهرة نتيجة لعدة عوامل:

أولا: أن العداء للمسلمين أكبر من العداء للدين الإسلامي ذاته. والذين يعادون المسلمين قليلا ما يرددون المقولات القديمة حول إنكار القرآن ونبوّة محمد (صلى الله عليه وسلم) ولكنهم يعبرون عن كراهيتهم للشخصية الإسلامية وللشعوب الإسلامية. وفي هذا العداء نزعة عنصرية تعادى العناصر العرقية غير الأوروبية، ولذلك فإن العداء يشمل شعوبا فيها عناصر مسلمة وعناصر غير مسلمة مثل الألبان والفلسطينيين، وحتى القوقاز، أي إن المسألة تتعلق بكرهية الأوروبيين لكل من يختلف عنهم من العناصر البشرية الأخرى.

ثانيا: أن العقل الغربي يحمل آثار ذكريات الغزو الإسلامي لأوروبا في القرن السابع، وإن كان التبرير الظاهري هو أن هذا العداء رد فعل على التهديدات ولغة القتال والجهاد التي تصل إلى الغرب من العالم الإسلامي. والتاريخ القديم يقدم مخزونا من الأفكار التي يعتمد عليها مروجو العداء على الجانبين. وفي نفس الوقت فإن كثيرا من المسلمين لديهم الشعور بأن هناك مؤامرة على الإسلام من الغرب منذ قرون بعيدة، ويجدون في القضايا المعلقة بين العالم الإسلامي والغرب دليلا

على هذه المؤامرة مثل قضايا فلسطين، وكشمير، والمناطق الجنوبية في الفلبين، والبوسنة. ومثل الحماس المبالغ فيه في الغرب للدفاع عن سلمان رشدي وأمثاله ممن يسيئون إلى الإسلام، ومثل عدوانية الغرب تجاه الإسلام في بعض الممارسات مثل رفض الحجاب، ورفض السماح بالتعليم الإسلامي للمسلمين. وهناك من يغذى في نفوس المسلمين الشعور بأنهم الضحية، وربما يكون ذلك تكرارا للشعور السائد لدى اليهود الذين يؤمنون بأن المجتمعات غير اليهودية معادية للإسلامية أى لليهودية. ويقول هاليداي: إن هذا الشعور بالاضطهاد لدى المسلمين واليهود قد يكون صحيحا بدرجة ما، ولكنه ليس بهذه الحدة والقوة التي يتحدثون عنها.

ثالثا: أن في الغرب من يرون أن المسلمين يستحقون ما يحدث لهم، لأنهم هم البادئون بالكراهية والعدوان تجاه الغرب، وهم الذين يستثيرون المشاعر ضدهم. وهناك من يفسرون موقف المسلمين تفسيراً سيكولوجياً، فيرون أن هذا الشعور هو نوع من (الإسقاط) أى اتهام الغرب بما يحملون من عدا لمن يختلف عنهم. وهناك أيضاً من يبرر الموقف العدائى الغربى بأنه استجابة أو رد فعل لتصريحات القادة والمفكرين المسلمين مثل نظرية سيد قطب عن شرور الجاهلية الغربية، أو قول الخميني بأن الغرب كله فساد. وفي الدول الإسلامية من أعلن أن القرن الحادى والعشرين سيكون قرن التحدى الإسلامى للغرب. وفي الغرب من يرى فعلاً أن التحدى الإسلامى هو قضية هذا القرن بعد زوال التحدى السوفيتى والتحدى اليهودى.

رابعا: أن السياسيين ورجال الدين في العالم الإسلامى يتحدثون عن القضايا السياسية التي يختلفون فيها مع الغرب بلغة دينية، ويصبغون الصراع السياسى بصبغة إسلامية، ويجعلون من هذه القضايا السياسية قضايا شرعية وكأنها صراع بين المسلمين وغير المسلمين، وليست بين دول تتعارض مصالحها أو أطماعها، ويؤدى ذلك إلى ترسيخ الفكرة لدى الغرب بأن الصراع ليس صراعا سياسيا، ولكنه صراع دينى. ولو وضعت القضايا الخلافية فى إطارها الصحيح بعيدا عن الدين لكان ادعى لرؤية صحيحة لما هو دينى وما هو سياسى.

خامسا: أن هناك اختلافات ثقافية فى العادات والتقاليد والملابس وأسلوب الحياة بين المجتمعات الغربية والمجتمعات الإسلامية. والفروض أن يتم الاعتراف من الجانبين بالحق فى الاختلاف والتعاون فى هذا الإطار، ولكن على الجانبين من يعادى الآخرين لجرد أنهم مختلفون، الأمر الذى يفرض بذل جهود هنا وهناك لتأكيد التسامح وقبول التعددية الثقافية.

سادسا: أن الاختلافات بين المذاهب الإسلامية تصل أحيانا إلى درجة العداء والقطيعة بين أنصار هذه الفرق والمذاهب وتبادل الاتهامات فيما بينهم، ولأن الغربيين لا يفهمون الفروق الدقيقة التي تسببت فى هذا الصراع داخل مجتمعات المسلمين، فإنهم يتحولون من موقف الرفض إلى موقف الكراهية..

سابعاً: أن الكتابات السطحية عن الإسلام في الغرب تحرض على الكراهية مثل الاعتداءات على حقوق الإنسان، وتعدد الزوجات، واعتبار ضرب الزوجات حقاً شرعياً للأزواج، وختان الإناث وحرمان المرأة من حقوقها الإنسانية، بالإضافة إلى العمليات الإرهابية ولغة التهديد الموجهة للغرب من الجماعات الإسلامية على أنها فريضة على المسلم يفرضها الدين الإسلامي..

ويقول هاليداي: ليس كل ما يقال في الغرب عن الإسلام صحيحاً، ولكن يكفي أنه يقال ويتردد دائماً. ويكفي أن يتردد أن المسلم يأمره الإسلام بمعاداة اليهود لأنهم يهود، أو معاداة البهائيين لأنهم بهائيون، وأمثال هذه المقولات التي تثير النفور لدى الغربيين وبالتالي في عقل الغربيين وتؤكد لديهم أن الإسلام والمسلمين هم الخطر الذي يهددهم ويهدد حضارتهم. ويدعو هاليداي العقلاء في الجانبين إلى نظرة مختلفة من كل منهما للآخر.



ويروى هاليداي التاريخ الطويل للعداء بين الغرب والإسلام، في أوروبا والولايات المتحدة، وفي البلقان، والهند. وبالنسبة للغرب كانت موجة العداء الكبرى في القرن السابع عشر بسبب الغزو العثماني لأوروبا، وأيضاً بسبب الحملات الصليبية، وهذا العداء أدى إلى ظهور نظريات تبرره، كما فعل المستشرق الفرنسي الشهير أرنست رينان في عام ١٨٨٣ حين وضع نظريته عن التناقض والعداء الحتمي بين الشخصية الأوروبية العقلانية العلمية وبين الشخصية الإسلامية الرافضة للعقل والعلم.

ويؤكد هاليداي أن هذا العداء الذي نشأ منذ غزو الامبراطورية العثمانية لأوروبا مازال مستمراً، حتى إن صورة (المسلم) أصبحت تستدعي صورة (التركي) وذكريات الجزية والعبودية التي كانت تفرضها الامبراطورية العثمانية على الأوروبيين، وما زالت كلمة (تركي) في روسيا تعني (غبي). وما زال الاحتفال بذكرى هزيمة المسلمين في بعض المجتمعات الأوروبية يتم حتى الآن، وعموماً فإن التحليل الصحيح للعلاقة بين الإسلام والغرب يفرض عدم إغفال آثار وذكريات هذه الفترة من التاريخ، كما أنه يجب عدم إغفال آثار وذكريات الحروب الصليبية، والاستعمار الغربي في وعى المسلمين. كما أن ما يقدمه الإعلام الغربي عن الإسلام على أنه مرتبط بالتزمّت والتناقض في الفكر والازدواجية في السلوك والإغراق في المتعة الحسية. وما يقدمه الفن والخطاب السياسي عن المرأة المسلمة له تأثيره في تعميق هذه الصورة السلبية عن الإسلام في الغرب. فالمرأة المسلمة كما تبدو في الأفلام وفي قصص ألف ليلة وليلة تبدو في صورة (الحريم) ويبدو الرجل المسلم في صورة (السلطان) الذي لا يرى في المرأة سوى أنها أداة للمتعة، وعلى الجانب الآخر يقدم الإعلام الغربي (المسلم) على أنه عدواني يكره من يخالفه، يمارس القتل وقطع الأيدي. وموقفه من الحياة الاجتماعية والسياسية

موقف سلبي، وأنه منقاد للسلطة تنفيذا لما يأمره به الإسلام بأن يطيع (أولى الأمر).. وهكذا تتعرض صورة الإسلام والمسلمين للتشويه نتيجة ما ترسب في نفوس الغربيين من نتائج هزيمتهم أمام جحافل المسلمين في ظل الامبراطورية العثمانية.

وفي تحليل هاليداي لظاهرة الكراهية في الغرب للإسلام والمسلمين يرى أن الأمر يختلف من دولة لأخرى، فالدول الأوروبية التي تعرضت لغزو المسلمين يزداد فيها الشعور العدائي أكثر من دول شمال أوروبا. وإيطاليا التي تعرضت للهجمات البحرية من الامبراطورية العثمانية تبدو فيها صورة المسلم على أنه (قرصان). ونجد هذه الصورة أيضا في أمريكا الشمالية حيث جاءت سفن المسلمين من شمال أفريقيا في بداية القرن التاسع عشر، ودارت المعارك بينها وبين السفن الأمريكية، وما زال الذهن الأمريكي يحمل ذكريات هذه الفترة.. ويرى أن الإسلام والمسلمين يمكن أن يأتي منهما التهديد والعدوان. وحتى في الأدب بما له من تأثير فإن صورة (عطيل) في مسرحية شكسبير لها تأثيرها في تكوين صورة المسلم، وعطيل مسلم من المغرب. وبالنسبة لفرنسا لا يمكن إغفال تأثير الخسائر التي تكبدتها في معارك المقاومة في الجزائر مع الاستعمار الفرنسي والتي استمرت من ١٩٥٤ حتى ١٩٦٢. وإيطاليا لها تجربة مماثلة في ليبيا، وكذلك أسبانيا التي تشعر بالمرارة لخضوعها للمسلمين وتحولها من دولة مسيحية إلى دولة مسلمة لفترة طويلة، وما زالت آثارها القوية في كل مكان وحتى في ملامح الأسبان.



وخلاصة هذا الاستعراض لتاريخ المواجهات بين الغرب والإسلام يرى هاليداي أن ظاهرة العداء والكراهية لها جذور وأسباب متعددة، ويستدل على ذلك أيضا بالحالة في بريطانيا، فلا يمكن إغفال تأثير الاحتلال البريطاني لمصر والسودان ودول الخليج، ومقتل اللورد جوردون على يد المهديين في السودان، وتواجد مئات الآلاف من الجنود البريطانيين في مصر أثناء الحرب العالمية واعتمادهم على مواد التموين من مصر وما نتج عن ذلك من أزمات التموين بالنسبة للمصريين.

وهكذا لا يمكن إغفال الفترة الامبريالية البريطانية والفرنسية عند محاولة فهم أسباب العداء على الجانبين، ولم يكن المسلمون وحدهم الذين يحملون العداء للبريطانيين، ولكن كان العداء لبريطانيا من غيرهم مثل القوميين الكاثوليك في أيرلندا. والمقاومة للاستعمار البريطاني التي كان يقوم بها الهندوس في الهند، والمنظمات الصهيونية التي كانت تتصادم مع الانتداب البريطاني في فلسطين، وحروب العصابات الأرثوذكسية اليونانية في قبرص، ومنظمة (ماو-ماو) المسيحية والوثنية التي كانت تشن حملات على الوجود البريطاني في كينيا، والمقاومة للوجود البريطاني في مالاوي، وهؤلاء جميعا لم يكونوا مسلمين، ومعنى ذلك أن العدو بالنسبة لبريطانيا لم يكن الإسلام والمسلمين فقط !.



ويستخلص هاليداي من ذلك أن الأفكار الجاهزة الشائعة عن الإسلام في الغرب تكونت من روااسب كثيرة، وتغذيها السينما الأمريكية التي تقدم العربى والمسلم على أنه إرهابى، ولص، وانتهازى، ولا يحترم وعوده، ومنافق، و«زير نساء»، وتافه، ويمارس الجنس حتى مع الحيوانات. ولم تكن السينما الأمريكية وحدها التي شاركت في صناعة هذه الصورة، ولكن كان إلى جانبها التليفزيون، والدعايات السياسية، والمنظمات المعادية للعرب والمسلمين لأسباب غير دينية.

ويشير هاليداي إلى تكرار الحديث في الكتابات الغربية عن غزو المسلمين لأسبانيا ثم سقوط غرناطة في عام ١٤٩٢ بعد سنوات طويلة من الحكم الإسلامى. ويفغل الكتاب الغربيون أن الحكم الإسلامى في الأندلس (أسبانيا) كان يتسم بالتسامح، وأن الصراع مع الامبراطورية العثمانية كان بدوافع سياسية وليست دينية، وأن القوى الإسلامية كانت تتحالف مع قوى ودول مسيحية في فترات من التاريخ، كما أن الدول الأوروبية عاشت فترات من تاريخها في حروب وصراعات بين دول مسيحية ودول مسيحية أخرى، كما حدث في بداية القرن التاسع عشر على يد نابليون، وفي الثلاثينات والخمسينات من القرن التاسع عشر في حروب بريطانيا، وكذلك الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية بين دول مسيحية أساسا، وكانت الدول الإسلامية حليفة لدول الغرب المسيحية. ويجب ألا ننسى كيف قَدَمَ القيصر ويلهالم نفسه على أنه بطل العالم الإسلامى، وقدم نابليون نفسه على أنه حامى حمى الإسلام واعتنق بعض قاداته الإسلام أثناء احتلال نابليون لمصر.. وقَدَمَ البريطانيون أنفسهم في مصر وشبه الجزيرة العربية على أنهم أصدقاء للعرب، والدور الذى قام به لورانس العرب بادعاءاته. وكذلك يجب ألا ننسى أن الدول الإسلامية تحالفت مع الدول الغربية ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى. ولا ننسى دور المخابرات الأمريكية في إنشاء وتدريب وتسليح المجهدين المسلمين في أفغانستان في الثمانينات من القرن العشرين. ومساندة دول الغرب للدول العربية والإسلامية في مواجهة القومية والاشتراكية في منتصف القرن العشرين، وكل ذلك ليس سوى أمثلة يسوقها هاليداي لى يدل على أن التحالفات والمواجهات بين الغرب والعالم الإسلامى لم تكن دائمة، ولم تكن لأسباب دينية فى كل الأحوال.



ويفرق هاليداي بين نوعين من العداء للمسلمين، أحدهما هو (عداء الدولة) وهو العداء (الاستراتيجى) كما يسميه، والثانى هو (العداء الشعبى) ولكل منهما أسبابه، فعداء الدولة أو العداء الاستراتيجى ناتج عن ثلاثة عوامل أساسية هي:

أولا: مخاوف دول الغرب من الإرهاب القادم من العالم الإسلامى وأثر ذلك على أمن أوروبا وأمريكا.

وثانيا: مخاوف دول الغرب من أن تسيطر على مناطق البترول الإسلامية قوى تعادى الغرب.

وثالثا: المخاوف من أن تمتلك الدول الإسلامية أسلحة نووية يمكن أن تهدد أمن إسرائيل..

أما (العداء الشعبى) فإنه يتعلق بالقلق من وجود المسلمين داخل المجتمع الغربى وما يمكن أن يترتب على ذلك من تأثير على الثقافة والشخصية الغربية، ومن تزايد هجرة المسلمين إلى دول الغرب، ومن صعوبة التكيف التى تجعل المسلمين جسما غربيا فى أغلب الأحوال. وهناك أمور أخرى مثل الحجاب الذى يثير المشاكل فى بعض الدول الغربية.

وعند الحديث عن (العداء الاستراتيجى أو عداء الدولة) يرى هاليداي أن ارتفاع أسعار البترول فى السبعينات كانت، من أهم أسبابه، لأن الدول الغربية شعرت أنها واقعة لأول مرة تحت ضغط أجنبى يبدو فى نظرها نوعا من التهديد أو الابتزاز، ثم جاءت الثورة الإيرانية وما فعلته بالولايات المتحدة فى أزمة الرهائن التى أكدت صورة الإسلام العدوانى المتعصب. ولا يمكن إغفال العداء للمسلمين عامة – وللعرب خاصة – بسبب الصراع العربى الإسرائيلى، وقد ازداد تأثير هذا العامل فى الستينات من القرن العشرين، كما ازداد بعد ذلك نتيجة لحرب ١٩٦٧، والعمليات التى كانت الحركة الفلسطينية تقوم بها، وانعكست كل هذه العوامل فى الصحافة والتلفزيون والأفلام السينمائية. وظهرت بقوة أكبر فى الأدب، كما نرى فى رواية (ليون يوريس Leon Uris) المشهورة (الهجرة والحج). وفى الأفلام الأمريكية ازداد ظهور شخصيات كريمة هى مزيج من العربى والفارسى والمسلم والإرهابى فى تركيبة واحدة.. وأسهم فى هذه الحملة والكراهية ما ظل يعلنه السياسيون الأمريكيون بعد انتهاء الحرب الباردة من أن الولايات المتحدة أصبحت تواجه التهديد من الجماعات الإسلامية المسلحة والتى يمكن أن تحصل بطريقة ما على أسلحة دمار شامل (أسلحة ذرية أو كيميائية) وازداد التأكيد على ذلك فى حرب الخليج ضد صدام حسين فى عامى (١٩٩٠-١٩٩١). وفى عام ١٩٩٠ ألقى (دان كويل) نائب الرئيس الأمريكى خطابا أمام طلبة الأكاديمية البحرية ربط فيه التطرف الإسلامى بالنازية والشيوعية واعتبرها جميعا فى منزلة واحدة من الخطر على الحضارة والقيم الغربية.. وفى عام ١٩٩٢ كرر المرشح للرئاسة عن الحزب الجمهورى (بات بوكانان) فى خطابهات قوله: (على مدى ألف سنة كان الصراع بين المسيحية والإسلام من أجل إنقاذ البشرية، وفى القرن الحادى والعشرين ربما يستمر الصراع، لأن الشيعة يوجهون إلينا الإهانات، وإخوانهم فى الدين يملئون دول الغرب).. وفى تحليل لمضمون الكتابات الصحفية يظهر أن حملة الكراهية للإسلام كانت فى أعلى قمة لها فى تغطية أحداث معينة مثل اعتقال الدبلوماسيين الأمريكيين فى إيران عام ١٩٧٩، واحتجاز الأمريكيين كرهائن فى لبنان، وتفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك عام ١٩٩٣، وأخيرا هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على مركز التجارة العالمى فى نيويورك ومبنى

وزارة الدفاع الأمريكية في العاصمة واشنطن. وكان للفيلم الوثائقي الذي قدمه التلفزيون بعنوان (الجهاد في أمريكا) تأثير كبير في مشاعر الأمريكيين، وقد تكرر عرض هذا الفيلم عام ١٩٩٤ وهـ، يقدم صورة مثيرة لنوايا جماعات الإسلام السياسي لضرب الولايات المتحدة مباشرة، وازداد القلق الأمريكي أكثر وأكثر عندما انفجرت قنبلة في مبنى مكتب التحقيقات الفيدرالية في أوكلاهوما في ١٩ أبريل ١٩٩٥ وتسببت في مقتل المئات، وكان رد الفعل الفوري للمعلقين في الإعلام، وفي البوليس الأمريكي أن ذلك من عمل إرهابيين من الشرق الأوسط، وعلى الفور تمت ملاحقة الرجال ذوي الملامح الشرق أوسطية. واستعانت شبكات التلفزيون بعشرات من خبراء الإرهاب أجمعوا على أن هذا عمل إرهابي من الإسلاميين، وناشد كثير من السياسيين والمعلقين الحكومة الأمريكية بالتعجيل بتوجيه ضربات وقائية لدول الشرق الأوسط، وحدثت وقائع كثيرة لهجوم أمريكيين على المسلمين والعرب الذين يعيشون في أمريكا، وتم القبض على أعداد من المسلمين.. وأخيرا ظهر أن الذي قام بالتفجير مواطن أمريكي وليس مسلما أو مهاجرا من بلد آخر.



وهكذا كانت (ثقافة الكراهية) أو (ثقافة العداء) للإسلام في الولايات المتحدة أكثر قوة وانتشارا مما كانت في الدول الأوروبية، على رغم أن المجتمع الأمريكي مجتمع متعدد الثقافات ويتكون من مهاجرين من أنحاء العالم، بينما دول أوروبا تضيق بالمهاجرين وتعتبرهم تهديدا، وعلى رغم أن أوروبا تعاني من الإرهاب من غير المسلمين، مثل معاناة بريطانيا من عمليات الإرهاب في أيرلندا، ومعاناة أسبانيا من العمليات الإرهابية التي تقوم بها منظمة (إيتا) التي تسعى إلى انفصال إقليم (الباسك) عن أسبانيا، ومعاناة ألمانيا من جماعة (بader ما ينهوف) ومعاناة إيطاليا من جماعة (بريجات روس) بالإضافة إلى الجماعات الفاشية والنازية وغيرها..

وعلى رغم تعدد الجماعات الإرهابية غير الإسلامية في أنحاء أوروبا. فإن (العداء الاستراتيجي) للإسلام هو العداء الأكبر في أوروبا، وذلك لشعور الأوروبيين بأنهم أقرب جغرافيا إلى العالم الإسلامي الملىء بالإرهاب، ولتأثر الأوروبيين بالمواقف والدعايات الأمريكية ضد المسلمين، ونذكر في هذا المقام مقالة كتبها المستشار الشخصي لرئيسة الوزراء البريطانية مارجريت تاتشر (الفريد شيرمان) عام ١٩٩٣ بعنوان (الغزو الجديد للإسلام في أوروبا) قال فيها: (هناك تهديد إسلامي لأوروبا المسيحية ينمو ببطء ولايزال من الممكن السيطرة عليه، ولكن سياسات الدول الغربية عملت كل شيء لمساعدته على النمو وكانت العوامل التي خلفت هذا التهديد هي: سياسات الهجرة غير المسئولة في أوروبا التي أدت إلى وجود ١٥ مليون مسلم فيها يمثلون أقلية مناضلة ضد الغرب.. وعزلة تركيا عن المجتمع الأوروبي الذي رفض عضويتها في الاتحاد الأوروبي، مما دفع تركيا إلى السعي نحو العالم الإسلامي بعد أن كانت تعمل على الابتعاد عنه.. وسياسة المانيا العدوانية في البلقان

لتدمير يوغوسلافيا، وتشيكوسلوفاكيا وقمع صربيا للمسلمين وتحقيق السيادة على المنطقة بالمساعدة من المجر.. ومساندة الفاتيكان لهذه السياسة، وتودد بابا روما للدول العربية بصرف النظر عن مصالح الأقليات المسيحية فيها، والاستعمار الإسلامي التدريجي لغرب ووسط أوروبا نتيجة فقدان الحس بالهوية الوطنية والاجتماعية والروحية فيها.. وانحدار القيم المسيحية والغربية وعدم استيعاب التاريخ الأوروبي وما فيه من تهديد من الإسلام، وانحياز العالم الإسلامي إلى الاتحاد السوفيتي في فترة الحرب الباردة).

وفى هذا السياق يقدم هاليداي مثالا آخر على الفكر المعادى للمسلمين هو ما كتبه المحلل العسكري (كلير هولنجروث) تحت عنوان (عقيدة استبدادية أخرى تسعى للسيطرة على الغرب) وقال: التعصب الإسلامي سيصبح التهديد الرئيسى للسلام والأمن فى العالم، وسببا للانزعاج من خلال الإرهاب. وهذا التهديد الإسلامى مماثل لتهديد النازية والفاشية فى الثلاثينات، ثم تهديد الشيوعية فى الخمسينات.

ويصل هاليداي من ذلك إلى أن مشاعر العداء للإسلام والمسلمين فى أوروبا اختلطت فيها عوامل كثيرة أهمها: المشاعر المعادية تجاه المهاجرين عموما، والطبيعة العنصرية الأوروبية، والربط بين الإسلام وبين النازية والفاشية والشيوعية وهى أكثر الأنظمة التى يثير ذكرها النفور والكراهية لدى كل أوروبى. وكانت النتيجة أن توحّد فى أوروبا (العداء الشعبى) مع (عداء الدولة) للإسلام والمسلمين، وتفجرت أحداث كثيرة نتيجة لتزايد هذا الشعور العدائى آخرها المنازعات فى فرنسا بسبب قانون منع الحجاب فى المدارس الحكومية ومثل الاحتجاجات فى بريطانيا على فتوى الخمينى بإباحة دم سلمان رشدى مؤلف رواية (آيات شيطانية) التى تنكر أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) رسول الله، وأن القرآن كتاب أنزل عليه من الله، ولم يكن سوى نوبات صرع تصيبه ويفيق منها لينطق بهذه الآيات (استغفر الله). وتفجرت فى ألمانيا موجة عنصرية ضد الأتراك المسلمين، وازدادت فى فرنسا شعبية حزب الجبهة الوطنية برئاسة (جان مارى لوبن) وهو حزب يمينى ودعوته الأساسية ترحيل ثلاثة ملايين من المسلمين المهاجرين من شمال أفريقيا، وكاد زعيم هذا الحزب يفوز برئاسة الجمهورية الفرنسية فى الانتخابات الأخيرة لولا جهود مضنية من أطراف كثيرة فى انتخابات إعادة بينه وبين الرئيس جاك شيراك، وكانت قوة (جان مارى لوبن) تعبيرا عن قوة العداء للعرب والمسلمين إلى حد أن أنصار (لوبن) كانوا يرددون هتافاتهم ضد منافسه (فليذهب شيراك إلى مكة)!



ومما يثير الدهشة أن أصبح اليمين العنصرى المعادى للمسلمين وللإسلام قوة فى بلجيكا أيضا حتى إن الحزب اليميني الفلمنكى (Vlaamse Vromt) كان يهاجم الحكومة بسبب العجز فى

الميزانية نتيجة لإنفاق أموال الشعب البلجيكي على المهاجرين المغاربة الذين ينجبون أطفالا كثيرين فيحصلون على إعانة اجتماعية أكثر من البلجيكيين أصحاب البلاد (!)، وكذلك في السويد أعلن زعيم الحزب الديمقراطي الجديد منذ عام ١٩٩٣ (من الضروري أن أعترف بأن السويد لن يكون فيها مزيد من المساجد) وبعدها بيومين فقط حدث هجوم على أحد المساجد، وفي السويد أيضا أعلن سياسى يمينى آخر هو فيفيان فرونجين (لن يطول الزمن حتى نرى الأطفال السويديين يسجدون فى مكة!)، وفى النمسا ظل حزب الحرية وزعيمه (جوكن هيدر) يركز على إثارة المخاوف من الهجرة الجماعية للمسلمين إلى النمسا مما يمثل تهديدا لهوية الشعب النمساوى، وظل يعلن: (أن الشعب النمساوى سوف يفقد حضارته مادام فى فيينا نسبة كبيرة من الأطفال المسلمين فى الفصول بدون الصلبان فى رقابهم). وكان نجاحه فى الانتخابات وحصول حزبه على أعلى الأصوات دليلا على مدى انتشار التعصب ضد المسلمين والمهاجرين فى النمسا، بصرف النظر عن أنه اضطر للاستقالة تحت ضغط دول أوروبا التى خشيت من انتشار النزعة العنصرية فيها.

ويقول هاليداي: إن مثل هذه الأمثلة كثيرة وكلها تعبر عن المشاعر والسياسات العنصرية المعادية للمهاجرين، وزاد من حدة هذه المشاعر الركود الاقتصادى، والشعور بالاستياء من الملونين والمسلمين، وإن كان هذا الشعور ليس وليد اليوم، فقد كان موجودا فى بريطانيا أيام الحرب العالمية الأولى ضد المسلمين المهاجرين من اليمن والصومال. وفى سنة ١٩١٩ تفجرت فى الموانئ البريطانية أعمال شغب معادية للبحارة العرب وكانوا يوصفون بأنهم زنوج وبلاشفة. وامتد شعور العداء إلى المسلمين القادمين من الهند، وباكستان، وبنجلاديش، واكتسب هذا الشعور الصبغة الدينية فى أواخر الثمانينات من القرن العشرين، وخصوصا مع ذبوع رواية سلمان رشدى (آيات شيطانية) والزواج التى أثرت ضد الإسلام بسببها، ثم حرب الخليج. وباختصار كان العداء للمسلمين فى أوروبا فى سياق الرهبة من الأجانب ووطأة الركود الاقتصادى والتنافس السياسى بين الأحزاب فى كل دولة.

ويشير هاليداي إلى أن الخطاب الإسلامى ذاته يردد نفس الأفكار والمفردات التى يستخدمها الغربيون لإثارة العداء على الإسلام. فإن خطب الخمينى وقادة إيران والترابى فى السودان وعباس مدنى فى الجزائر تردد رفض القيم الغربية الخاصة بالعلمانية والديمقراطية، وحكم القانون والمساواة بين الرجل والمرأة، وبين المسلمين وغير المسلمين، وتعميم العداء لليهود وللغرب عموما، والإعلان عن هدفهم فى تحويل العالم كله إلى الإسلام وإثارة المخاوف فى بريطانيا ما تعلنه مجموعات إسلامية من المهاجرين من أن المسلمين أمة واحدة فى جميع أنحاء العالم، ولا توجد بين المسلمين حدود، ومعنى ذلك أن ولاء المسلم الذى يحمل الجنسية البريطانية ليس لبريطانيا، ولكن للعالم الإسلامى، وما يتردد على ألسنتهم من دعوة إلى إدخال القيم الإسلامية إلى بريطانيا

وكانهم يريدون أن تكون بريطانيا مثل السعودية أو إيران أو السودان، وبعض الجماعات تعتبر أن لديها رسالة من الله لتحويل المجتمعات غير الإسلامية إلى مجتمعات إسلامية، ومن ذلك ما فعله الخميني حيث بعث بخطاب مفتوح إلى الزعيم السوفيتي جورباتشوف في يناير ١٩٨٩ يدعو فيه إلى التخلي عن النظرية المادية والتفرغ لدراسة الإسلام دراسة جادة، وعزز ذلك الدعوة للجهاد ودعم بعض الجماعات الإرهابية، واللغة الدموية في التعبير عن العداء لأمريكا، وكل ذلك يغذى مشاعر العداء ويعطى مصداقية في نظر الغربيين لنظرية التهديد الإسلامي.



يخلص هاليداي إلى أن العلاقات المتوترة بين الغرب والإسلام تسبب فيها عوامل كثيرة لدى الجانبين، وأخطاء كثيرة من الجانبين، وخرافات وأساطير كثيرة من الجانبين، وهذا يعني أنه لا بد من جهود كبيرة من الجانبين وليس من جانب واحد لتصحيح العلاقة وإزالة الأوهام هنا وهناك، والوقوف أمام المتعصبين المسلمين وأعداء الإسلام المتعصبين أيضا. وإن كانت الأفكار الخاطئة لا يتم القضاء عليها بسهولة، إلا أن القضاء عليها ليس مستحيلا إذا كانت هناك نوايا صادقة وجدية في إثبات حسن النوايا، وقبول تخلي كل طرف عن بعض أفكاره تجاه الطرف الآخر، والرغبة في الالتقاء عند منتصف الطريق.

مثل هذا الموقف من مفكر غربي كبير مثل الفريد هاليداي يدعونا إلى السعي إلى عقد حوارات حقيقية، وجادة ومتعمقة بين مفكرى الإسلام ومفكرى الغرب وبين قادة السياسة والدين والإعلام والشباب، بشرط ألا تكون هذه الحوارات على غرار ما يحدث الآن مجرد لقاءات لتبادل العناق والكلمات الطيبة عن روح المحبة والتسامح التي تسود الجميع، وإلقاء الخطب التي تهدف إلى تمرير المناسبة دون الدخول في العمق والتفتيش عن مكنونات الكراهية في العقول.. مثل هذه الحوارات لم تحدث حتى الآن، وكل ما حدث مجرد مقابلات احتفالية وسطحية.. ولأن المشكلة خطيرة وتزداد خطورة مع مرور الزمن واستمرار التجاهل، فإن الوقت ليس لصالح الجانبين.

وفي بحثه عن جذور العداء للإسلام يقول هاليداي: إن الغرب يرى أن نظم الحكم في الدول الإسلامية تحكم باسم الإسلام، وتنسب قراراتها وسلوكها إلى الشريعة، وبناء على ذلك لا يستطيع أحد من (الرعايا) توجيه النقد إلى الحكام، أو المعارضة لسياساتهم، أو المطالبة بتغييرها حتى لا يتعرض بالتهمة الجاهزة وهي الخروج على الشريعة. وهذا ما يجعل المفكرين في الغرب يطالبون بفصل الدين عن الدولة، لأن الدين مقدس لا يجوز المساس به، ونظم الحكم ليست مقدسة ويجوز المساس بها. كذلك فإن الدين ثابت ونظم الحكم متغيرة، ومبادئ وقيم الدين غير قابلة للتغيير. ولكن القوانين متغيرة بالضرورة كلما تطور المجتمع، فإذا قيل إن هذه القوانين هي شرع الله فقد أصبح من الضروري أن تظل جامدة، بينما الظروف الداعية لوجودها في مرحلة قد لا تكون كذلك في مرحلة

أخرى.. وهذا ما يفسر لماذا يعتقد كثير من الغربيين أن هناك رابطة ضرورية بين الإسلام والمسلمين وبين الجمود ورفض التحديث والتجديد ومسيرة العصر.

واتصالاً بهذه الفكرة يرى هاليداي أن العقيدة الدينية في كل الأديان لم تأت لتحديد الطعام الذي يأكله المؤمنون بهذه العقيدة.. وإنما بتحريم بعض الأطعمة فقط.. ولم تأت لتحديد لأصحاب العقائد الأزياء الخاصة لكل منهم، أو طريقة بناء البيوت أو نظم التعليم والعلاج، أو غير ذلك من شئون الحياة اليومية التي تختلف من عصر إلى عصر، ومن مجتمع إلى مجتمع، بينما تتمسك الجماعات الإسلامية بإحكام الدين في كل شيء، دون أن يتركوا ما لله لله، وما للإنسان للإنسان، ويرى كثير من الغربيين أن هذا الاتجاه يفتح الباب أمام تسلط الحكام، ويهدر حقوق الأفراد تجاه السلطة، ويعطى لنظم الحكم صبغة إلهية، وتلك مرحلة - كما يرى - انتهت من تاريخ البشرية. ويرى هؤلاء الغربيون أن كل محاولة لحماية حقوق الإنسان في مثل هذه المجتمعات الإسلامية محكوم عليها بالفشل.

وبعد هذا العرض لآراء المنتقدين في الغرب لفكرة الدولة الدينية يشير إلى ما يتعرض له العالم الإسلامي من ضغوط دولية لتطوير نظم الحكم فيه بما يتفق مع النظم الحديثة القائمة على الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والمساواة، وإعلاء صوت الشعوب وامتلاكها لزام أمرها ومشاركتها في القرار وفي الإدارة، ويمكن اعتبار رد فعل العالم الإسلامي على هذه الضغوط حالة أخرى مما يسمى (النسبية الثقافية)، وتتمثل في دفاع بعض التيارات الإسلامية عن موقفها الرافض للتحديث بالحرص على حماية الخصوصية الثقافية والدينية، ويصل هاليداي من ذلك إلى حاجة العالم الإسلامي إلى التوصل إلى صيغة تجمع بين التمسك بالمبادئ والقيم الدينية وبين مساهمة التطور العالمي في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، حتى لا تظل المجتمعات الإسلامية غريبة عن العالم ومنفصلة عن حركة التحديث. وينبه إلى أن عزلة المجتمعات الإسلامية يثير في العالم المخاوف مما يمكن أن يصدر عنها من مواقف يمكن أن تؤدي إلى مخاطر وأضرار يصعب تداركها. وباختصار فإنه يدعو العالم إلى التحرك نحو المجتمعات الإسلامية لكي يحسن فهمها ويتعرف على فضائلها، وفي نفس الوقت فإنه يدعو المجتمعات الإسلامية إلى أن تتحرك نحو العالم وتقترب منه وتتفاعل معه، وبذلك يمكن أن تذوب العداوة من الجانبين.

وهذا هو أهم ما توصل إليه هذا المفكر الكبير الذي قال ما يعتقدونه عن المسلمين والغرب، ما لهم وما عليهم. وفي كتاباته رسائل يمكن أن تفيد المسلمين إذا أحسنوا قراءتها.





## هل الإسلام يتعارض مع الديمقراطية وحقوق الإنسان؟

يناقش المستشرق البريطاني فريد هاليداي الاتهام الموجه إلى الإسلام في الغرب بأنه دين يتعارض مع مبادئ حقوق الإنسان بمفهومها الحديث، فيقول: إننا يجب أن نفهم حقيقة الإسلام، فهو ليس مجموعة طقوس وشعائر فقط، أي إنه لا يقتصر على أمور العبادات، ولكنه - بالإضافة إلى ذلك - يتناول شئون الحياة ومشكلاتها، فهو قانون للحياة.. وفوق ذلك فإن الإسلام لا يؤيد الإصلاحات الجزئية أو الحلول الوسط، ونقطة البداية في الإسلام أن يكون الإنسان على وعى كامل بمكانته الفريدة في هذا الكون، وليس مجرد مخلوق من مخلوقات الله، ولكنه أهم مخلوقات الله، فهو - بنص القرآن - خليفة الله في الأرض، فهل بعد هذه المنزلة منزلة؟ ومن خلال الوعي بعلاقة الإنسان بالكون، وعلاقة الإنسان والكون بالله يستطيع الإنسان - ذكرا أو أنثى - القيام بوظيفته في هذا العالم.

وبالنسبة لأية دولة مسلمة، فإن القضية الأكثر أهمية لحقوق الإنسان ليست فقط تحريم التمييز بين البشر بسبب اختلاف اللون، أو الجنس، أو الثقافة، لأن الإسلام أكد على حماية الأفراد من انتهاك الدولة لحقوق كل إنسان يعيش على أرضها. وهذا ما جعل الدول الإسلامية توجه النقد إلى سياسات الدول الغربية، وإلى الأمم المتحدة لازدواجية المعايير في مواقفها، كما توجه النقد أيضا إلى دول الغرب عموما في أمرين:

**أولهما - إهمال الدول الغربية لحقوق الاقتصادية للإنسان الفرد وللدول الفقيرة التي استنزفت الغرب ثرواتها.**

**وثانيهما - ضغوط الدول الغربية على الشعوب والحكومات العربية والإسلامية لفرض القيم الغربية وطمس القيم الإسلامية.**

وفي مؤتمر حقوق الإنسان نظمته الأمم المتحدة في فيينا عام ١٩٩٣ تقدمت الدول الإسلامية بوثيقة مهمة هي (إعلان القاهرة عن حقوق الإنسان في الإسلام) الذي أقره المؤتمر الإسلامي في

عام ١٩٩٠ شاركت فيه حكومات الدول الإسلامية. وفي هذا الإعلان تأكيد على أن حقوق الإنسان في الإسلام نابعة من القانون الإلهي أكثر من القانون الذي يضعه البشر، وفي هذا الإعلان تأكيد على موقف الإسلام من أربع قضايا أساسية هي: حقوق المرأة، وموقف الإسلام من المخالفين له في العقيدة، وموقفه من المرتدين، والشروط الواجبة لإقامة الحدود.

فالإسلام يقرر معاملة غير المسلمين بنفس معاملة المسلمين دون تفرقة أو تمييز. ولكن هناك مشكلة تجعل الغربيين يسيئون فهم الإسلام، وهي أن كثيرا منهم يبني فهمه للإسلام في إطار الصراع التاريخي بين الحضارة الغربية المسيحية والحضارة الإسلامية، ولذلك نجد الحديث عن الإسلام عند كثير من الغربيين هجوما وعدوانيا. والذين يدعون مُعاداة الإسلام لحقوق الإنسان مقارنة بالمفاهيم والمبادئ الحديثة لحقوق الإنسان فإنهم يظلمون الإسلام عن عمد، لأن المقارنة ليست عادلة، ففي القرون الماضية لم يكن في حضارة الغرب المسيحي احترام لحقوق الإنسان. ولم يصدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان إلا في عام ١٩٤٨، كما لم تصدر القوانين التي تحمي حقوق الإنسان استجابة لهذا الإعلان إلا في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، بل إن مبادئ حقوق الإنسان - بمفهوم اليوم - ظاهرة حديثة لم تتبلور إلا بعد عام ١٩٩٥. ومع ذلك فإن الغرب ما زال يتجاهل حقوق الإنسان المسلم في فلسطين، وكشمير، والبوسنة، وما زال المسلمون في المجتمعات الأوروبية يجدون معاملة لا تتفق مع حقوق الإنسان، بينما الاعتداءات على حقوق الإنسان في الدول الإسلامية هي التي توجه إليها انتقادات شديدة من منظمات حقوق الإنسان ومن الحكومات الغربية، وبخاصة من الولايات المتحدة منذ عهد الرئيس الأسبق جيمي كارتر والإدارات التالية بعده، ووصلت الضغوط الأمريكية على الدول الإسلامية إلى ذروتها في عهد الرئيس جورج دبليو بوش بحجة عدم احترام حقوق الإنسان، وفعلت ذلك بالتزامن مع لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة.



ويرى هاليداي أن هناك أربعة محاور تميز الخطاب الإسلامي عن حقوق الإنسان يحددها كما يلي: الاستيعاب Assimilation والخصوصية Appropriation - والإقليمية Particularism - والمواجهة Confrontation ويمكن أن يضاف إليها محور خامس هو: التنافر أو عدم التوافق Incompatibility - وهذه المحاور أو الاتجاهات الخمسة تحكم اتجاهات الذين يتحدثون عن حقوق الإنسان في الإسلام.

فالاستيعاب ظاهرة في العالم الإسلامي تجعلنا نستنكر وجود أي صراع حقيقي بين الإسلام والمفهوم العالمي الحديث لحقوق الإنسان، وذلك واضح في التفسير المعاصر للنصوص الإسلامية الذي ينجح في تقديم مفهوم إسلامي لحقوق الإنسان يتفق مع المفاهيم الحديثة. وهذا التفسير الحديث للنصوص أخذ في الانتشار في مواجهة التفسيرات المتعصبة القديمة.

والخصوصية يقصد بها هاليداي أن الخطاب الإسلامى يطرح رؤية خاصة تقوم على أن الإسلام يحترم حقوق الإنسان بدرجة أكبر من الدول الأخرى. وهذا الاتجاه يتخذ أحياناً صورة هجومية تكشف الانتهاكات في الغرب لحقوق المرأة، والأقليات، وكبار السن. بينما الدول الإسلامية أكثر تقدماً في مفهوم حقوق الإنسان ليشمل القضايا العالمية الأخرى مثل معاداة العنصرية، وحماية البيئة. ومن خلال المؤتمرات والتصريحات تسعى الدول الإسلامية لتوضيح رؤية إسلامية مميزة تدل على أن النظرية الإسلامية، والممارسة الإسلامية يمكن لهما إثراء مبادئ وقيم حقوق الإنسان المنصوص عليها في المواثيق الدولية. وبعض الإسلاميين يرون أن الإسلام هو الذى يمكن أن يقدم للبشرية الممارسة الكاملة لحقوق الإنسان. وفى هذا السياق صدر الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان فى عام ١٩٨١ الذى ينص على أن النظام العالمى يجب أن يقوم على مبادئ إنسانية عامة ترفض التفرقة بين البشر على أساس اللون، أو العنصر، أو الجنس، أو الثروة، وأن الأخوة الإنسانية فى صورتها المثالية تتحقق فى مبادئ الإسلام. وفى إعلان القاهرة أن البشر متساوون أمام الله ولا فرق بين إنسان وإنسان إلا بالتقوى، وإن كان هاليداي يلاحظ وجود اختلافات فى هذه الوثائق بين النسخة العربية والنسخة الإنجليزية. والاقليمية تتمثل فى رد الدول الإسلامية على النقد الموجه إليها فى مجال حقوق الإنسان بأن المجتمعات الإسلامية بحكم ظروفها الجغرافية والتاريخية والسيولوجية لها خصوصية تاريخية وثقافية. وأن التقاليد والعقائد فى المجتمعات الإسلامية تجعل بينها وبين المجتمعات الغربية اختلافات لا بد من مراعاتها والاعتراف بها. وهذا ما تعلنه دولة مثل السعودية التى لا تسمح للمرأة بقيادة سيارة، أو بإعطاء صوتها فى الانتخابات المحلية، أو بالاشتراك فى عضوية مجلس الشورى المعين الذى أنشئ عام ١٩٩٢. ويشير هاليداي إلى لقاء صحفى أجرى مع الملك فهد قال فيه: إن النظام الديمقراطى السائد فى العالم لا يناسبنا فى هذه المنطقة، فالإسلام هو قانوننا الاجتماعى والسياسى، وهو دستور كامل يشمل نظام الحكم والقضاء. كذلك تدافع إيران عن خصوصية مجتمعها واختلافه عن المجتمعات الغربية على أساس أن له خصوصية مصدرها خصوصية الإسلام. ويؤيد هذا الاتجاه انتشار (الأسلمة Islamization).

والمواجهة تتمثل فى تشدد تيار الإسلام السياسى فى معاداة الامبريالية والهيمنة الغربية، والثقافة الغربية. والقوانين المدنية التى يعتبرها تيار الإسلام السياسى قوانين استعمارية، انطلاقاً من معاداته لكل فكر وكل مفهوم غير إسلامى. وهذا التيار يرى أن كل تشريع يجب أن يكون مصدره الشريعة الإسلامية. وهذا الرفض لكل قانون أو نظام لم يرد به نص فى الشريعة الإسلامية يمثل تياراً من التيارات المؤثرة فى العالم الإسلامى.

أما الاتجاه إلى عدم التوافق أو التناظر فهو موجود لدى هذا التيار الإسلامى المتشدد وهو يعنى الإيمان بوجود صراع لا مفر منه بين الإسلام والقيم الغربية.

أما هاليدى فإنه يرفض نظرية وجود تنافر أو عدم توافق بين الإسلام وحقوق الإنسان بالمفهوم الحديث، ويبرر ظاهرة التنافر هذه بحالة الكراهية فى العالم الإسلامى للنزعة الامبرالية والهيمنة من العالم الغربى. ويرفض كذلك الادعاءات التى يرددها أعداء الإسلام فى الغرب بأن فى القرآن آيات تتعارض مع مبادئ حقوق الإنسان، أو أن الإسلام دين التعصب والديكتاتورية، ويقول: إن أصحاب هذه الادعاءات يتميدون تفسيراً أو رأياً أو نصاً مقتطعا من السياق لتبرير ادعاءاتهم. وهناك أيضا حكام يستخدمون النصوص وفق رؤيتهم لإحكام سيطرتهم على السلطة بادعاء أن هذا هو الإسلام وأنه مختلف عن غيره. لذلك ينبه هاليدى إلى ضرورة التفارقة بين المفاهيم الإسلامية الصحيحة والمفاهيم التى تروجها نظم الحكم الديكتاتورية الحديثة التى تتستر بالإسلام.



ويتحدث هاليدى عما يسميه (النسبية الثقافية) ويرى أن الذين يوجهون النقد إلى النظم السياسية والاجتماعية فى العالم الإسلامى لا يضعون فى اعتبارهم هذه النسبية الثقافية، أى إن هناك اختلافات بين ثقافة المجتمعات نابعة من طبيعة كل مجتمع وظروف تطوره التاريخى، وكل محاولة لفرض ثقافة واحدة على جميع المجتمعات فى العالم ليست سوى (الحلم المستحيل) لأن المراحل التاريخية، والأحداث، ودرجة التطور العلمى والتكنولوجى والدينى، ليست واحدة فى كل دول العالم. ولذلك يرفض هاليدى فكرة وجود (قيم عالمية) ويقول: هناك قيم تنتجها عصور معينة فى كل مجتمع، وهى تخص هذا المجتمع والمجتمعات الماثلة له. والدليل على ذلك أن هناك من يتحدث عن (عالم إسلامى) واحد، كما أن هناك من يتحدث عن (مجتمع أفريقى) أو (مجتمع آسيوى)، فهذا التعميم مضلل، لأن الحقيقة أن هذا (العالم الإسلامى) يتكون من أكثر من خمسين دولة، وكل دولة منها تطبق مجموعة من النظم الشرعية والسياسية تختلف عما فى بعضها الآخر، ولا يوجد هيكل واحد يجعل هذه الدول عالماً واحداً بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح، كما أنه ليست هناك دولة منها يمكن أن تدعى أنها هى (النموذج) أو التجسيد للقيم الإسلامية، مع أن كل دولة تقول ذلك. والدين الإسلامى ليس فيه سلطة دينية لاهوتية مركزية واحدة كما فى الكاثوليكية، فليس فى العالم الإسلامى (بابا) يخضع له الجميع ويأتمرون بأمره. الأزهر فى مصر هو المؤسسة الوحيدة التى تعبّر عن الإسلام السنى، ولكن ليست له سلطة على جميع المسلمين فى العالم، وأوامره ليست ملزمة. وكثير من رجال الدين الإسلامى فى مصر ذاتها وفى خارج مصر يختلفون فى الفتاوى والأحكام التى يصدرها. وجامعة الأزهر هى جامعة أكاديمية مثل غيرها من الجامعات فى دول العالم ذات الطابع الدينى..

ويعزز هاليدى رأيه فيقول: إن هناك كثيرين يريدون أو يدعون أنهم يتحدثون باسم الإسلام وهم ليسوا كذلك. فما يقال فى السعودية يختلف عما يقال فى تونس، والتفسير أو الفتوى من أحد

علماء الدين فى بلد إسلامى لا يمثل تفسير وفتاوى سائر علماء المسلمين، فكل واحد من العلماء المسلمين يتحدث عن نفسه ويعبر عن فهمه الخاص. وهناك من يحاولون استنباط القوانين العلمية من القرآن فى الكيمياء والفيزياء والهيدروليكا والمغناطيسية وفى المحاسبة والإحصاء وغيرها، وغيرهم يحاولون استنباط مبادئ حقوق الإنسان من القرآن والسنة، بينما يرفض علماء مسلمون على ذات المستوى من العلم والكفاءة هذه المحاولات. ويرى هؤلاء أن الدين دين والعلم علم والسياسة سياسة ويجب عدم الخلط بينها وإعطاء كل شىء صبغة دينية لأن ذلك ليس فى صالح الدين.. وعلى مدى التاريخ الإسلامى هناك فقهاء متشددون وفقهاء متحررون. هناك فقهاء إصلاحيون ومجددون وفقهاء يرفضون الإصلاح والتجديد ويتمسكون بكل ما فى التراث من آراء القدماء دون أن يتزحزحوا عنه قيد أنملة. وهناك من يقبل فكرة فصل الدين عن شئون السياسة وإدارة الدولة وهناك من يرفض ذلك. والخلاصة - فى رأيه - أنه ليس هناك مجتمع إسلامى واحد ولكن هناك مجتمعات إسلامية متعددة. وليس هناك قيادة إسلامية واحدة ولكن هناك قيادات إسلامية محلية لكل بلد. وليس هناك فقه واحد ولكن هناك مدارس فقهية بينها اختلافات، وليس هناك تفسير واحد ولكن هناك أكثر من تفسير. وكل ذلك يحسب للإسلام ولا يحسب عليه، لأنه يسمح بتعدد الاجتهادات فى الأحكام والاختلاف فى الفهم والاستنباط، وإن كان هناك إطار واحد يجمع الكل هو القرآن.

ويخلص هاليدى من ذلك إلى أنه ليس من حق أية جماعة أن تدعى أنها هى التى تمثل الإسلام وأن غيرها لا يمثلها، أو أنها هى وحدها التى تمتلك الحقيقة فى فهم وتفسير الإسلام دون غيرها. ويرى من ذلك أن محاولة (أسلمة) كل شىء ليس موقفاً إسلامياً صحيحاً لأن القاعدة التى وضعها نبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) للمسلمين هى: (أنتم أعلم بشئون دنياكم). وإن كانت بعض الدول تعلن الادعاء بتمثيل الإسلام فإنها تسعى بهذا الادعاء إلى إحراز مكاسب خاصة ونفوذ سياسى من وراء ذلك.

وعلى ذلك فإن نظم الحكم التى تمارس القمع وانتهاك حقوق الإنسان لا يمكن قبول ادعائها بأنها تطبيق بذلك الشريعة الإسلامية. والذين يطالبون بتفسير للإسلام أكثر اعتدالاً وتحرراً وتوافقاً مع التطورات العالمية ليسوا زنادقة ولا خارجين على الإسلام كما يدعى المتشددون (المتأسلمون).



ويبدى هاليدى ملاحظته على معظم المعبرين عن التيار الإسلامى الذين يعلنون رفضهم لثقافة وحضارة الغرب. ومع ذلك فإنهم يستخدمون المفاهيم والمصطلحات الغربية مما يدل على اتصالهم وقبولهم وتفاعلهم مع ثقافة الغرب. فهم مثلاً يتحدثون عن (ازدواجية المعايير) عندما يشيرون إلى ادعاء الولايات المتحدة بأنها تدافع عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها بينما ترفض أن يكون للفلسطينيين هذا الحق، وادعائها بأنها تدين انتهاكات القانون الدولى ومبادئ حقوق الإنسان فى

الدول الإسلامية وتسمح باستمرار انتهاكات الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية والسورية منذ عام ١٩٦٧، وادعائها بأن المقاومة الوطنية للاحتلال (إرهاب) بينما هي التي تشجع إرهابيين في دول أخرى على أنهم (مقاتلون من أجل الحرية)، وادعائها الدفاع عن سيادة الدول وهي تنتهك سيادة الدول وتسمح لنفسها بغزو الدول.. وهذه الانتقادات للمواقف والسياسات الأمريكية صحيحة ولكن المهم أن المسلمين الذين يرفضون الثقافة الغربية يستخدمون لغة ومبادئ وقيم الثقافة الغربية في نقدهم للولايات المتحدة وللغرب عموماً. وهذا يؤكد أن (النسبية الثقافية) لا تمنع من (التواصل والتفاعل الثقافي). فالنسبية الثقافية عند المسلمين لا تعني الانعزال، كما لا تعني التفرد الثقافي.

ويرى هاليداي أن الدول الإسلامية تقابل النقد الموجه إليها من الغرب في مسألة انتهاك حقوق الإنسان بردود أفعال سلبية، إما بالقول بأن دول الغرب لها سجل إمبريالي ملئ بالانتهاكات لحقوق الإنسان، أو بتكرار الحديث عن الانحدار الأخلاقي في حضارة الغرب فيما يتعلق بالجريمة والعلاقات الجنسية ومعاملة العجزة وكبار السن إلى آخر القائمة الشائعة في كتابات المسلمين. ومن أمثلة ذلك ما قاله وزير الخارجية الإيراني (على أكبر ولاياتي) في كلمته أمام الأمم المتحدة عام ١٩٩٣، هجوماً على الغرب لسعيه إلى فرض القيم غير الإسلامية على العالم الإسلامي، ربط ذلك بالأزمة الأخلاقية والحرية المنفلتة بغير حدود في الغرب. وجاء في كلمته: (إن بعض الدول الغربية أرادت أن تفرض انحدارها الأخلاقي والاجتماعي على الدول الأخرى، بينما تعترف هي نفسها بهذا الانحدار، ولكنها تغلفه بغلاف جذاب هو حقوق الإنسان).

وحين أشار تقرير لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة إلى انتهاكات حقوق الإنسان في إيران وجه المسؤولون والصحافة في إيران هجومهم إلى دول الغرب على أنها تتلاعب بشعار حقوق الإنسان لأهداف سياسية، بينما تسكت في نفس الوقت عن الاعتداءات على حقوق الإنسان في فلسطين وفي البوسنة وفي غيرها، وقال وزير خارجية إيران أمام الأمم المتحدة: (إن الطريق الوحيد لتعزيز مبادئ حقوق الإنسان في أنحاء العالم هو إنهاء المعايير المزدوجة التي يمارسها الغرب وعدم استغلال قضية حقوق الإنسان لأغراض سياسية، ووضع آلية دولية مستقلة غير متحيزة للتحقق من احترام حقوق الإنسان في جميع دول العالم دون استثناء بما في ذلك الدول الغربية نفسها).

ويلحق هاليداي على ذلك باتفاقه على أن دول الغرب تمارس ازدواجية المعايير وتسمح لنفسها بما تستنكره من غيرها، ويؤكد على أن انتهاكات حقوق الإنسان في الدول الإسلامية مسألة تتعلق بالسياسة ونظم الحكم وليست لها علاقة بالدين الإسلامي أو بالخصوصية الثقافية. ويقول: إن الإسلام دين موجه إلى كل البشر وليس موجهاً إلى شعوب معينة دون غيرها، وبالتالي فليس في العقيدة الإسلامية أية إشارة أو دعوة إلى انتهاك حقوق أية فئة أو أية شعوب. والذين يدرسون الإسلام بحياد ودون انحياز يدركون أنه - على عكس ما هو شائع في الفكر الغربي - دين يحترم

الإنسان لمجرد أنه إنسان بصرف النظر عن العقيدة أو اللون أو الجنس، وينظر إلى الناس جميعاً على اختلاف لغاتهم ودياناتهم على أنهم متساوون. ولكن الصدام ينشأ بين الغرب والإسلام لسبب آخر - غير حقوق الإنسان - هو أن السلوك الغربى الآن هو السلوك المعترف به دولياً على أنه السلوك الحضارى الذى يجب أن ينتشر فى العالم، فى إطار (العالية) أو (العولة) الاقتصادية والثقافية، بينما الإسلام دين موجه إلى كل البشر، فهو أيضاً يدعو إلى (عالية) أو (عولة) مختلفة. ومن هنا نشأ الصراع، فهو صراع بين مفهومين، أو شكلين، من مفاهيم وأشكال العالمية أو العولة.



وينبذه هاليداي إلى أن المسلمين أنفسهم يشاركون فى المسئولية عن الالتباس فى المفاهيم والقيم الإسلامية، وذلك بإضفاء الصفة الشرعية الإسلامية على عادات وتقاليدها الاجتماعية تعبر عن مجتمعات بعينها وليست من أصول عقيدة الإسلام، مثل (شرف القبيلة) ونظام القبيلة ذاته الذى يصل التمسك به إلى حد التعصب فى أفغانستان وباكستان، ومثل ممارسة ختان الإناث فى المجتمعات الإسلامية، فهى عادات وليست عبادات، ولكن المسلمين يصبغونها بالصيغة الإسلامية وكأن من يخرج عليها يكون خارجاً على الدين الإسلامى، ومثل حرمان المرأة من تولى مناصب معينة وممارسة حقوقها السياسية.

ويبدى هاليداي ملاحظة يرى أنها تمثل عاملاً من عوامل سوء الفهم على الجانبين الإسلامى والغربى، وهى وجود تيار إسلامى يريد أن يغير الثقافة الغربية، ويغير الفكر والسلوك والقيم ويجعل كل شيء ذا طبيعة إسلامية حتى الملابس والطعام، ويتجاهل أسلوب الحياة الغربى المتأصل والذى لا يمكن للغربيين التنازل عنه لأنهم يرون أنهم وصلوا إليه بعد مراحل عديدة من النضال والتطور. ولا يريد أنصار هذا التيار الاقتناع بأن القانون الإلهى يحدد للبشر الطريق إلى الإيمان بالله وما يترتب على ذلك من أوامر ومحظورات إلهية محددة على سبيل الحصر فى النصوص المقدسة، أما بقية شئون الحياة فهى متروكة لدرجة التطور التى يصل إليها كل مجتمع ما دامت لا تتعارض مع الأصول والمبادئ الأساسية فى العقيدة.

هاليداي إذن يطالب المسلمين بالترقية بين ما هو سياسى واجتماعى وثقافى وبين ما هو دينى، وعدم الخلط والتوسع مما يجعل عدم ارتداء ملابس معينة، أو عدم إطلاق اللحية، أو عدم ختان البنات، خروجاً على الشريعة الإسلامية وكفراً يستوجب العقاب فى الدنيا والآخرة، مع أن المسلمين يسايرون الحضارة العالمية ويستخدمون الكمبيوتر والتليفون والكهرباء كما يستخدمون فى بيوتهم الأجهزة الكهربائية، ويركبون السيارة والقطار والطائرة، وكذلك فإنهم يستخدمون (الأسانسير) وغير ذلك كثير من منتجات وتجليات الحضارة الغربية ولا يرون أنها تخالف الشريعة. كذلك



يأخذ الغرب بعض العادات والأفكار الإسلامية ويستوعبها في حضارته، مما يعنى أن التواصل قائم، وأن الأخذ والعطاء والتفاعل من الأمور الطبيعية فى العالم، بحيث لم يعد ممكناً أن يكتفى مجتمع بنفسه ويستغنى عن غيره، ولذلك فإن مقولة (إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يجتمعا) التى كانت تتردد قديماً لم تعد مُعبرة عن الواقع، لأن الشرق والغرب يمكن أن يجتمعا، ومن مصلحة كل منهما أن يجتمعا.



ويتساءل هاليداي: هل صحيح ما يردده بعض مفكرى الغرب من أن الإسلام يرفض الديمقراطية، وأن نظامه السياسى الإسلامى قائم على القمع والديكتاتورية، وهؤلاء يستشهدون بعدد من الدول التى تقدم نفسها للعالم على أنها دول تطبق نظام الحكم الإسلامى بينما هى تطبق الديكتاتورية التى تخلص من أى مظهر من مظاهر الديمقراطية والحريات. ويجيب: إن هذه النظم تدعى أنها قائمة على الشرعية الإسلامية، وأنها تحكم بسلطة إلهية، وأن الخارج عليها خارج على حكم الله، ولكنها- عند التحليل- ليست سوى نظم سياسية متخلفة أشبه بما كانت عليه دول الغرب منذ قرون حين كانت نظم الحكم الديكتاتورية تمارس الاستبداد باسم الدين وتدعى أنها تستمد سلطتها من الكنيسة وباسم المسيح. وفى مثل هذه الحكومات تنتشر السجون وعمليات التعذيب والقمع والإعدام وإبادة قتل المعارضين وفرض الرأى الواحد واعتبار التعددية فى الرأى خروجاً على الدين. هذه الحكومات تفرض على جميع مواطنيها أن يرددوا خطاب السلطة وأفكارها. وتحتكر هذه الحكومات سلطة تحديد ما هو حلال وما هو حرام. هذه الحكومات تفرض على الشعوب نوعاً من الغيبوبة الفكرية بحيث يفقد الإنسان الفرد ملكة التفكير المستقل، ويرفض الأفكار المخالفة لأفكار السلطة كما يرفض الاستفادة من ثقافات ومجتمعات أخرى.

المجتمعات الإسلامية إذن - وفقاً لتحليل هاليداي - ترفض الاندماج فى المجتمع العالمى بحجة الحفاظ على الخصوصية والهوية والشخصية الإسلامية المتميزة، ولكنها فى نفس الوقت لا تستطيع أن تمنع نفسها من التأثر بالحضارة العالمية، والأخذ منها والاعتماد عليها فى كثير من شئون حياتها. وهذا ما يجعل الأمر يبدو وكأنه صراع أو تناقض بين الغرب والإسلام، فتظهر على السطح تيارات الرفض للغرب حيناً، وفى حين آخر تظهر تيارات القبول والتفاعل، والمفروض أن يتحرك المفكرون والقادة فى الغرب والعالم الإسلامى معاً لإزالة هذا التناقض والتوصل إلى صيغة للتعايش والتعاون وتبادل المنافع دون تبادل الاتهامات. وهذه دعوة تستحق التفكير.



يعترف هاليداي بأن الشعوب الإسلامية لديها أسباب تدعوها إلى عدم الثقة فيما يردده الغرب عن الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان والعدالة، بينما تسعى دول الغرب هذه إلى الهيمنة على



الشعوب الصغيرة واستغلال ثرواتها ولا تطبق المعايير الأخلاقية إلا على الشعوب الغربية وتطبق على شعوب العالم الثالث معايير وقيماً أخرى على النقيض. وفي نفس الوقت يرى أن الخطاب الإسلامى الموجه للغرب يجب أن يخفف من اللهجة العدوانية ومن اتهام المجتمعات الغربية بأنها مجتمعات جاهلية فاسدة. فإن مثل هذه الأفكار تؤدي إلى سوء الفهم، وإلى سوء التفاهم ثم إلى العداء. ولا بد أن يقوم التعاون الدولي سياسياً واقتصادياً وثقافياً على أساس التسامح الدينى وقبول الاختلاف.



ولأن البروفيسور فريد هاليداي أستاذ للعلاقات الدولية فإنه يستخدم فى تحليله لظاهرة العداء للإسلام النهج التكاملى الذى ينظر إلى هذه الظاهرة من زاويتين هما: الدين، والسياسة، وفى رأيه أن هذا العداء مرتبط بمصالح الغرب الاقتصادية والسياسية أولاً، وبالتاريخ القديم من الحروب والصراعات ثانياً، وبانحياز الغرب لإسرائيل وقبوله لسياستها فى اغتصاب أرض الفلسطينيين، وقتلهم، وإنزالهم.

ولا ننس أن بات بوكانان Pat Buchanan أعلن فى حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٢. «أنه فى مراحل سابقة من تاريخ البشرية كان الصراع بين المسيحية والإسلام، وفى القرن الحادى والعشرين سوف يتكرر هذا الصراع مرة أخرى. فالجهادون المسلمون الذين وصلوا بقواتهم إلى أبواب فيينا عاصمة النمسا فى القرن السابع عشر، هل سيكررون ذلك فى القرن الحادى والعشرين؟». بوكانان يرى أن الإرهاب يهدد الغرب تحت راية الإسلام وباسم الجهاد، أما هاليداي فإنه يرفض هذا التصور لخطورة الإسلام على الغرب، ويطالب المفكرين بالبحث عن الأسباب الحقيقية للتوتر فى العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب عموماً، والولايات المتحدة على وجه الخصوص. والبداية الصحيحة لذلك كما يراها هى تفهم أوضاع العالم الإسلامى، وسياسات الغرب تجاهه. بينما يتجاهل أصحاب نظرية التهديد الإسلامى للغرب دراسة طبيعة الدول الإسلامية، وانتشار نظرية المؤامرة فى الثقافة السياسية فى العالم الإسلامى، والصعوبات فى إقامة نظم ديمقراطية فى الدول الإسلامية، والفوضى التى تعم العالم الإسلامى نتيجة السياسات الامبريالية والسعى إلى الهيمنة وتأثير ذلك على العقل والثقافة والتوجهات والمشاعر فى العالم الإسلامى. كذلك فإن هاليداي حريص على إبراز حقيقة مهمة، هى أن الظواهر السياسية والاجتماعية التى تعتبر مرفوضة من الغرب، ليست مقصورة على العالم الإسلامى، ولكنها موجودة فى مجتمعات أخرى غير إسلامية، مثل أمريكا اللاتينية، والصين، واليونان، وحتى فى الولايات المتحدة نفسها.

ويرى هاليداي أن نظرية المؤامرة فى العالم الإسلامى لها مبرراتها التاريخية والثقافية ويجد القائلون بها أدلة كثيرة على صحتها من الحروب واستنزاف الثروات من جانب الغرب، ومن

محاولات التأثير الثقافي لتغيير ثقافة العالم الإسلامي. وإذا نظرنا إلى تأثير النظم الديكتاتورية على النشاط الاقتصادي، وعلى علاقات الدول الإسلامية بالدول الديمقراطية في الغرب، وعلى قمع الأفكار الإصلاحية ورفض التطور، فسوف نجد أن ذلك كله يصطبغ بصبغة إسلامية، وهذا ما تفرضه السلطة الحاكمة وليس ما يفرضه الدين الإسلامي وتنسى السلطة استغلال الأمر الوارد في القرآن للمسلمين بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الأمر، وبناء على ذلك يسيئون استخدام السلطة ويعتبرون كل نقد أو معارضة أو مطالبة بالإصلاح خروجاً على الطاعة الواجبة التي قررها الله، وهذا المفهوم للسلطة يروج له الحكام ولا يعبر بدقة عن القصد الإلهي من الطاعة. ومع ذلك فهناك دول إسلامية فيها قدر من الديمقراطية والليبرالية والانفتاح الاقتصادي والثقافي، وهذا يدل على أن الديمقراطية يمكن أن تنمو في المجتمع الإسلامي.

يقول هاليداي: إن منطقة الشرق الأوسط ليست نشازاً عن السياق العالمي، ولكن الذي يجعلها تبدو كذلك مجموعة الخرافات التي يروج لها كثيرون في داخل المنطقة وخارجها. ولابد أن يدرك كل من يتحدث عن الشرق الأوسط أن هذه المنطقة تعيش شعوب فيها لها تاريخ طويل، وثقافة عريقة، وتراث حضاري ممتد عبر العصور، وهي شعوب لها إرادتها ومصالحها وطموحاتها، وهي تعاني من الظلم المفروض عليها من الخارج والداخل. ولابد من إعادة دراسة العالم الإسلامي بروح جديدة، فيها الحياد والإنصاف والموضوعية.. ولا نزل أسرى للأفكار الجاهزة التي يتناقلها الباحثون دون فحص وتمحيص، لأن هذه الأفكار الجاهزة تعوق سير العلاقات بسلاسة بين دول الغرب والدول الإسلامية، مع أن الدول الإسلامية ذات أهمية كبيرة جداً للغرب ولمصالحه. ومن الضروري عند دراسة العالم الإسلامي ألا يتم ذلك بالمعايير والمفاهيم الغربية وحدها، وأن نراعي ظروف هذا العالم ودرجة التطور التي وصل إليها كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية، فليست كل الدول الإسلامية على درجة واحدة من التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

ويتوقف هاليداي عند الآيتين الكريمتين ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿(البقرة ١١٢-١١٣) وفيهما دعوة للتعايش بين الأديان وترك الحكم على أيهما الأصلاح لله وحده، ولن يكون ذلك إلا يوم القيامة كما قال الله في كتابه. كما يشير إلى الآية الكريمة ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة ١٣٦) وهي دليل على أن الإيمان بالإسلام يقتضي الإيمان بجميع الأنبياء

والرسل والكتب والأديان السابقة عليه. والآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة ٢٠٨) وهى دعوة صريحة قاطعة للمسلمين لكى ينحازوا إلى السلام وليس إلى الحرب أو العدوان أو الإرهاب. ويدعو هاليداي المفكرين فى الغرب إلى تأمل الآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات ١٣) ويقول إنها قمة التعبير عن المساواة بين الرجل والمرأة عند الله، وقمة الدعوة إلى الحوار والوفاق والتعاون بين الشعوب، فإذا كانت هذه هى دعوة الإسلام فلماذا لا يتفهمها الغرب ويتعامل مع المسلمين بما يتفق معها؟!.

عامل آخر تسبب فى الجفوة ثم العداء - بين الإسلام والغرب هو انحياز الغرب لإسرائيل ضد العرب والمسلمين، منذ هجرة اليهود الجماعية إلى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر، وإقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، والمذابح التى ارتكبتها الإسرائيليون للمسلمين أثناء الصلاة، وأكبرها المذبحة التى قام بها الإرهابى الإسرائيلى باروخ جولدشتين فى المسجد الأقصى فى فبراير ١٩٩٤ وقتل ٢٩ مسلماً أثناء صلاة الفجر. هذه المذبحة فى نظر المسلمين تمثل ذروة العداء للإسلام والمسلمين، وأكّدت تحذير القرآن للمسلمين من اليهود، كما أكّدت المخاوف ممّا يراه المسلمون من إقامة دولة يهودية على أرضهم واحتلال أراض أخرى والاعتداء على المساجد، وقد تسبب كل ذلك فى نشأة اعتقاد لدى المسلمين يترسخ منذ عقود بأن إسرائيل أنشأها الغرب بدافع العداء للمسلمين، وأنها مؤامرة من الغرب لاغتصاب أوطان المسلمين. ويفغذى هذا الشعور ما يعلنه القادة الإسرائيليون والحاخامات من أن العرب هم الأعداء القداماء لإسرائيل، ويستدعون قصة العمالق المذكورة فى القرآن، وما فى التوراة من دعوة إلى قتل كل (الأغيار) أى غير اليهود.

ويرى هاليداي أن العلاقة بين المسلمين واليهود علاقة معقدة لها جذور تاريخية قديمة، ولا يمنع ذلك وجود الأصوات المنادية بالتسامح ونسيان الماضى. وفى نفس الوقت، كانت المجتمعات الإسلامية أكثر تسامحاً وقبولا لليهود من المجتمعات الغربية، فقد عاش الكثير من اليهود مع المسلمين على قدم المساواة فى المجتمعات الإسلامية، بل كانت لهم مكانة متميزة فى بعض العصور، ولم تكن لهم مثل هذه المكانة أبداً فى المجتمعات المسيحية، حتى إن الأعداد الكبيرة من اليهود الذين طردتهم أسبانيا لم يجدوا أرضاً تأويهم إلا أراضى الدول الإسلامية. ولم يظهر العداء إلا متأخراً، أما فى عصور الدولة الإسلامية - الأموية والعباسية وما بعدهما - فقد كان لليهود إسهامات كبيرة فى الثقافة والأدب والفكر والسياسة. ولا ننس أن الطبيب الخاص للقائد الإسلامى صلاح الدين الأيوبي الذى طرد الصليبيين من القدس كان يهودياً. وفى العصر

الحديث لم تكن المحارق والمعتقلات والاضطهاد لليهود في دول إسلامية ولكنها كانت في دول غربية، ولكن مع ظهور الحركة الصهيونية بدأت المواجهة بين اليهود والعرب، وظهر عداوة اليهود للعرب ليس لأنهم مسلمون ولكن لأنهم (أغيار). وتنافس الكتاب اليهود في تشويه صورة العالم الإسلامي. وعلى سبيل المثال ما نشروه في الغرب من مقارنة حكم عبد الناصر في مصر بحكم هتلر في ألمانيا، والادعاء بأن هذا النظام كان يريد إلقاء اليهود في البحر. وليس ذلك جديداً فقد ظهرت لغة جديدة لليهود عند الحديث عن العرب منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر حتى إنهم كانوا يسمون العرب في فلسطين (الحمير).



والشروع الصهيوني - كما يقول هاليداي - قام على أساس طرد العرب - المسلمين والمسيحيين - من أرضهم في فلسطين. وهكذا قام هذا المشروع على إنكار حقوق وإنسانية العرب في فلسطين على أساس عرقي (عنصري). وكان شعار: (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) يحمل الرفض والنفى والعداء للفلسطينيين. وعبر عن ذلك الشاعر الصهيوني الأول (بن يهودا) بقوله: (كم هي جميلة إسرائيل بدون عرب). وكان شعور اليهود الأوروبيين المهاجرين إلى فلسطين في البداية أنهم طليعة للحضارة الأوروبية في مواجهة المتخلفين الهمج الذين وجدوهم في فلسطين. ولم يكن ذلك التوجه مختلفاً عن توجه المستوطنين الأوروبيين البيض في جنوب أفريقيا وغيرها من دول العالم الثالث، وكان ذلك تعبيراً عن (غرور الحضارة). ولم يكن التحامل على العرب وحدهم، بل كان أيضاً على اليهود الشرقيين الذين اعتبروهم غير متحضرين مثل العرب وإن كانوا أفضل منهم بقليل لأنهم يهود. وهناك مفردات في اللغة العبرية كان اليهود الغربيون يستخدمونها للإشارة إلى اليهود الشرقيين مثل: راع وسفاحون - وساكنو الكهوف - ووثنيون - ومتعصبون - ووصل الأمر إلى أن الجنرال مردخاي جور رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق حين كان مرشحاً عن حزب العمل وجه تحذيراً إلى مجموعة من اليهود الشرقيين مؤيدي حزب الليكود الذي كان في المعارضة قال لهم فيه: (سندمركم كما دمرنا العرب في حرب الأيام الستة). وكانت الأعمال الفاشلة يشار إليها بمصطلح: (Avada Aravit) ومعناه (عمل عربي) أي عمل عشوائي وفاشل وغير متقن. كذلك أصبح مصطلح (Shluhim) ومعناه ساكنو الكهوف يطلق على اليهود العرب المهاجرين من المغرب إلى إسرائيل.

يستخلص هاليداي بعد استعراض لمظاهر عداوة الإسرائيليين للعرب والمسلمين أنهم يعبرون عنه بلغة عنصرية تجاه غير اليهود عامة ولأصحاب الأصول العربية على وجه الخصوص. ولكن بعد حرب ١٩٦٧ نشأت درجة من العداوة ذات طبيعة خاصة، وازدادت بعد الثورة الإيرانية الإسلامية. ففي أعقاب حرب ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لأراضي الضفة الغربية وغزة بدأ الحاخامات المتشددون يقدمون التبرير الديني ويستعيدون التراث اليهودي لتبرير الاحتلال وممارسة العنف ضد العرب،

وعبر عن ذلك الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي صموئيل ديرليتش في رسالة وجهها للجنود قال فيها : إن حربهم ضد العرب مهمة دينية وردت في التوراة وفرضت على اليهود (تدمير العماليق). وعندما اعترض على ذلك بعض القادة كتب أربعون من كبار الحاخامات رسائل دفاعا عن هذه العقيدة وأكدوا أنها مُعبّرة عن الشريعة اليهودية. ومنذ منتصف السبعينات من القرن العشرين لعبت أحزاب اليمين الديني دورا كبيرا في توجيه السياسات الإسرائيلية، ونشرت المشاعر العدائية تجاه غير اليهود، وجاءت الثورة الإيرانية لتزيد هذا العداء بعدائها الواضح لوجود إسرائيل، وتأييد الشيعة في لبنان لهذا الاتجاه منذ عام ١٩٨٢ (حزب الله) ونشأة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) حتى إن إسرائيل بدت في أواخر الثمانينات على أنها في معركة مع العالم الإسلامي. ومع ذلك فقد فاقت حركة (كاخ) الصهيونية كل ما عداها في درجة العداء للعرب. وهي الحركة اليهودية المتطرفة التي أنشأها الحاخام (مائير كاهانا) وكان لها تأثيرها على السياسة الإسرائيلية منذ أوائل التسعينات من القرن العشرين وحتى اغتيال كاهانا في نيويورك عام ١٩٩٠. فقد أرسى كاهانا مفهوما عدوانيا للتلمود يفرض قتال غير اليهود، وكانت دعوته الأساسية هي طرد العرب بالقوة من إسرائيل. وقدّم كاهانا مشروع قانون يحرم إقامة علاقة جنسية بين اليهودي أو اليهودية وغير اليهودية أو غير اليهودي، ويرفض منح الجنسية أو صفة المواطن في إسرائيل لغير اليهود. وكان أنصاره يرددون الهتاف : (الموت للعرب وأصدقائهم اليساريين اليهود).



كانت لغة كاهانا مليئة بالكرهية بدرجة تثير الاشمئزاز مثل قوله : (العرب سرطان.. سرطان.. سرطان.. موجود معنا، ولكن ليس في إسرائيل رجل يريد الاعتراف بذلك.. إنني أخبركم بما يفكر فيه كل منكم ويشعر به في أعماق قلبه ولا يوجد حل سواه: فليخرج العرب.. لا تسألوني كيف.. دعونى أصبح وزيرا للدفاع لمدة شهرين فقط ولن تجدوا هنا أحدا من هذه الصراير.. أعدكم بأن أجعل إسرائيل نظيفة). وفي هذا السياق أصبحت اللغة المعادية للعرب والمسلمين يتم تداولها علنا في إسرائيل، وخاصة بين المستوطنين في الضفة الغربية، وأحزاب اليمين الديني والسياسي. وأصبح هؤلاء يستشهدون كثيرا بالآيات (٥-٩) من المزمور (١٤٩) الذي يتلى في صلاة الصباح اليهودية ويقول : (دع تسبيحات المولى تكون في أفواههم، وسيقا ذا حدين في أيديهم للثأر من الذين يدينون بالوثنية، ولفرض العقوبات على دولهم وتقييد ملوكهم ونبلائهم بسلاسل من حديد). وكانت هذه الآيات تستخدم لإثارة المستوطنين للهجوم على الفلسطينيين، وانتشرت على الجدران عبارات عدائية مثل (الموت للعرب) و(اصنعوا اللحم المفروم من لحم العرب). وفي جنازة المتطرف اليهودي باروخ جولدشتين الذي ارتكب مذبحه المسجد الأقصى أعلن أحد الحاخامات : (إن مليون عربي لا يساؤون ظفر يهودي واحد). ومثل هذه الروح منتشرة في المؤسسات الدينية وحاخامات الجيش

وزعماء الأحزاب اليمينية وقادة المستوطنين. وعبر عن هذه الروح الحاخام موردخاي عيديا حين طالب الحكومة بالسماح باستخدام أعضاء العرب الذين يقتلهم الجيش الإسرائيلي في زراعة أعضاء للمحتاجين إليها من اليهود، ذلك لأن استخدام الأعضاء البشرية من أجسام اليهود حرام بالنسبة للتفسير اليهودي القائم على قداسة اليهود. وكذلك أعلن الحاخام عوفاديا يوسف رئيس حزب شاس الديني رأيه بوضوح في خطبة قال فيها: (إن العرب أسوأ من الحيوانات المتوحشة). وإن كانت مثل هذه العبارات لا تظهر على ألسنة السياسيين الإسرائيليين إلا أنها - مع ذلك - عبارات منتشرة في قطاع مؤثر يشعر بأنه يستطيع أن يصرح بهذه الآراء وينشرها دون خوف من الاعتراض القانوني أو السياسي عليها.

ويبدأ هاليداي دهشته لأن الذين يعلنون العداء للمسلمين في إسرائيل، هم أنفسهم الذين يكررون الشكوى من وجود عداء من المسلمين لليهود وينبشون في التوراة عما يؤيد دعواهم. وينشرون في العالم أن المسلمين جميعا يشعرون بالعداء لليهود، وفي المقابل فإن كثيرا من المسلمين يعتقدون بأن اليهود أعداء الإسلام، وفي ذلك تشويه للتاريخ الحقيقي للعلاقة بين الإسلام واليهود، وهناك ادعاء قوى بأن العداء للسامية يتزايد في العالم العربي والإسلامي. ويستخدم الإسرائيليون المتشددون هذا الادعاء بالقول بأن الفلسطينيين مثل النازيين، أو بأنهم مثل الفلاحين في أوكرانيا الذين قتلوا اليهود في مذابح رهيبة في القرن السابع عشر. ولا يمكن إنكار وجود جذور للعنصرية المعادية للعرب لدى اليهود المتطرفين ومثالهم الحاخام مائير كاهانا. وتظهر كذلك في نيويورك في المشاعر المعادية للعرب مختلطة بالعداء للنازية وللأسود. وكان شعار كاهانا (إن العرب هم آخر أعداء اليهود). والوقائع والنماذج كثيرة في مذابح ارتكبتها الإسرائيليون على مدى أكثر من نصف قرن، وشخصيات مثل حاييم وايزمان، وبن جوريون، وبلفور، وبيل، وعلى الجانب الآخر نجد عبد الناصر والخميني كما يقول هاليداي.

فالعداء للعرب - كما يقول - ظاهرة أيديولوجية في إسرائيل.



ولا بد أن نذكر للبروفيسور فريد هاليداي شجاعته في التحليل العلمي لظاهرة العداء للعرب والمسلمين في الغرب والتحذير من انتشار هذه الأيديولوجية وما يترتب عليها من سياسات اقتصادية وعسكرية. وكذلك لا بد أن نشيد بوقفته للتصدي لما في الصحافة والخطاب السياسي في الغرب من تحامل على العرب والمسلمين، وإعلان شعوره بالخزي مما ينشر ويقال.

ولا بد أن نذكر له كتاباته المتميزة للفرقة بين العداوة في الماضي لأسباب مختلفة لم تعد قائمة الآن، وضرورة تجاوز هذا التاريخ القديم من الحروب والاستغلال والكراهية والنظر إلى الحاضر بعيون أخرى وبروح جديدة للتسامح والتعاون. وكذلك عدم التوقف عند ظواهر اجتماعية معينة

ونسبتهـا إلى الإسلام دون النظر إليها فى سياقها الاجتماعى والسياسى. فليس من الموضوعية ربط الإسلام بالإرهاب، أو باضطهاد المرأة، أو بكراهية الآخر.

وفى نفس الوقت لا بد أن نحترم الآراء التى توصل إليها وألقى فيها اللوم على المسلمين فى بعض الأمور، واشتراكهم فى المسئولية عن ظهور ونمو هذا العداء، مثل قول بعض الفرق الإسلامية: بأن الإسلام يجب أن يسود الغرب بالدعوة أو بالقوة، أو الإعلان عن عدائها للغرب وسعيهم إلى تدميره، لأن هذه الأقوال وأمثالها تعطى المبرر لتيار العداء للإسلام فى الغرب وتغذيه، وتقنع الرأى العام فى الدول غير الإسلامية بأن الإسلام خطر عليها ويجب شن الحرب الدفاعية ضده، خاصة مع رواج نظرية أن الإسلام هو الأيديولوجية الباقية المعادية للغرب بعد انهيار الأيديولوجية الشيوعية.

وحين يتساءل هاليداي: من أين تأتى الأفكار الخاطئة على الجانبين؟

يصل إلى أنها تأتى من مجموعة من الأحداث والمواقف والأزمات، ومن الخطاب الدينى والسياسى هنا وهناك، والتى يعمد السياسيون وأصحاب المصالح إلى استغلالها والتهويل من خطورتها لى يبرروا مشاعر العداء ونوايا العدوان.





## لماذا لا يحترمون الإسلام ؟

الفكرة الشائعة عن المستشرقين أنهم كانوا باحثين في علوم السياسة والاقتصاد والدراسات الاجتماعية والدينية، يتخصصون في دراسة (الشرق) من جميع النواحي بقصد التعرف على خصائص الشعوب التي تعيش فيه. وكان الهدف الحقيقي لذلك هو التعرف على الأساليب المناسبة للتأثير في هذه الشعوب والسيطرة عليها، وكان معلوماً أن هؤلاء المستشرقين يعملون لحساب وزارات الخارجية أو وزارات المستعمرات التي تستفيد بهذه الدراسات في السيطرة على شعوب الشرق واستعمار بلادها.

وهذه الفكرة في عمومها تمثل الحقيقة، لكن ذلك لم يمنع من وجود مستشرقين محايدين درسوا مجتمعات وشعوب وديانات وثقافات الشرق بهدف البحث العلمي المجرد، وهؤلاء أنصفوا الإسلام. كما أنصفوا شعوب الشرق مما لصق بها من أكاذيب ومفتريات نشرها غيرهم من المستشرقين ذوي الميول الاستعمارية الاستعمارية.

والدراسات عن نشاط المستشرقين - المنصفين والمغرضين - كثيرة لكن أهم دراسة عنهم هي التي أعدها الدكتور إدوارد سعيد في كتابه الشهير (الاستشراق). والدكتور إدوارد سعيد فلسطيني الأصل أمريكي الجنسية، ولد في القدس وأتم تعليمه الابتدائي والثانوي فيها ثم في مصر، ثم سافر إلى الولايات المتحدة حيث حصل على البكالوريوس من جامعة برنستون، وحصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة هارفارد وعمل أستاذاً فيها عام ١٩٧٤، ثم أستاذاً في جامعة ستانفورد، ثم محاضراً في جامعة برنستون، وعمل أيضاً أستاذاً زائراً في جامعة جونز هوبكنز، وأخيراً عمل أستاذاً للأدب الإنجليزي والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في نيويورك إلى أن مات عام ٢٠٠٣ بعد صراع مع السرطان. وله مؤلفات في الأدب والسياسة أشهرها كتاب (الاستشراق) وكتاب (تغطية الإسلام) وكتاب (المسألة الفلسطينية).

ينبهي إدوارد سعيد إلى أن (الشرق) في ذهن الأوروبيين مرتبط بالكائنات الغربية المدهشة، وبأن الشرق كان حياً في فترة واتقضى أجله، ويدفعهم إلى تلك التصورات شعورهم بأن الأوروبيين

في درجة أعلى من الشرقيين، ولذلك ينظرون إلى شعوب الشرق، ويتحدثون عنهم باستعلاء لا يخفى ذلك في كتاباتهم. أما الأمريكيون فإنهم حديثو عهد بهذا الشرق الذي يقصده الأوروبيون، أي العالم العربي والإسلامي. والشرق في ذهن الأمريكي يرتبط أكثر بالصين واليابان وجنوب آسيا. بينما الأوروبيون لهم تجربة أقدم وأعمق بالشرق العربي والإسلامي، ومعظم مستعمرات أوروبا كانت في هذه المنطقة، وأوروبا ترى أن العالم العربي والإسلامي قريب منها جغرافيا كما أنه كان في الماضي مصدر حضارتها، ومنافسها الثقافي.



من هنا كان الهدف من دراسة المستشرقين للإسلام أن تكون مدخلا لفهم مفاتيح ومداخل التعامل مع شعوب الشرق بعد احتلالها. يظهر ذلك في خطاب بلفور الوزير البريطاني صاحب وعد بلفور الشهير الذي أعطى وعدا للمنظمة الصهيونية العالمية بإقامة دولة لليهود في أرض فلسطين، الذي قال فيه أمام مجلس العموم: إنه تجب معرفة أحوال مصر لكي تحتفظ بريطانيا بموقع السيادة على شعبها صاحب الحضارة والتاريخ. وفي هذا الخطاب كان بلفور يبرر ضرورة الاحتلال البريطاني لمصر بالتفوق البريطاني عليها، والتفوق الذي يقصده - كما قال - ليس التفوق العسكري أو الاقتصادي بالدرجة الأولى، ولكن التفوق بالمعرفة، والمعرفة عنده هي القوة. فالمعرفة بهذا البلد - كما قال: (تعني أن نسيطر عليه، وأن نمتلك سلطة عليه. والشعوب الغربية - كما قال بلفور - تمتلك مزايا خاصة بها. وقال أيضا: (ويمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكمله فلن تجد أثرا لحكم الذات على الإطلاق، فكل القرون التي مرت على الشرقيين انقضت في ظل الطغيان والحكم المطلق، وكل إسهاماتهم العظيمة في الحضارة الإنسانية أنجزت في ظل هذا النمط من الحكم، فقد جاء فاتح بعد فاتح وجاءت سيطرة بعد سيطرة)، بعد ذلك يقول بلفور: (أليس من الخير لهذه الأمم العظيمة أن نقوم نحن بممارسة هذا الحكم المطلق عليها، فهذا سيكون مصدر نفع لهم وللغرب المتحضر أيضا). وملخص خطاب بلفور أن مصر لا يمكن أن تحكم نفسها بنفسها، والاحتلال هو الأساس للحضارة المصرية المعاصرة، وسوف تكتشف مصر أنها لا بد أن تتمسك بالاحتلال البريطاني.

وتتجلى هذه النظرة الاستعمارية فيما قاله ممثل الاحتلال البريطاني في مصر اللورد كرومر الذي حكم مصر حكما فعليا منذ بدء الاحتلال عام ١٨٨٢ حتى انتهت خدمته فيها عام ١٩٠٧، وقد سجل تجربته في حكم مصر في كتاب من جزئين بعنوان (مصر الحديثة) أكد فيه أن العقل الشرقي لا يعرف الدقة، وبالتالي لا يعرف الحقيقة، بينما الإنسان الأوروبي ذو عقلية دقيقة، تدرك الحقائق دون التباس، والأوروبي منطقي بطبعه على رغم أنه قد يكون ممن لم يدرسوا المنطق، والأوروبي يبدأ بالشك ويطلب الدليل والبرهان قبل أن يقبل حقيقة ما، وذكاءه المدرب يعمل تلقائيا مثل آلة ميكانيكية. أما عقل الشرقي فهو على النقيض، يفتقر إلى النظام. ويقبل الأمور غير

المنطقية على أنها حقائق، ويعجز العقل الشرقي عن استنتاج أبسط النتائج وأكثرها وضوحاً من أبسط المقدمات. وإذا استمعت إلى تقرير من مواطن مصري عادى عن الحقائق فسيكون إيضاحه سهياً، ومفتقراً للسلاسة، ومن المحتمل أن يناقض نفسه عدة مرات قبل أن ينهى حديثه، وهو غالباً ما ينهار أمام أبسط عملية للتحقيق.



هكذا تبدو صورة العرب والمسلمين - وليست صورة المصريين فقط - عند معظم المستشرقين.. مقرونة بالسذاجة، والغفلة، وعدم القدرة على المبادرة، وحب (الإطراء الشديد) والنفاق، والدسيسة، والدهاء، والقسوة على الحيوانات، وإنهم يسبغون في عرض الطريق لأنهم لا يعرفون النظام مثل الأوروبيين، وعقولهم الفوضوية تعجز عن فهم ما يدركه الأوروبي تلقائياً من أن الأرصفة أنشئت ليسير عليها المشاة والشوارع أنشئت لتسير فيها السيارات والدواب.

وكرومر وهو يذكر ذلك يستشهد بما كتبه مستشرقون تخصصوا في دراسة الإسلام والمسلمين من أمثال أرنست رينان، وكونستانتان دوفولني. وعلى نفس النوال سار هنرى كيسنجر مستشار الأمن القومي الأمريكى ووزير الخارجية الأسبق. فقد أعلن رأيه في مقال عنوانه (البنية الداخلية والسياسة الخارجية) حدد فيه رؤيته لما يجب أن تسير عليه السياسة الأمريكية تجاه دول العالم، قال فيه: إن أمريكا تستطيع أن تتعامل مع الدول الصناعية المتقدمة في الغرب لكنها تجد المشاكل مع الدول النامية وبخاصة في العالم العربى والإسلامى، لأن الغرب يعيش في مرحلة زمنية وهذا العالم العربى والإسلامى يعيش في مرحلة زمنية أخرى، فالغربيون يرون العالم على حقيقته كما هو في الواقع، وتقوم المعرفة عندهم على المعلومات وتصنيفها وتحليلها بدقة. والدليل على أن هذه هى عقلية الغرب أن ثورة نيوتن العلمية ظهرت في الغرب ولم تظهر في العالم العربى والإسلامى، وهذا ما جعل ثقافة العرب والمسلمين - التى لم تتعرض لصدمة التفكير التى أحدثها نيوتن - ترى أن العالم الحقيقى هو ما يشعر به أو ما يريده هؤلاء العرب والمسلمون. وهذا ما يفسر - عند كيسنجر - لماذا يرى العرب والمسلمون أن الواقع التجريبي له دلالة مختلفة جداً عن دلالة عند الغربيين؟ لأن هذه الشعوب لم تمر بعملية اكتشاف العالم.

وبناء على هذا التفسير يصل كيسنجر إلى أن الإنسان الشرقي (العربى والمسلم) عاجز عن أن يكون موضوعياً أو أن يكون دقيقاً، ويعلق على ذلك إدوارد سعيد بأن هذه النظرة هى التى يتم رسم السياسات بناء عليها كما فعل بلفور حين أعطى وعداً بمنح أرض فلسطين لليهود، وحين فعل كرومر في حكم المصريين بالكرياج، وهذا أيضاً ما فعله كيسنجر وفعلته الإدارة الأمريكية في تعاملها مع العالم العربى والإسلامى. وسار على هذا النهج المستشرقون، فقد تحدثوا عن العرب والمسلمين على أنهم عالم مختلف عن عالم الغربيين، وأن هناك اختلافاً جوهرياً بين ثقافة الغرب وثقافة العرب

والمسلمين مما يؤدي إلى حتمية الصراع بينهما، ويصلون من ذلك إلى دعوة الغرب المتفوق إلى السيطرة على (الآخر) واحتوائه وقيادته. ولعلنا نجد في هذا الفكر وهذه الروح الجذور الحقيقية لنظرية صراع الثقافات والحضارات التي تؤكد حتمية الصراع بين الغرب والإسلام.

ويشير إدوارد سعيد إلى مثال آخر يتطابق مع رؤية كيسنجر والمستشرقين، في مقال بمجلة التحليل النفسى الأمريكية فى عدد فبراير ١٩٧٢ كتبه البروفيسور هارلد جيلدن بعنوان (العالم العربى) يقول فيه إنه سيكشف (الآلية الداخلية للسلوك العربى) لتفسير ما يبدو للغربيين سلوكا شاذا، لكنه يبدو للعرب (عاديا)، ثم يقول: إن العرب والمسلمين يؤكدون على طاعة (الجماعة) ويعيشون فى ثقافة العطايا والولاء بين التابع والحاكم. وأن العرب (والمسلمين) لا يتحركون إلا فى الأزمات، والتفوق عندهم هو القدرة على السيطرة على الآخرين، وأن الإسلام يجعل من (الانتقام والثأر) فضيلة. ويقتبس (جيلدن) من صحيفة الأهرام عدد ٢٩ يونيو ١٩٧٠ إحصائية عن حوادث القتل فى مصر عام ١٩٦٩ تتضمن أن عدد جرائم القتل كانت ١٠٧٠ جريمة منها ٢٠٪ قتل لمحو العار، و٣٠٪ رغبة فى الانتقام نتيجة الشعور بالظلم، و٣١٪ للأخذ بالثأر، ويصل من ذلك إلى أن (الموضوعية) ليست ضمن نظام القيم عند العرب والمسلمين. وأنهم يتحدثون عن التكافل والوحدة والحقيقة أن التنافس بينهم يدمر ذلك التكافل وتلك الوحدة، فالإنسان العربى والمسلم أنانى لا يهتمه إلا أن يحقق لنفسه النجاح وحده والغاية عنده تبرر الوسيلة، ويعيش فى قلق يظهر فى الشعور بالشك وانعدام الثقة، وهذا الشعور يؤدي إلى نزعة عدوانية لا يحدها قيد، كما يؤدي إلى اللجوء إلى (التحايل) الذى يبرره الإسلام باسم (التقية)، وإذا كان الغربيون يضعون السلام فى مرتبة عالية فى ترتيب القيم، ولديهم الوعي الشديد بقيمة الوقت، فإن العرب والمسلمين ليس لديهم شيء من ذلك، فالمجتمع العربى والإسلامى مجتمع قبلى، والقتال- وليس السلام- هو الوضع الطبيعى للتعامل مع (الآخر)، وتاريخيا كان (الغزو) و(الفتوحات) أساسا للحياة الاقتصادية عند العرب والمسلمين. أما الإحساس بقيمة الوقت فليس من طبيعة الإنسان العربى والمسلم.

هكذا يرى المستشرقون العرب والمسلمين.



ولقد بدأ الاستشراق الرسمى بقرار من مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢ بتأسيس عدد من كراسى الأستاذية فى جامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وغيرها لدراسة اللغات غير الأوروبية ومنها اللغة العربية، ودراسة الثقافة والجغرافيا والديانات فى العالم العربى والإسلامى على أساس أن تعلم العربية أفضل الوسائل للتبشير وإغراء العرب باعتناق المسيحية. ويعلق إدوارد سعيد على ذلك بأن الهدف الدينى لم يتحقق ولكن الاستشراق ذاته ازداد وتوسع، ومازال مستمرا على هذا النحو

إلى اليوم وإن كان المستشرق فى هذه الأيام لا يسمى نفسه مستشرقاً فى أغلب الأحوال. فى جامعة أكسفورد معهد للدراسات الشرقية، وفى جامعة برنستون قسم للدراسات الشرقية، وفى معظم جامعات الدول الغربية أقسام وأساتذة ودارسون يتخصصون فى دراسة العالم العربى والإسلامى. وإن كان قد استقر فى أذهان الغربيين أن الشرق نقيض الغرب، كما أن الشرق أصبح مقروناً عندهم بالقصص والروايات الخرافية منذ غزوات الصليبيين وحتى اليوم.

وتاريخ الإسلام كما يقدمه المستشرقون يركز على الشعور بالخوف الذى اجتاحت أوروبا بسبب تنامي سيطرة الإسلام العسكرية فى البداية، ثم سيطرة الإسلام الثقافية والدينية، وسقوط دولة الفرس، وسوريا، ومصر، ثم تركيا، ثم شمال أفريقيا فى أيدي الجيوش الإسلامية. وفى القرنين الثامن والتاسع فتح المسلمون أسبانيا، وصقلية، وأجزاء من فرنسا، وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر توغل حكم الإسلام شرقاً حتى الهند، وإندونيسيا، والصين.

وفى مواجهة هذا الاجتياح لم يكن بوسع أوروبا سوى الخوف والشعور بالرهبة. ولم يكن لدى الباحثين المسيحيين فى زمن الفتوحات الإسلامية اهتمام كبير بعلوم المسلمين وثقافتهم المتفوقة، وكانت أوروبا تعيش فى عصر الظلام والخمول، وكان شعور الغربيين أن هؤلاء المسلمين يأتون مثل أسراب النحل تدمر وتخرّب كل شىء. وبذلك أصبح الإسلام لدى الأوروبيين رمزاً للرعب والدمار، وأصبح المسلمون فى نظرهم شياطين، وبرابرة، وحتى القرن السابع عشر كان الخطر العثماني - كما يراه الأوروبيون - يهددهم، ومع مرور الزمن استوعبت الحضارة الأوروبية هذا الخطر، وشخصياته، وقصائله، وحولته إلى جزء من الحياة الأوروبية.

ويذكر إدوارد سعيد مثلاً على ذلك أن مسارح لندن كانت تعرض فى عصر النهضة الكثير من الأحداث المفصلة فى تاريخ الإسلام فى ظل الإمبراطورية العثمانية وتجاوزاته فى أوروبا المسيحية.. وكان المتداول فى أوروبا أن الإسلام (قوة وخطر) وهذا ما يفسر الإساءات التى ألصقت بالإسلام ونبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم)..



فى كتابات المستشرقين نجد ثلاث طوائف: الأولى: مستشرقون يتناولون الإسلام بعداء ظاهر ويوجهون الاتهامات إليه صراحة. والثانية: مستشرقون يكتبون بحياد وموضوعية فى الظاهر لكنهم يدسون الشكوك والاتهامات بذكاء وبطريقة غير مباشرة قد تنطلى على القارئ غير المدقق أو غير الدارس للإسلام. أما الطائفة الثالثة: فهم المنصفون الذين يدرسون الإسلام بموضوعية وبدفاع الرغبة فى المعرفة وبالالتزام بالمنهج العلمى.

ونتوقف عند الطائفة الأولى لأنها هى التى تجد القبول لدى كثير من المفكرين الغربيين، ومن هؤلاء من قال: إن تعاليم الإسلام أخذها الرسول صلى الله عليه وسلم من (بحيرى) الراهب،

ونجد مستشرقاً مثل (مرجليوث ١٨٥٨ - ١٩٤٠) الذى كان أستاذاً بجامعة أكسفورد وعضواً بالمجمع العربى بدمشق فى كتابه (أصول الشعر العربى الجاهلى) يقول: إن الشعر الجاهلى لا ينتمى إلى العصر الجاهلى ولكنه موضوع بعد ظهور الإسلام، وقد أخذ عنه طه حسين هذه النظرية، ويقول (مرجليوث) أيضاً: إن النبى إبراهيم وابنه النبى إسماعيل - عليهما السلام - لم ينتقلا إلى مكة. وبالتالى فإن ما ورد عن تفجر بئر زمزم تحت أقدام إسماعيل عند قيامه مع أبيه إبراهيم برفع قواعد الكعبة ليس صحيحاً من الناحية التاريخية (!). ويقول أيضاً: إن النبى صلى الله عليه وسلم سافر إلى مصر لأن حديثه عنها يدل على معرفة تامة بها، ويقول كذلك: إن محمداً صلى الله عليه وسلم عاش بعد هجرته إلى المدينة على السلب والنهب، وأنه اعتدى على مكة لأن أهلها طردوه منها، وكذلك كان نهب القبائل اليهودية فى المدينة لأنه كان هناك سبب ما يدعوه إلى الانتقام منهم، أما غزو خيبر التى تبعد عن المدينة فلم يكن له مبرر سوى أنهم قتلوا مبعوثه إليهم وهى ذريعة غير كافية، وهذا يدل على أن نزعة التوسع والسيطرة لديه كانت مثل نزعة الإسكندر الأكبر ونابليون (!).

وفى دراسة للدكتور محمد عبد الفتاح عليان أستاذ التاريخ بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر بعنوان (دراسات استشرافية فى السيرة النبوية) نجد أمثلة كثيرة لمثل هذه الأكاذيب يناقشها ويحلل دوافعها، كما نجد أمثلة من المستشرقين الذين يسميهم (المجحفين) الذين يسيئون إلى الإسلام من وراء ستار من أمثال (وات مونتجمرى) المستشرق الإنجليزى وله ثلاثة مؤلفات عن الرسول صلى الله عليه وسلم هى: محمد فى مكة، ومحمد فى المدينة، ومحمد رجل الدولة، ومن أمثلة السموم التى يدسها فى ثنايا الحديث الموضوعى قوله فى كتابه (محمد فى المدينة): إن محمداً صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى زوجاته الشرعيات واتصالاته بالجوارى، كانت له اتصالات مع بعض النساء الأخريات وفقاً للنظام القديم، الذى كانت المرأة فيه تبقى فى بيت أسرتها ويعاشرها عدد من الرجال، وينسب الولد لأمه لاستحالة معرفة أبيه، وهكذا يرمى الرسول صلى الله عليه وسلم بتهمة حرمة الله فى كتابه ويوهم القارئ بأنه يستند فى ذلك إلى بعض الوثائق مع أنه لم يشر إلى أية وثيقة يمكن أن تؤكد هذا الافتراء.

وفى كتابه (محمد فى مكة) يدعى مونتجمرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لأنه كان يخشى أن يرتدوا عن الإسلام، وأنه طلب منهم إغراء النجاشى (ملك الحبشة) بالعودة لاستعمار مكة وبخاصة أن الحبشة لها أطماع فى هذه المنطقة، ورجح بعد ذلك أن السبب الحقيقى لأمر الرسول لأصحابه بهذه الهجرة أن الخلاف اشتد حول من يخلف النبى صلى الله عليه وسلم فانشقت جماعة قالت: أبو بكر هو الذى يخلفه، وانشقت جماعة أخرى بزعامة عثمان بن مظعون وقالت لا بد أن يكون الخليفة من بنى هاشم، وخشية استفحال الخلاف أمر الرسول صلى

الله عليه وسلم عثمان بن مظعون بالهجرة إلى الحبشة. ويقول الدكتور محمد عبد الفتاح عليان إن هذه الرواية لم يذكرها أحد من قبل، لا تلميحا ولا تصريحاً، كما أن الهجرة إلى الحبشة حدثت فى السنة الخامسة للبعثة، ولم يدر فى خلد أحد وقتها التفكير فى أمر خلافة النبى صلى الله عليه وسلم لأن الدعوة الإسلامية فى هذا الوقت المبكر لم تكن قد ثبتت أقدامها بعد، وكان تفكير المسلمين كله فى كيفية الخلاص من أذى قريش، ولو كانت الجماعة المهاجرة هى جماعة عثمان بن مظعون فلماذا لم يتحدث هو باسمها أمام النجاشى وتحدث عنهم جعفر بن أبى طالب؟ ومن الثابت أن عثمان بن مظعون عاد إلى مكة بعد ثلاثة أشهر فقط وبقي بمكة وهاجر إلى المدينة وشهد غزوة بدر.

وفى الكتاب الثالث (محمد النبى ورجل الدولة) يقول (وات مونتجمرى): إن الوحي لم يكن من الله، ولكنه كان من الخيال المبدع وكانت الأفكار مختزنة فى اللاوعى عند محمد - صلى الله عليه وسلم - وهى أفكار حصلها من المحيط الاجتماعى الذى عاش فيه قبل البعثة، ولم يكن جبريل إلا خيالا نقل الأفكار من اللاوعى إلى الوعى وكان محمد - صلى الله عليه وسلم - يسمى ذلك وحيا (!). ونلاحظ أن هذه الأفكار هى التى أخذها سلمان رشدى وأضاف إليها من أقوال المستشرقين الآخرين فى روايته (آيات شيطانية) التى سب فيها الرسول والقرآن والمسلمين.



ومن الطبيعى ألا ينتظر المسلمون من المستشرقين أن يرددوا وجهات النظر الإسلامية، أو أن يغيروا معتقداتهم ويعتقدوا عقائد المسلمين عندما يكتبون عن الإسلام، ولكن هناك أمور يتطلبها المنهج العلمى - كما يقول الدكتور محمود حمدى زقزوق فى كتابه (الإسلام فى تصورات الغرب) - وأبسط هذه الأمور أن يعرض المستشرق وجهة النظر الإسلامية بموضوعية قبل أن يسوق أدلته على رفضها أو قبولها، ولكن ذلك المنهج العلمى لا يلتزم به إلا قليل من المستشرقين فى عرضهم للإسلام لكى يؤثرُوا بانحيازهم ضد الإسلام فى عقول القارئ، وسرعان ما ترتفع أحكامهم المغرضة إلى مرتبة الحقائق بالتداول والانتشار.

ويلاحظ الدكتور زقزوق من دراسته لأعمال المستشرقين أن الدراسات الغربية عن الديانات الوضعية مثل البوذية والهندوسية غالباً ما تكون دراسات موضوعية ليس فيها هجوم أو تجريح، على رغم أنها ليست ديانات سماوية وليس لها كتب منزلة أو رسل بعثهم الله وهى أقرب إلى مجموعة من المبادئ الأخلاقية والقيم الروحية منها إلى التصوف ولكن ليس فيها عبادة الله الواحد الأحد الذى يعبدُه أصحاب الديانات السماوية الثلاث. ولكن الإسلام وحده من بين كل الديانات هو الذى يتعرض فى الغرب للنقد والتجريح على الرغم من أنه دين يؤمن بالله، ويحترم اليهودية والمسيحية ويتفق معها فى كثير من جوانب العقيدة والأخلاق، ويؤمن بموسى وعيسى ويرفعهما فوق النقد.





ومع ذلك لا يمكن أن نغفل ذكر المنصفين للإسلام من المستشرقين، وهم الذين درسوا الإسلام بروح البحث العلمي، وقد ذكر شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود في كتابه (الإسلام وأوروبا) بعض من أنصفوا الإسلام في مؤلفاتهم من المستشرقين، ومن أشهروا إسلامهم من أمثال ليوبولد فايس الذي أصبح اسمه محمد أسد وروبرت ولزلي الذي أصبح اسمه عبد الرشيد الأنصاري، وإسحق دينيه الذي أصبح اسمه ناصر الدين، وعبد الكريم جرمانوس، والدكتورة ستان راتيني الهولندية، ومارشيل مايكل أنجلو الإيطالية، وهؤلاء أسلموا بعد دراسة واقتناع، ولعل أشهرهم الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي الذي أصبح اسمه رجاء جارودي. وهؤلاء يقابلهم المستشرقون الآخرون بالعداء، ويتهمونهم بالانحراف والرغبة في تملق المسلمين، وقد حاربوا جارودي إلى حد تلفيق الاتهامات له ومحاكمته في فرنسا بتحريض الجماعات اليهودية. وكذلك المستشرق البريطاني توماس أرنولد الذي برهن على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين على عكس ما فعله مخالفوهم معهم، فقد اتهموه بالنفاق والسطحية وعدم التعمق في فهم الإسلام والمسلمين..

ويذكر الدكتور محمد عبد الفتاح عليان في دراسته المستشرق إسحق دينيه الفرنسي، الذي تنقل في بلاد المغرب العربي وخالف المسلمين، وأعد بحثًا بعنوان (نور الإسلام) قال فيه: إن العقيدة الإسلامية لا تقف عقبة في سبيل التفكير الحر، كما تصدى للرد على الذين يقولون: إن المسلمين لم يضيفوا جديدًا إلى العلوم والتراث الإنساني فقال: (إن العالم الفرنسي باستير يعتبر درة في تاج الحضارة الحديثة ولكن جابر بن حيان وأبا بكر الرازي لا يقلان عنه في المرتبة العلمية والفكرية وهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء باكتشافهما تقطير الكحول واكتشافهما حامض النتريك وحامض الكبريتيك ومواد كيميائية أخرى كثيرة. وفي كتاب له بعنوان (الشرق كما يراه الغرب) قال: إن الغرب يخطئ في نظرتة إلى الشرق مع أن للشرق على الغرب أفضالا أثرت في مدينته وحضارته وقد اعتمدت الجامعات الأوروبية في عصر النهضة على تدريس العلوم التي أسسها المسلمون مثل علوم الفلك، والطب والجبر والكيمياء وعلم البحار وغيرها من العلوم التي أسسها علماء المسلمين، وله كتاب آخر بعنوان (محمد رسول الله) ترجمه شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود قدم فيه أمثلة على تناقض كتابات المستشرقين عن السيرة النبوية، ومن هذه الأمثلة ما قاله المستشرق (نولدكه) من أن الوحي لم يكن سوى نوبات صرع كانت تنتاب النبي - صلى الله عليه وسلم - عارضه المستشرق (دي جويه) بأن هذا الافتراض ليس صحيحًا لأن الذاكرة عند المصابين بالصرع تكون ضعيفة جدا على حين أن ذاكرة (محمد) - صلى الله عليه وسلم - كانت قوية كلما هبط عليه الوحي. كما انتقد المستشرق (شبرنجر) الذي قال: إن هذه لم تكن نوبات الصرع ولكن كانت نوبات هستيرية. وعارضه المستشرق (سنوك هرجرنجه) بأنه يجب أن نقر بأن شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت متميزة وأن شخصيته السوية القوية وقدرته على جذب الناس حوله



وتحويل الذين كانوا يعبدون الأصنام إلى عبادة الله، كل ذلك لا يصدر إلا عن نبي يتمتع بقدرات تفوق قدرات البشر كما كانت له (كاريزما) لا يمكن انكارها. ونسب المستشرق (لامانس) إلى النبي صلى الله عليه وسلم الشره والإكثار من الطعام واللذات البدنية ولكن المستشرق (بينيه سنجله) قال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقلل من الطعام وهو القائل (حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه) وكان متقشفاً، وقال المستشرق (هوارث) إنه توفي على أثر إصابته بالتهاب رئوى، بينما ذكر القس (باردو) أنه مات مسموماً على يد امرأة يهودية، مع أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مات بعد عام تقريبا من سم اليهودية.

والأمثلة على هذه التناقضات والافتراءات كثيرة وقد علق عليها إسحق دينيه متسائلا: هل يمكن الاعتماد على آراء المستشرقين مع ما بينهم من اختلاف وتناقض وهدم بعضهم لآراء بعض؟ وانتهى بعد مناقشة هذه التناقضات وأمثالها إلى أن المستشرقين لم يتبعوا المنهج العلمى السليم، ولكنهم اتبعوا أهواءهم وابتعدوا عن الحياد والموضوعية وهما أهم ما يميز الباحث العلمى.

ويشير الدكتور عليان أيضا إلى المستشرق توماس أرنولد البريطانى وهو لم يعتنق الإسلام، وقد شغل كرسى أستاذ الدراسات العربية فى كلية اللغات الشرقية بلندن وأصبح عميدا لها، وزار مصر سنة ١٩٣٠ وألقى محاضرات فيها، وله مؤلفات كثيرة عن الإسلام وتاريخه. ومن مؤلفاته المهمة كتاب (الدعوة إلى الإسلام) الذى ناقش فيه نظرية بعض المستشرقين من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - جاء بدين جديد لأهل الجزيرة العربية وحدهم فهو دين محلى وليس ديناً عالمياً، فقال: إن الإسلام منذ البداية وبنصوص القرآن جاء للناس كافة وليس للعرب وحدهم، وأشار إلى آيات كثيرة تؤكد ذلك. وتؤكد عالمية الإسلام، منها آيات مكية وآيات مدنية، كما أشار إلى الأحاديث التى تؤكد أن الإسلام ليس مقصوراً على العرب وحدهم، واستدل على ذلك بما حدث فى الواقع من دخول جنسيات ومجتمعات كثيرة فى الإسلام وبالمبدأ الذى قرره الرسول - صلى الله عليه وسلم -: لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. مما يدل على أن الإسلام جاء للبشر عامة ولا يفضل شعباً على شعب آخر.



ومن أهم المستشرقين الذين أنصفوا الدين الإسلامى والحضارة الإسلامية المستشرق الألمانى (جوستاف بفانمولر). وقد ترجم الدكتور محمود حمدي زقزوق بعض النصوص من كتاباته، وأهمها كتاب (موجز فى تاريخ أدب وعلوم الإسلام) الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٢٣ وأعيد نشره عام ١٩٧٤. وقد تناول فيه المؤلفات الخاصة بالإسلام وحياة محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، والحديث، والفقه، والعقائد، والتصوف، والطرق الصوفية، وتقديس الأولياء، والفرق الإسلامية، والإسلام والتبشير، وخصص فصلاً للفلسفة الإسلامية وذكر أن لها تأثيراً بالغاً على

فلسفة العصور الوسطى في أوروبا، وخصص فصلاً آخر للفن الإسلامي وقال عنه : إن له قيمة جمالية رفيعة، وله أهمية عظيمة في تطور الفن في العالم.

وفى هذا الكتاب يتحدث (جوستاف بفانموللر) عن المستشرق الألماني (هادريان ريلاند) على أنه أول من قام بعرض علمي لدين الإسلام، وهو أستاذ اللغات الشرقية بجامعة (أوترشت) بهولندا (١٦٧٦-١٧١٨) وهو يصحح الآراء الغربية التي كانت منتشرة عن الإسلام في كتابه عن الإسلام الذي صدر في جزئين، وقد أدى إنصافه للإسلام إلى اتهامه بأنه يريد أن يقوم بعمل دعائي للإسلام، ولذلك أدرجت الكنيسة الرومانية هذا الكتاب في قائمة الكتب الممنوعة، لكنه مع ذلك ترجم إلى الألمانية، والإنجليزية، والفرنسية، والهولندية، والأسبانية. وفى هذا الكتاب يقول (ريلاند) : إن الأديان تتعرض دائماً للإساءة من خصومها، إما لعدم فهمهم لها، وإما لقصد خبيث، وهكذا افترى الوثنيون على اليهودية والمسيحية، ونظر الرومان الكاثوليك إلى أتباع مارتن لوثر ودعاة الإصلاح، وبنفس النظرة تحدثوا عن المسلمين. ويقول : (إذا كان هناك دين لقي الاحتقار من خصومه ورمى بكل سوء فإنه هو هذا الدين المحمدى، حتى إن كل من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين فإنه يصفها بأنها (نظرية محمدية) كما لو أن تعاليم محمد ليس فيها شىء صحيح وكل ما فيها فاسد! وإذا كان لدى أحد رغبة فى التعرف على هذا الدين ينبغى عليه أن يتعلم اللغة العربية وأن يقتنى الكتب العربية، وأن يسمع محمداً - صلى الله عليه وسلم - نفسه وهو يتحدث بلغته، وأن يرى هذا الدين بعينه وليس بعيون الآخرين. وسيرى حينئذ أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن، وأن هذا الدين الذى انتشر فى آسيا، وأفريقيا، وفى أوروبا أيضاً، ليس ديناً سخيفاً كما يتخيل كثير من المسيحيين).

مستشرق آخر - هو (جورج سيل) البريطانى الذى ترجم معانى القرآن إلى اللغة الإنجليزية فى عام ١٧٣٤ مع شروح ومقدمة طويلة عن الدين الإسلامى، يقول عنه الدكتور زقزوق : إن جورج سيل وصف بأنه نصف مسلم لشدة اهتمامه بالإسلام، وإن كانت المقدمة التى كتبها عن الدين الإسلامى والمحرمات فى القرآن وتنظيم الإسلام للأمور الاجتماعية، قد أصبحت مصدراً علمياً موثقاً به إلا أنها مع ذلك تضمنت الكثير من التجريح.



ونعود إلى فريد هاليداي، فهو أيضاً يناقش تصورات المستشرقين للعالم العربى والإسلامى، ولكنه يرفض المنهج الذى يقوم على دراسة منطقة جغرافية أو دولة وحدها والاقتصار على تفهم تاريخها وخصائصها بمعزل عن المجتمعات الأخرى. كما يرفض دراسة منطقة على أساس الدين وحده، وفى رأيه أنه لا توجد أمة لها خصوصية وحدها إلا بمقارنتها بالأمم الأخرى.

ومنطقة الشرق الأوسط - كما يقول - تشكلت من الصراع بين الإمبريالية والهيمنة الخارجية من ناحية، والمقاومة ضد الهيمنة والإمبريالية من الناحية الأخرى، كما تأثرت هذه المجتمعات بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية وكانت جزءاً من حركة أوسع تمثل ثورات العالم الثالث التي قامت في الجزائر عام ١٩٥٤، والعراق عام ١٩٥٨، واليمن عام ١٩٦٢، وفلسطين بعد ١٩٦٧. ولم تكن هذه المنطقة وحدها التي شهدت ثورات ولكن كانت معها كوبا، وجنوب أفريقيا. وفيتنام. وكانت الماركسية ذات تأثير كبير في هذه المجتمعات. وفي هذا السياق شهدت المنطقة أربعة أحداث تاريخية مهمة هي: نشأة نظام حكم الشاه في إيران ثم الإطاحة به وانطلاق الثورة الإيرانية - وثورة مصر عام ١٩٥٢ ونتائجها - وظهور منظمات المقاومة الوطنية الفلسطينية - ثم التوصل بعد ذلك إلى معاهدة سلام بين إسرائيل وبين دولتين من الدول العربية. وكذلك كانت ثورة اليمن وتوحيد اليمن الشمالي واليمن الجنوبي من الأحداث المهمة. كما كانت قضايا مثل الهيمنة والاستيطان من المؤثرات التي ساهمت أيضاً في صياغة الشرق الأوسط.

ويشير هاليداي إلى كتابات المستشرق الفرنسي ماكسيم رودونسون. والنقد الذي كان يوجهه لما كان يكتبه المستشرقون عن الشرق الأوسط، كما يشير إلى إدوارد سعيد الذي سبق غيره في نقد الاستشراق بكتابه المشهور (الاستشراق) الذي صدر عام ١٩٧٨، وكان من تأثير النقد الذي وجهه إدوارد سعيد إلى المستشرقين من القرن الثامن عشر حتى اليوم سواء أكانت هذه الكتابات في التاريخ، أم العلوم السياسية، أم غيرها، وتحث تأثير هذا النقد ظهرت أعمال جديدة فيها إعادة نظر في الكتابات السابقة. فقد نبه إدوارد سعيد إلى أن أعمال المستشرقين تمثل خطاب الهيمنة، واستعباد الأوروبيين للعالم العربي والإسلامي، وأن هذا الخطاب تجاهل ثقافة وتاريخ الشعوب الخاضعة ومقاومتها للهيمنة والاستعمار.

ويرى هاليداي أن التصور المعادي للإسلام والمسلمين ظل موضع جدل وخلاف بين الغرب والمسلمين إلى أن وجد الغرب في تنامي التعصب والعنف من الحركات الإسلامية والراديكالية ما يؤيد ادعاءات المستشرقين، كما وجدت ادعاءات المستشرقين ما يدعمها في أعمال الثورة الإيرانية الإسلامية ضد الغرب. وبعد أن كان إدوارد سعيد قد اكتسب التأييد لوجهة نظره في نقد المستشرقين، وبعد أن كان له مؤيدون بين الأكاديميين والدارسين، جاءت هذه الحركات الراديكالية الإسلامية المعادية للغرب لتفقد نظرياته مصداقيتها عند كثير من السياسيين والأكاديميين ويمثل هؤلاء برنارد لويس.

أما هاليداي فإنه يحدد موقفه من المعسكرين فيقول: إنه ليس من معسكر إدوارد سعيد ولا برنارد لويس. ويسجل رأيه في إدوارد سعيد فيقول: (إنه صديق، ومفكر يتميز بشجاعة فكرية وسياسية نموذجية، وكذلك كان برنارد لويس أستاذاً في كلية الدراسات الشرقية بلندن عندما كنت تلميذاً فيها وتعلمت منه الكثير واستفدت كثيراً من كتاباته، ولكن ذلك لا يمنعني من رفض الانحياز

لهذا أو ذاك، لأنهما معا لم يقوموا بما كنت أتوقعه منهما وهو تحليل المجتمعات الإسلامية قبل الدفاع عنها أو الهجوم عليها، فقد تجنب برنارد لويس الكتابة عن المجتمعات الإسلامية وخاصة بعد ظهور (تركيا الفتاة) ولم يحلل الأوضاع الاقتصادية لهذه المجتمعات. أما إدوارد سعيد فقد ركز على المقولات المنطقية وليس على المجتمعات أو الأوضاع السياسية. كما أنهما معا كانا يتجهان في كتابتهما إلى النقد وكل منهما متأثر بالأيديولوجية، أو بالثقافة السياسية، ويركز بحثه على الخطاب الديني في المجتمعات الإسلامية وعلى ذلك فإنني أرى أن لكل منهما مدرسة فكرية ومنهجية متميزة، ولكن لم يقدرا الاثنان بتحليل ما يحدث بالفعل في المجتمعات الإسلامية من ظواهر وأحداث ومواقف، وموقفى - (فريد هاليداي) - هو الحرص على ألا أكون مشاركا في نظريات ليست نابعة من الواقع فعلا، أو متأثرا بنظريات تعبر عن مشاعر المرارة الشخصية التي يشعر بها البعض تجاه الإسلام والمسلمين كما هو شائع في الكتابات المعاصرة.



ويقول هاليداي: (لابد أن تكون البداية لمن يريد أن يفهم حقيقة الإسلام والمسلمين أن يعيد تقييم الكتابات السابقة عنهما، وتحديد النهج الصحيح للكتابة عن المجتمعات موضوع الدراسة، ودراسة الدين في إطار التحليل الاجتماعي، وليس في إطار تحليل اللغة والثقافة فقط، وعند دراسة المجتمعات الإسلامية عموما، والشرق الأوسط خصوصا، يجب أن يوضع في اعتبار الباحث تأثير القضية العربية الإسرائيلية بما تنطوى عليه من اتهامات بسبب الجنس (مثل معاداة السامية ومعاداة الإسلام والعرب) والتحيز السياسي لطرف دون الآخر، والمخاوف التي يشعر بها المسلمون من مؤامرة صهيونية، والغضب القومي العربي، وكل هذه العوامل يجب أن تؤخذ في الاعتبار عند دراسة المجتمعات الإسلامية، فضلا عما يشعر به الإسرائيليون من تمييز على الفلسطينيين، وكذلك يجب أن يراعى الباحث الخلافات الأكاديمية وحالة الغضب تجاه الولايات المتحدة، لأن ذلك الشعور له آثار على البحث العلمي، كما أن هناك قضايا سياسية تؤثر على الباحث مثل الحرب الباردة، وتأثير جنس أو عنصر معين في العلوم الاجتماعية. ويصل هاليداي من ذلك إلى أن معظم الكتابات في الغرب عن الإسلام من الأكاديميين والمستشرقين تفتقد إلى الموضوعية العلمية.

ويرى هاليداي أن الباحث الغربي الذي يحاول أن يفهم ما يسمى بالعقل العربي والإسلامي عليه أولا: أن يكون متمكنا من معرفة المعاني الأصلية للكلمات التي يستخدمها العرب والمسلمون ودلالاتها عندهم - وليس عند المستشرقين - وأن يتفهموا الإسلام كما يفهمه المسلمون، وكما يطبقه المسلمون في كل مجتمع من المجتمعات، إذ هناك فوارق في تفسير وفهم النصوص القرآنية كما أن هناك اختلافا بين المذاهب الفقهية على اعتماد الأحاديث أو رفض بعضها أو التشكيك في صحة بعضها الآخر، ولذلك يجب فهم الإسلام الاجتماعي، أو الإسلام في مجتمع معين أو ما يسميه هاليداي

(سياسيولوجيا الإسلام) ويقصد بها دراسة الثقافة والعادات الإسلامية، والمدن الإسلامية، والمفاهيم الخاصة بالإسلام عن المرأة والرجل والجنس وعن الديمقراطية والرأسمالية، والكحوليات.. وهكذا. وهذا المنهج في الدراسة إذا اتبعه الباحث فلن يكرر ما في دراسات الغرب عن رفض الإسلام للحدثة، والعقلانية، وارتباطه بالعنف والإرهاب.

ويعيب هاليداي على المستشرقين أنهم يتحدثون عن الجوانب السلبية ومظاهر التخلف في المجتمعات الإسلامية ويرون أنها موجودة بسبب الإسلام، ويتوصلون من ذلك إلى القول باستحالة التغيير أو التطور في المجتمعات الإسلامية، وعدم إمكانية وجود الديمقراطية في هذه المجتمعات، ويستشهدون ببعض حالات تم فيها اضطهاد دعاة التحرر والتقدم في مجتمعات إسلامية. والخطأ الأكبر الذي ارتكبه المستشرقون - في نظر هاليداي - أنهم نظروا إلى المجتمعات الإسلامية على أنها جامدة لا تتحرك ولا تتطور ولا تتغير، ونظروا إلى هذه المجتمعات الإسلامية على أنها مجتمع واحد بينما هي عدة مجتمعات بينها اختلافات في الثقافة واللغة والعادات، واختلافات في فهم وتفسير النصوص الإسلامية. وهذا الخطأ يتسبب فيه المسلمون أنفسهم، لأنهم يتحدثون عن (العالم الإسلامي) وكأنه مجتمع واحد بينما هو عدة مجتمعات يجمع بينها الإيمان بدين واحد هو الإسلام وفي غير ذلك فإن الخلافات بينها ليست قليلة. ومن الأدلة على تعدد ثقافتهم أنهم عندما يجتمعون في إطار المؤتمر الإسلامي مثلاً فإنهم يستخدمون الترجمة الفورية لأنهم لا يتحدثون لغة واحدة، وإذا تحدثوا في الفقه الإسلامي فسوف تنشب بينهم خلافات ليست هينة. ثم إن المصطلحات السياسية في الدول الإسلامية مختلفة عن المصطلحات الدينية، والمصطلح الديني الواحد له مفهوم يختلف من بلد إسلامي إلى بلد آخر، حتى المصطلحات البسيطة مثل: سياسة، أو دولة، أو ظلم، أو عدل، أو حرية، فضلاً عن المصطلحات الحديثة مثل: حزب، وجبهة، وطبقة، وعمال، وتعذيب، ومخابرات.. الخ.. التي سنجد مفهومها في بلد إسلامي يتناقض مع مفهومها في بلد إسلامي آخر، وفي بعض البلاد الإسلامية لن نجد هذه المصطلحات على الإطلاق في لغة السياسة الخاصة بها.



يناقش هاليداي ما كتبه برنارد لويس - المستشرق البريطاني - في مقال تعليقا على كتاب (التاريخ الإسلامي) الذي ألفه ستيفن هامفري، وأشار لويس إلى الطرق التي عالج بها بعض الكتاب الإسلاميين التاريخ، على أنهم ينظرون إلى العالم في الحاضر في ضوء الماضي والتاريخ، كما أن برنارد لويس يرى أن المسلمين يعيشون حتى اليوم على مجموعة من الأساطير التاريخية القديمة ولا يهتمون بإعادة دراسة تاريخهم بمنهج نقدي وموضوعي، ويعلق هاليداي على ذلك بأن المسلمين ليسوا وحدهم الذين تحكمهم في الحاضر أساطير من الماضي، فإن ذلك موجود لدى الإيرلنديين،

والصرب، والهندوس، والأمريكيين واليابانيين.. ومعظم الشعوب، فما يراه برنارد لويس خاصا بالمسلمين وحدهم هو حقيقة شائعة في الشعوب، والعالم الإسلامي، والشرق الأوسط خاصة- ليس استثناء وحده.



وينتقد هاليداي المستشرقين لأنهم - بالإضافة إلى ما سبق - يفسرون الأوضاع السياسية في المجتمعات الإسلامية من حيث معنى الكلمات التي يستخدمها السياسيون في هذه المجتمعات، وبعض المستشرقين يفسر الكلمات الدينية والسياسية بالرجوع إلى المعاجم والقواميس ويأخذون المعاني القديمة لهذه الكلمات دون أن يضعوا في اعتبارهم أن اللغة كائن حي، وأن الكلمات تكتسب معانى ودلالات جديدة مع الزمن مختلفة عما كانت عليه في الماضي. ويقول: إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال فيها كثير من الكلمات السياسية لها أصل مسيحي، ولكن ذلك لم يعد له إحياءات دينية لدى المواطن أو الباحث البريطاني، وعلى سبيل المثال ففي اللغة العربية كلمة (اقتصاد) وكلمة (قصيدة) لهما (جذر لغوي) واحد (قصد) ومنها (مقصد) و(قصيدة) و(اقتصاد) فهل يراعي المستشرقون ذلك عند دراستهم للغة التي يستخدمها المسلمون والعرب؟ ومثال آخر: الجذر (شرك) منها (شركة) و(شراكة) و(اشتراكية) و(مشرك)، وكذلك عندما يقرأ مستشرق أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) استقبل وفد نجران، فهل يقفز إلى ذهنه أن الرسول استقبل وفدا من حزب مثل حزب الوفد المعروف في مصر؟!

وبعد مناقشة طويلة حول استخدامات اللغة وأخطاء المستشرقين في فهمها في كل مجتمع إسلامي يصل هاليداي إلى أن هذه الأخطاء هي أحد أسباب الأخطاء السياسية التي يرتكبها الغرب في تعامله مع المجتمعات الإسلامية. ومن المفاهيم الخاطئة للكلمات أصبح كثيرا من الغربيين يعتبر أن كلمة (تركي) تعني (مسلم)، وبالتالي فإن كلمة (مستشرق) لا تعني أن صاحبها درس كل شيء عن الشرق، وكلمة (مستعرب) لا تعني أن هذا الباحث يعرف كل شيء عن المجتمعات العربية، ولكنهم يعرفون اللغة العربية، ويتصورون أن معرفة اللغة العربية وقراءتهم للنصوص الإسلامية في لغتها الأصلية تجعلهم عالمين بالإسلام، وذلك خطأ منهجي لا يتفق مع التحليل الاجتماعي التكاملي للإسلام والمسلمين في إطار اجتماعي وتاريخي. ويقول فريد هاليداي: إن بعض المستشرقين الدارسين للأدب العربي والأدب في بعض الدول الإسلامية غير العربية يتحدثون عن الإسلام والمسلمين من خلال هذه الدراسة للأدب. والأدب عنصر من عناصر فهم المجتمع ولكنه ليس العنصر الوحيد، وبالتالي فإن الحديث عن الإسلام والمسلمين من خلال الأدب وحده لا يوصل إلى نتائج دقيقة.

لكن الأخطاء ليست من المستشرقين وحدهم بل ومن المسلمين أنفسهم - كما يقول هاليداي - فعندما يتحدث زعيم دولة مسلمة ويقول: إن الشعوب المسلمة لا تريد ولا تحتاج إلى الديمقراطية،

وأن المسلمين يتوصلون فى القضايا السياسية إلى (الإجماع) وأن القضاء لا يحتاج إلى قوانين ويكفيه الرجوع إلى القرآن والسنة، عندما يقول أحد زعماء المسلمين ذلك فإنه يبدو فى وضع يتصادم مع الاتجاهات الحضارية الحديثة، ويجعل المجتمعات الإسلامية تبدو كيانات منفصلة عن التيار العالمى. وبعض رجال الدين المسلمين يتحدثون عن الإسلام على أنه عقيدة جامدة ترفض التطور الاجتماعى والعلمى. وكذلك فإن نظم الحكم فى بعض الدول الإسلامية تتدخل لفرض تفسير معين للإسلام يدعم موقفها ويحول دون ظهور معارضة لها، مع أن الفقه الإسلامى ما هو إلا تفسير للنصوص. واختلاف المذاهب الفقهية دليل على قبول المسلمين لمبدأ التعددية والاختلافات فى فهم وتفسير النصوص.

ويرى هاليدى أن النصوص الإسلامية يمكن إعادة فهمها وتفسيرها بما يتفق مع التطور الذى لا يتعارض مع النظم السياسية والاقتصادية المختلفة (إقطاعية - اشتراكية - رأسمالية) ولا يرفض الإسلام الأشكال الحديثة للمؤسسات الاقتصادية (الشركات المساهمة - البورصة - الأوراق المالية - المصارف.. إلخ). وهذا دليل على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان.





## المسلمون مقصرون أيضا في حق أنفسهم !

يجب أن يعترف المسلمون بأنهم مقصرون في حق دينهم قبل أن يتهموا الغربيين بالتقصير والإساءة إلى الإسلام. لأن المسلمين لم يوصلوا أصواتهم ولم يقوموا بواجبهم لتوضيح حقيقة الإسلام والدفاع عنه في الغرب.

وأعتقد أن البروفيسور فريد هاليداي - الأستاذ بجامعة لندن - من أهم الباحثين الأكاديميين الذين درسوا الإسلام بمنهج علمي، وبدافع البحث والرغبة في المعرفة، دون تحيز أو آراء مسبقة. ولذلك فإنه يدافع عن الإسلام والمسلمين ويوجه إليهم النقد أيضا حرصا منه على تنبيه المؤسسات والمفكرين في العالم الإسلامي، ليعملوا من جانبهم على تقديم الإسلام للغرب بما يتفق مع العقلية الغربية وباللغة التي يفهمها الغرب، ولكي يوجهوا جهودهم أيضا إلى الجبهة الداخلية بتصحيح المفاهيم المنحرفة في داخل المجتمعات الإسلامية التي يرددها المتشددون والغلاة وقادة المنظمات الإرهابية التي تدعى أنها الممثلة للإسلام.

وهاليداي يكرر دائما أن المسئولية عن سوء الفهم للإسلام في الغرب هي مسئولية مشتركة بين الغربيين، وبين المسلمين، ولا يكفي أن تطالب الغرب بتصحيح الصورة إذا لم يعمل المسلمون على تصحيح الأصل. وهو أيضا ينبه إلى فكرة مهمة هي أن مفاهيم الإسلام، وأفكار المسلمين عنها ونظرياتهم وفهمهم للنصوص كل ذلك يتغير من عصر إلى عصر وفقا لتقدم العلوم والمجتمعات، ولذلك فإنه يوجه النقد إلى المستشرقين الذين يعتمدون على الكتب القديمة وحدها ويصدرون أحكامهم على الإسلام بناء عليها، متجاهلين ما حدث في مناهج وأفكار المسلمين من تطور، وما طرأ على علوم الفقه والتفسير من تجديد.

وهاليداي محق في ذلك لأن المستشرقين لا يضعون في اعتبارهم ما قدمه المجددون في الإسلام من أمثال الكندي، والرازي، والفارابي، وأبو الحسن الأشعري، والإمام الغزالي،

وابن سينا، وابن خلدون، وابن قيم الجوزية، والأفغانى، ومحمدا عبده، ومحمد رشيد رضا، والشيخ المراغى، والشيخ شلتوت، والشيخ الشعراوى، ومئات من أمثالهم على مدى العصور وحتى اليوم.

ويستشهد هاليداي بكتاب بارينجتون مور (الأصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية) الذى قال فيه: إن الثقافة أو التقاليد فى مجتمع ما لا تسقط من السماء، وليست منفصلة عن الناس الذين يعيشون معا فى مجتمع ما. وإن افتراض الجمود والاستمرارية للثقافة والتقاليد والقيم الاجتماعية افتراض غير منطقي وغير واقعي، لأن هذه المكونات للمجتمع تتجدد مع كل جيل جديد، وإن كان التغيير فى المجتمع يحدث غالبا بعد معاناة وصراع وآلام شديدة. ويتعرض المطالبون بالتغيير للسجن والتعذيب والتشويه. أو يتعرضون للرشوة والإغراء. أو يتعرضون للقتل وإطلاق النار عليهم. وكل ذلك لأن الدعوة إلى التغيير يقابلها دائما إصرار على الجمود الاجتماعى والثقافى.

ويقول هاليداي: إن دراسة المجتمعات الإسلامية ستظل ناقصة إذا لم تدرس الاختلافات فى المعتقدات الإسلامية، والشخصية الوطنية لكل شعب، والطبقات الحاكمة المسيطرة، والمجموعات العرقية فى كل مجتمع، لأن هذه عوامل تؤثر فى فهم وتفسير وممارسات العقيدة الإسلامية، ولكل جماعة أو فئة مصالح تسعى إلى تأكيدها واستمرارها باللجوء إلى تفسير للإسلام يتفق مع مصالحها.. وكذلك ينبه هاليداي إلى أخطاء المستشرقين الذين يتحدثون عن (الشخصية الإسلامية) وكأن المسلمين جميعا لهم سمات شخصية واحدة، ويقولون: هذه الشخصية الإسلامية تتميز بأنها عدوانية، ولا تعرف التسامح مع المنشقين، ولا تؤمن بالتعددية فى السياسة والثقافة، وقد أضيف مؤخرا التعصب الإسلامى كموضوع مفضل للمستشرقين.. كذلك فإن المستشرقين يرون أن النظم الدكتاتورية والنظم القبلية، واضطهاد الأقليات، هى من خصائص الإسلام والمسلمين، ويتجاهلون أن هذه الخصائص ذاتها موجودة فى أوساط المسيحيين، واليهود، والهندوس. وعلى ذلك فإن تفسير كل ما فى المجتمعات الإسلامية من ظواهر سياسية واجتماعية على أنها تطبيقات للإسلام، هو تفسير خاطئ وظالم، وإن كان الحكام يستخدمون الإسلام غطاء لتجاوزاتهم فإن ذلك محسوب على الحكام وليس على الإسلام.

وينبه هاليداي أيضا إلى أن الكتابات المنحازة والظالمة لشعوب معينة غير مقصورة فقط على كتابات المستشرقين عن الإسلام، لأن أخطاء الباحثين الأوروبيين كثيرة فى أحكامهم ودراساتهم عن الشعوب غير الإسلامية أيضا. فاضطهاد الأمريكيين المهاجرين للهنود الحمر السكان الأصليين لأمريكا مثال جيد على ذلك. وكذلك ما تكرر حدوثه فى أمريكا الجنوبية، بل إن انحياز بعض الباحثين الغربيين ضد اليابان هو مثال آخر، ومن أمثلة ذلك كتاب (الأقحوان والسيف) تأليف روث بينديكت الذى تحدث عن خصائص العقل اليابانى ومكانة المرأة المتدنية فى المجتمع اليابانى،

ومكانة الامبراطور المقدس.. وكان متحيزا في شرحه وتحليله للإسلام ولروسيا والصين.. أى لكل ما هو غير مسيحي وغير غربى! وينتهى هاليداي من استعراض الكتابات المتحيزة في الغرب ضد شعوب وعقائد أخرى غير الإسلام والمسلمين إلى أن العرب والمسلمين أيضا لديهم هذا الانحياز والتعميم عندما يتحدثون عن (الغرب) وكأنه كيان واحد، أو عندما يتحدثون عن (مؤامرة) الغرب ضد الإسلام والمسلمين على أنها شىء عام في الغرب كله، وفي الكتابات العربية والإسلامية من يقول: إن كل أفكار وكل نظم تأتي من الغرب هي أفكار ونظم فاسدة.



والحقيقة التي يريد هاليداي من المسلمين أن يعترفوا بها هي أن معظم أفكار العلوم الاجتماعية، والتكنولوجيا، والتقدم العلمى في هذا العصر، تأتي من أوروبا وأمريكا، أى من مجتمعات الإمبريالية والرأسمالية. والنظام الرأسمالى هو الذى يسود العالم بعد انهيار الشيوعية، والمد الذى يجعل (العولة) تستوعب الدول واحدة بعد الأخرى سواء عن رضا وقبول أم بالإكراه. ويقول: إن صدور أفكار من نوى النوايا الاستغلالية لا يعنى أنها كلها غير صحيحة أو أنها بلا أساس من الواقع. كذلك فإن سياسات (الهيمنة) الغربية تدفع الغرب إلى دراسة المجتمعات التي يريد السيطرة عليها لكى يحدد مواطن القوة والضعف، وأماكن الثروة، أى إن الغرب محتاج إلى أن تكون لديه (خريطة) كاملة ودقيقة وتفصيلية للمجتمعات التي يسعى إلى الهيمنة عليها، بما في ذلك تكوينها اللغوى والثقافى والدينى. وهذا ما فعله العلماء الذين جاءوا إلى مصر مع الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ فقد كانوا جزءا من مشروع إمبريالى، ولكن المعلومات التي جمعوها كانت لها قيمة موضوعية مهما كانت دوافعها وأهدافها. ولتقريب الفكرة يقول هاليداي: إنك إذا أردت أن تسرق أحد البنوك فلا بد أن يكون لديك خريطة دقيقة له من الخارج والداخل وللأعمال الروتينية وللموظفين ومواعيدهم وعاداتهم. ومن المفيد طبعا أن تبحث عن شخص أو أشخاص من داخل البنك يمكنك تجنيدهم للتعاون معك في السرقة.

وهذا ما تفعله دول الغرب!



يقول هاليداي: إنه لا يمكن إنكار أن العالم العربى والإسلامى كانت تنتشر فيه الأفكار والقصص الخرافية، ومر بمرحلة عانى فيها من فقر الحياة الفكرية، وقد أشار ادوارد سعيد نفسه إلى ذلك وانتقد الحكام في العالم الإسلامى الذين اهتموا بإنشاء أحدث المطارات على مستوى عالمى، لكنهم لم يهتموا بإنشاء مكتبة جيدة، كما انتقد كثير من المفكرين الإسلاميين حالة الركود في العالم الإسلامى، واجترار الأفكار القديمة، وتكرار الخرافات التي تمتلئ بها كتب التراث. وما فى بعض

الكتابات الإسلامية الحديثة من أفكار خرافية عن الغرب بدافع معاداة الإمبريالية، وهكذا فإن الخرافات والأفكار غير الدقيقة موجودة على الجانبين ولها دور لا يستهان به في إساءة العلاقة بين الغرب والمسلمين.

وينتقد هاليداي أيضا بعض الكتاب المسلمين لأنهم يتحدثون عن الغرب بلغة عدائية فيها تعميم وليس فيها تحليل وموضوعية لمجرد تغذية الاتجاهات المعادية للسياسات الغربية، دون تفرقة بين ما هو سياسى وما هو ثقافى، وهذا ما يجعل بعض الإسلاميين يرفضون ثقافة الغرب جملة، ويحكمون على الغرب فى عمومته بالانحراف عن الدين والانحلال الأخلاقى، وكأن جميع الغربيين ابتعدوا عن الإيمان والتدين، وأنهم جميعا لا يلتزمون بالبادئ والقيم الأخلاقية. وهذا التعميم خطأ يتسبب فى إساءة العلاقات بين المسلمين والغربيين على المستوى السياسى وأيضا على مستوى العلاقات الفردية. وبعض الحكام يرددون فى خطاباتهم عبارات عدائية تجاه الغرب، ويقابل هؤلاء مجموعات فى الغرب يتعاملون مع المسلمين على أنهم مجموعة ثقافية واجتماعية واحدة بل يتعاملون مع المسلمين على أنهم مجموعة عرقية واحدة. وإن كان الأخطاء وسوء الفهم والتفاهم من الجانبين وليس من جانب واحد.



ويناقش هاليداي النظريات الحديثة الرائجة عن الإسلام فى الغرب الآن، ويقول: إن أبرز سمات مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة ظهور أفكار جديدة عن حتمية الصدام بين الغرب من جهة، والإسلام من جهة أخرى، على أنهما كتلتان بينهما مواجهة وصراع أساسى. وتروج هذه الفكرة فى العالم الإسلامى كما تروج فى الغرب، وتتردد أصداؤها فى أندونيسيا، ونيجيريا، وبنجلاديش. كما تتردد فى أفغانستان وباكستان والمنطقة العربية. وتغذى هذه الفكرة مشاعر العداء للاستعمار والامبريالية والعولمة، كما تغذيها الأحداث فى فلسطين، وكشمير، وغيرها من البلدان الإسلامية. ومن تجليات هذه الفكرة انتشار الإحساس بالتهديد والخطر لدى كل جانب من الآخر، وشعور فى الغرب بصعوبة التعامل مع الإسلام. ومع أن هذه المشاعر فيها الكثير من المبالغة وعدم الفهم. إلا أنها تؤثر فى السياسة، وتغذى النظرية التى راجت مؤخرا عن التحول فى طبيعة الصراعات الدولية، وبعد أن كانت العلاقات الدولية فى الماضى تتحدد على أساس القوة والمصالح الاقتصادية والأطماع فى الأرض والثروات الطبيعية، أصبحت هذه العلاقات تتحدد على أساس الثقافة والأفكار والإعلام والنظم السياسية والاختلافات الحضارية، أى إن الثقافة والحضارة أصبح لهما قوة. والصراع الدولى - بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والأيدولوجية الشيوعية - سيكون صراعا بين أيدولوجية وثقافة الغرب، وأيدولوجية وثقافة الإسلام، وهذه هى النظرية التى عبّر عنها البروفيسور صمويل هنتنجتون أستاذ العلوم السياسية الأمريكى فى كتاباته وخاصة كتابه الشهير (صدام الحضارات).

وهو يرى أن الثقافة هي ما تبقى من أسباب الصراع الدولي، والصدام حتمى بين الدول ذات الثقافات المتناقضة، ونقطة البدء في نظرية هنتنجتون أن الشرق والغرب منفصلان، والخلافات بينهما تصل إلى درجة التناقض.

ويعلق هاليداي على هنتنجتون وفوكوياما الذى وضع نظرية (نهاية التاريخ) وقال فيها: إن الصراع قادم بين الغرب والإسلام، وعندما ينتصر الغرب ستكون هذه هي المرحلة الأخيرة من الصراعات التى تشكل تاريخ البشرية. يعلق هاليداي قائلا: إن الخطأ فى مثل هذه النظريات هو وضع العالم الإسلامى كله فى خانة واحدة، ووضع العالم الغربى كله فى خانة واحدة، وهذا التعميم يتعارض مع مناهج علم الاجتماع وعلم الأديان وعلم السياسة. كذلك فإن المنهج العلمى قائم على عدم الاعتماد على ما يقوله الناس عن أنفسهم وعن ديانتهم وثقافتهم، دون الاعتماد أيضا على ملاحظة ودراسة ما يفعله هؤلاء الناس فى الواقع.

ويضرب هاليداي مثلا بالثورة الإيرانية التى قامت عام ١٩٧٨ باسم الإسلام، وماذا فعلت بالنقابات، وبالمراة، وبالأقليات العرقية، ولا يكفى الاعتماد على ما يقال، ولكن يجب رؤية ما حدث فى الواقع. ويضرب مثلا آخر عن غزو صدام حسين للكويت عام ١٩٩٠، وكان صدام وهو يغزو بلدا إسلاميا يردد القول بأنه يغزو الامبريالية باسم الإسلام، ويصف هذا الغزو بأنه (جهاد). والسبب الحقيقى ليس دينيا ولكنه الطمع فى نهب ثروة البترول فى الكويت بعد استنزاف موارد العراق فى حربها مع إيران. وهذا ما فعله البريطانيون عندما قاموا باحتلال مصر عام ١٨٨٢، وعندما قاموا بضرب فنزويلا عام ١٩٠٢، وفى كل الغزوات والصراعات كان السبب الحقيقى لها الاستيلاء على ثروات الآخرين، أو السيطرة على مناطق لها أهمية استراتيجية. وإن تم تغليفها بغطاء دينى أو أخلاقى.

وكمثال للدراسات التى اعتمدت على تفسير ما يحدث فى العالم الإسلامى بدوافع غير دينية، يشير هاليداي إلى كتاب (فهم الإسلام) لعالم الأنثروبولوجيا (مايكل جيلسان) الذى كتب عما يفعله المسلمون فى بلادهم دون أن يعتمد على النصوص الإسلامية، لأن هذه النصوص لا تفسر ما يفعله الحكام، والقادة السياسيون، وعلماء الدين، وأمراء الحرب فى الدول الإسلامية. وبهذا المنهج يمكن دراسة الاقتصاد فى الدول الإسلامية التى تقول: إنها تطبق (الاقتصاد الإسلامى) وعند ملاحظة السلوك والسياسات الاقتصادية والأسواق نجد أن ما يطبق ليس قائما على القرآن والسنة ولكن على مبادئ وأسس الاقتصاد، ولذلك يصح القول الذى أطلق فى القرن التاسع عشر: (إن الإسلام بحر تستطيع أن تصطاد فيه أية سمكة تريد).

وفى كتابه (ساعتان حزتا العالم) عن هجوم ١١ سبتمبر على مركز التجارة العالمى فى نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية فى واشنطن، يكرر هاليداي فكرته عن عدم وجود كيان واحد اسمه (العالم

الإسلامي) وكيان آخر اسمه (الغرب). فيقول إن العالم فيه نحو ١٩٥ دولة لكل منها تاريخ وقيم، منها (٥٥) بلدا مسلما، أعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، وهناك بلاد أخرى يشكل المسلمون جزءا كبيرا من سكانها مثل أثيوبيا، والهند، ونحو ١٦ مليون مسلم في روسيا، وفي ٦٠ دولة أخرى يمثل المسلمون أقلية كبيرة، ولهذه الدول ثقافتها وتقاليدها المختلفة عن التقاليد والثقافة الإسلامية، ولها سياسات منفصلة عن السياسات المطبقة في الدول الإسلامية سواء في الهياكل السياسية والنظم الاقتصادية أم في القيم والعادات ووضع المرأة والأقليات. ولكل دولة - إسلامية أو غير إسلامية - مصالح خاصة بها، وتجمعها مع غيرها عقيدة واحدة، إلا أن ذلك لا يمنع من قيام الحروب بينها والخلافات على الحدود. وهناك دول إسلامية لا تفعل الكثير للفلسطينيين. وقد كانت أشد الحروب دموية في القرن العشرين هي الحرب اليابانية الصينية من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٥. ثم الحرب بين دولتين إسلاميتين هما إيران والعراق من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨، وشهد هذا القرن النزاع بين دولتين إسلاميتين أيضا هما المغرب والجزائر، في الوقت الذي يتحدث فيه الجميع عن (أمة إسلامية واحدة).

وهذا ما ينطبق على (الغرب) أيضا. فليس هناك (غرب) واحد، وكثيرا ما يقال إن حقوق الإنسان، أو السيادة، من المفاهيم الغربية، بينما هي مفاهيم ظهرت نتيجة نزاعات بين دول وحركات في الغرب من أجل حقوق المواطنين في اختيار حكاهم بالانتخاب، ومن أجل حقوق المرأة، وحقوق النقابات، والمنظمات الأهلية غير الحكومية، فكيف يمكن قبول نظرية تدعى أن الصراع حتمي بين هذا الغرب وهذا العالم الإسلامي على رغم أن كلا منهما ليس عالما واحدا ولكنه مجموعة دول وكيانات سياسية متعددة.



يخلص هاليداي من ذلك إلى ضرورة إعادة النظر في الاتهامات التي يوجهها الغربيون إلى الإسلام والمسلمين، ويقول: إن في كل الأديان حركات تحاول تفسيره لأغراض سياسية واجتماعية. ولو نظرنا إلى الشكل السياسي في العالم العربي لوجدنا عدة دول تقول إنها إسلامية، بينها اختلافات واسعة في النظم السياسية؛ بين دكتاتورية، وملكية، وحكم قبلي، وبعض النظم تدعى أنها تعتمد على مرجعية دينية كما في إيران وغيرها، ونظم أخرى فيها قدر من الديمقراطية، وكل من هذه الأنظمة يعلن أنه المعبر الحقيقي عن نظام الحكم الإسلامي، ولا تعدم العثور على ما تريد الاستشهاد به من النصوص ومن المراجع الفقهية.

ومن ناحية أخرى يشير هاليداي إلى الخطاب السائد في أوروبا الغربية والولايات المتحدة عن (تهديد) الإسلام لهذه الدول وضرورة مواجهته، ويتردد هذا في إسرائيل بصورة أكبر. وفي الهند أيضا. وحزب جاناتا في الهند حزب أصولي هندوسي، والأصوليون الهندوس معادون للعلمانية

وللإسلام. وقد ساعدت وسائل الاتصال الحديثة على نشر الأفكار المفيدة والضارة، وقد روجت بعض وسائل الإعلام للصورة السلبية عن المسلمين مثل الادعاء بأنهم جميعا تجار مخدرات، وأنهم جميعا إرهابيون، أو الادعاء بأن المهاجرين المسلمين في الدول الغربية يحاولون تغيير المجتمعات الغربية وثقافتها. وثمة تشابه غريب في اللغة التي تجدها في الهند وفي سان فرانسيسكو أو أوكلاهوما في الولايات المتحدة أو روسيا، أو في أى مكان هنا وهناك.. الادعاء بأن التهديد الذى يمثله المسلمون موجه إلى هذه الدول أصبح شائعا في السنوات العشر الأخيرة بين كتاب الأعمدة في الصحافة، وبين السياسيين، وحتى بين بعض وزراء الاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي (الناتو). وأصبح التحامل على المسلمين، والقول بوجود صراع تاريخي عابر للقارات من القضايا الشائعة. ويتساءل هاليداي: هل هذا التهديد الإسلامى صحيح؟.

ويجيب: إن الأمر ليس بمثل هذه البساطة التى يتناول بها البعض هذا الموضوع المهم، فالصراعات بين الدولة العثمانية الإسلامية ودول أوروبا الغربية لم يكن دائما، ولكن كانت بينها فترات صدام وفترات تحالف وتعاون، وكان الصراع تعبيرا عن موازين القوى حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عندما تحالفت تركيا مع ألمانيا والنمسا ضد الدول الأوروبية الأخرى. ولم يكن هناك صراع أزلى بين الإسلام والغرب من منظور امبراطور ألمانيا الامبراطور فيلهلم حتى إنه قدم نفسه فى عام ١٩١٤ على أنه قيصر المسلمين كافة. وفى السنوات الأخيرة كان الصراع بين البلاد الإسلامية أكثر من صراعها مع دول غربية. وكانت أول حرب خاضها حلف شمال الأطلسي فى تاريخه للدفاع عن بلد مسلم هو الكويت من اعتداء بلد مسلم هو العراق، وكانت الحرب الثانية للحلف للدفاع عن البوسنة وهى أيضا بلد مسلم، وهكذا فإن نظرية الصراع الحتمى بين العالم الغربى والعالم الإسلامى لها ما يناقضها. ونجد انه بينما نشبت الحرب بين إيران والعراق وكلتاهما دولة مسلمة. فإن إيران لا تدعم أذربيجان وهى مسلمة شيعية فى صراعها مع أرمينيا المسيحية الأرثوذكسية، ولم تقل إيران شيئا عن الشيشان. وإيران لا تدعم مطالب باكستان و(المجاهدين) فى كشمير بسبب علاقاتها الطيبة مع الهند، ولأن باكستان لديها قنبلة ذرية. ربما تمثل تهديدا لإيران. وبمنظرة على ما يسمى (العالم الإسلامى) نجد أن (التضامن الإسلامى) غائب فى حالات عديدة، ومنها حالة تركيا وخلافها مع الدول الإسلامية حول قبرص، والدول الإسلامية تؤيد حق اليونان فى السيادة على جزيرة قبرص ولا تؤيد انفصال (الجزء الإسلامى منها الذى يسمى «قبرص التركية» ).



من هذا يتبين - وفقا لتحليل هاليداي - أن صمويل هنتنجتون لم يكن مصيبا عندما ردد ما وجده فى الكتب القديمة عن (دار السلام) و(دار الحرب) على أن دار السلام هى الدول الإسلامية،



ودار الحرب هي الدول غير الإسلامية، فإن العلاقات قائمة على اعتبارات أخرى غير الدين. وإذا كان البعض يستشهد باعتداءات من المسلمين على غير المسلمين في بعض البلاد. فإنهم يغفلون أن المسئولين عن المذابح في البوسنة لم يكونوا مسلمين، والذين ماتوا بقصف سراييفو طيلة ٦٩٠ يوما وقتل عدد يتراوح بين ٢٠ ألفا و٣٠ ألفا لم يكونوا مسلمين، والمسئول عن سد الطريق أمام الفلسطينيين ليسوا مسلمين، والمذابح التي ترتكب في حق المسلمين في الهند المسئول عنها الأصوليون الهندوس الذين يريدون إلغاء باكستان الإسلامية من الخريطة.

وبناء على ذلك يصل إلى أن تعميم فكرة وجود تهديد إسلامي فكرة غير صحيحة، والتهديد الحقيقي لدول الغرب هو من اقتصادات شرق آسيا القادرة على إنتاج بضائع حديثة بأسعار تنافسية أشد خطرا من الخطر الإسلامي المزعوم. فإن سنغافورة - سكانها لا يزيدون على أربعة ملايين - تنتج نصف إنتاج العالم من الأقراص الصلبة للكمبيوتر (الهارد ديسك)، بينما الأداء الاقتصادي في الدول الإسلامية ضعيف ولا يمثل تهديدا لاقتصاد أمريكا ودول أوروبا، وكل ذلك لا يمت بصلة للدين، إنما يرجع إلى القيادات في هذه الدول، وإلى أن الدول الإسلامية تتلقى استثمارات قليلة، والخلاصة: ليس هناك تهديد اقتصادي من الدول المسلمة، والعكس هو الصحيح فإن أموال البترول في الدول العربية والإسلامية تستثمر في أمريكا وأوروبا.

وما دام الادعاء بوجود تهديد إسلامي موجه إلى دول الغرب ادعاء باطلا فلماذا يتكرر وينتشر؟.

يجيب هاليداي بأن بعض النظريات تقول: إن هناك تاريخا في الغرب من الاعتداء على المسلمين في الأدب والثقافة والأمثلة كثيرة منها دانتى في تصويره للتركي الرهيب. وصحيح أن الثقافة في الغرب مليئة بالكراهية للمسلمين، ولكن ذلك ليس تفسيرا كافيا، لأن ما حدث في الماضي ليس من المحتمل أن يظل موجودا إلى اليوم، وإذا وجد فلا بد أن تكون هذه الثقافة العدائية قد أعيد إنتاجها، فالبشر في دول الغرب لا يولدون كارهين للإسلام وللمسلمين، ولكن يتم تلقينهم وإقناعهم بذلك، فالماضي لا يفسر الحاضر بصورة مطلقة، إلا إذا أمكن تفسير استمراره. ولذلك فالسؤال هو: لماذا أعيد إنتاج التحامل والعداء الموجه للمسلمين؟. لماذا يوصف المسلمون بأنهم سلبيون مستسلمون ضعفاء تخلوا عن الحق في النضال والحياة؟. ولماذا تشيع في الغرب هذه الصورة النمطية السلبية عن الإسلام والمسلمين؟.

البعض يرى أن السبب هو انتهاء الحرب الباردة وانحيار الأيديولوجية الشيوعية والعدو السوفيتي، وأن الغرب يبحث عن عدو جديد لكي يبقى قواه في حالة استعداد وقد وقع الاختيار على الإسلام ليكون هو العدو الجديد الذي تحشد دول الغرب قواها للتغلب عليها وحماية نفسها



من خطره، لأن الحياة بدون وجود عدو ووجود خطر تؤدي إلى الاسترخاء والتفكك، ووجود العدو والخطر يدعوان إلى اليقظة والاستنفار وهما أساس التقدم.

لكن هاليداي يرى أن هذه النظرية من أكثر النظريات تضليلا في العلاقات الدولية اليوم، ويصفها بأنها (مراء) مطلق. ولا بد للباحثين في الدول الإسلامية ودول الغرب من البحث عن تفسير صحيح لهذه الحالة. وإيجاد صيغة للحوار والتعاون بدلا من الترويج لنظرية حتمية الصراع.



وفي هذا السياق كانت أحاديث الدكتورة سوزانا هانية الأستاذة بكلية الدراسات البروتستانتية بجامعة فيينا بالنمسا أثناء زيارتها للقاهرة في نوفمبر ٢٠٠٣، وهي متخصصة في مجال الحوار بين الإسلام والمسيحية. وقد حرصت على التفرقة بين ما يقال عن الإسلام في دول أوروبا وما يقال عنه في الولايات المتحدة، ففي دول أوروبا نجد تفهما للإسلام وتقبلاً له على نحو ما إذا قيس بما في الولايات المتحدة من عدا. وفي النمسا بالذات - كما قالت - لم يلصق النمساويون بالإسلام اتهامات مهينة كما حدث ويحدث في كثير من المجتمعات الغربية. والثقافة الغربية ترفض إكراه إنسان على اعتناق فكرة معينة أو دين معين، والإنسان الغربي - غير المتعصب - لديه استعداد طبيعي للحوار والاستماع إلى الآراء المختلفة. وفي رأيها أن الصهيونية قد تكون عاملا من عوامل تشويه الإسلام، كما أسهمت في حملة التشويه كثرة الحروب بين المسلمين والغربيين. فالعداء للإسلام في الغرب له جذور وعوامل متعددة يجب التعامل معها والبدء من جديد في عالم مستعد لنسيان العداوات، ولديه استعداد لا بأس به لتصحيح الأخطاء التي تنسب إلى الأديان، وهذه مهمة المسلمين. فليهم أن يقدموا بالأدلة والمنطق ما يبرئ الإسلام مما يلصق به من اتهامات. وعليهم بدعوة أهل الفكر والعقيدة للحوار ولعرفة الحقائق وتصحيح الأخطاء الشائعة في الغرب عن الإسلام. وهذه اللقاءات كلما تكررت فإنها تساعد على (إخراج البخار المتراكم في النفوس) والتوصل إلى نقاط التقاء موجودة بالفعل بين الإسلام والأديان الأخرى.

لكن الدكتورة سوزانا هانية لم تنكر أن العداء للإسلام في أمريكا وصل في الوقت الحاضر إلى درجة غير مسبوقة، وبررت ذلك بروج الأفكار الأصولية في أمريكا، وانتشار موجة من التعصب الديني هي رد فعل لحالة التخلي عن الدين بدعوى التحرر التي سادت في أمريكا لفترة طويلة. ومن الأفكار الرائجة في أمريكا فكرة عودة المسيح مرة أخرى في القدس بعد قيام دولة إسرائيل وهيكل سليمان، ليحكم العالم بالعدل وينشر السلام، وتكون هذه الفترة التي تمتد إلى ألف عام، هي نهاية التاريخ. والذين يؤمنون بهذه العقيدة يواجهون بالعداء كل من يعارضهم أو يختلف معهم. وبعد هجمات ١١ سبتمبر في أمريكا على مركز التجارة العالمي ومبنى وزارة الدفاع بدأ كثيرون في

البحث من جديد عن الدين الصحيح ، وهذه فرصة لأصحاب الدين الصحيح لكي يبحثوا عن هؤلاء الذين يشعرون بالحيرة والقلق ويستمعوا إليهم ، ويشرحوا لهم ما لديهم ، ويأخذوا بأيديهم إلى طريق الهداية.

وعبرت الدكتورة سوزانا هانية أكثر من مرة عما لاحظته في أمريكا في زياراتها الأخيرة للمشاركة في عدة مؤتمرات عقدت فيها ، وكان معظم الحاضرين من السياسيين ورجال الدين الأمريكيين يتساءلون : لماذا يكرهنا العالم؟ وكيف نستطيع تحسين صورة أمريكا في العالم؟ وفي رأيها أن مثل هذه الأسئلة تعنى أن الأمريكيين يمرون بمرحلة نقد الذات ، والرغبة في تصحيح مواقفهم من الآخرين وبخاصة من الإسلام والمسلمين ، ولا بد أن يعمل المسلمون - مع المفكرين الأمريكيين المعتدلين - على تقوية هذا التيار لتحقيق التفاهم والمصالحة بين الأمريكيين والإسلام.



وهناك نماذج كثيرة لشخصيات في الغرب اعتنقت الإسلام بعد دراسة تبين لهم منها ما في هذا الدين من سماحة وقيم إنسانية عالية ، وتوازن في علاقة الإنسان بالمسائل المادية والروحية. ومن أمثلة هؤلاء جوليا كريفيلاو الإيطالية التي جاءت إلى القاهرة في نوفمبر ٢٠٠٣ لإشهار إسلامها ، وعرضت تجربتها في لقاءات صحفية قالت فيها : إن رحلتها إلى الإيمان استغرقت أربع سنوات ظلت خلالها تبحث عن الدين الذي يحترم عقل الإنسان ويحترم المرأة ، ولا يميز بين إنسان وآخر. وإنها في النهاية وجدت روحها بعد أن كانت قد هجرت التعاليم الدينية وعاشت كفتاة أوروبية متحررة من كل قيد ، إلى أن أنهت العام الأول من دراستها الجامعية عام ١٩٩٩ وقررت كليتها أن تتلقى التدريب العملي على أعمال الفنادق في مصر ، وفي يوم سمعت تلاوة القرآن أثناء سيرها في أحد شوارع مدينة الغردقة ، فتوقفت تنصت إلى القارئ ووجدت نفسها تبكي في الطريق.. وبعدها قررت أن تبقى في مصر لدراسة الإسلام ، ومعرفة الحلال والحرام في هذا الدين ، وبعد ثلاث سنوات من الحوار والقراءة ولقاء المتخصصين ، وانشغال بأمور الفقه وتفسير القرآن ، وصلت إلى مرحلة انتهت فيها الصراع في داخلها وشعرت بأنها وصلت إلى بر الأمان - كما قالت - وما زالت تشعر بالدهشة كيف يخطئ الناس في الغرب فهم الإسلام ويصفونه دون علم بأنه دين تعصب وإرهاب؟ على رغم أن الثقافة الغربية قائمة على العلم والتحليل والمنطق والاعتماد على الدليل في كل حكم. والمشكلة في رأيها : أن هناك خلطاً في العقل الغربي بين الإسلام وجماعات الإرهاب التي تقوم بعمليات التدمير والقتل وإثارة الفرع وتدعى أن ذلك هو الإسلام.



وهذا الخلط بين الإسلام والإرهاب وراءه في الغرب نوايا ودوافع غير دينية، منها سياسات الهيمنة على العالم الإسلامي، والأطماع المتزايدة في البترول والثروات الطبيعية، والرغبة في السيطرة على أسواق الدول الإسلامية.. وهكذا.

والباحثون الذين انشغلوا بظاهرة كراهية الإسلام في أوروبا وضعوا أيديهم على بعض الأسباب التي أدت إلى انتشار هذه الظاهرة.

ومن هؤلاء (فانسان جاييسر) الباحث الفرنسي في معهد دراسات العالم العربي والإسلامي وأستاذ الدراسات السياسية، ومؤلف عدد من الكتب في السياسة والاجتماع، وهو في كتاباته يكرر إدانته لموجة العداء للإسلام في الغرب عامة وفي فرنسا خاصة، والتي ظهرت في برامج أحزاب اليمين المتطرف، والهجوم الشديد على الإسلام الذي يقوم به المتشددون من دعاة العلمانية، وأيضاً في مشاعر الكراهية للعرب والمسلمين التي تغذيها الأوساط اليهودية المتطرفة التي تروج المخاوف من المسلمين المهاجرين في فرنسا الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة في ظروف قاسية.

ويرى (فانسان جاييسر) أن موجة الكراهية للإسلام سادت دول الاتحاد الأوروبي بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. ويشير إلى تقرير صادر عن (اللجنة القومية الاستشارية لحقوق الإنسان) قريبة الصلة برئاسة الحكومة الفرنسية، يعترف هذا التقرير بأن المهاجرين من أصول عربية إسلامية مستهدفون ويعانون من العنف ضدهم. كما يؤكد تقرير آخر من جهاز الرقابة الأوروبي للأعمال العنصرية أن دول الاتحاد الأوروبي جميعها تتزايد فيها مشاعر الكراهية ضد الإسلام وأن هذه الكراهية تظهر في أعمال العنف الجسدي والإهانات اللفظية، وينبه إلى خطورة هذه الظاهرة لأنها تؤدي إلى إيجاد فجوة بين الأقلية المسلمة والشعوب الأوروبية. وبناء على هذا التقرير قررت هذه اللجنة الأوروبية تنظيم حوار لمناقشة ظاهرة (كراهية الإسلام) بصفة خاصة.

ويشير (فانسان جاييسر) أيضاً إلى أن الجدل حول مكانة الإسلام في المجتمع الفرنسي، ووجود المسلمين في الحياة العامة، يعود إلى مخاوف كامنة في العقل الباطن من ميراث تاريخي بأن الإسلام سوف يغزو فرنسا خصوصاً بعد أن أصبح الإسلام بالفعل ثاني أكبر دين بعد الكاثوليكية، ولذلك تجاوزت العنصرية في فرنسا كراهية العرب وسكان الأحياء الفقيرة لتصبح كراهية للدين الذي يتغلغل داخل المجتمع الفرنسي. وتغذى هذه الكراهية مظاهر تأكيد الحضور الإسلامي في وجود أكبر للمساجد والمطاعم المخصصة للطعام الحلال، وتختلط الأمور في أذهان الفرنسيين إلى حد أنهم يعتبرون أبناء الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين الذين ولدوا وعاشوا في فرنسا ولا يعرفون لهم وطناً غيرها، يعتبرونهم (جماعة أخرى) ومواطنين من أصول عربية إسلامية وينظرون إليهم على أنهم عناصر لديها استعداد للجريمة والعنف. وبناء على ذلك يشعر الفرنسيون بالتوجس منهم،

ويرون أن على المجتمع الفرنسي الدفاع عن سلامته وعن هويته، وهذا ما يفسر لماذا يريد الفرنسيون من المسلمين ألا يشيروا علنا إلى هويتهم الإسلامية، فيمنعون تلميذات المدارس الحكومية من ارتداء الحجاب، ويتعرض المسلمون للاعتداء، حتى إن أعمال العنف في المساجد من يناير ٢٠٠١ حتى نهاية عام ٢٠٠٣ تزيد على ١٥ حادثة اعتداء منها إشعال الحرائق، وإرسال طرود مفخخة إلى المسؤولين في الجمعيات والاتحادات الإسلامية، وتلطيف واجهات المساجد.. كما يشير (فانسان جايسر) إلى ما قام به عمدة مدينة (أو مون) في شمال فرنسا، حين قرر منع المسلمين من إقامة احتفالات الزواج في أيام السبت على أساس أن هذا اليوم (يوم كريم) مخصص للفرنسيين الكاثوليك المؤمنين، وتواكب مع ذلك قيام عمدة مدينة (إيفري) بانذار محل يرفض صاحبه المسلم بيع الكحوليات ولحم الخنزير. وكان العمدة مخالفا بذلك القانون، لأن القانون الفرنسي لا يلزم صاحب متجر ببيع الكحوليات ولحم الخنزير، ومع ذلك فقد هدد العمدة بإغلاق المتجر بقوة البوليس.

يفسر (فانسان جايسر) هذه المشاعر العدائية بأنها نابعة من مشكلة تاريخية، حيث تحمل الذاكرة القومية مشاعر الكراهية نحو الدين منذ الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية في أوروبا، وهي مشاعر عبّر عنها المستشرق الفرنسي المشهور (رينان) في عام ١٨٨٣ في محاضرة له ألقاها في السوربون وأعيد نشرها عام ٢٠٠٣ وتحدث فيها عن تخلف المسلمين في العلوم، كما كان الاستعمار الفرنسي للجزائر عاملا لتثبيت فكرة استعمار فرنسا المتقدمة لدولة متخلفة لأنها مسلمة! وهكذا فإن الموجة الجديدة لكراهية الإسلام مرتبطة بالفترة الاستعمارية، مع فارق واحد هو أن كراهية الإسلام الحالية تنبع من المفكرين والمثقفين والصحافة على رغم أنهم من معارضي الاستعمار والامبريالية والعولمة بصفة عامة، وبعضهم يهاجم الإسلام في معرض دفاعه عن العلمانية والديمقراطية، وفي دفاعه عن الأمن القومي للبلاد بعد الهجمات الإرهابية على أمريكا وبعض دول أوروبا.

ويصل (فانسان جايسر) في تحليله لظاهرة العداء للإسلام إلى سبب قد لا يتنبه إليه كثيرون، فهو يرى أن اليهود اكتسبوا وزعا خاصا متميزا في المجتمع الفرنسي على أنهم المضطهدون وأنهم (الضحية)، ويحرص اليهود على أن يحتكروا وضع (الضحية) بحيث لا يشاركونهم فيه غيرهم، ويرون أن تزايد المؤسسات الإسلامية يهدد قضيتهم وهي أنهم الضحية الوحيدة للعنصرية، وقد بدأ المسلمون يأخذون أيضا وضع (الضحية) ويهددون بذلك الحجة التي تعطى لليهود قوة وتجعلهم يحصلون على امتيازات بحجة أن من يعارضهم إنما يمارس عليهم الاضطهاد والعنصرية. هذا فضلا عن انتشار المواقع المعادية للإسلام على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) التي قامت بإنشائها المنظمات اليمينية المتطرفة، والمنظمات الصهيونية المتشددة، والتي تدعو فيما تنشره إلى اتخاذ إجراءات صارمة ضد المهاجرين وخاصة المسلمين. وينبه (فانسان جايسر) إلى خطورة انعكاسات

هذه الحملات على المسلمين في مجالات العمل، حيث يرفض أصحاب الأعمال توظيف المسلمين، وقد أعلن نائب السكرتير العام للاتحاد الوطني للنقابات المستقلة أن العديد من جهات الترشيح للوظائف تلقت بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ طلبات من الشركات بعدم ترشيح العرب والمسلمين. كما ينبه الباحث الفرنسي إلى أن العمليات الأمنية أصبحت أكثر تشددا على المسلمين الذين يؤدون شعائرهم، وعلى المنظمات والجمعيات الإسلامية، كما تتكرر عمليات استدعاء الأئمة وقيادات الجمعيات الإسلامية للمثول أمام جهات الأمن والاستخبارات. ويروج المتعصبون لفكرة أن الإسلام هو العدو الأول الذي يهدد مبادئ وقيم الجمهورية التي حارب الفرنسيون من أجلها أكثر من قرنين من الزمان. وانتقل هذا الشعور إلى جانب من السلطات المحلية. ومن أمثلة ذلك قيام عمدة مدينة (شارفيو - شافانيو) عام ١٩٨٩ بهدم صالة يستخدمها المسلمون للصلاة، وادعى أن الهدم تم بطريق الخطأ. ومثل وصف عمدة (مونبلييه) أئمة المسلمين في فرنسا بأنهم جهلة، ووصف الفتيات المحجبات بأنهن مصابات بمرض نفسي، وهكذا.

وينتهي الأستاذ (فانسان جابيسر) إلى أن هذا العداء للإسلام يدور في دائرة مفرغة، ويمنع الفرنسيين من التوصل إلى فهم حقيقي لظاهرة الإرهاب وشبكاته، وهذا دليل على أن جانبا من الفرنسيين - وحتى المثقفين - أصبحوا لا يؤمنون بالبحث عن الحقيقة بموضوعية، ويستسلمون للأفكار السهلة الجاهزة التي قد نغفرها للجهلاء وعامة الناس، لكنها لا تغتفر حين تأتي من المثقفين.



أين المسلمون من كل ذلك؟ ماذا فعلوا للرد على الهجمات الموجهة إليهم باللغة التي يفهمها الغرب وبوسائل لها الاستمرار وليست مجرد لقاءات عابرة أو ندوات ومؤتمرات لا يحضرها إلا عدد محدود ولا تعقد إلا في فترات متباعدة؟



# مفكر ألماني يفهم الإسلام أفضل من بعض المسلمين !

الدكتور مراد ويلفريد هوفمان ألماني، ولد عام ١٩١٠ حاصل على الدكتوراه في القانون من إحدى جامعات الولايات المتحدة. نشأ كاثوليكيًا. عمل خبيرًا نوويًا في حلف الأطلسي، كما عمل سفيرًا لبلاده في الجزائر والإمارات والسعودية لسنوات طويلة أتاح له دراسة الإسلام من مصادره الأصلية، خاصة بعد أن تعلم اللغة العربية. وأخيرًا اعتنق الإسلام وأصبح واحدًا من أشهر المنصفين للإسلام والمسلمين في الغرب، وله كتب عديدة اهتم الأستاذ عادل المعلم بترجمة بعضها إلى اللغة العربية ومنها: (الإسلام كبديل) و(الإسلام عام ٢٠٠٠) و(خواء الذات والأدمغة المستعمرة) الذي شاركه في ترجمته نشأت جعفر.

ولقد قابلت الدكتور مراد هوفمان لأول مرة في جلسة حوار إسلامي مسيحي في ألمانيا، وكنت مع فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الأزهر - وكان وقتها مفتي الجمهورية - ولفت نظري أنه يتحدث عن الإسلام بعقلانية ولا يستخدم الألفاظ الرنانة ذات التأثير العاطفي، ولكنه يعتمد على المنطق، وعلى الوقائع والحقائق التاريخية. ثم عرفت بعد ذلك أنه كثير الأسفار في أنحاء أوروبا وأمريكا للمشاركة في الحوارات التي تنظمها الجامعات ومراكز البحوث، وعرفت أنه من المدافعين عن الإسلام بالأسلوب الذي يفهمه الغرب، ثم رأيت بعد ذلك مشاركا في متمرات إسلامية عالمية في مصر والسعودية.

وكتابه (الإسلام كبديل) أراد به مواجهة الأحداث الكثيرة التي يتعرض لها العالم الإسلامي، وتوجيه الأنظار في الغرب إلى أن قلة قليلة من المؤلفين الغربيين تهدف في تناولها للإسلام إلى التركيز على الأساس الروحي لهذا الدين، وهو يدعو القارئ إلى فك الحصار المضيق حوله من الكتب الكثيرة التي تثير فيه الخوف من الإسلام وربطه بالأصولية، والتعصب، والحرب المقدسة، وسيوف الإسلام، لأن هذه الكتب لها هدف هو أن تتكون لدى القارئ الغربي استنتاجات سطحية عن طبيعة الدين الإسلامي. ويقول: إنه رأى أن يؤلف هذا الكتاب - وهو ألماني مسلم - لشرح المفاهيم

الإسلامية الخلافية المثيرة للجدل، فهو دعوة على أساس علمى مؤيدة بالتاريخ والحاضر.. ويقول فى مقدمة الكتاب أيضا: إن مرحلة الصراع بين العالم الغربى والشيوعية على قيادة العالم قد انتهت، وكان من الممكن اعتبار الإسلام فى تلك المرحلة نظاما ثالثا بينهما، ولكن بعد أن انتهت الشيوعية أصبح الإسلام هو البديل للنظام الغربى، وبعض المراقبين بعيدو النظر ويتوقعون أن يصبح الإسلام الديانة السائدة فى القرن الحادى والعشرين، ولهذا اختار لكتابه عنوانا يعبر عن هذا الاتجاه.

وقد كتبت المستشرقة الألمانية العظيمة أنا مارى شميل مقدمة بديعة للكتاب قالت فيها: إن جهل الغرب بالإسلام هو الذى يولد الخوف والكراهية له، لأن الناس أعداء ما جهلوا، كما قال على بن أبى طالب، وما ينشر فى الصحافة الغربية عن العالم الإسلامى ليس دائما موضوعيا ومحايذا، ولكن المراسل الصحفى أو مسئول التليفزيون يختار ما يؤيد اتجاهه، وتكون النتيجة تكوين صورة ذهنية زائفة عن الإسلام والمسلمين. والإسلام بالذات مثال نموذجى للالتباس وسوء الفهم فى الغرب. ففى القرن التاسع عشر كان الرسامون يصورون المسلمين محاربين متوحشين، غارقين فى شهواتهم مع (الحريم). واليوم أصبحت صورة المسلم هى صورة متعصب إرهابى عديم الرحمة يطلق لحيته ويبرر وحشيته بالقرآن والسنة. وكلا الصورتين لا تمثل الحقيقة، وفى استطاعة من درس الثقافة الإسلامية، أو عاش بين المسلمين، أن يصححها.



وفى تحليله لأسباب الكراهية للإسلام يرجع مراد هوفمان إلى الفترة التى تفوق فيها المسلمون على الغرب عسكريا وثقافيا. فقد عبر المسلمون مضيق جبل طارق عام ٧١١ وأسسوا دولة الأندلس التى ازدهرت فيها العلوم والفنون والثقافة، وفى نفس الوقت امتدت امبراطوريتهم إلى وسط آسيا وجنوبها حتى الهند. وكانت الأندلس هى الجسر بين أوروبا والعالم الإسلامى انتقلت منها العلوم والحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وعاش فى ظل هذه الحضارة الإسلامية المسلمون والمسيحيون واليهود فى توافق لم نر له مثيلا.

وتشير البروفيسورة أنا مارى شميل إلى مسألة دقيقة هى: أن ترجمات معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية تفقد جمال اللغة ودقتها وإيقاعها، ولا تستطيع الترجمة أن تحافظ على روح ومفهوم النص القرآنى، فالقرآن كلام الله، وله خصائص تميزه يصعب نقلها كما هى إلى لغة أخرى، ولذلك لا يفهم القارئ غير العربى القرآن. وكما أسىء تقدير القرآن لعدة قرون أسىء تقدير محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو النموذج للمسلم. وعلى سبيل المثال هاجم رهبان الكنيسة فى العصور الوسطى زواجه بعدة نساء، ولم يدركوا الحكمة فى ذلك. كما لم يتحدثوا عن داود النبى - عليه السلام - الذى يعتبرونه النبى الكامل فى تاريخ البشرية وقد كانت له عشرات الزيجات.



لكن هوفمان - بعقليته الناقدة - يرى أن من أسباب سوء الفهم فى الغرب ما رآوه لدى المتصوفة من الخوارق حول محمد - صلى الله عليه وسلم - الذين قالوا: إنه ليس بشرا ولكنه نور، وإنه هو القصد من خلق الكون، بينما يكرر القرآن وتكرر الأحاديث أنه بشر كسائر البشر إلا أن الله اختاره ليبلغ عنه رسالته، وقد عاش كما يعيش الناس، ومات كما يموتون، وتألّم كما يتألّمون، وتحمل الأذى، وكان مثالا للقوة الروحية المؤمنة بأن الحق معها.. فهذا التصوير عند بعض المتصوفة أدى إلى قول بعض الغربيين بأن هذا الدين مجموعة أساطير.

وسبب آخر لسوء الفهم - كما تقول شيمل - هو ميل الغربيين إلى النظر إلى كل شىء من منظور القيم الغربية، ومثال ذلك استنكار تغطية المرأة المسلمة شعرها، مع أن المرأة اليهودية المتدينة تغطى شعرها، ومازال الطالب اليهودى يذهب إلى جامعة هارفارد وعلى رأسه الطاقية التقليدية، فلماذا لا يقبل الغرب أن تغطى المرأة المسلمة شعرها؟.

ويناقش مراد هوفمان فكرة أن الإسلام يحرض على الحرب على المخالفين له ويعتبر تلك هى (الحرب المقدسة) فيقول: إن تعبير الحرب المقدسة هو فى الأصل تعبير مسيحى النشأة انتشر أيام الحروب الصليبية، أما المصطلح الإسلامى (الجهاد) فهو يعنى أولا: جهاد النفس ضد الشهوات، ويعنى ثانيا: الدفاع عن العقيدة أو محاولة نشرها.

وتقول أنا مارى شيمل: إن إصاق الإرهاب والأصولية بالإسلام فى الوقت الحاضر يمثل مأساة، لأن الأصولية ما هى إلا مصطلح من التاريخ الدينى فى أمريكا، ثم هل نلصق الإرهاب بالمسيحية كلما وقع حادث دموى يقوم به أوربى أو أمريكى؟. ويعلق عادل المعلم على ذلك بأن الغرب لم يستخدم أبدا مصطلح الأصولية الكاثوليكية أو الأرثوذكسية أو البروتستانتية أو اليهودية برغم وجود جماعات دينية أمريكية متشددة قامت بتفجيرات فى أمريكا ومنها تفجير مبنى أوكلاهوما عام ١٩٩٥ الذى بلغ عدد قتلاه أكثر من ألفى قتيل، كما لم يتحدث أحد فى الغرب عن مذابح الأصوليين اليهود ضد الفلسطينيين.

وفى رأى الدكتورة أنا مارى شيمل أننا لكى نفهم الأسباب العميقة للعداء للإسلام فى الغرب يجب أن نتذكر دائما حصار الأتراك للعاصمة النمساوية فيينا عام ١٥٢٩ وعام ١٦٨٣، وما تركه ذلك من خوف لا ينسى عند الغربيين تجاه دين العرب والأتراك والفرس والباكستانيين والمالايين.. إلخ وحتى المثقفون فى الغرب فإنهم لا يعلمون عن كنوز الحضارة العربية سوى القليل، ونادرا ما تجد من يعلم منهم بأن قصر الحمراء فى الأندلس الذى يعتبر معجزة فى البناء، وتاج محل الذى يعتبر من عجائب الدنيا السبع من أعمال المهندسين المسلمين. وقليل فى الغرب الذين يعلمون كيف يبجل المسلمون المسيح وأمه السيدة مريم.

وتقول أنا ماري شيميل: إن كثيرين في الغرب يعتقدون أن الإسلام من بقايا معتقدات العصور الوسطى التي عفا عليها الزمن، ولكنهم لو علموا حقيقة الإسلام فسوف يكتشفون أنه دين حي يساير الزمن ويستحق أن نزداد فهما له.



ويؤرخ مراد هوفمان للعلاقة بين الإسلام والغرب بالرسائل التي أرسلها رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - إلى النجاشي ملك الحبشة، وكسرى إمبراطور فارس، وهرقل زعيم الروم الشرقيين، والمقوقس في مصر.. وكان ذلك في السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية، وفي هذه الرسائل دعاهم للدخول في الإسلام. فذلك خير لهم ولشعوبهم وبدأت هذه الرسائل برسالة إلى هرقل، ومنذ ذلك الوقت استمرت المواجهة بين الغرب والإسلام وظل كل منهما يتوجس خطر الآخر ولا يفهمه، على رغم بعض الإيجابيات في العلاقات الاقتصادية والفكرية.

وجاءت الفتوحات الإسلامية السريعة لتغذي هذه المخاوف، فقد دخل الإسلام الشام وفلسطين عام ٦٣٤، وفارس عام ٦٣٧، ومصر عام ٦٤٣، وأرمينيا عام ٦٥٢، وقبرص عام ٦٥٣، والمغرب عام ٦٧٠، وأسبانيا عام ٧١١، وبعض مناطق في الصين عام ٧١٥. وفي ألمانيا يوجد قصر على الطراز العربي على بعد ٢٠ كيلو مترا من ميونخ وعلى مدخله شاهدان باللغة العربية باسم رجل مسلم وابنته وتاريخ وفاتهما في مطلع القرن الهجري الثالث، وضرب المسلمون حصارهم الأول على القسطنطينية عام ٦٧٢م وكان في مقدمة الصفوف الصحابي المعروف أبو أيوب الأنصاري الذي استضاف محمدا - صلى الله عليه وسلم - في بيته يوم قدومه إلى المدينة، ومازال قبر الصحابي الجليل في القسطنطينية. وكانت هذه الفتوحات سببا في تشبث الغرب بدعوى انتشار الإسلام بالسيف، وإن كان ذلك صحيحا من الوجهة العسكرية، إلا أن ما يلفت النظر أن أعداد الجيوش الإسلامية كانت أقل من جيوش هذه الدول، مما يدل على أن أهل هذه البلاد تقبلوا الإسلام بالرضا وانضموا تحت لوائه. ويجب ألا نغفل أن الإسلام انتشر في مناطق كثيرة - في أفريقيا وغيرها - بدون الحروب.

على الجانب الآخر بدأت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر واستمرت في موجات متتالية حتى القرن الثالث عشر، وبدأت محاولات أوروبا استرجاع أسبانيا والبرتغال. وسجل التاريخ أن المسيحيين في القسطنطينية لا قوا أشد المعاناة على يد الغزاة، ولم يكن الغزاة هم المسلمين، بل كانوا من المسيحيين اللاتين، وقد نهبوا وسلبوا واغتصبوا.

وبعد ذلك جاء الدور على الغرب عندما وصلت جيوش الامبراطورية العثمانية إلى القسطنطينية عام ١٤٥٣ وحاصرت قواتهم فيينا مرتين في عامي ١٥٢٩ و ١٦٨٣ وبدا في القرن الثامن عشر وكأن هذا الصراع قد انتهى وسار كل منهما في طريق سار الغرب في طريق يطور فيه العلوم والتكنولوجيا

تطورا هائلا حقق له تفوقا كاسحا في الاقتصاد والقوة العسكرية. وقد رأى البعض أن ذلك التقدم تم بسبب تفوق الحضارة المسيحية، بينما العالم الإسلامي في طريق العجز والركود وأصبح لقمة سائغة للاستعمار الغربي، حتى إذا جاء القرن العشرون ظهرت الحضارة الغربية على أنها النموذج المثالي الذي يجب على الجميع الاقتداء به، وبدأت عملية نشر الثقافة الغربية في العالم؛ فيرتدى الجميع الجينز، ويأكلون الهامبورجر، ويشربون الكوكاكولا، ويدخنون المارلبورو، ويتحدثون الإنجليزية، ويشاهدون شبكة (سى. إن. إن) ويسكنون بيوتا على نفس الطراز الغربى.



وحين يبحث د. مراد هوفمان عن أسباب تدهور العالم الإسلامى يرى ثلاثة أسباب لذلك :

السبب الأول: أن العالم المسيحى، والمغول، ضربوا عصب الحياة الفكرية والثقافية فى العالم الإسلامى بداية من قرطبة عام ١٢٣٦ ثم بغداد عام ١٢٥٨م. ومازال الغرب يضرب الحياة الفكرية والثقافية فى العالم الإسلامى ولم تسترد الحياة الفكرية فى العالم الإسلامى عافيتها من هذه الكارثة حتى اليوم.

السبب الثانى: هو غلق باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى منذ سادت فكرة وصول الفقه إلى منتهاه، وسادت مدرسة تقليد الأجيال السابقة من الفقهاء لأنهم أكثر قربا للمصدر وأكثر فهما لمقاصد الشريعة وبذلك ساد الجمود فى العالم الإسلامى، وانتهى عصر الاجتهاد والإبداع والتفكير والتجديد وعاش المسلمون فى عصر التكرار والتقليد.

السبب الثالث: أن الغرب منذ القرن التاسع عشر وقع أسير الطفرة المادية الهائلة، وأدى ذلك إلى تراجع فى الإيمان المسيحى، وأصبحت الحياة الدنيا هى محور التفكير والعمل، وظهر فى هذه الفترة فلاسفة الشك والإلحاد: فيورباخ، وماركس، وداروين، ونييتشه، وفرويد، وساد المذهب الكمى الذى لا يعترف إلا بما يمكن قياسه وإدراكه بالحواس، وأصبح الإيمان بالله مجرد احتمال.. وأصبح الغربيون فى تلك الفترة يعبدون: القوة، والمال، والجنس، والجمال، ورأوا أن العلم لا يقدم إجابات عن معنى الحياة فأغفلوا البحث فيها. وبذلك وقعوا فى اللذات الحسية، وأصبح غاية همهم: معدل النمو، والكفاءة، والحصول على أقصى ربح بأقل تكلفة، وشاع فى الغرب النهم الاستهلاكى بغير حدود.

وقد وصف ذلك ألفرد مولر فى كتابه (الدين والاقتصاد) عام ١٩٥٩ بقوله:

(أنكر الإنسان الله، فاضطر إلى صنع آلهة أخرى يعبدها، وكان ذلك ثمن إنكار الإله الحق، وتاريخ الانحراف عن الحق هو تاريخ قوى الشر المدمرة، ولا يكمل تاريخ الإيمان إلا بذكر تاريخ إنكار الإيمان).

ويستطرد مراد هوفمان في وصف الحالة الإسلامية والغربية فيقول عن القرن العشرين: إنه شهد في عقدى الستينات والسبعينات نقطة تحول كبيرة في الغرب وفي العالم الإسلامي، فقد بدأت الأزمات في العالم الغربي، بينما بدأت الحيوية تعود إلى العالم الإسلامي، وأدى ذلك إلى حالة من الرعب في الغرب. وبدأ العلماء يتحدثون عن انهيار الغرب، كما لاحظ علماء الاجتماع - مثل دانييل بل - أن التفوق الاقتصادي للرأسمالية العالمية أدى إلى تقويض الأساس الأخلاقي للرأسمالية، بحيث انحرفت النزعة الفردية إلى حالة مرضية أقرب إلى النرجسية، وأصبح مفهوم استقلال الشخصية يعنى الفوضى الأخلاقية، وتحولت النزعة إلى التحرر إلى تكريس الفسق، وأصبح مفهوم الحب مقصوراً على الجنس، والمرونة أصبحت تعنى التحلل من التقاليد، وكما قال مارسيل بوسو في عام ١٩٨٤ فإن تلك الانحرافات أصبحت من لوازم الغرب نتيجة إساءة فهم العقل، والحرية، والحب. ونتيجة لهذه الموجة من التحلل ظهرت جماعات رافضة للمجتمع تبحث عن بديل للنظام القائم على المادية والحرية بالمفهوم السائد. هذه الجماعات تعبر عن شعورها بالقلق، وعدم الأمان، بسبب سيطرة التكنولوجيا والاستهلاك وتآليه العقل وبخاصة في الاقتصاد وسباق التسلح والردع النووي.



الأزمة التي يعيشها الغرب الآن نتيجة وقوعه في مصيدة المادية والتطلعات جعلته لا يشعر بالاكتماء أبداً، فالفرد في الغرب لديه تأمين مادي من مولده إلى مماته، والحرية الجنسية بلا حدود، والمخدرات جاهزة تحت الطلب، وأوقات الفراغ طويلة، ومع ذلك فإنه يشعر بالفراغ، ويفتقد دفء المشاعر الإنسانية، كما يفقد المعنى لحياته. وتلك هي الخلفية للعودة إلى الدين، وعودة الجاذبية إلى الكنيسة، وعاجلاً أو آجلاً سوف يلتقي هذا التيار الباحث عن الحقيقة بالإسلام. وإن كانت هناك بعض القوى تستغل الإسلام لتحقيق أهداف سياسية، وتصرفات البعض في العالم الإسلامي أضرت بالإسلام أكثر من أى شيء آخر في القرن العشرين. وهناك من استغل ذلك لتصوير الإسلام في الغرب على أنه الشيطان!

وفي كتاب (الإسلام كبديل) يقدم مراد هوفمان للقارئ الغربي القيم والمبادئ الأساسية للإسلام فيقول: إن بساطة تعاليم الإسلام أدت إلى سرعة انتشاره. فليس في هذا الدين أسرار يختص بها البعض دون سائر المؤمنين به، فلكي تكون مسلماً عليك أن تؤمن بالله واحد منزه، لأن هذا الكون لا بد له من صانع، وتؤمن بأن الله أوحى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) برسالته. وعليك أن تؤمن بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) خاتم الأنبياء بعد سلسلة الأنبياء السابقين عليه، وعليك أن تؤمن بوجود الملائكة، وبجميع الرسل والكتب السماوية، وتؤمن بالبعث للحساب بعد الموت، وتؤمن بالقضاء والقدر، وتتبع الوصايا العشر التي أنزلت على النبي موسى، وبالمحبة التي جاء بها

المسيح، وبكل ما جاء فى الشرائع السابقة ما لم ينسخه القرآن. وعليك أن تصلى خمس صلوات فى اليوم، وتخرج الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج إذا استطعت، والإسلام فى جوهره علم وعمل، ولذلك تتكرر فى القرآن الآيات التى تقرر الإيمان بالعمل الصالح.



ويقول د. مراد هوفمان: إن المستشرقين حاولوا إثبات أن القرآن ليس من عند الله وفشلوا، كما فشلوا فى إثبات حدوث تغيير فى أى حرف أو كلمة فيه، وقد يرفض غير المسلم محتوى القرآن، ولكنه لا يستطيع أن يتجاهل تأثيره الخلاب على قارئه والمستمع إليه، ويجد الباحث أن فى القرآن إشارات علمية لم تكن معلومة فى هذا الزمان ثم ثبت صدقها مؤخرًا، لكنها لا تعنى اعتباره موسوعة علمية. والقرآن هو الكتاب الوحيد فى العالم الذى يحفظه ملايين البشر عن ظهر قلب، ولغة القرآن هى العربية التى تجمع العالم الإسلامى الذى يزيد على ١٢٠٠ مليون مسلم، والقرآن هو الذى حافظ على اللغة العربية بقواعدها وكلماتها، ولذلك فهى اللغة الوحيدة فى العالم التى كتب بها القرآن منذ أكثر من ١٤٠٠ عام، ولا يزال مئات الملايين من عامة أهلها يستطيعون قراءته دون تأهيل بدراسات خاصة ودون ترجمته إلى اللغة المتداولة الآن عند العرب، فلهذا القرآن هى اللغة التى يتكلم ويكتب بها العرب حتى اليوم. ولأن قراءة القرآن على أسس غير صحيحة تؤدى إلى نتائج عكسية فقد جاءت السنة شارحة ومفصلة للقرآن، وكثيرًا ما يؤدى عدم الإحاطة بالأحداث التى نزلت فيها آيات، أو عدم الأخذ بكامل السياق القرآنى إلى افتقار الصواب فى الفهم، ويختلف المفسرون للقرآن حسب مناهجهم ومذاهبهم. وقد غالى البعض فى اتباع الأمر الإلهى بطاعة محمد (صلى الله عليه وسلم) واتباع سنته، فأروا أن يقلدوا كل ما كان يفعله حتى ما لا يتعلق بالرسالة ويتعلق بشخصيته الإنسانية مثل تفضيل بعض أنواع الطعام، وإطلاق اللحية، واستخدام السواك فى تنظيف الأسنان. كما يغالى البعض فى تمجيد محمد (صلى الله عليه وسلم) وتقديسه خاصة فى احتفال المولد النبوى بصورة لا تخلو من الزلل، على رغم أنه أكد مرارًا على أنه بشر. وقال لرجل شعر بالهيبه فى حضرته: إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة، كذلك أكد القرآن بشريته - صلى الله عليه وسلم - فى آيات منها ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ (الكهف ١١٠) ومع ذلك تجد بعض المفسرين ينكرون صفته البشرية ويقولون إنه نور أى أنه من جنس الملائكة، والبعض قال إن العالم خلق من نور محمد (صلى الله عليه وسلم)، وإن العالم خلق من أجله، ونسجوا حوله أوصافًا لم ترد فى الكتاب والسنة، وتلك ظاهرة نجدتها فى جميع الأديان نتيجة الحماس الزائد.

ويستكمل هوفمان شرحه للإسلام فيقول: إنه يتفق مع المسيحية فى الدعوة إلى الفضائل مثل الأمانة، والتقوى، والإيثار، والإخاء، ويختلف فى أن المسلم يصلى لله مباشرة ويتعامل مع الله دون كهنوت، ويحرم أكل الخنزير والمسكرات ولا يسقط المسؤولية عن من يرتكب خطأ وهو تحت

تأثير الخمر أو المخدرات. وتحافظ الصلوات الخمس بما فيها من خشوع وتأمل على الصحة النفسية للمسلم، ولم يحرم الإسلام الجنس على أحد من المسلمين، بل أمر بالزواج، وحرم العلاقات خارج الزواج، فهو دين لا يؤدي إلى كبت الغريزة ولا يسمح بالإباحية، ويقول الإسلام: إن الإنسان خليفة الله في الأرض، وبأن كل إنسان مسئول عن نفسه فقط، لا يرث الخطيئة ممن سبقوه، ولا يورثها لمن يأتون بعده، وحساب الله لكل إنسان على حده ولا ينفع الأب ابنه أو الابن أباه في يوم الحساب ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ (مريم ٩٥) ولا ينحصر منهج المسلم في العمل والربح بل إن الإسلام يدعوه إلى مراعاة الأهداف الاجتماعية، بحيث يكون المسلم للمسلم كالبنين يشد بعضه بعضا، ويشدد على مسئولية الإنسان عن والديه وجيرانه أيضا. وأخيرا فإن الإسلام له موقف فريد من أصحاب العقائد الأخرى، ينفرد به وحده، هو التسامح مع المختلفين معه والمؤمنين بعقائد تتعارض مع عقيدته، ويتلخص ذلك في آية تقول: ﴿لَكَرِهُنَّ أُولَىٰ دِينٍ﴾ (الكافرون ٦)، وهذا يعني أن الإسلام في جوهره دعوة للتعايش السلمي مع المختلفين معه في الفكر والعقيدة. ويدهش الإنسان في الغرب عندما يرى المسلم كلما نطق اسم محمد يقول: عليه الصلاة والسلام، ويفعل ذلك أيضا كلما ذكر اسم عيسى، وهذا تطبيقا للمبدأ القرآني ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة ٢٨٥). أي إن الإسلام لا يبنى صلاحيته على إنكار الديانتين اليهودية والمسيحية، ويدهش الإنسان الغربي عندما يعرف أن الإسلام لا يعتبر نفسه ديناً جديداً، ولكنه تكملة وإتمام للرسالات السابقة عليه جميعا، وذلك في الآية: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّوْنَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران ٨٤) وقد ذكر القرآن موسى وعيسى (عليهما السلام) في مواضع كثيرة وذكر معجزاتهما ولم ينكرها.



ويناقش هوفمان ما يشاع عن الإسلام من ابتعاده عن العلم والمعرفة الإنسانية، فيقول: إن الإسلام ينهى بشدة عن تتبع عورات الناس، وعن الغيبة والنميمة، والتجسس، ومضايقة الجار، وإذا طرقت الباب ثلاث مرات ولم يجبك أحد فانصرف ودع أهل البيت في حالهم، ولكنه يشجع على التعطش للمعرفة والفضول العلمي، فالقرآن يدعو في آيات كثيرة إلى استخدام العقل، وإلى التفكير، والتدبر، وفي السنة كثير من الأحاديث تحرض المسلم على طلب العلم، فالعلماء هم ورثة الأنبياء، ومن سلك طريقا يطلب فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة. وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقد أدرك المسلمون ذلك وبدءوا من القرن الثامن الميلادي إنجازاتهم العلمية الهائلة.

ويكتفى هوفمان بأربعة عشر من علماء المسلمين الذين أحدثوا ثورة فى العلوم لإنجازاتهم الرائدة مثل: ابن فرناس (المتوفى عام ٨٨٨م) أول من فكر فى الطيران باستخدام آلية من الأجنحة. محمد بن موسى الخوارزمى (المتوفى عام ٨٤٦م) مؤسس علم الجبر واللوغريتمات، أبو بكر الرازى (المتوفى سنة ٩٣٥) الذى كانت كتاباته هى الأساس فى جامعات أوروبا وظلت كذلك لعدة قرون، ابن سينا (المتوفى عام ١٠٣٧) صاحب الموسوعة الطبية (القانون) التى ظلت المرجع الوحيد للجامعات الأوروبية حتى القرن التاسع عشر، الحسن بن الهيثم (المتوفى ١٠٣٩) صاحب التراث الضخم فى علوم الفيزياء، والفلك، والرياضيات، ومؤسس علم الضوء الحديث، وكتابه (المنظر) هو المرجع الذى استقى منه علماء أوروبا معلوماتهم عن الضوء، وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية عام ١٥٧٢ وترك ٤٤ كتابا فى العلوم الطبيعية والرياضة، وهو أول من قدم تفسيراً علمياً صحيحاً لظاهرة قوس قزح، وهو الذى استحدث أسماء فى تكوين العين مثل: الشبكية، والقرنية، والسائل المائى، والسائل الزجاجى، وهو الذى مهد لاستعمال العدسات لإصلاح عيوب الإبصار، وهو الذى وضع النظرية الصحيحة للإبصار، وقال: إنها نتيجة سقوط الضوء من الشئ المرئى على عين الرائي بعد أن كان علماء اليونان وأوروبا يقولون عكس ذلك، وهو الذى أثبت أن الأشعة الضوئية تسير فى خطوط مستقيمة.

ويضيف د. هوفمان إلى هذه القائمة أبو الريحان البيرونى (المتوفى عام ١٠٥٠) صاحب العبقريّة المتعددة فهو مؤرخ للعلوم، ودبلوماسى، وباحث فى اللغة السنسكريتية، وفلكى، وصيدلى، وخبير بالفلزات، وله فى كل هذه المجالات إسهامات وإضافات جوهريّة. عمر الخيام (المتوفى عام ١١٣١) شاعر، ورياضى، صحح التقويم الهندى بدقة أعلى من التقويم الجريجورى. ابن رشد الفيلسوف الذى أثر تأثيراً كبيراً فى أوروبا بتعليقاته على فلسفة أرسطو، وهو الذى اكتشف البقع الشمسية. ابن بطوطة (المتوفى عام ١٣٦٨ أو ١٣٧٧) الرحالة المغربى الذى ذهب لاكتشاف المناطق المجهولة فى العالم وذهب حتى بكين ونهر الفولجا، وفتح الطريق لماركو بولو. ابن خلدون (المتوفى عام ١٤٠٦) الأندلسى. صاحب المقدمة الشهيرة وموسوعة تاريخ العالم، وهو مؤسس علم الاجتماع وعلم التاريخ الحديثين، وهو الذى أحدث ثورة فى نقد المصادر وعدم التسليم بكل ما فيها دون تحقيق. أحمد بن ماجد وهو المرجع فى عبور المحيطات فى القرن الخامس عشر. ببرى ريس (المتوفى عام ١٥٥٣) التركى - أمير البحار والجغرافى، صاحب كتاب (البحرية) الذى مازال حتى اليوم مذهلاً بما فيه من خرائط بحرية دقيقة، ورفيقه فى العلم سيدى على ريس (المتوفى عام ١٥٦٢) الذى أتم قياس الشواطئ الآسيوية وطور علم الفلك الملاحي.





ويخلص هوفمان من ذلك إلى أن العالم الإسلامي هو الوريث للعلوم والحضارة العالمية، وهو الذي أضاف إليها إضافات كبرى، وليس العالم الغربي. وهذا ما أكدته مارشال هودجون بقوله: إن تفجر المعرفة والتكنولوجيا في العالم الإسلامي يوضح أن التبادل بينه وبين العالم الغربي كان في اتجاه واحد، حيث لم يكن لدى الغرب شيء يستحق الرجوع إليه. كان الغرب مستوردا لكل شيء ابتداء من تكنولوجيا طواحين الهواء، إلى فنون الموسيقى والغناء، حتى العمارة الإسلامية، وهذا ما يمكن أن نسميه بلغة اليوم (الغزو الثقافي) من العالم الإسلامي للعالم الغربي، وقد ترك بصماته حتى اليوم في اللغة، فالغرب يستخدم كثيرا من الكلمات وأسماء العلوم بلغتها العربية الأصل مثل: الجبر، الصفر، والمغرم، والكحول، والعود، والقيثارة.. الخ.

ولكن بدأت النهضة العلمية تخبو في العالم الإسلامي منذ القرن الرابع عشر، وكان من بين الأسباب التي أدت إلى ذلك غلق باب الاجتهاد، وظهور (الأصولية) التي تعتمد على الحفظ والتقليد وترفض البحث والتجديد، وأدت نظرية غلق باب الاجتهاد إلى الاعتقاد بأن كل ما يمكن أن يصل إليه العقل الإنساني قد تحقق، ولم يعد أمام الإنسان باب للبحث عن المزيد. كما أسئ فهم الحديث (كل بدعة ضلالة) مع أن السنة تفرق بين البدعة السيئة والبدعة الحسنة: (من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها) وهذا السلاح ذاته هو الذي استخدمته الكنيسة في العصور الوسطى ضد كل جديد باعتباره بدعة. وما زال هذا السلاح يعوق تقدم المسلمين. ومع ذلك لم تخل فترة الانحطاط من أشعة أمل بظهور رواد لحركات الإصلاح ومنهم الإمام محمد عبده (المتوفى عام ١٩٠٥). لكن هذه الفترة في عمومها شهدت ندرة العلماء، حتى إنه تم إغلاق مرصد استانبول عام ١٥٨٠ بعد عام واحد من افتتاحه، وأغلقت أول مطبعة في العالم الإسلامي عام ١٨٤٥ بعد ١٧ عاما من افتتاحها، وبلغ عدد تلاميذ المدارس الثانوية في مصر عام ١٨٧٥ في حدود خمسة آلاف فقط وعدد طلبة الأزهر أحد عشر ألفا، ولا عجب إذ لم يفز بجائزة نوبل للعلوم إلا عالم مسلم واحد من باكستان هو عالم الفيزياء أحمد عبد السلام. إلى أن حصل عليها أخيرا أحمد زويل.

ويدل د. مراد هوفمان على أن الإسلام لا يتناقض مع البحث العلمي في جميع المجالات، ولكنه يعارض الاعتماد على العلم وحده بدون الإيمان. لأن ذلك هو ما أدى إلى ظهور الإلحاد في الغرب، إلى حد أن الفيلسوف الألماني نيتشه قال: إن الله قد مات، وأنكر العلماء وجود الله وتدخله في الظواهر الطبيعية، واعتمدوا على الحس والتجربة والدليل المادي، بينما المفهوم الحقيقي للإسلام أن للدين مجاله، وللعلم مجاله، ويجب أن يلتزم العلم بالقيم الأخلاقية التي جاء بها الإسلام، وقد ظهر في الغرب مؤخرا من يؤمنون بذلك على الأقل لإضفاء الشرعية للقوة وللقانون ولتماسك المجتمع. وذلك ما أدى بعد فترة إلى انهيار الماركسية، والداروينية، والفرويدية، والنظرة القديمة للطبيعة، بعد أن أدرك العلماء أنهم اكتشفوا الكثير من الأسرار في هذا الكون ولكنهم عاجزون عن



معرفة ما هو أكثر من هذه الأسرار ، فأصبحوا أكثر تواضعاً مما كانوا.

والمشكلة الكبرى - كما يراها د. هوفمان - هى أن بعض المسلمين تصوروا أن التقدم لن يكون إلا بتقليد كل ما فى الغرب ، وهذا خطأ ، لأنه قد يفقدهم أسس حضارتهم ، ويجعلهم مجرد مستهلكين لما ينتجه الغرب ، ولأنهم من حضارة مختلفة عن حضارة الغرب فإنهم لا يستطيعون إتقان تقليد الغرب ، وينتهى بهم الأمر إلى الإحباط أو التمزق بين حضارتين. وهذا ما أدى إلى ظهور تيار مضاد يرفض كل ما فى الغرب من علوم وتكنولوجيا لأنه ظهر فى محيط الإلحاد والشك ، أما العقلاء من المسلمين فقد أعلنوا أن العلم محايد ، وعلى المسلم أن يستفيد من كل ما فى العصر من علوم ، ولا يرفض كل ما فى الغرب جملة وتفصيلاً بما فيه من خير وشر ، ولكن العقل يقضى على المسلم أن ينفث على العالم كما فعل الأوائل ، وأن يأخذوا النافع من الحضارة الغربية ، ويحتفظوا فى نفس الوقت بجوهر الإسلام.



وبناقش د. هوفمان موضوع التسامح فى الإسلام فى ضوء ما يثيره كثيرون فى الغرب من أن الإسلام دين يدعو أتباعه إلى العنف فيشير إلى الآيات التى تؤكد روح التسامح مثل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة ٤٨) و﴿لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس ٩٩) و﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف ٢٩) و﴿قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (يونس ١٠٨) و﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ (المائدة ٩٩) وتكررت فى سورتى النور والعنكبوت وغيرهما. وتمثل الآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦) القلب فى هذا التسامح وقبول الاختلاف على أنه من سنن الكون ، وكذلك الآية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِغَ إِلَى اللَّهِ هُوَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل ١٢٥).

ويمتد التسامح حتى مع المرتد ، هناك فرق بين من يهجر الإسلام فى هدوء ، وبين من يقوم بعد ارتداده بنشاط معاد للإسلام. فإنه فى هذه الحالة يستحق عقوبة تماثل عقوبة الخيانة العظمى. وهذا المفهوم هو الغالب الآن على آراء معظم رجال الدين الإسلامى. ومع ذلك فإن تاريخ البشرية لم تخل منه فترة لم يشهد فيها إرهاباً سياسياً أو مذهبياً ذا صبغة دينية. وليس للإسلام علاقة بذلك الإرهاب ،

تماما كما أن المسيحية ليست لها علاقة بحرب العصابات في شمال أيرلندا، أو بالجيش الأحمر في ألمانيا، أو بالألوية الحمراء في إيطاليا. كما لا يمكن نسبة ممارسات العنف والظلم من الاستعمار الغربى إلى المسيحية. ولكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن هناك ميلاً للعنف فى بعض الدوائر الإسلامية، ففي بعض البلاد الإسلامية جماعات تتولى عقاب من يفطر جهاراً فى رمضان، وتضرب من لا يذهب إلى المسجد للصلاة فى وقتها جماعة، أو تستخدم العنف ضد النساء اللاتى لا يرتدين الحجاب، وأمثال هذه الممارسات هى التى تجعل كثيراً من الغربيين يخافون من الإسلام ويرون أنه ضد الحرية الفردية وهى أساس الحضارة الغربية، بينما يقوم الإسلام أساساً على مبدأ الحرية الفردية والمسئولية الفردية أمام الله وحده فيما يتصل بشئون العقيدة والعبادات وهذا ما أمر به الله المسلمين فى قوله: (لا إكراه فى الدين) لتكون أساس علاقة المسلمين بغير المسلمين، وأساس علاقة بعضهم ببعض. وأيضاً لا يمكن إنكار أن بعض الجماعات تفهم ما جاء فى القرآن عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على أنه أمر للمسلمين بأن يتحولوا إلى جواسيس على بعضهم وعلى بقية الناس، وأن يتولى كل مسلم مسئولية العقاب وإقرار العدالة والنظام على الآخرين، وأن يجمع كل من شاء منهم سلطات التحقيق والاتهام وتنفيذ الأحكام، وهؤلاء ينتهكون المبادئ الإسلامية الأساسية وهى أن المجتمع الإسلامى ليس فيه سوى سلطة واحدة هى الحكومة، والحاكم هو المسئول أولاً وأخيراً.. واستخدام العنف فى أمور العقيدة والعبادات يؤدى إلى النفاق. والمجتمع الإسلامى لا يقوم على حشود المنافقين، والأعمال بالنيات كما فى الحديث، وهذا يعنى أن الإيجاب لا يفيد ولا بد أن يكون كل عمل صادراً عن إرادة حرة واختيار. وفى الحديث الصحيح (الدين النصيحة) وهذا هو المعنى المقصود بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وإذا كان القرآن لم ينص صراحة على عقاب دنيوى للمرتد، فكيف يتولى البشر عقاب من يرتكب أعمالاً مهما بلغت فهى أقل شأنًا من الردة، والمقرر أن ما نهى الله عنه لم يحدد له عقوبات دنيوية. فليس من اختصاص الغيورين على الدين أن يقيموا هم الحق والفضيلة بالعنف بدون نص، والدولة الإسلامية لا تفرض عقيدة أو منهاجاً على المقيدين فيها، وفرض الأفكار والأعمال على الناس لا بد أن ينتهى إلى دولة استبدادية تمارس سلطة إلهية. ولا يتفق مع العقل أن الله سمح لغير المسلمين بحرية الفكر وحرية العقيدة، ويمنعهما عن المسلمين.

والخلاصة التى وصل إليها د. هوفمان أن مسئولية كل مسلم أن يقيم العدل والحق فى حدود سلطاته كما جاء فى الحديث: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) وفصل الحديث هذه المسئولية بأن يقيم المسلم العدل والحق فى نفسه وفى عائلته، ومدير العمل فى نطاق عمله، ورئيس الدولة فى حدود الدولة، بحيث لا يتجاوز أى منهم حدود اختصاصه.. والاتحولت الدولة فى المجتمع الإسلامى إلى دولة فاشية حتى لو حكمها رجال الدين.



ويرد د. هوفمان على الاتهام الشائع في الغرب عن الإسلام بأنه دين يدعو إلى القتل والرجم والجلد وقطع الأيدي وأن ذلك يتعارض مع القيم والمبادئ الإنسانية فيقول: إن القوى المعادية للإسلام تنشر في الغرب قصص الرعب التي تنسبها للإسلام، بينما لم يرد في القرآن عقوبات دنيوية<sup>١</sup> على ست جرائم، ومع أن القرآن يحرم صراحة شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ولكن لم يرد فيه نص صريح يحدد العقوبة لمن يخالف ذلك، وتوعد المخالفين بالعقوبة في الآخرة.

والجرائم الست هي: قطع الطريق، والسلب والنهب بالقوة، والخيانة العظمى، وقذف المحصنات، والزنا، والسرقة. ويعاقب على الجرائم الثلاث الأولى بالإعدام ولكنه يفتح الباب في حالة العفو أو قبول الدية، وعقوبة الرجم على جريمة الزنا مع تشديد في إجراءات ثبوت التهمة، فبينما يكون الإثبات في مسائل المال بشاهدين تتوافر فيهما صفة العدل، فإن الأمر يختلف في إثبات جريمة الزنا، إذ يشترط شهادة أربعة شهود حسنى السمعة، وإذا لم يؤخذ بشهادة أحدهم يعاقب الباقي بالجلد. وبديهي أن يكون الاتهام بالزنا نادرا. وإذا اعترف المتهم فإنه يستطيع العدول عن اعترافه بناء على نصيحة القاضي. وعلى القاضي أن يعرض عليه ذلك، وعلى ذلك فإن المبالغة في الغرب في عرض قصة رجم إحدى الأميرات المسلمات استخدمتها أبواق الدعاية المعادية للإسلام وسيلة لتشويه الإسلام في الثمانينات دون إشارة إلى أنها مع شريكها أعلننا تحديهما الصارخ للنسيج الاجتماعي في الإسلام بارتكابهما تلك الجريمة باستهتار وعناد وفي العلن. وفي ذلك نشر للفاحشة كما جاء في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النور ١٩). وهكذا فإن رجم الزانى أبعد ما يكون عن أن يعتبر ظاهرة إسلامية، ولم يحدث سوى مرات قليلة تعد على أصابع اليد على مدى أكثر من ١٤٠٠ عام.

ويعلق د. هوفمان على ذلك بأن الرجم كان هو الحكم الأصلي في شريعة موسى، والنص عليه في سفر التثنية، الإصحاح الثاني والعشرين، ثم جاءت سورة النور بنسخه وجعلت العقوبة الجلد.

وأما عقوبة قطع الأيدي فإن لها شروطا تجعل تطبيقها مستحيلا، فهذه الجريمة لها أركان محددة: أن يكون الشيء المسروق محفوظا في حوز بعيدا عن العيون والأيدي، وأن تكون له قيمة، وألا يكون للسارق شبهه حق فيه، وأن يكون لدى السارق ما يكفيه وهو ما أسماه الفقهاء حد الكفاية، وأن تكون السرقة في وقت ليست فيه ضائقة اقتصادية ولا حالة حرب و.. وألا تكون المصادفة هي التي جعلت رجلا يأخذ شيئا ليس له. وقد أوقف الخليفة عمر حد السرقة في عام المجاعة. وذلك هو ما أدى إلى تطور النظرية حتى وصلت إلى صيغة واضحة الآن، وهي عدم جواز إقامة حد السرقة في حالة الضائقة الاقتصادية، وقد شرح الباحث الأمريكي المسلم محمد أسد ذلك بقوله: إن حد السرقة لا يطبق إلا عندما يكتمل النظام الاجتماعي. ويرد د. هوفمان على الذين

يقولون بأن عقوبة قطع اليد ليست إنسانية فيقول: من وجهة النظر الإسلامية فإن عقوبة السجن مدى الحياة التي تطبق في الغرب هي أيضا عقوبة غير إنسانية.

وإن د. هوفمان لم يشرح أن الحدود هي الحد الأقصى للعقوبة، وأن الإسلام يفتح الباب أولا للعفو إذا تنازل صاحب الحق في جرائم القتل والسرقة. كما يجوز فرض عقوبات أقل يسميها الفقهاء (التعزير) وهي عقوبات أخف من الحد إذا رأى القاضي سببا لتخفيف العقوبة.



ويتفق د. هوفمان مع إدوارد سعيد في أن المستشرقين كانوا فريقين، فريق درس الإسلام بموضوعية، وفريق نظر إلى الإسلام بمنظار البعثات التبشيرية مثل سير هاملتون جيب البريطاني، ومنهم من درس الإسلام بمنظار ماركسي مثل ماكسيم رودنسون الفرنسي، بينما يجري البعض أبحاثه في ازدياد الإسلام، ومنهم من يدعي أن الإسلام على وشك الانقراض. ويتفق أيضا مع إدوارد سعيد في أن أكثر العلماء الغربيين الذين قدموا أبحاثا عن العالم الإسلامي كانت أبحاثهم لخدمة المصالح الاستعمارية وإخضاع العالم الإسلامي للغرب، سواء كان ذلك بوعي أو بدون وعي، وبعض المستشرقين كانوا عملاء سريين بكل معاني الكلمة.. كانوا جواسيس.. مثل: ت. إي. لورانس. ويتفق مع إدوارد سعيد أيضا في أن عداوة الاستشراق للغرب تماثل عداوة الغرب للسامية من قبل، لكنه يرى أن هناك مستشرقين في القرن العشرين قدموا دراسات عن العالم الإسلامي لم تعبر عن نظرة استعلاء، وصححت صورة الإسلام في الغرب مثل: ليوبولد فايس (الذي أصبح اسمه محمد أسد) وفيتوس بوركاردت، وأحمد فون دنفر، ومارتن لنجز، وروجيه دوباسكويه، ومحمد بكتال، وبعضهم أشهر إسلامه بعد دراسته للإسلام.

ود. هوفمان يرى أن الغرب مازال محتاجا إلى أن يفهم الإسلام ويتخلص من الصور المرسومة في خياله من حكايات ألف ليلة، ومما ينشر ويقال من أن المسلمين قساة، ومتعصبون، ولا يمكن فهمهم كما لا يمكن توقع أفعالهم، وأنهم يمارسون الفسق وغارقون في الشهوات.. الغرب محتاج إلى أن يدرك أن العالم الإسلامي فيه تماسك اجتماعي، والأسرة لها مكانة كبيرة، وكبار السن يحظون برعاية الأبناء، ولا يحدث فيه ما يحدث في الغرب. لا يمارس الجنس في الطرقات، ولا يسمح بالفن الإباحي، والعلاقات خارج الزواج نادرة، ونسبة الأولاد غير الشرعيين لا تكاد تذكر بالقياس إلى ما في الغرب، والفتيات يحتفظن بعذريتهن حتى الزواج، ولا تجد في العالم الإسلامي ما تجده في الغرب من إعلانات تبادل الزوجات، ونوادي العراة، وزواج الشواذ، والسكن المختلط بين الشبان والشابات.

وهذا ما يفتخر به الإسلام. وعن حق.



ويشرح د. هوفمان الثراء والتنوع فى الفقه الإسلامى الذى استطاع أن يواجه القضايا والمشاكل التى لم يرد فيها نص فى القرآن والسنة بالاعتماد على مناهج علمية أسسوها مثل القياس، والإجماع، والمصالح المرسلة، والاستصحاب، والعرف، وأجمعوا على أن القرآن هو المصدر الأول للشرع، وكل ما جاء فيه قطعى الثبوت، وتليه السنة، وهى المصدر الثانى للشرع، ومنها ما هو قطعى الثبوت من الأحاديث المتواترة، ومنها ما هو ظنى الثبوت وهى أحاديث الآحاد، كما قَسَمُوا القرآن والسنة إلى ما هو قطعى الدلالة، أى واضح وقاطع المعنى وصريح، ومنها ما هو ظنى الدلالة، أى يحتمل التأويل وقائم على الظن، وأجمعوا أيضا على أن الأصل فى الأشياء الإباحة فيما لم يرد نص قطعى بتحريمه، ووضعوا قاعدة فى حالة الشك: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك).

كما يشرح د. هوفمان تدرج الأحكام فى الشريعة الإسلامية. الفرض ما جاء به أمر بالفعل وعقاب على عدم فعله واثم من لا يؤديه. والندوب هو ما طلب الشرع فعله طلبا غير لازم، يثاب فاعله ولا يعاقب الله تاركة، ويسمى أيضا النافلة والتطوع والسنة والمستحب. والمباح هو كل ما لم يأت به أمر بالفعل أو النهى عنه. والمكروه هو ما جاء به نهى صريح ووعد بالثواب لمن يتركه وليس على من يفعله عقاب، والحرام هو ما طلب الشرع الكف عنه بالزوم ومن يفعله فهو آثم. ولكن بعض المسلمين يخلطون بين هذه الدرجات فيحولون الندوب إلى فرض، والمكروه إلى حرام، ولكن هذا الاتجاه الصارم يزعج الإسلام عن الوسطية التى يتميز بها ويجعله مقصورا على الصفة من الزهاد وليس لعامة الناس وهم ليسوا فاسقين وليسوا متصوفين. وهناك أيضا جماعات إسلامية تدعو إلى الزهد فى الدنيا وطلب الآخرة فقط. مع أن القرآن صريح فى الدعوة إلى العمل للدنيا والآخرة معا ولا تعارض بينهما: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة ٢٠١) و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرَّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة ٨٧) و﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف ٣٢) وليس هناك أكثر وضوحا وقطعية فى الدلالة من الآية ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السُّنْتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ (النحل ١١٦).

وفى ذلك ما يؤكد أن المتشددىن والداعىن إلى قفل باب الاجتهاد، وإلى الاقتصار على ما جاء به الأقدمون لا يمثلون حقيقة الإسلام، وهم دعاة الجمود والتخلف وفكرهم وتصرفاتهم تعوق التقدم لسايرة التطور.



ليست هذه كل أفكار الدكتور مراد هوفمان، ولكنها بعض أفكاره التى تكشف عن عقلية غربية مستنيرة لا تتحدث عن الإسلام إلا بعد دراسة كل جوانبه ومن مصادره الأصلية. ومن يقرأ المراجع

التي استند إليها يوشك أن يقول عن هذا الرجل: إنه من فقهاء المسلمين. وقد شرح أفكاره فى عدة كتب منها: (الإسلام كبديل) و(يوميات ألمانى مسلم) و (الإسلام فى الألفية الثالثة) و(رحلتى إلى مكة).

ومن حسن الحظ أن هذه الكتب ترجمت إلى اللغة العربية، وما أحتاجنا إلى ترجمة بقية مؤلفاته لأنها تمثل نظرة العقل الغربى النصف للإسلام.

## لماذا التمييز ضد الأقليات الإسلامية؟

فى يوم ٢٣ فبراير عام ١٨٦٢ وقف المفكر الفرنسى المشهور أرنست رينان لإلقاء محاضرة فى (الكوليج دى فرانس) محورها أن الإسلام هو النفسى، والنقيض لأوروبا، ومنذ ذلك التاريخ تكوّن شعور لدى المفكرين فى الغرب بضرورة وجود قطبين فى العالم، وهذا ما جعل المفكرين الغربيين يتساءلون بعد انهيار الكتلة الشرقية - أحد القطبين فى الصراع العالى - مَنْ القطب الثانى الذى يمثل التحدى أمام الغرب؟.

وأمام الإحساس بضرورة وجود قطب ثان فى العالم ظهرت نظرية (الإسلام هو النقيض) وعبر عن ذلك كل من المفكر الأمريكى اليابانى الأصل (فرانسيس فوكوياما) فى نظريته عن (نهاية التاريخ) بأن الصراع التالى هو الصراع بين الغرب والإسلام، ويتوقف الصراع فى العالم عندما ينتهى بانتصار الحضارة الغربية على الحضارة الإسلامية. وتأكّدت هذه العقيدة بشكل أقوى وأكثر وضوحاً فى نظرية المفكر الأكاديمى الأمريكى (صمويل هنتنجتون) عن صدام الحضارات التى قرر فيها أنه لا مفر من هذا الصدام، بكافة أبعاده الدموية، فكان النظرة للعالم فى الغرب قائمة على وجود قطبين فى العالم - كما يقول المفكر الألمانى (د. مراد هوفمان): (هنا وادى السيليكون.. وهنا وادى مكة)! وكأن العالم لم يتطور منذ أعلن (أرنست رينان) نظريته فى القرن التاسع عشر، وقد ظهرت هذه الحقيقة فى استفتاء أجرى فى ألمانيا عام ١٩٩٥ قرر فيه ٤٨٪ أنهم يرون الإسلام خطراً يهدد الحضارة والثقافة الغربية.

وقد تصدى المفكر الألمانى المسلم د. (مراد هوفمان) لمهمة نذر نفسه لها هى الإسهام فى الكشف عن حقيقة الإسلام، وأنه لا مبرر للمخاوف ولا لمشاعر العداء لدى كل من الغرب والإسلام. ومنذ اعتزاله العمل سفيراً لبلاده فى عدد من الدول العربية عام ١٩٩٤، وهو يتجول محاضراً متنقلاً بين (هلسنكى ولوس انجيلوس وليبزج) وبقية المدن الغربية والإسلامية.

ومن هذه الجولات المستمرة بين الشرق والغرب خرج (د. هوفمان) بنتيجة هي أن الإسلام إذا كان مقدراً له أن يحقق نجاحاً في الغرب. فإنه سيحققه في أمريكا لأن أمريكا بلد يتميز بالتنوع الديني الهائل ويسمح لمختلف الديانات والطوائف والفرق بحرية الحركة، ولا يماثله في ذلك بلد في أوروبا سوى هولندا، وقد طرح الكثير من الأفكار في هذا السياق في كتابه (الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود) الذي ترجمه الأستاذان عادل المعلم ويس إبراهيم.

ففي أمريكا يعتقد الكثير من المسلمين السود أن أسلافهم الذين وقعوا في رق العبودية ونقلوا إلى أمريكا كانوا مسلمين، وأن تجار الرقيق الذين خطفهم كانوا من اليهود، وأن أصحاب السفن التي نقلوا عليها كان يملكها يهود، وأنهم أصبحوا (بضاعة) لتجار الرقيق من المسيحيين. وهناك قوائم بأسماء سفن نقل العبيد ومالكها اليهود تتداولها أوساط السود في أمريكا، وفي رأي (د. هوفمان) أن اعتناق الأمريكيين السود للإسلام في الوقت الحاضر يحمل احتجاجاً ثقافياً سياسياً كما يحمل الحنين إلى الماضي، وإلى الجذور، ولكن كان هناك إلى وقت قريب ظاهرة سلبية في مجتمع المسلمين السود في أمريكا، وهي نمو جماعة (أمة الإسلام) التي كان يتزعمها (اليجا محمد) والذي كان ينسب لنفسه النبوة، ويدعو إلى إسلام يعادى البيض واليهود، أي إسلام عنصري، وعن طريق (اليجا محمد) اعتنق الإسلام كثير من الشخصيات الشهيرة مثل (مالكولم إكس) الذي كان زعيماً من زعماء المسلمين السود، وبطل الملاكمة المعروف محمد علي كلاي، وبعد وفاة اليجا محمد تولى زعامة هذه الجماعة ابنه (وريث الدين محمد) فقادها في اتجاه آخر ينبذ كافة أشكال العنصرية، ودعا إلى توحد الجماعات الإسلامية في أمريكا. كذلك كانت دعوة (مالكولم إكس) قائمة على أن أمريكا في حاجة إلى الإسلام، لأنه وحده قادر على تخليص المجتمع الأمريكي من عنصريته، وبذلك لم يعد هناك زعيم من زعماء المسلمين الأمريكيين السود يدعو إلى إسلام عنصري سوى الزعيم الجديد لجماعة (أمة الإسلام) (لويس فراخان)، وإن كان قد بدأ منذ عام ٢٠٠٠ في الاقتراب من الفكر المعتدل للجماعة السنية من المسلمين الأمريكيين من أصول أفريقية.



أما بالنسبة للمسلمين الأمريكيين غير السود فإن معظمهم من دول إسلامية ذهبوا إلى أمريكا للدراسة واستقروا فيها واكتسبوا الجنسية الأمريكية بعد ذلك، وهؤلاء من الأكاديميين وعلى درجة عالية من العلم والثقافة وكثير منهم يشغلون مواقع مهمة في المؤسسات العلمية والمالية ويديرون شركات متخصصة في البرمجيات، وبعضهم غرس جنوره في أمريكا. كما أن بعضهم نشط في المشاركة في الحياة السياسية. وفي أمريكا منظمات إسلامية كثيرة مثل (مجلس المسلمين الأمريكيين) و(منظمة المسلمين الأمريكيين) التي تشجع المسلمين الأمريكيين على المشاركة في الانتخابات ليكون لهم تأثير في المجتمع، وكذلك منظمة (كاير CAIR) التي تخصص نشاطها



في الإعلام وحماية المسلمين من الاضطهاد والتصدى لتيارات العداء للإسلام. ومن أمثلة نشاط هذه المنظمة ؛ أنها لجأت إلى القضاء ضد إدارة مطار دالاس في العاصمة واشنطن حين طردت ٧ موظفات بسبب ارتدائهن الحجاب، وحصلن على حكم بعودتهن إلى العمل وحققهن في التعويض، وفي مرة أخرى هددت المنظمة شركة (ماستر كارد) بالمقاطعة بسبب إعلان لها خادش للحياء في أحد المساجد. وفعلت نفس الشيء مع شركة (نايكي) للأحذية الرياضية بسبب نعل حذاء عليه كلمة (الله) باللغة العربية. وأيضاً فعلت ذلك مع دار نشر (سايمون وشوستر) بسبب كتاب للأطفال كان يحتوى على فصل فيه إهانات للإسلام. وتقوم هذه المنظمة بإصدار تقرير مفصل عن وضع الحقوق المدنية للمسلمين في أمريكا وإعلانه في مؤتمر سنوي ويتضمن هذا التقرير بالتفصيل الوقائع المعادية للإسلام، وتوجد أيضاً (المنظمة الإسلامية لأمريكا الشمالية) التي تعقد مؤتمرات يحضرها آلاف من المسلمين الأمريكيين من كافة الولايات.



ويقدم (د. هوفمان) صورة لواقع المسلمين الأمريكيين قبل ولاية الرئيس (جورج دبليو بوش) وقيادة التيار اليميني المتشدد للإدارة الأمريكية، وقبل أحداث ١١ سبتمبر وإعلان الرئيس بوش الحرب الصليبية على الإرهاب.. ولذلك فإن الصورة الوردية لأحوال المسلمين التي يتحدث عنها تغيرت إلى حد كبير.. ولكن تبقى المؤسسات الإسلامية كما هي تعمل جاهدة على تصحيح صورة الإسلام في أمريكا..

وتصدر في أمريكا أهم المجلات الإسلامية في العلوم الاجتماعية، كما أن في أمريكا كلية للدراسات الإسلامية بولاية فيرجينيا، وفيها عدد من دور النشر الإسلامية، ومعهد الدراسات الإسلامية والعربية بولاية فيرجينيا أيضاً وعدد من المدارس الإسلامية الخاصة، وإن كانت النشاطات الثقافية الإسلامية تتركز في (نيويورك وواشنطن، وشيكاغو، ولوس أنجيلوس)، كما يوجد في أنحاء أمريكا أكثر من ٣٥٠٠ مسجد.

من هذه الحقائق يتساءل (د. هوفمان) هل من الممكن أن يستمد الإسلام بواعث نهضته من أمريكا في الألفية الثالثة؟.

والسؤال يبدو غريباً، ولا يخطر على البال مع ما نعرفه من نزعة العداء للإسلام والتضييق على المسلمين في أمريكا، إلا أن (د. هوفمان) يرى أن هذا السؤال له ما يبرره لكثرة أعداد المثقفين المتعلمين المسلمين في أمريكا، ولكنه سرعان ما يتدارك فيقول: إنه لا بد من الإشارة إلى أن مسلمي أمريكا يواجهون الكثير من المواقف الصعبة الشرسة نظراً لوجود آلة الإعلام الصهيونية والنفوذ الصهيوني وهم يتصورون أنهم يفتيدون إسرائيل عندما يشوهون صورة الإسلام، ويقرر (د. هوفمان)

– بعد دراسته لأوضاع المسلمين في أمريكا ومعايشته للمجتمع الأمريكي من خلال الدراسة والزيارات المتكررة – أن وضع المسلمين في أوروبا – بالنسبة لهذه النقطة – أفضل بكثير من وضعهم في أمريكا، خاصة بعد أن ازداد تدهور الأمور بعد الانفجار في مدينة أوكلاهوما يوم ١٩ مارس ١٩٩٥، فقد كان رد الفعل الذي عم أمريكا فور وقوع الحادث هو إلصاق التهمة بالمسلمين دون وجود أى دليل على ذلك، وتم إلقاء القبض على مسافر عربي ملتح في المطار وهو متجه إلى إنجلترا ووجه إليه الاتهام، وفي الأيام التالية وقعت ٢٠١ حادثة اعتداء وهجوم على منشآت إسلامية وأشخاص مسلمين منها: اعتداءات بالأسلحة الخفيفة، والضرب المبرح، وكسر النوافذ الزجاجية، والتهديد بالقتل وإلقاء القنابل، ووجد الأطفال المسلمون أنفسهم منبوذين فجأة ولا يكلمهم زملاؤهم في المدرسة، وبعد ذلك تم إلقاء القبض على الجاني الحقيقي وظهر أنه أمريكي مسيحي، ومع ذلك فقد ترك هذا الحادث تأثيرا سلبيا على المسلمين الأمريكيين عموما، كذلك تغير وضع المسلمين الأمريكيين بعد إلقاء القبض على راب (الفهد الأسود) وهو أمريكي أسود كان مسجوناً وأسلم وتعلم اللغة العربية وهو في السجن، وأصبح بعد ذلك إماما يحمل اسم (عبد الله الأمين) ويرأس جمعية مساجد أطلنطا) بولاية جورجيا ويعتبر من أكثر الشخصيات الإسلامية نفوذاً في أمريكا، وبالرغم من ذلك وجه مكتب التحقيقات الفيدرالية إليه تهمة القتل، وقدم إلى المحكمة مستنداً إلى شهادة أحد الشهود، لكن هذا الشاهد قرر أمام المحكمة أن البوليس أجبره على الإدلاء بالشهادة الزور، وحكمت المحكمة ببراءته وأعلن الشاهد إسلامه بعد ذلك.

ويقرر (د. مراد هوفمان) أن تأثير القوى الصهيونية قوى للغاية ومسيطر على الإعلام والجامعات والمؤسسات المالية والكونجرس والحكومة. حتى يبدو أن السياسة الأمريكية تجاه العالم الإسلامي لا تضع المصلحة القومية لأمريكا في الاعتبار عندما تتخذ قراراتها.. ويشير إلى بعض الكتب التي تكشف هذه الحقيقة مثل كتاب (من يجرؤ على الكلام؟) تأليف عضو الكونجرس السابق (بول فندلي)، وكتاب (أمة واحدة تحت سيطرة إسرائيل) تأليف (اندرو هارلي).. ويقول: إن القبض على مسلمين دون توجيه تهمة معينة إليهم يتكرر كثيراً، وقد ازداد تيار العداء بعد ظهور فيلم (الحصار The Siege) الذي صور المسلمين الأمريكيين على أنهم خطر إرهابي يهدد الولايات المتحدة.

وعلى الجانب الآخر هناك بعض الكتاب الأمريكيين يلّمحون إلى أن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد لهم دينهم وأن تجديد الإسلام في القرن الحادي والعشرين سينطلق من أمريكا، كما في كتاب (بتي بومان Betty Bowman) (الشمس تشرق من الغرب).

وهذا التنبؤ – فيما أعتقد – يحتاج إلى مراجعة لأنه متفائل أكثر من اللازم (!).



يقول د. هوفمان: إن ما يشغل الناس في الغرب هو ما سيصيب أسلوب حياتهم إذا أصبح المسلمون في الغرب أغلبية، وهذه المخاوف وإن لم تكن معلنة إلا أنها مخاوف حقيقية، عبّر عنها كتاب كثيرون مثل الكاتب الألماني (فييم دياتل Wiheim Dietl) في كتابه (الحرب المقدسة في سبيل الله)، وكذلك (جيرهارد كونزلمان Gerhard Konzelman) في كتابه (التحدى الإسلامي) وبيتر شول في كتابه (هل يأتي المسلمون؟) وكلها تعبر عن مخاوف من المستقبل إذا استمر معدل انتشار الإسلام في الغرب على ما هو عليه.



ويناقد (د. هوفمان) هذه المخاوف مستندا إلى الواقع والمنطق ويصل إلى أنها مخاوف لا أساس لها ويشرح (د. هوفمان) للغربيين موقف الإسلام فيقول: إنه لا يعادي الديانات الأخرى، ويشير إلى الخطأ الذي يقع فيه دارسو الإسلام في الغرب بسبب سوء فهمهم للآية ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران ١٩) فإن ترجمتها أدت إلى مفهوم مختلف، فهي تترجم على أن الدين عند الله هو دين الإسلام، وقد فهموا من ذلك أن الأديان الأخرى ليست ديانات من عند الله، ولم يفهم المترجمون أن كلمة (الإسلام) تستخدم في القرآن بمعناها الأصلية في اللغة العربية وهو التسليم لله، وهذا هو المعنى الذي فهمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته، وتأكد هذا المعنى في آيات القرآن الكريم عند الحديث عن معظم الأنبياء، على أنهم مسلمون وأنهم أسلموا وجههم لله، فالعنى الصحيح للآية أن الأديان جاءت لدعوة البشر إلى التسليم لله، وهذا ما ينطبق على الآية ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران ٨٥) ويسرى كذلك على الآية ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة ٣٣) (والصف آية ٩) والمترجمون لم يدركوا معنى الفعل (ظهر) في اللغة العربية ففهموا أنه يعنى إلغاء الديانات الأخرى، بينما الفعل (ظهر) يعنى أنه تميز وسطع على الديانات الأخرى، ولم ينكرها.. وعلى ذلك فإن الذين يؤسسون نظريتهم عن عداء الإسلام للأديان الأخرى يخطئون في فهم الآيات التي يستندون إليها.

والدليل الصحيح هو الآية ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة ٤٨) والآية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦) والآية ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون ٦) والآية ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف ٢٩). والآيات ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَأُدْعَى إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَمَلَكٌ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٧) وَإِنْ جَدَلْتَهُمْ فَقُلْ أَفَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿ (الحج ٦٧-٦٩).

وكذلك الآيتان ﴿ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة ٤٣-٤٤).

ويقول (د. هوفمان) إن هذه الآيات تكفي دليلاً على أن موقف الإسلام من الديانات الأخرى يتحدد في النقاط الآتية:

أولاً: أن التنوع الديني العرقي طبيعة أرادها الله.

ثانياً: أن الإيمان مسألة لا تخضع لأي ضغوط أو إكراه.

ثالثاً: أن النزاعات العقائدية غير مثمرة.

ويدل ذلك على موقف فريد للإسلام جدير بالإعجاب، يهدف إلى التعايش بين الشعوب والديانات، ويتجاوز ذلك إلى ما هو أبعد، وهو أن وحدة الإيمان تتضمن التنوع في العقائد والديانات وكلها عبادة الله الواحد، كما أن وحدة البشرية تتضمن التنوع في اللون واللغة، وفي النهاية فإن وحدة البشر جزء من وحدة الكون، وكل ما في الكون يلتقي على مبدأ واحد، وهو العبودية لله ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ (الحج ١٨).

ولذلك فلا يوجد - في دين الإسلام - عداً بين السني والشيعة، والكاثوليكي والبروتستانتي، والمسيحي واليهودي، والبوذي والهندوسي من حيث إنهم جميعاً بشر من خلق الله، خلقهم جميعاً من نفس واحدة (آدم) وخلق منها زوجها (حواء) وهم جميعاً شركاء في الفطرة الإنسانية. هكذا فهم (د. هوفمان) الإسلام.



وفي مناقشته لنظريات الغرب عن الإسلام يقول د. هوفمان: إن الإسلام لا يقوم فقط على التسامح بين الأديان ووحدة الإنسانية وإن كان هذا المبدأ هو الركيزة الأولى في الإسلام، إلا أن هناك الركيزة الثانية وهي الرباط الذي يجمع بين كافة المؤمنين بالله وبجميع المؤمنين بالشرائع السماوية وبالأنبياء من إبراهيم إلى محمد (عليهما السلام) كما في الآية ﴿ سَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (الشورى ١٣).

ويقول (د. هوفمان) بعد ذلك: إن المسيحيين يسيئون فهم (وحدة المخلوقات) وما يعنيه الإسلام بها، كما يرتابون كثيراً في (الرابطة الإبراهيمية) ولديهم شك في أنها فخ منصوب لهم. ولكن الإسلام واضح وقاطع في أنه يرفض دخول أحد في الإسلام بالإكراه، والإسلام قائم على أن الوحدة بين المتنوعين ممكنة، وهذه (القاعدة الإبراهيمية) هي القاعدة الطبيعية لأي حوار إسلامي-مسيحي أو حوار إسلامي-مسيحي-يهودي، وإذا بدأت هذه الحوارات من منطلق هذا الفهم وبهذه الروح فسوف تزيل الكثير من سوء الفهم المتراكم عبر القرون.

وينبه د. هوفمان إلى أن هذا الحوار لا يهدف إلى توحيد الأديان، ولا إلى تشكيك أصحاب دين في دينهم، فهناك قاسم مشترك بين الأديان تلتقي عنده وتتعاون في إبطائه، وهناك أمور غير قابلة للنقاش أو التفاوض حولها أو التفريط فيها، فالطريق إلى الله كما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) سيظل منسوباً إليه، والإيمان بالله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد مسألة غير قابلة للمساس بها عند المؤمنين برسالته.



ويخصص (د. هوفمان) في كتابه (ديانة في صعود) صفحات لموقف الإسلام من الأقليات للرد على ما يثار في الغرب من مبالغات حولها، فيقول: إن الشريعة الإسلامية تجعل الحماية لغير المسلمين في الدولة الإسلامية التزاماً عليها. والقرآن يسميهم (أهل الكتاب). وبفضل هذا القانون الإلهي تمتعت الأقليات الدينية بالحكم الذاتي في المسائل الدينية بما في ذلك مسائل الأسرة والحدود والميراث، وتمتعت الأقليات الدينية بالحماية، ولم تمنع الدولة الإسلامية المسيحيين من أن يقوموا بتربية الخنازير والتجارة في الخمر، ولم تمنع اليهود من التعامل بالربا في المسائل المالية، والتزمت الدولة الإسلامية بحماية حياتهم وأموالهم وأماكنهم، وحماية ممارساتهم لشعائرتهم الدينية، وتمتعت الكنائس والمعابد بنفس الحماية التي تكفلها الدولة للمساجد بلا تفرقة.

ويشير (د. هوفمان) إلى الحديث (من آذى ذمياً فقد آذى الله) وإلى أن جريمة قتل مسيحي تتساوى مع جريمة قتل مسلم، ولم تختلف معاملة أهل الكتاب أو الذميين عن المسلمين في الدولة الإسلامية إلا في ثلاث نقاط فقط: الأولى أنهم لم يكونوا ملزمين بالانضمام للجيش، والثانية أنهم كانوا في مقابل ذلك يدفعون ضريبة دفاع (الجزية)، ولم تكن تزيد على ما يدفعه المسلم للزكاة)، وكانت الدولة الإسلامية ترد الجزية إلى أهل الذمة حين لا تتمكن الدولة من رد المعتدى الأجنبي عن البلاد، كما حدث في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عندما أعلن أبو عبيدة شكه في قدرته على رد العدو البيزنطي ورده عن البلاد، وبالتالي احتمال عدم قدرته على حماية أهل الذمة، فأعاد عمر إليهم الجزية.

ونقطة الاختلاف الثالثة أن أهل الذمة يشاركون في الإدارة العامة للدولة وفي اتخاذ القرارات ويكون منهم وزراء وحكام كما حدث في الدولة الإسلامية، وكان شائعا على مر التاريخ الإسلامي حتى يومنا هذا، ويكون الحاكم في الدولة الإسلامية مسلما. ولا تفرقة في المعاملة بين المسلم وغير المسلم، ولا تمييز من أى نوع في الدولة الإسلامية.

ويقول (د. هوفمان): إن المبدأ الإسلامي بحماية الأقليات لم يقتصر على أهل الكتاب.. بل اتسع حتى شمل أصحاب ديانات غير كتابية مثل الزرادشتية في إيران كما شمل مفهوم الحماية الهندوسية أيضا، وحتى المشركون فإنهم يتمتعون بحماية الإسلام، ويستشهد (د. هوفمان) على ذلك بالآية ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة ٦).. فهؤلاء لا يسمح الإسلام بإكراههم على شيء ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ وينتهي (د. هوفمان) إلى أنه ليس هناك سند قرآني يبيح السلوك غير المذهب إزاء غير المسلم، ولذلك استطاع المسيحيون واليهود أن يقوموا بدور إيجابي في المجتمعات المسلمة، وكان الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان متزوجا من مسيحية، ومن قبله تزوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من السيدة مارية القبطية والسيدة صفية اليهودية (قبل أن تسلم).



يقدم لنا (د. هوفمان) الصورة على الجانب الآخر، فالأقليات المسلمة في الغرب تلتزم بقوانين البلاد التي يعيشون فيها، والمذهب الحنفي أعفى المسلم المقيم في دولة غير إسلامية من بعض المبادئ مثل الربا. ويعبر د. هوفمان عن مطالب الأقلية المسلمة في كل بلد من بلاد الغرب فيقول: إن المسلمين في الغرب يطالبون بالمساواة والكف عن الكيل بمكيالين. ويعرض أدلة على التمييز ضد المسلمين في الغرب، فيقول: إن بناء مسجد لا يتم التصريح به إلا بعد عدة سنوات من تقديم الطلب، ويصرح بالبناء في موقع ردى بجوار سلخانة أو خلف القطارات. ولا بد من مفاوضات من أجل ارتفاع كل متر للمئذنة، ولا يتم التصريح ببناء قبة للمسجد، وكثيرا ما يمنع استخدام المئذنة للأذان مع أنه لا يوجد ما يمنع ذلك قانونا، وكثيرا ما توضع العقبات أمام بناء مسجد ولا يتم إلا بعد اللجوء إلى المحكمة، ومع ذلك كثيرا ما يرفض المسؤولون إعطاء التصاريح ولا يختلف الوضع في فرنسا عنه في ألمانيا.

ويقول (د. هوفمان): إن المسلمين في ألمانيا يستفزعهم أن تقوم بعض السلطات غير المسلمة بتفسير القرآن للمسلمين، بدءا من رئيس هيئة حماية الدستور ومرورا برئيس الكنيسة الإنجيلية في مقاطعة (هسن ونساو) ووزيرة الثقافة في مقاطعة (بادن- فرتمبرج) وصولا إلى المحاكم الإدارية، وهؤلاء يفسرون الإسلام للمسلمين ويقررون أنهم يحق لهم أكل لحم الخنزير، وارتداء البكيني.

وهذا ما يجعل المسلمين يرون فى ذلك صورة من صور (الامبريالية الثقافية) الأوروبية، ويقول (د. هوفمان): ذلك يحدث بالنسبة للإسلام، ولكن لا يجرؤ أحد تحت أى ظرف أن يسمح لنفسه بتفسير التوراة أو التلمود للمواطنين اليهود (!) ويتحدث المسلمون فيما بينهم بسخرية لسماح السلطات الألمانية لليهود بالذبح وفق شريعتهم، بينما تعتبر السلطات الذبح بهذه الطريقة مخالفا لحقوق الحيوان بالنسبة للمسلمين، مع أن طريقة الذبح فى اليهودية والإسلام واحدة، وحين لجأ المسلمون إلى محكمة إدارية أعطت المحكمة لنفسها الحق فى تفسير القرآن وقررت أن للمسلمين التغاضى عن الذبح الشرعى، وأن القرآن يسمح فى حالة الضرورة القصوى بأكل ما نهى عنه، وعلى ذلك بإمكان المسلمين أن يتناولوا جميع أنواع اللحوم. ولم يتبين القاضى بطبيعية الحال أن الضرورة المقصودة هى حالة تعرض المسلم للموت جوعا. وفى نفس الوقت فإن القرآن ينص على أن طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين على ألا يكون من لحم الخنزير. وما يثير المسلمين هو أن تعطى المحاكم والسلطات غير المسلمة لنفسها الحق فى تحديد ما يجب على المسلم أن يفعله فى المسائل المتصلة بعقيدته، ومن ذلك أيضا تدريس الدين الإسلامى فى المدارس الألمانية تحت إشراف الحكومة، وفى البداية اعتبر المسلمون ذلك انتصارا، لكن وزارة التعليم تحدد مناهج الدين الإسلامى للمسلمين فى مدارسها دون الرجوع إلى أية جهة إسلامية، وليس مستبعدا أن يتولى تدريس مبادئ الإسلام للتلاميذ المسلمين مدرسون غير مسلمين. ونظام العمل فى ألمانيا يجعل من الصعب على المسلم صيام رمضان ولا تراعى ذلك السلطات وجهات العمل.

وفى عام ١٩٩٨ اقترح أحد نواب البرلمان الألمانى منع تدريس الدين الإسلامى بالمدارس الحكومية بحجة أن ذلك سيؤدى إلى تشكيل جسم غريب عن بقية المجتمع قد يؤدى إلى تغيير المجتمع الألمانى على المدى الطويل.



ويتحدث (د. هوفمان) بصراحة عن نصيب المسلمين من المسئولية عما وصلت إليه صورة الإسلام من تشويه فى الغرب، إذ يجب ألا نلقى باللوم كله على الغرب على أنه الجانى وأن المسلمين هم الضحية والمجنى عليهم، ومثال على ذلك أن الولايات المتحدة لجأت إلى توجيه الاتهامات إلى المسلمين وحدهم فور وقوع أحداث ١١ سبتمبر، لأنها كان لديها بعض الأدلة، وإن كانت غير مؤكدة، إلا أنها تشير إلى عداة تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن لأمریکا وأنهم على استعداد لتوجيه ضربات إليها وتهديد مصالحها. وأسامة بن لادن سجل شريط فيديو يدعو فيه أتباعه إلى ضرب الأمريكان حيث كانوا، وهذا يعتبر دليلا ضده. كذلك فإن تفجير سفارتى الولايات المتحدة فى كينيا وتنزانيا دليل آخر جعل الأمريكان يربطون أحداث سبتمبر بأسامة بن لادن. وبالإضافة إلى ذلك فإن (محمد عطا) المتهم الرئيسى درس الهندسة، ثم درس الطيران. هذه أدلة استند إليها الأمريكان،



وإن لم تكن قاطعة إلا أنه من الممكن أن يكون تنظيم القاعدة وأسامة بن لادن وراء هذه الأحداث، ولكن ذلك ليس معناه أن الإسلام مسئول عن هذه التصرفات، أو أنه يدعو إليها.

ولذلك يجب أن يتكلم المسلمون بصراحة وبوضوح مع الغربيين، وأن تكون مواقفهم حاسمة، وحينما يتكلمون عن أسامة بن لادن يمكن أن يقولوا: إنه فعلا مسلم، وهو مخطئ إذا كان هو المسئول عن هذه الأعمال، ونوضح الفرق بين مبادئ وتعاليم الإسلام والسلوك الفردي للمسلم أو السلوك الجماعي لعدد من المسلمين. فليس شرطا أن يكونوا ممثلين ومعبّرين عن الإسلام، ونستشهد بأدلة من القرآن والسنة على أن الدين الإسلامي ضد التشدد والإرهاب، وضد قتل الأبرياء، وأنه دين لا يحض على الانتحار، لأن حياة الإنسان ليست ملكا له ولكنها ملك لله، والله هو وحده الذى يعطى الحياة وهو وحده الذى ينهيها، والإنسان الذى ينتحر يتصرف ضد إرادة الله - والله يأمر المسلم بالحرب للدفاع عن النفس ورد العدوان. وهناك فرق بين القتال والعمليات الانتحارية، فالقتال مشروع في الإسلام لأن المسلم يقاتل دفاعا عن دينه أو عن نفسه أو وطنه أو ماله، ولا يلقي بنفسه إلى التهلكة، وإن كان من المحتمل أن يموت في القتال، ولكن ذلك ليس بإرادته، ثم إن هناك أملا في النجاة، فهو ذاهب للقتال وليس للانتحار، وعنده يقين بأنه قد يموت ولكنه لا يفقد الأمل في أنه يمكن أن يعود سليما، أما الانتحارى فهو يقتل نفسه. وهكذا يمكن أن نحسن صورة الإسلام بالاستشهاد بآيات من القرآن تؤكد أن الإسلام ضد قتل الأبرياء، وضد التزمت، وضد الانتحار، وضد الإرهاب.



الخطأ الذى وقع فيه بعض المسلمين واستغفله البعض لتشويه صورة الإسلام في الغرب أنهم حاولوا الدفاع عن الإسلام لكن بطريقة التفكير التى تقوم دائما على توهم وجود مؤامرة فى كل موقف، وعلى رغم أن الوصول إلى الحقيقة سهل من خلال طرق واضحة، فإن هؤلاء المسلمين سلكوا الطريق الخطأ فى محاولتهم لتبرئة المسلمين من المسئولية عن أحداث ١١ سبتمبر، فقالوا: إنه لم تكن هناك ظواهر اصطدمت بالبنتاجون، بينما العالم كله شهد الطائرة والدمار الذى لحق بوزارة الدفاع الأمريكية. بل إن بعض ركاب الطائرة التى اصطدمت بمبنى التجارة العالمى بنيويورك اتصلوا بذويهم بالتليفون المحمول قبل ارتطام الطائرة بالمبنى. فإذا حاول البعض إنكار واقعة حدثت بالفعل فإن ذلك يجعل الغرب لا يصدقنا وقد يرفض الاستماع إلى وجهة نظرنا. ويقول (د. هوفمان): هذا يذكرنى بمنطق الألمان حينما كانوا أثناء الحرب العالمية الثانية يقولون: نحن لا بد أن نكسب الحرب لأننا لا يمكن أن نخسر وليس من المعقول أن نهزم، وهذا منطق مضحك. والمفروض أن يؤكد المسلمون للغرب أن قانون الحرب في الإسلام ينهى عن قتل النساء والأطفال ورجال الدين من جميع الأديان. وينهى حتى عن قتل حيوان أو قطع شجرة.



وكذلك ينبه (د. هوفمان) إلى الخطأ في اختيار الدعاة في الغرب. فالمسلمون في الغرب يفضلون أن يختاروا أئمتهم ووعاظهم بأنفسهم ممن يعيشون في مثل ظروفهم، ويتكلمون بلغاتهم، ولا يتفاعلون مع الأئمة الذين ترسلهم الحكومات لأنهم قد يكون مستواهم ضعيفا ومعلوماتهم سطحية بالمقارنة بمن يعيشون في الغرب. كذلك فإن هؤلاء الدعاة الزائرين يذهبون إلى بلاد غريبة لا يعرفون تقاليدها والقيم السائدة فيها، ولا يعرفون الجماعات التي يخاطبونها هل هم من الملحدين أو من المؤمنين؟. وهل هم متشددون أو متسامحون؟ وهل هم على دراية بمبادئ الإسلام أو أن فكرتهم عن الإسلام سطحية وعامة؟ والدعوة يجب أن تتناسب مع من يتوجه إليهم الداعية. وبالإضافة إلى ذلك فإن سلوك الداعية - وسلوك المسلم عموما - في غاية الأهمية، لأنه لا فائدة من الكلام عن تسامح الإسلام بينما يشاهد الغربيون أن المسلمين متشددون.

وفي رأى (د. هوفمان) أن أحداث ١١ سبتمبر سوف يستمر تأثيرها في الغرب لفترة طويلة. والمشكلة أن كثيرا من المسلمين لا يرون في الغرب إلا السلبيات، مع أن في الغرب إيجابيات كثيرة في القيم والسلوك والأخلاق. ومن صالح المسلمين ألا يقتصرُوا على الحديث عن السلبيات في الغرب دون ذكر للإيجابيات، لأن ذلك سيؤدي إلا ظهور أجيال من المسلمين يكرهون الغرب ويرفضون ما يأتي منه ويحرمون أنفسهم وأوطانهم من إنجازات الحضارة الغربية. وتقضى الحكمة بالتزام الموضوعية في الحديث عن المجتمعات الغربية ما لها وما عليها، وهذا لا يمنع من توجيه النقد ذاته إلى الغرب لأن الاتجاه الغالب فيه هو النظر إلى العالم الإسلامي على أنه مصدر للثروات الطبيعية والبتروال الذي يسعون للسيطرة عليه، وأنه السوق الأكبر لمنتجات الغرب.. وفيما عدا ذلك فإن كل ما فيه سلبيات.

كيف يمكن الوصول إلى نقطة التقاء بين الغرب والعالم الإسلامي؟.

يجيب (د. هوفمان) بأن ذلك ممكن، بل هو ضروري لأن البديل هو العداء والكرهية والصراع، بينما هناك مصالح متبادلة للطرفين، وسوف يسود السلام والاستقرار العالم عندما تتخلى القوى الكبرى عن سياساتها المعادية لقضايا المسلمين وتأييدها لعدوان إسرائيل، وتقوم بدور بارز في تحقيق السلام بين العرب وإسرائيل على أساس عادل، حينئذ سوف تتحسن العلاقات كثيرا بين أمريكا وأوروبا وبين دول وشعوب العالم الإسلامي وبخاصة الدول العربية.



ويتحدث (د. هوفمان) عن جاذبية الإسلام لبعض الغربيين ويرى أنها مدخل جيد لتصحيح صورة الإسلام التي يشوهها الإعلام والساسة، ففي الغرب تجد نماذج لشباب أدى اعتناقهم للإسلام إلى تحول هائل في شخصياتهم، وربما يكون منهم من قرأ كتب (كارل ماي) Karl May فأثارت

فى نفسه شغفا بكل ما هو إسلامى وعربى وشرقى فاتجه إلى دراسة علوم الإسلام. وهؤلاء ينفذون تعاليم الإسلام بدقة، ويلتزمون حرفيا بتفاصيل سلوك الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبعضهم يبالغون فى تقليد المسلمين فى ملابسهم وطعامهم ولغتهم، وهؤلاء يمكن اعتبارهم مسلمين غربيين رومانسيين، لكنهم بذلك يؤكدون عند غيرهم فى المجتمعات الغربية الحكم المسبق بأن الإسلام دين عربى قبلئى يرفض الحضارة الحديثة. هؤلاء يجذبهم نمط الحياة الإسلامية حيث تماسك العائلة بينما تعاني الأسرة الغربية من التفكك، والحقيقة التى تجذب كثيرين فى الغرب هى أن العائلة فى العالم الإسلامى - سواء ثرية أم فقيرة - تمثل النسيج الأساسى للمجتمع، وتقوم بالوظائف التى أصبحت من وظائف الدولة فى الغرب مثل تأمين العلاج، ومساعدة العاطلين عن العمل، وتحمل مسئولية رعاية العجزة وكبار السن والمصابين فى حوادث. ففى العائلة المسلمة - كما فى كرم الضيافة - يجد الفرد الأمان النفسى والدفع العاطفى وهذا غير موجود فى الغرب. كما يلاحظ الغربيون أن إيمان المسلمين بالقضاء والقدر وبوجود حياة وحساب بعد الموت يؤدى إلى التوازن النفسى بدلا من حالة الصراع والقلق التى يعانى منها الإنسان الغربى.

ولكن - على الجانب الآخر - سنجد فى الغرب من يرى فى هذه الفضائل أسبابا لتخلف العالم الإسلامى. وهؤلاء يقولون: إن الإسلام هاجر من العالم الإسلامى، وهذا المعنى نجده عند الشيخ محمد عبده الذى قال: إنه وجد فى الغرب أناسا يسلكون سلوك الإسلام وهم ليسوا مسلمين، ووجد فى الشرق مسلمين وسلوكهم غير إسلامى. ونجد هذا المعنى أيضا فى المقولة الشهيرة للشيخ محمد الغزالي: إن بالغرب مسلمين قلائل والكثير من الإسلام، وفى كثير من أجزاء العالم الإسلامى مسلمون كثيرون وقليل من الإسلام. هؤلاء يرون أن العالم الإسلامى متخلف يعيش على استيراد التكنولوجيا من الغرب، والترابط العائلى فى العالم الإسلامى يمثل عاملا أساسيا للفساد فى الحياة السياسية والاجتماعية، حيث تقسم المناصب على الأقارب غير المؤهلين والذين تقتصم الكفاءة، وبذلك تحرم بعض الدول الإسلامية من الكفاءات الحقيقية الموجودة فيها بسبب المحسوبية. كذلك فإن الدول الإسلامية تستعين بعمال فقراء من دول أخرى ولا تعاملهم معاملة تتفق مع القيم الإسلامية، فتجربهم من اصطحاب عائلاتهم، ومن المعاشات أو مكافآت انتهاء الخدمة، ولا توفر لهم ظروفًا معيشية إنسانية. وتجد صورا من البذخ والإسراف الزائدين فى دول إسلامية يعيش فيها فقراء لا يجدون لقمة العيش، وما يلقى من بقايا طعام الأغنياء من الممكن أن يكفى جميع الفقراء، ومع ذلك فإن إسلامهم لا يدفعهم إلى مراعاة العدالة الاجتماعية التى يطالبهم بها الإسلام. بل إن فى بعض البلاد الإسلامية تهتم الطبقة العليا برعاية الخيول أكثر من اهتمامها برعاية الفقراء والأيتام .. - وكل ذلك يثير استغراب المراقب الغربى. كما يثير استغرابه تلازم الحكم المطلق مع الادعاء بأن هذا هو الحكم الإسلامى، مما يولد الشعور بأن الإسلام ضد الديمقراطية وحرية الشعوب

ومساءلة الحكام ، وأن المجتمع المسلم غير مؤهل للممارسة السياسية الحرة والحوار السلمى كوسيلة للتغيير. كما يؤكد فكرة أن المجتمع المسلم عاجز عن تحقيق إنجازات علمية جديدة، لأن نقد الذات وافتراض الشك فيما هو قائم هو السبيل للتقدم العلمى والاجتماعى.



ومما يثير دهشة الغربيين أيضا عدم إحساس المسلمين بالوقت وعدم الدقة فى المواعيد، ويعتبرون ذلك - بمفهوم الغرب - عدم احترام للآخرين، وتبديدا للوقت الذى يعطيه الإنسان الغربى أهمية كبيرة. وكذلك وجود حركات إسلامية متعددة بينها اختلافات وصراعات أكثر من اختلافاتها وصراعاتها مع من تعتبرهم (العدو)، وكل منظمة تعتبر نفسها هى المعبرة عن الإسلام الصحيح وكل ما عداها كفر وضلال. وأكثر ما يثير الدهشة لدى الغربى أن يجد بعض المسلمين يركزون اهتمامهم فى أمور هامشية - كما يزعمون - ويجادلون - وقد يكفر بعضهم بعضا - حول: هل طلاء الأظافر حرام؟ وهل (الباروكة) تصلح غطاء رأس شرعياً للمرأة؟ وهل تركيب أسنان ذهبية حلال أو حرام؟ وهل يجوز تناول أدوية أو استعمال مستحضرات طبية يدخل فيها الكحول؟. وهل يجوز إهداء القرآن لغير المسلم؟. وهل تجوز مصافحة الرجال والنساء باليد؟. وإذا كان البحث فى هذه الأمور مهما لدى بعض المسلمين فإن الغربيين يرون أن هناك ما هو أهم من ذلك من شئون الدنيا والدين.

يعلق د. هوفمان على كل ذلك بأن العالم الإسلامى سيظل - مع ذلك - ملاذا للروحانيات لمعرفة الله ومعايشة المقدسات، بينما سيطرت المادة والمصلحة على الغرب، حتى العلاقات الإنسانية، وحتى علاقات الحب تحكمها قوانين السوق والبحث عن الربح، وكل ما لا تمكن ترجمته إلى أرقام لا قيمة له فى الغرب، ولذلك فإن العالم الإسلامى يمكن أن يقدم الكثير للغرب.



ويوجه (د. هوفمان) النقد إلى الإعلام فى الغرب، فيقول: إن موقفه العدائى من الإسلام والمسلمين واضح، إذ لا يثير إعلان نجم سينمائى مثل (ريتشارد جير) اعتناقه البوذية أدنى تساؤل، أما عندما أعلنت مجموعة من الكاهنات الألمانيات أنها فى طريقها إلى تركيا لخدمة المجتمع فلا ينالهن من الإعلام سوى السخرية. ويمكن للإنسان الغربى أن يعلن بلا خوف أو استحياء أنه يؤمن بالماركسية الجديدة، أو أنه ملحد، أو أنه متصوف بلا دين، لا يجد من المجتمع نقدا ولا ينبذ الناس.

أما الطقوس اليهودية فهى التى تحوز الرضا والإعجاب فى المجتمع الغربى حتى ما يتماثل منها مع شعائر المسلمين، لكنها عندما تصدر من المسلمين فإنها توصف بأنها غريبة وشاذة ومن بقايا العصور القديمة، بل يقال: إنها مخالفة للدستور فملابس المتشددى اليهود، وفصل اليهود بين الرجال والنساء، وقواعدهم الصارمة فى الطعام، وتمسكهم بالذبح وفق شريعتهم، وتشددهم

فى التكالييف الدينية، كل ذلك مقبول فى المجتمع الغربى دون أدنى اعتراض، ولكن الأمر يختلف تماما عندما يتعلق بالمسلمين، فاللحية التى تدل على التقدمية عند اليهود وغيرهم من الفنانين والسياسيين الغربيين تكون دليلا على الرجعية والتخلف عند المسلم، وغطاء الرأس الذى تتحلى به السيدة مريم العذراء فى الأيقونات وفى صورها ويثير مشاعر الاحترام، يتحول إلى شىء مثير للكرهية إذا وضعته فتاة مسلمة، ونحر الذبائح وفق الشريعة الإسلامية يعتبر عملا غير إنسانى ومخالفا لميثاق حقوق الحيوان، وهذا الفعل ذاته يقوم به اليهود دون أن يرى أحد فى الغرب أن فيه ما يستحق التعليق !.

ويشير د. هوفمان إلى دراسة بريطانية صدرت عام ١٩٩٧ من إعداد Runnymede Trust توصلت إلى النتيجة التالية: (إن فوبيا الإسلام هى الرعب منه وكراهيته، وقد عاشت هذه الفوبيا عدة قرون فى البلاد الغربية، ولكنها أخذت فى السنوات العشرين الأخيرة شكلا أكثر تطرفا وخطورة، وأكثر علانية، حتى أصبحت فوبيا الإسلام مكونا أساسيا من مكونات الإعلام والثقافة، كما أنها تسود فى جميع المجالات وأنحاء المجتمع). ويعلق على ذلك بأن هذه الحالة من نتائج ما يقدمه الإعلام والصحفيون والكتاب مثلهم مثل غيرهم من الناس فى الغرب، ضحية للصورة المشوهة للإسلام التى توارثوها عبر أجيال وقرون، ومن ناحية أخرى فهم الذين يزيّدون ترسيخ هذه الصورة المشوهة فى عقول الناس. والمشكلة أن وسائل الإعلام تصور الإسلام وتتعامل معه على أنه أيديولوجية أكثر من كونه دينا وعقيدة. ومثال ذلك الملحق الخاص الذى أصدرته مجلة (دير شبيجل) كبرى المجلات الألمانية وأكثرها احتراما فى يناير ١٩٩٨ بعنوان (الإسلام للغز) وحمل الغلاف صورة امرأة مسلمة حواجبها على هيئة سيوف، أما فى الموسوعة (الإسلام من الألف إلى الياء) فلم تظهر كلمة (الله) ولم يظهر اسم (محمد) أما (مكة) فقد وصفها شخص يبدو أنه لم يشاهدها أبدا.

أما الانطباع الثانى فى وسائل الإعلام الغربية عن الإسلام فهو أنه دين عدوانى وتوسعى، أى إنه دين حرب، دين التعصب والإرهاب. والأصوات التى تعارض هذا الاتجاه موجودة ولكنها قليلة جدا، مثل كتاب الباحث (ولفجانج جينتر ليرش) (الإسلام والإرهاب) ولذلك فلا غرابة فى أن يقول رئيس المجلس الاتحادى لحماية الدستور فى ألمانيا عام ١٩٩٧: (سيصبح الإسلام فى القرن المقبل خطرا داهما) وذلك فى حديث له نشرته مجلة (دير شبيجل) تحت عنوان (تبرير القتل). وعندما طالب المسلمون فى مقاطعة (هيسن) بحذف كل ما يسيء إلى الإسلام فى المقررات الدراسية الألمانية رفض الطلب. وسارت على نفس الطريق قناة التليفزيون الخاص (RTL) يوم ١٨ سبتمبر ١٩٩٤ فأذاعت برنامجا بعنوان (الإرهاب باسم الله) حذرت فيه من المد الأصولى الإسلامى العالمى، كذلك فإن القنوات العامة للتليفزيون الألمانى لا تقل عنفا فى تعاملها مع الإسلام، فقد أصابت إذاعة بافاريا الألمان بالذهول عندما قالت- فى نوفمبر ١٩٩٧- إن حمل السلاح مكون أساسى من هوية المسلم.

وتدعم وسائل الإعلام الغربي الانطباع السائد بأن الإسلام دين عفا عليه الزمن ولا أمل في إصلاحه أو تنوير المسلمين، وسيظل غارقاً في ظلام العصور الوسطى، وتبالغ في إبراز تخلف الإسلام بمقارنته بالنموذج الغربي فيما يخص الجانب الشخصي للإنسان (الوعي الفردي، والمواطنة، والمجتمع المدني، والعقلانية) وينشر الإعلام المفهوم القائل بأن العلاقة بين الإسلام وحقوق الإنسان مثل العلاقة بين النار والماء، وأنه من المحال أن يتقبل الإسلام حرية الرأي. وتنشر بعض الصحف كتابات ساخرة عن الإسلام حتى إن مجلة (دي زيت Die Zeit) نشرت في ٢٦ مايو ١٩٩٥ مقالا جاء فيه: (لم يكن عند محمد ثلاثة، وكان يقضي حاجته أمام النسوة، وكان يسكر بعد تناول كوبين من البيرة، هذا هو كل ما في الإسلام) ويصحب ذكر الإسلام دائما صفات مثل (الاستبداد الشرقي، والوحشية في قطع الأيدي، والتمسك بأخلاقيات بالية مثل العفة قبل الزواج (١) وتحريم العلاقات خارج الزواج (١) والإجهاض، والشذوذ الجنسي (١). وموقف الإسلام البدائي من الفن والعلم (١) ونظام الإسلام الاجتماعي المستبد الأبوي، غير الديمقراطي (١!). وأن القرآن نص من العصور الحجرية (١) والإسلام عودة إلى عصور البربرية والوحشية (١).

ويلحق د. هوفمان على ذلك بأن هذا التحريض ينسف الفرص لإعادة العلاقات الطبيعية بين الغرب والإسلام.

ولكن تلك الصورة القاتمة لا تعني عدم وجود باحثين وإعلاميين في الغرب أنصفوا الإسلام وهؤلاء يمثلون بارقة أمل في نشر الموقف الموضوعي من الإسلام. ويذكر (د. هوفمان) قائمة من هؤلاء المنصفين للإسلام ومنهم: فرانسوا بورجات Francois Burgat الفرنسي، وجون ايوسيتو John Eposito الأمريكي، ودانييل جيماري Daniel Gimaret الفرنسي، وجودرون كرومر Gudrun Krumer الألمانية، وجورج نيلسون Jorg Nielsen البريطاني، ونيل روبنسون Neil Ropinson البريطاني، ورينالد شولتز Reinhold Schulze الألماني، وجيمس بيسكاتوري James Piscatori في مركز اكسفورد للدراسات الإسلامية في بريطانيا، وأرماندو سالفاتور Armando Salvatore الألماني.

وهكذا فإن الإسلام يجد دائما من يقول عنه كلمة حق وسط الضلال.



# المسلمون ساهموا فى الإساءة إلى الإسلام !

فى الغرب يعتبرون اعتناق أى دين أو عقيدة غريبة من الأمور التى تدخل فى نطاق الحرية الشخصية، ومهما تكن العقيدة غريبة - حتى لو كانت عبادة الشيطان - فلا تقابل باستنكار أو عدا، غاية ما يقال عنها: إنها نوع من الجموح، أو نوع من الفلكلور، إلا إذا كان هذا الدين هو الإسلام، فالأمر يختلف وبمجرد أن يعلن إنسان فى الغرب أنه اعتنق الإسلام فإن التسامح يختفى وتحل محله الإدانة..

ويفسر د. ويلفريد هوفمان (مراد هوفمان) ذلك بأنه تعبير عن الأفكار الزائفة عن الإسلام فى الثقافة الغربية. وفى رأيه أن الحروب الصليبية مستمرة على مدى الزمن ولم تنته فى أى عصر من عصور التاريخ، والاختلاف فقط فى وسائل وصور هذه الحروب، وفى وقت كانت الحرب بالجيوش تغزو العالم الإسلامى، وفى وقت آخر كان الباباوات هم الذين يحاربون الإسلام.

واليوم ليس البابا هو الذى يدعو للحملة ضد الإسلام، ولكن مجلس الأمن هو الذى يقوم بهذه المهمة بفرض العقوبات على الدول الإسلامية، أو بقرار بشن الحرب عليها، ويقول: إنك لو بحثت داخل النفس الغربية فسوف تجد تحت الطبقة الحضارية اللامعة الرقيقة عدا للإسلام، وهذا العدا يمكن أن يظهر على السطح فى أى وقت، ولقد انتهت موجة العدا لليهود، ولكن مازال العدا للإسلام حيا، ولا يكاد يمر يوم دون الاعتداء على جامع فى مكان ما فى أوروبا.

وللدكتور هوفمان كتاب مهم بعنوان (الإسلام عام ٢٠٠٠) ترجمه الأستاذ عادل المعلم، يقول فيه: إن اللوم فى ذلك لا يقع على طرف واحد، فقد اشترك العالم الإسلامى فى تكوين صورته السلبية، وأصبح الإسلام مقرونا بالتعصب، والقسوة، وعدم التسامح، والعنف، والاستبداد، والطغيان، وخرق حقوق الإنسان، والتخلف، والتمسك بالتخلف، وليس لدى المسلمين دولة يمكن أن يشيروا إليها ويقولوا هذا هو النموذج الحقيقى للإسلام، ولا يمكن إنكار الحقيقة التى يراها العالم وهى ظهور الإسلام المعاصر على أنه يحارب الحداثة والتقدم الحضارى، وهذا ما يجعل كثيرا

من الكتاب في الغرب يتجاهلون الإنجازات الحضارية الهائلة للمسلمين، وهو ما يجعل جهل المثقف بالإسلام وحضارته لا يعتبر في أمريكا وأوروبا نقصاً في التعليم، وهو أيضاً ما يجعل الغرب يكيل بمكيالين، فإذا هاجم إرهابي من خارج العالم الإسلامي هدفاً لا يقال أبداً إن الفاعل متعصب كاثوليكي أو متعصب اشتراكي. حتى الهجوم بالغاز السام في محطة مترو طوكيو في مارس ١٩٩٥ نسب إلى (راديكاليين)، أما إذا ألقى شخص في بلد إسلامي قنبلة، فإن الإعلام يتحدث عنه على أنه (متعصب مسلم) حتى لو كان الفاعل مسيحياً أو ملحداً..



ويتحدث د. هوفمان عن نفسه كنموذج لما يحدث للمسلم في الغرب، فقد اعتنق الإسلام وأعد كتابه المشهور (الإسلام كبديل) فتعرض لحملة كراهية ضده في وسائل الإعلام الألمانية، مطالبة بسحب كسفير لألمانيا في المغرب، وكانت هذه الحملة قبل أن يصدر الكتاب، وقبل أن يقرأه أي إنسان (!!) ويقول: انهالت على الاتهامات بأنني أدعو لتعدد الزوجات وضربهن، وبأنني أطالب بقطع الأيدي والأرجل، ويبدو أن وسائل الإعلام لديها قرون استشعار انتقائية عندما تلتصق بالإسلام وحده النقائص والاتهامات، فتنسب أفعال صدام حسين للإسلام، فلماذا لا تتحدث عن جرائم هتلر على أنه مسيحي كاثوليكي؟.. ولماذا يتحدثون في الغرب عن الاستبداد السياسي في العالم الإسلامي باعتباره نتيجة للدين الإسلامي ولا يفعلون ذلك عندما يكون الاستبداد في دولة غير إسلامية؟.. ولماذا يتسامحون مع عقائد الهنود والصينيين ولا يتحملون صوت مؤذن يدعو للصلاة في بلد غربي، حتى إن أحد رسامي الكاريكاتير في هولندا اقترح أن يدعو المؤذن المسلمين للصلاة بنداء آخر غير (الله أكبر) يقول فيه (بيم بام - بيم بام) ويقول: لقد تحركت جيوش الغرب عندما احتل العراق الكويت ودمرت العراق، ولم يتحرك أحد في الغرب عندما احتلت إسرائيل الأراضي الفلسطينية والسورية، ولم يوجه أحد النقد إلى إسرائيل عندما قامت بغزو لبنان وحصار العاصمة بيروت واحتلال جنوب لبنان وابتلاع مزارع شبعا!

ويقول: في الغرب يرفضون الحكومات الدينية إذا كانت إسلامية، بينما في دول الغرب نجد الدولة تمارس الشعائر الدينية المسيحية دون إثارة هذا الموضوع، فالدستور الألماني فيه نص عن الإيمان بالله، ويوم الأحد هو الإجازة، وكذلك تمنح التولية الإجازات في الأعياد الدينية المسيحية - ويتوجه المستشار ورئيس ألمانيا بكلمة للشعب في عيد ميلاد المسيح. والديانة المسيحية تدرس في المدارس الحكومية وتدفع الدولة مرتبات لمدرسين الدين المسيحي، ويقسم الجنود الألمان بالله على الولاء للجمهورية. وتجمع الحكومة (ضريبة الكنيسة) للإنفاق على الديانة المسيحية فقط: الكاثوليكية - واللوثريّة - والانجيلية - وتنفق من هذه الضريبة على المؤسسات اليهودية أيضاً. والإساءة إلى الدين المسيحي أو اليهودي جريمة يعاقب عليها قانون العقوبات. ولا ينطبق ذلك على



الإساءة إلى الإسلام (!!) وهذه الممارسات ليست مقصورة على ألمانيا وحدها، ولكنها موجودة بصورة أو بأخرى في أمريكا ودول أوروبا الأخرى. وكل دول الغرب تقبل إرهابيا سابقا مثل مناحم بيجن أو شارون، ولكن لا تقبل أصوليا مسلما مثل عباس مدني في الجزائر، والطوائف الأصولية المتعصبة في المسيحية أو اليهودية لا يطلق عليها في الغرب صفة الأصولية، كما يحدث مع المنظمات الإسلامية. وفي الغرب آلاف المنظمات التي تنطبق عليها صفة الأصولية مثل منظمة (أوبوس داي) الكاثوليكية، ومثل الأسقف الفرنسي الراحل (ليغبفر) أو الإسرائيليين المتعصبين، أو طائفة مائير كاهانا، أو جماعة حراس المعبد في إسرائيل، أو الإرهابيين الكاثوليك أو البروتستانت في أيرلندا الشمالية، أو لاهوت التحرر الكاثوليكي المسلح في أمريكا الجنوبية.. إلخ.. هذه الجماعات الأصولية والإرهابية في أنحاء العالم لا توصف بأنها أصولية أو إرهابية، لأن هذا الوصف محجوز للمسلمين فقط، كما يقول د. هوفمان: وحتى الذين ألقوا زجاجات مولوتوف على جامع إسلامي في ميونخ في ١٨ مارس عام ١٩٩٥ لم يشر إليهم أحد على أنهم أصوليون أو إرهابيون لأنهم لم يكونوا مسلمين!



ولكن الصورة ليست كلها قاتمة، ود. هوفمان يشير إلى أن بعض الناس في الغرب تنبهوا وطلبوا باتخاذ إجراءات لتدارك الأمور منذ أول هجوم على عائلات العمال المسلمين الأتراك الذي قام به شباب النازي الجديد في ألمانيا.. وهناك مبادرات للتوفيق بين الألمان والعمال وبين الطلبة المسلمين، وقد بدأ البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان (الراحل) في توجيه رسالة تحية للمسلمين في نهاية شهر رمضان واحتفال المسلمين بالعيد، وكذلك يفعل الاكليروس الأعلى البروتستانتي، وعندما احتفل المركز الإسلامي بميونخ بمرور ٢٥ عاما على إنشائه حضر الاحتفال أحد كبار الأساقفة البروتستانت وألقى كلمة قال فيها إنه يشعر بين المسلمين كأنه في بيته، لأنه يستطيع التحدث معهم عن الله بدون إحراج.

ومع ذلك فإن الأمر ليس سهلا، والمشكلة مازالت قائمة، وبناء جسور متينة بين الغرب وبين العالم الإسلامي يحتاج إلى جهود كبيرة، ابتداء من المدارس لإزالة ما في المناهج الدراسية من معلومات مشوهة عن الإسلام، وقد قام البروفيسور الإيراني عبد الجواد الفلاتوري من الأكاديمية الإسلامية للعلوم في كولن مع زميله الألماني أودتورشكا بتحليل ما جاء عن الإسلام في مئات الكتب الدراسية الألمانية في التاريخ والجغرافيا وكتب الدين الكاثوليكية والبروتستانتية، وحددا التشويهات الكبرى مع التصحيحات اللازمة، وجاءت نتائج الدراسة في كتابين الأول: (تحليل الكتب الكاثوليكية عن الإسلام) صدر عام ١٩٨٨ والثاني: (الإسلام في التعليم) صدر عام ١٩٩١، وفي الوقت نفسه قام الباحثان بإجراء هذه الدراسة عن الكتب الدراسية في الدانمرك، وفنلندا وهولندا، وإيطاليا، وحددا الإساءات والتشويهات للإسلام الواردة فيها.

ويشير د. هوفمان إلى الدور الذي قام به الفكر الفرنسي المعروف روجيه جارودي واللقاءات التي أجراها بين المسيحيين وبين المسلمين في قرطبة بإسبانيا والتي شاركت فيها شخصيات معروفة مثل البروفيسور هانز كنج، ولكنه يقول: إن هذه الجهود ليست كافية للتوصل إلى حل للمشكلة.



يصل د. هوفمان إلى أن إقامة جسور متينة للتفاهم بين الغرب والعالم الإسلامي يستلزم قيام المسلمين بالجهد الرئيسي للمساعدة في نزع فتيل الموقف المتفجر. وإذا نجح المسلمون في تجديد دينهم بما يناسب العصر - دون تنازل عن أساسيات الإسلام الصحيحة - فإن ذلك سيهيئ الفرص ليصبح الإسلام ديانة العالم الأولى في القرن الحادي والعشرين. وفي الحديث «إن الله يبعث على رأس كل قرن من يجدد للناس دينهم».

والإصلاحات التي يقترحها د. هوفمان تشمل المجالات الآتية: التعليم - التكنولوجيا - فك القيود عن المرأة - حقوق الإنسان - تنقية الفكر الإسلامي من الخرافات والسحر - والتمييز بين الإسلام كدين والإسلام كحضارة، وفرز السنة الصحيحة، وفتح باب الاجتهاد في الفقه للتعامل مع القضايا الجديدة التي لم تكن موجودة في القرون الماضية.. ويقول: إن الأمية في كثير من البلاد الإسلامية تزيد على ٥٠٪ وهذه فضيحة لأمة يتصدر كتابها الأمر الإلهي: (اقرأ)، وليست هذه فضيحة فقط.. بل هي ضد تعاليم الإسلام. والشعوب الإسلامية لا تعاني من الأمية الأبجدية فقط، ولكنها تعاني أيضا من الأمية الدينية، ومع ضرورة تغيير نظام التعليم للتخلص من أسلوب الحفظ والاعتماد على المدرس إلى الأسلوب الحديث في التعليم القائم على اعتماد الطالب على نفسه، وعلى غرس روح التساؤل والشك وطلب المعرفة وهذا هو أساس العلوم والتقدم.

د. هوفمان يرى أن خطباء المساجد في حاجة إلى تجديد الخطاب الديني ويقول: إنهم يخاطبون عواطف وانفعالات المسلمين أكثر مما يخاطبون عقولهم.. يجب على خطباء المساجد أن يتوقفوا عن الصريخ في المصلين والحديث إليهم كما لو كانوا أطفالا. وعلماء النفس أثبتوا أنه كلما كانت نبذة المتحدث عالية وصوته مرتفعا تفقد الرسالة مصداقيتها عند السامعين، ومادام القرآن يخاطب الناس الذين يعلمون، والذين يعقلون، والذين يتفكرون، والذين يتدبرون، أفلا يجدر بالعلماء أن يتبعوا هذا المنهج؟

ويقول د. هوفمان: أيام الدولة الأموية والعباسية والأندلسية كان علماء الدين علماء في الطب والرياضيات والكيمياء وعلم النبات والفلك، واليوم نرى تراجع العلوم الطبيعية في العالم الإسلامي ونرى السلوك الذي يتعارض مع الإسلام الذي يأمر المسلم إذا عمل عملا أن يتقنه، فلا تجد (الإتقان) في بلاد المسلمين.. بل إنك تعرف أنك في بلد مسلم عندما تجد دورة المياه معطلة! وتجد عند بعض المسلمين حساسية ضد التكنولوجيا، بينما كانت الحضارة الإسلامية في الأندلس قائمة على

تكنولوجيا مزدهرة. ونجد عند بعض المسلمين حساسية ضد الثقافة والعلوم الغربية مع أنه لا غنى للعالم الإسلامي عن التفاعل مع ثقافة وعلوم وتكنولوجيا الغرب دون خوف من أضرار الثقافة الغربية، لأن عقيدة الإسلام كفيلة بحماية المسلمين منها.

ويقول د. هوفمان: لا بد أن يخجل العالم الإسلامي من قلة العلماء المؤهلين لإقامة حوار مع الغرب. ويعترض على الاتجاه إلى (أسلمة العلوم) ويقول: إن ذلك حدث في ألمانيا النازية حين حاول أصحاب الأيديولوجيات الدينية التمييز بين علم الرياضة اليهودي وعلم الرياضة الآري، وهذا سخف، لأن العلم محايد وليس هناك حل سوى إيجاد علماء مسلمين.

ويؤكد على أن ما يضر صورة الإسلام في الغرب أن تكون النساء في العالم الإسلامي مواطنات من الدرجة الثانية، ويتعرضن للقمع، وهذه الصورة ليست بعيدة عن الواقع لأن النساء في بعض البلاد الإسلامية يعشن كما كان حالهن في الجاهلية قبل الإسلام. والغرب لا يفهم لماذا تكون المرأة في وضع أقل من الرجل في الحقوق؟ ولماذا تمارس عادة ختان البنات وليس هناك نص في القرآن أو السنة على ذلك؟ ولماذا لا تكون المرأة مساوية للرجل؟.. ولماذا يفهم المسلمون أن قول القرآن ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء ٣٤) على أنها تعنى أن للرجل السيادة على المرأة، بينما المقصود أن الرجل مسئول عن الإنفاق على زوجته وهي ليست مسئولة عن الإنفاق عليه، وأنه مسئول عن حمايتها إذا احتاجت للحماية وطلبتها. ولماذا لا يتحدث المسلمون عن حقوق الإنسان وكأنهم لا يرون أنها من مبادئ الإسلام؟.. ولماذا لا يحاول المسلمون التوصل إلى شكل الدولة الإسلامية الذي يتناسب مع القرن الحادى والعشرين؟.. ولماذا لا يتفهم المسلمون الحكمة الإلهية من قلة الأوامر فى القرآن التى تتعلق بالحكومة، وذلك لإنقاذ الأمة الإسلامية من التجرد القانونى والاجتماعى إذا ظلت فى قالب واحد مع اختلاف العصور، وهذا ما يجعل الإسلام صالحا لكل زمان ومكان، فالإسلام لا يتعارض مع مبادئ فصل السلطات، والديمقراطية البرلمانية والانتخابات العامة، ونظام الأحزاب.. والإسلام لا يمكن أن يتوقف أو يتجمد عند ابن تيمية ويعجز عن مواصلة الاجتهاد، والتعددية فى الفكر والاجتهاد، ومن الأقوال الحكيمة فى التراث الفقهى (اختلاف العلماء رحمة بالأمة)، فالإسلام يقبل الاختلاف فلماذا تكون مناقشة الديمقراطية بطريقة جدية مخاطرة فى كثير من البلاد الإسلامية؟.. ولماذا يعجز المسلمون عن تنقية العقيدة من الخرافات والأساطير وتقديس الأولياء وممارسة طقوس وثنية أمام قبورهم؟.



ويناقش د. هوفمان القول بوحدة العالم الإسلامى فيقول: إنه من الصعب القول بتطابق كل المسلمين فى أنحاء العالم، فهذا أمر لم يحدث أبدا، ولا يمكن حدوثه فالمسلمون ليسوا فقط من العرب.. بل

منهم الفرس، والبربر، والأفغان، والأترار، ومن الملايو، وإندونيسيا، وجنوب تايلاند، وجنوب الفلبين، وفي أقصى الشمال الغربي، قوط الأندلس، وأحفادهم من الأسبان. فالمسلمون من أعراق وحضارات وثقافات متعددة، ولو نظرت إلى غطاء الرأس الذى يضعه المسلم لرأيت مدى الاختلاف فى العادات والثقافات. فقد أخصيت فى مؤتمر إسلامى بالقاهرة ٤٢ نوعا من غطاء الرأس. ويدخل الإسلام آلاف الأوروبيين والأمريكيين، من البيض والملونين، يعتقدون الإسلام، ولكنهم يبقون فرنسيين وبريطانيين، وسويسريين، وأسباناً، وألماناً، وكنديين، وكل منهم يتكلم لغته الأصلية، ويمارس أسلوب الحياة الذى يتناسب مع مجتمعه، وينظر للعالم بطريقة مختلفة وكل منهم اجتاز نظاماً تعليمياً مختلفاً أيضاً، وكل هؤلاء مسلمون ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى، كما قرر الإسلام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ١٣) ومع ذلك عندما يذهب هؤلاء إلى الحج يدعشهم أن يجدوا أن العرب المسلمين يعتبرون أنفسهم أفضل منهم، ويرون أن العرب فى ذلك يشبهون قبائل اليهود عندما اعتبروا أنفسهم شعب الله المختار، والإسلام لا يشجع القبلية.



ويبدى د. هوفمان ملحوظة تثير المسلمين الأوروبيين، وهى أن بعض المسلمين يظن أن الاقتداء بالرسول (صلى الله عليه وسلم) يفرض على المسلمين الأوروبيين أن يرتدوا الملابس العربية، ويأكلوا وينظفوا أسنانهم كما كان يفعل، ويجهلون أن عادات الملابس والطعام وغيرها لم تكن عادات الرسول وحده، ولكنها كانت تمثل حضارة قريش فى القرن السابع الميلادى، وكان أبناء قريش- المسلمون والكفار منهم- يلبسون نفس الملابس ويأكلون نفس الطعام. والإصرار على السلوك فى القرن الحادى والعشرين بأسلوب القرن السابع ضار بالدعوة الإسلامية ولا بد من مراعاة العادات الشخصية والاجتماعية لكل بلد وكل عصر. ومن الأفضل أن يقال: إن أسور الحياة الدنيا متروكة للناس أما أمور العقيدة الحاكمة للمعاملات والعبادات فهى التى يجب أن يتلزموا بها كما جاءت فى الكتاب والسنة الصحيحة.

يقول د. هوفمان: أرجو ألا يشعر أحد بالإهانة عندما أقول: إن العالم الإسلامى غير قادر على أن يقدم نفسه للغرب بطريقة جذابة، وإن المسلمين يرسخون فى الذهن الغربى ما تقدمه الدعايات المضادة للإسلام فى الغرب التى تصور شيوخ المسلمين غارقين وسط الحريم ويعانون من الهوس الجنسى، ويعيشون كسالى ينتظرون أن يفعل لهم الله كل ما يريدون، وغنى عن البيان أن العالم الإسلامى كله عاجز فى مجال الإعلام، والعلاقات العامة وغير قادر على إقناع العالم بما فى الإسلام من مبادئ إنسانية عظيمة، وبعض الدول العربية تشحن إلى دول الغرب آلاف الأطنان من المطبوعات عن الإسلام معظمها- مع الأسف- غير مقنع ولا يناسب العقلية الغربية.



ولا يجد د. هوفمان حرجا فى الحديث عن (أخطاء المسلمين)، لأنه كمسلم يرى أن من واجبه تنبيه المسلمين إلى أنهم يجب أن يقوموا بجهود أكبر لجعل الإسلام أكثر جاذبية وأكثر حيوية فى الغرب، ويطالب المسلمين بأن يتوقفوا عن الخلط بين الدين والحضارة الإسلامية، والخلط بين المقاصد الرئيسية والمقاصد الثانوية فى الإسلام، والخلط بين العادات والعبادات والخلط بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث غير الصحيحة، والخلط بين الشريعة والفقه، فهل يأمر الإسلام المرأة بأن تغطى كل وجهها ما عدا عينا واحدة كما فى جنوب الجزائر مما يجعلها عرضة لحوادث السيارات؟.. وهل يأمر الإسلام المرأة بأن تغطى فمها وأنفها بغطاء من الجلد كما يحدث فى اليمن؟.. وهل مثل هذه الممارسات تكتسب نوعا من الشرعية بالممارسة لفترات طويلة وتصبح جزءا من العقيدة؟.

ويقدم د. هوفمان نماذج من الأسئلة التى يطرحها المسلمون على الأئمة وتصيبه بالذهول منها:

- هل يلزم المسلم إعادة الوضوء إذا لامس إنسانا غير مسلم؟.
- هل الاستماع إلى الموسيقى حرام شرعا؟.
- هل تلوين الشعر ينقض الوضوء؟.
- هل وضع غطاء من الذهب على الأسنان حرام؟.
- هل يجوز للمسلم شرب بيرة خالية من الكحول؟.
- هل استخدام اليد اليسرى حرام؟.
- هل يجوز إعطاء القرآن لغير المسلم؟.
- هل الاحتفال بأعياد الميلاد حرام شرعا؟.
- هل تنظيف الأسنان بالفرشاة والمعجون وليس بالسواك حلال أو حرام؟.
- هل يجوز للمسلم حلق الشارب؟.

ويعلق على ذلك بأن انشغال المسلمين بمثل هذه الأمور يجعلهم أمام الغرب يبدون وكأنهم يعيشون فى عصر غير العصر الذى يعيش فيه العالم. كذلك فإن عدم التفرقة بين الأوامر الإلهية الصريحة والاجتهادات البشرية فى أقوال الفقهاء والمفسرين والاعتماد على أحاديث غير مؤكدة يجعل صورة الإسلام فى الغرب مشوهة.

ويعلق على ما يردده خطباء المساجد من حديث، كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار فيقول: إن هؤلاء الخطباء لا يفرقون بين البدعة الحسنة والبدعة السيئة مع أن الحديث صريح (من سنَّ فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها).

ويحذر د. هوفمان من أن الإسلام ليس ملكا للمسلمين في البلاد الإسلامية فقط، ولكنه ملك للمسلمين من كل الجنسيات وكل البلاد، وهناك مسلمون غربيون يعيشون في حضارة مختلفة، ويفهمون الإسلام بعقلية متطورة، ويدرسون الإسلام بمناهج علمية حديثة، ويفكرون بما يناسب القرن الحادي والعشرين، وهؤلاء يراجعون كتب التراث الإسلامي وفقا لمنهج النقد العلمي ولا يسلمون بكل ما فيها، وإذا لم يطور المسلمون في العالم الإسلامي مناهجهم وأساليب البحث لديهم، وإذا لم يسايروا العصر، فقد تنتقل خصوبة الفكر اللازمة لتجديد الفكر الإسلامي إلى مراكز في الغرب مثل أكسفورد، وليستر، وكولن، وباريس، بدلا من المراكز التقليدية القديمة في البلاد الإسلامية. وليس مستبعدا أن يقود حركة الإحياء والتجديد في الإسلام مفكرون مؤهلون من خارج العالم الإسلامي تتوفر فيهم الكفاءة والأمانة والغيرة على الإسلام ويكون ذلك تحقيقا للنبوءة القائلة (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا).



وإذا كان في الغرب من عمد إلى تشويه الإسلام فقد تقاعس المسلمون عن تقديم الصورة الصحيحة للإسلام والدفاع عنه في مواجهة تيارات العداء، ومع استمرار التشويه واستمرار التقاعس ترسخت الصورة المشوهة عن الإسلام في الغرب وكانت النتيجة ظهور موجات من العداء والعدوان على الإسلام والمسلمين من الحكومات ومن جماعات وأفراد في الغرب.

يقول د. هوفمان إن العالم المسيحي لم يستطع أن يفهم الإسلام في سياق التاريخ الديني وما يمثله الإسلام في هذا التاريخ، ولم يدرك أن هناك نقاط التقاء كثيرة بين الإسلام والمسيحية، وبدلا من تفهم هذه الحقيقة أخذ الغرب ينشر أسطورة - وأكذوبة - توسع الإسلام بالسيف، وأن أولئك المسلمين المتوحشين هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، على رغم أن هذا الاتهام ثبت علميا عدم صحته، ولكنه - مع ذلك - مازال يتردد، وكل هذه الاتهامات للإسلام ليؤكد الغربيون شعورهم بالتمييز، وهو تعبير عن الخوف من الإسلام، وهذا ما يفسر - مثلا - عنوان أول ترجمة للقرآن إلى اللغة الألمانية كانت بعنوان: (قرآن الأتراك: دين وخرافات) وكانت هذه الترجمة عام ١٦١٦ وكان المترجم هو (سالون شويجر Salmon Schweigger) وكذلك كانت الترجمة الثانية بعنوان (كتاب الأحكام التركي الكامل أو قرآن محمد) وكان ذلك عام ١٦٨٨ وكان المترجم هو (جون لانج Johan Langa) كذلك كانت ترجمة القرآن التي استعان بها الشاعر الألماني جوته في أعماله الشعرية بعنوان: (كتاب الأتراك المقدس) عام ١٧٧٢ للمترجم (ديفيد فردريك ميجرلين David Friedrich Megerlin) وفي هذا الزمان يعيش الأتراك في ألمانيا ومع ذلك مازال الخوف منهم قائما مما أدى إلى أن يفرض الأتراك على أنفسهم العزلة، وفشلت محاولات دمجهم في المجتمعات الأوروبية، وهذا أيضا هو السبب في رفض الاتحاد الأوروبي ضم تركيا إلى عضويته.

ومازال الجهل بالإسلام قائما في الغرب إلى اليوم، وما زالت المعلومات المغلوطة عن الإسلام منتشرة، وما زالت آثار الحملة على الإسلام التي صاحبت الحروب الصليبية في النفوس، فقد كان يقال للفرسان الصليبيين عند ترجمة عقيدة المسلمين (لا إله إلا الله) بأن ترجمتها (لا إله إلا محمد) وكانوا يصورون الرسول (صلى الله عليه وسلم) للفرسان على أنه ساحر، وأنه كاردينال مسيحي فاشل حاق على المسيحية لأنه لم يتم اختياره لكرسي البابوية. ولذلك لم يتعامل الفرسان الصليبيون مع الإسلام على أنه دين آخر، بل على أنه خروج على المسيحية، ويجب محاربته بقوة، وكانت هذه العقيدة هي السبب في الفظائع التي ارتكبتها الصليبيون، وفي الاتهامات البذيئة التي تلتصق بالإسلام وبالنبي (صلى الله عليه وسلم).

وقد عبرت الدكتورة آنا ماري شيمل عن ذلك فقالت: (أثار محمد- صلى الله عليه وسلم- في العالم المسيحي الذعر والكره، بل والاحتقار لشخصه، أكثر من غيره من الشخصيات التاريخية، ولذلك زعم دانتى أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) في الجحيم، ولعنسه؛ وكان ذلك تعبيرا عن شعور عدد لا يحصى من المسيحيين في العصور الوسطى) وفي يومنا هذا فإن الكنيسة الكاثوليكية اعترفت بالإسلام ولكنها تخجل- أو تخشى- أن تعترف بمحمد (صلى الله عليه وسلم)، وهذا يثير العجب، إذ اعتبر العالم الأمريكي مايكل هارت محمدا (صلى الله عليه وسلم) على رأس مائة شخصية أثرت في تاريخ البشرية.



كل ذلك من آثار الحروب الصليبية. وتفسيره من الجانب الغربي مفهوم، ولكن كيف سكنت المسلمون ولم يبذلوا ما يجب أن يبذلوه لتوضيح حقيقة دينهم، وكشف الأكاذيب الراجحة عنه، وتصحيح الأخطاء المقصودة وغير المقصودة في الترجمة والتفسير؟ إن هذا التقصير من جانب المسلمين لا يمكن تبريره أو الدفاع عنه، لأن العالم الإسلامي فيه حشود من المثقفين والعلماء القادرين على مخاطبة الغرب باللغة التي يفهمها.

ويرى د. هوفمان أن حرب البوسنة ومعارك الإبادة لمسلمي كوسوفا كانت حروبا دينية من وجهة نظر الصرب واليونان. هي حروب صليبية متأخرة للقضاء على آخر الآثار الإسلامية في البلقان، ويشير إلى أن بناء مساجد في البلدين محظور. فكأن الحرب الصليبية لم تنته حتى يومنا هذا، حتى وإن لم يظهر الفرسان الصليبيون اليوم بدروعهم الحربية ولكنهم يظهرون في ملابس رجال الأعمال كما يقول د. هوفمان. وقد استمر الغرب يستبجح انتقاد الإسلام حتى في سياق غير ديني. وقد كان (كارل ماي Karl May) يهاجم الإسلام في كتبه بتكليف من الكنيسة، وكان لهذه الكتب تأثير كبير في صياغة عقلية الألمان عن الشرق والإسلام. وفي هذه الكتب قال كارل ماي: إن المسلمين



يعتقدون أن المرأة ليست لها روح، وأن الأخيار في العالم هم المسيحيون، والقلّة القليلة من الأخيار من المسلمين التي تتحول في النهاية إلى اعتناق المسيحية. وما زالت هذه النزعة قائمة في الفكر الغربي إلى اليوم في فكرة حتمية هزيمة الإسلام عند فرانيس فوكوياما، واستراتيجية استبعاد الإسلام عند صمويل هنتنجتون.

كل هذا حدث ويحدث على مر العصور والمسلمون لا يتحركون للدفاع عن دينهم وكشف المغالطات التاريخية المستقرة في أذهان الغربيين، حتى عندما تحدث عن الإسلام بيتر ستيناك رئيس الكنيسة الإنجيلية بمقاطعة هيسن الألمانية في حديث تليفزيوني عام ١٩٩٦ وقال: إن الإله الذي يعبدّه المسلمون غير الإله الذي يعبدّه المسيحيون. ومؤدى هذا الكلام أن الله الواحد هو الذي يعبدّه المسيحيون، أما ما يعبدّه المسلمون فهو شيء آخر. ويبدى د. هوفمان دهشة من مقال نشر في إحدى المجلات الألمانية عام ١٩٩٨ يتساءل فيه كاتبه (هل انتقل الخطر الآن من موسكو إلى مكة؟).

القضية كما يعرضها د. هوفمان لا يمكن السكوت عليها، أو تجاهلها. فقد استمرت علاقة الإسلام بالغرب أكثر من ١٣٠٠ سنة منها كثير من سنوات الغضب والحروب، وكان الغرب ينظر إلى الإسلام على أنه خطر، وبعد ٢٥٠ عاما بدأ ينظر إليه على أنه مشكلة، ثم عاد مرة أخرى في منتصف القرن العشرين ليراه خطرا وينشر المعلومات المغلوطة عنه بتأثير الذاكرة المحملة بذكرات الحروب والكرهية، وهذا ما يفسر زيادة المنشورات في ألمانيا التي تحذر من خطر (أسلمة ألمانيا)، وكذلك يفسر إشعال الحرائق في مراكز إسلامية، وإرسال تهديدات إلى الشخصيات الإسلامية النشطة في ألمانيا وغيرها من دول الغرب، ويفسر أيضا السموم التي ينشرها الإعلام في الغرب وترسخ الخوف والكرهية للإسلام.



لن يفيد المسلمين أن يلقوا باللوم على الغرب وحده، ولكن يجب أن يدركوا أنهم ساهموا في تكوين هذه الصورة السلبية عن الإسلام بالسكوت والاستسلام والتجاهل مما أعطى الفرصة لاستمرار الهجوم والتشويه. وعلى رغم كثرة المؤسسات الإسلامية، وكثرة الأموال التي ينفقها المسلمون في الدعوة، فإنهم لا يوجهون جهودهم في الاتجاه الصحيح، فهم يبالغون في بناء المساجد في الغرب وهذا لا يكفي. فليس هناك جهد علمي وثقافي دائم، وليست هناك حوارات مستمرة مع المفكرين والمؤسسات والجامعات الغربية. ولكن هناك لقاءات متقطعة لا تترك أثرا يكفي لمحو آثار ١٣٠٠ سنة من الكراهية. كذلك فإن سلوك معظم المسلمين في الغرب لا يساعد على تحسين صورة الإسلام في عيون الغربيين العاديين، وهم يحكمون على الإسلام من سلوك المسلمين الذين يعيشون في الغرب منزولين ويرفضون الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها، فيؤكدون بذلك أنهم جسم



غريب غير قابل للتفاعل مع الآخر، وبعضهم يبدو غريبا في مظهره وسلوكه وكأنه قادم من العصور الوسطى رافضاً للحضارة الحديثة.

وكل ذلك يحتاج إلى جهد كبير من المسلمين، والبداية الاعتراف بمسئوليتهم وعدم إلقاء اللوم كله على غيرهم.



والخطأ الأكبر الذي يرتكبه المسلمون أنهم لا يدركون أهمية المبادرات التي تأتي من الغرب للمصالحة والتقارب، ولا يلتفتون للإشارات الداعية إلى الحوار والتفاهم، ولا يستجيبون لها كما يجب ويسارعون بالبناء عليها بعمل حقيقي ويومي.

وعلى سبيل المثال فقد بدأ الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا بتقديم مبادرة في منتهى الأهمية عندما زار مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية في ٢٧ أكتوبر ١٩٩٣ وألقى خطاباً اختار كلماته بعناية قال فيه: نظراً لزيادة سوء الفهم بين العالم الغربي والعالم الإسلامي بدرجة خطيرة، فإن الحاجة للتعايش والعمل معاً لم تكن ماسة بقدر ما هي عليه اليوم. إن عدد المسلمين في العالم يزيد على بليون، وفي السنين الماضية أخذ المجتمع الإسلامي في بريطانيا يتزايد. إن الذي يربط بين العالمين أقوى بكثير مما يفرق بينهما. إن المسلمين واليهود والمسيحيين جميعاً من أهل الكتاب، يشاركون جميعاً في الاعتقاد بإله واحد كما يشاركون في كثير من القيم الروحية، وإن جذور المشكلة تكمن في الصراع الذي نشأ عبر فترات طويلة من التاريخ، فتلاميذ المدارس في الغرب يعتبرون الصليبيين أبطالاً بينما يعتبرهم المسلمون غاية في القسوة، والكثيرون في الغرب يرون الإسلام على أنه حرب أهلية دامية في الشرق الأوسط وأصولية إسلامية، وأحكامنا شابها التشوه لاعتبار التطرف هو القاعدة. ويظن الكثيرون أن أحكام الشريعة الإسلامية غير عادلة. ولكن علينا أن ندرس تطبيقها قبل أن نصدر حكماً عليها. هناك عدد من الدول الإسلامية أعطت حق التصويت للمرأة في نفس الوقت مع أوروبا، كما أن النساء المسلمات لا يعتبرن مواطنات من الدرجة الثانية.

وقال الأمير تشارلز أيضاً: إننا في الغرب بحاجة إلى تفهم وجهات نظر العالم الإسلامي ورأيه فينا، فالكثير من المسلمين ينظرون إلى الغرب بعين الخوف، ويرون فيه تهديداً للثقافة الإسلامية ولأسلوب حياتهم، وينبغي أن نتفهم رد الفعل هذا. كذلك فإن موقف الغرب تجاه بعض مظاهر الحياة الإسلامية بحاجة إلى أن يكون مفهوماً من العالم الإسلامي، كما ينبغي أن نكون حذرين من التعريف الانفعالي لكلمة (الأصولية) ونميز بين من لديهم النزعة لإحياء فكر السلف وبين المتطرفين، إذ إن التطرف ليس حكراً خاصاً بالإسلام دون غيره من الديانات الأخرى.

وقال أيضاً: إننا نرى في الإسلام عدوا للغرب ونتجاهل عظمة الصلة بينه وبين تاريخنا، فكثير من السمات التي تفخر بها أوروبا الحديثة جاءت إلينا من الأندلس. إن الإسلام جزء من ماضيها وحاضرتها. والحضارة الغربية تزداد شدة في الحرص على الكسب والاستغلال والتهاون تجاه البيئة، وإنني أناشد الجميع من أجل تفهم أوسع وأعمق وأكثر حرصاً على عالمنا. والعالم الإسلامي والعالم الغربي يواجهان مشكلات مشتركة. وينبغي أن نظهر الثقة والاحترام المتبادل والتسامح إذا أردنا أن نجد أسساً مشتركة وأن نعمل معاً لإيجاد الحلول المناسبة.

وقال أيضاً: إن العلاقات بين العالم الإسلامي والعالم الغربي الآن في مفترق طرق، ولا ينبغي أن ندعهما يقفان منفصلين، فإن لدى كل منهما الكثير الذي يمكن أن يعطيه للآخر. لكن ذلك يتطلب جهداً شاقاً لكي يفهم كل منا الآخر ونتمكن من إبعاد شبح الخوف والتشكك.

هذه الكلمات لها أهمية خاصة. فهي تصدر من ولي عهد بريطانيا، وتعتبر عن تفهم للفرق بين الإسلام وسلوك بعض المتطرفين من المسلمين، وسوء فهم كثير من المسلمين والغربيين للآخر، وليس من مصلحة الغرب ولا من مصلحة العالم الإسلامي أن يكون هناك عداً أو صراع بينهما.

ماذا فعل المسلمون بعد هذه المبادرة؟

كان على العالم الإسلامي أن يلتقط هذه الفرصة ويسرع بالتقدم لبناء جسور للحوار والتفاهم. ليس بمجرد إقامة ندوة هنا أو هناك، أو مؤتمر يعقد وينفض، أو بحديث في التلفزيون، أو مقال في صحيفة، ولكن بإقامة مؤسسة تضم صفوة من المفكرين المسلمين المؤهلين لمخاطبة الغرب، ليقوموا جسوراً دائمة مع المؤسسات الدينية والجامعات والمفكرين والشخصيات المؤثرة في مجتمعاتهم. ولم يتحقق ذلك حتى الآن.. وكل ما يفعله المسلمون هو تكرار الشكوى من الظلم وسوء الفهم للإسلام في الغرب ومطالبة الآخرين بأن يعملوا ما كان يجب على المسلمين أنفسهم أن يعملوه.

وإذا كان لابد من نموذج لما يجب عمله، فهو ما قامت به المنظمات اليهودية وما تقوم به من نشاط لا يتوقف للاتصال والحوار واستخدام الإعلام والتغلغل في مراكز البحوث والتعامل مع المفكرين وقادة الرأي، وبذلك نجحت في تغيير صورة اليهودى التي كانت سائدة في الغرب، وتوصلت إلى إقناع الغربيين على مختلف المستويات بالتعاطف معهم وتبنى مواقفهم، بالرغم من أنها مواقف ظالمة وعدوانية. لكن الوجود اليهودى الدائم، واليقظة والمتابعة الدقيقة لكل ما ينشر وما يقال والرد عليه، واستخدام جميع وسائل الاتصال والتأثير، وتجميع جهود اليهود في هذا الاتجاه.. هذا هو النموذج لما يمكن عمله في الغرب ويأتى بنتائج إيجابية بدلا من الوقوف عند حد الشكوى واجترار المرارة لما حاق بالإسلام والمسلمين من ظلم وعدوان.



لقد جعل اليهود من (معاداة السامية) قضية كبرى. تجاوزت حدودها التاريخية فى الاضطهاد الذى تعرضوا له على أيدى النازية وفى بعض دول أوروبا، وجعلوها سلاحاً لإرهاب كل من ينطق بكلمة تمس اليهود أو الصهيونية أو إسرائيل، ولم يستطع المسلمون أن يجعلوا (معاداة الإسلام) إلا حتى (معاداة العرب) والتمييز ضدّهما قضية أو معركة فى الغرب، ولم يحسنوا استخدام مبادئ الغرب ذاته فى هذه القضية مثل حقوق الإنسان، وحرية العقيدة ورفض التمييز بسبب الجنس أو العقيدة.. الخ.

هذا القصور من جانب العالم الإسلامى هو الذى يجب أن نركز عليه، ونعمل على دعوة الحكومات والمؤسسات الإسلامية، وعلى رأسها الأزهر. للتحرك والعمل بفاعلية أكبر وبسياسة النفس الطويل.

حقيقة إن بعض الدول الإسلامية تقوم فعلاً بجهد فى هذا الاتجاه، وتخصص أموالاً للدعوة وبناء المساجد والمراكز الإسلامية وإرسال الدعاة، ولكن المشكلة أن كل دولة من هذه الدول تعمل وحدها، ولا تعمل فى إطار موحد لتحقيق الاستفادة القصوى بهذه الأموال والجهود. وعندما ترسل الدعاة فإنها ترسل من لا يجيدون لغة البلاد التى يوفدون إليها، ولا يعرفون عادات أهلها، وبالتالي فإن عائد جهدهم لا يكاد يذكر. وليس فى العالم الإسلامى كله معاهد لإعداد الدعاة المؤهلين للتعامل مع المجتمعات الغربية، الذين يجيدون الحوار باللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية، والذين هم على إلمام بتاريخ أوروبا وحضارتها، وبتاريخ العلاقات بين العالم الإسلامى والعالم الغربى، ولديهم معرفة دقيقة عن القوى السياسية والاجتماعية فى البلد الذى يذهبون إليه. وقد يكون من الأفضل أن تنشأ معاهد إعداد الدعاة فى أمريكا ودول أوروبا. ويلتحق بها أبناء المسلمين المقيمين فى هذه الدول من الجيل الثانى والثالث، فهم يجيدون اللغة، وهم على إلمام بأساليب الحياة، ويستطيعون التفاهم بسهولة مع أبناء هذه البلاد. والدليل على جدوى الاستفادة بهؤلاء ما نراه فى هذه الأيام من ظهور بعض المفكرين والكتاب المسلمين من أبناء المهاجرين فى أوروبا وأمريكا، الذين يحملون جنسية هذه البلاد. وبالتالي ليس لديهم مخاوف أو حساسيات تمنعهم من العمل بقوة كما يحدث مع الوافدين الغرباء. وهؤلاء المواطنون الغربيون أكثر إقناعاً وتأثيراً من الدعاة الغرباء الوافدين لأنهم أبناء الحضارة الغربية واكتسبوا القدرة على تفهم العقلية الغربية.

إن تشويه صورة الإسلام والمسلمين فى الغرب أمر واقع. وحقيقة لا ينكرها الغربيون. والمسئولية عن تصحيح هذه الصورة لا تقع على عاتق الغربيين وحدهم، ولكن يجب أن يتحمل المسلمون مسئوليتهم ويقوموا بواجبهم، وأن يكون ذلك بما يتفق مع طبيعة المجتمعات الغربية، وليس بما يتفق مع طبيعة وعقلية المجتمعات الإسلامية.

وكل ذلك لا يعنى أن في العالم الإسلامى سلبيات لابد من معالجتها، لأن المسألة ليست صورة مشوهة، ويكفى تصحيح الصورة دون تصحيح الأصل.. فلن نجدى أن يردد المسلمون أن الإسلام يؤمن بالتسامح، وبالكرامة الإنسانية، وبالحرريات الدينية والفكرية، وبالديمقراطية، وبحقوق المرأة كإنسان كامل الأهلية.. دون أن يكون ذلك متحققا بالفعل فى العالم الإسلامى.

أى إن إصلاح الحياة السياسية والاجتماعية وبعث النهضة العلمية، وتقدير نموذج لمجتمع وإنسان مسلم يجسد مبادئ الإسلام هو أقصر الطرق لإقناع الغرب بأن المسلمين يستحقون التعامل معهم باحترام. ولدينا اليابان نموذجا، فاليابان لا تنتمى إلى دين من الأديان السماوية، ولكنها دولة متقدمة على ذات المستوى الذى وصلت إليه الحضارة الغربية، وتتعامل باللغة التى يفهمها العالم فى القرن الحادى والعشرين، دون أن تتنازل عن القيم والتراث الثقافى والاجتماعى الذى يمثل خصوصية شعبها، ولكن تقدمها، وحضارتها، وديمقراطيتها، فرضت على الغرب أن يتعامل معها باحترام على رغم الخلافات السياسية والثقافية والاجتماعية.

وهذا يعنى أن العالم يتقبل الاختلاف والتعددية الثقافية ولا يتقبل الجمود والتخلف ومعاداة الحضارة والتطور.

وهذا بالضبط ما كان ينادى به الأفغانى، ومحمد عبده، ودعاة الإصلاح فى العالم الإسلامى. لكن العالم الإسلامى لم يستجب للنداء فاستحق ما جرى عليه. والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

## الغرب هو الجاني دائماً.. والإسلام هو المجنى عليه !

فى يوم ١٤ أبريل ٢٠٠٥ أعدت لجنة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة فى دورتها المنعقدة فى جنيف قرارا يكلف الأمم المتحدة بمراقبة إهانة الأديان، وإهانة الإسلام بصفة خاصة، ودراسة أوضاع المسلمين والشعوب العربية فى أنحاء العالم لرصد التمييز الذى يتعرضون له، ورصد عمليات الهجوم وتخريب المساجد والممتلكات الإسلامية.

وفى نفس اليوم نشرت الصحف ملخصا لكتاب صدر فى كوبنهاجن عن حياة الملكة مارجريت ملكة الدانمارك، وهو تسجيل لمقابلات مع الملكة سجلتها الكاتبة الصحفية أنيليسا بيستروب، قالت فيه الملكة: إننا لم نكن ننظر إلى الإسلام بجدية. بل كنا كسالى، وغير معنيين بالأمر، ولا نريد أن نقيم علاقة مع المسلمين.. وكنا لسنوات طويلة نواجه الإسلام محليا وعالميا ونعتبره التحدى الذى يهدد وجودنا، والآن يجب أن نعيد النظر بجدية فى هذا الموقف..

وقالت ملكة الدانمرك أيضاً: إننى منبهرة من هؤلاء الناس المتدينين الذين يرافقهم الدين فى حياتهم من الصباح إلى المساء، ومن وقت ولادتهم إلى موتهم، وهذا ينطبق أيضاً على المسيحيين المتدينين.

وقالت: لوقت طويل تم شحننا ضد هؤلاء المسلمين لأننا كسالى وغير مهتمين بالموضوع، ولم نعرف عن الإسلام كثيراً ولم نقرأ الكتب الإسلامية، وأعتقد أننا يجب ألا نظل كذلك، وأن نفتح الحوار مع المسلمين، ونقيم معهم علاقة، ونتصدى للمتشددين، ونتعرف إلى الإسلام بشكل أفضل، ولا ننظر إلى جميع المسلمين على أنهم كلهم سواء.

وعلقت الصحافاة على ذلك بأن الملكة توجه فى هذا الكتاب رسالة إلى الشعب الدانمركى والحكومة المتشددة فى سياساتها تجاه الأجانب وبخاصة المسلمون. وهى كملكة لا تتدخل فى السياسة، إلا أنها رأت أن الأمور قد وصلت إلى درجة تدفعها إلى أن توجه النصيحة إلى الحكومة وإلى الشعب بأن يكون منفتحاً على الشعوب الأخرى وبخاصة المسلمون، وأن يقرأ ويتعلم حقيقة الإسلام.

وفي ندوة عقدت في مدينة روتردام الهولندية في شهر أبريل ٢٠٠٥ كان عنوان الندوة (الإسلام والاندماج) والموضوع الرئيسي فيها محاولة بعض الأطراف استفلال أحداث الإرهاب في أنحاء من العالم للإساءة إلى الإسلام، مع أن هذه الأحداث نتيجة ظروف لا دخل للإسلام فيها. وتناولت الندوة محاولات إبعاد الإسلام عن المشاركة في الحياة العامة والقضييق على المسلمين المقيمين في هولندا.

ففي هذه الندوة قال رئيس وزراء هولندا- يان بيتر بالكنندا: إن الإسلام كدين لا يُشكّل أي خطر على المجتمع الهولندي أو على المجتمعات الغربية عموماً، وإن الجماعات المتطرفة الإسلامية وغير الإسلامية هي التي تسعى إلى الإسلام، وعلى مجتمعات الغرب احترام معتقدات الآخرين وهذا هو السبيل الوحيد لحل جميع الخلافات بين الطوائف المختلفة. وكرر تعبيره عن احترام الإسلام، وقال: إن الحكومة الهولندية تعمل على إدماج المسلمين المقيمين في هولندا في المجتمع الهولندي ومعالجة أسباب انعزالهم. وتقرر في ضوء مناقشات هذه الندوة إصدار وثيقة رسمية باسم (اتفاق المواطن) لمحاربة التمييز ضد المسلمين. وقررت بلدية روتردام توزيع هذه الوثيقة على سكان المدينة.

قبل ذلك، في يناير ٢٠٠٤ ألقى كوفي عنان الأمين العام للأمم المتحدة محاضرة في مقر المنظمة الدولية بنيويورك انتقد فيها بكلمات صريحة ومباشرة المضايقات التي يتعرض لها المسلمون، وحملة التمييز ضدهم، التي ازدادت بعد أحداث ١١ سبتمبر. وفي هذه المحاضرة طالب الأمين العام للأمم المتحدة بتصحيح الأخطاء التي ارتكبت في حق المسلمين عبر التاريخ، وذكر ما حدث للمسلمين أثناء الحروب الصليبية، وفي البوسنة، والسياسات الإسرائيلية في فلسطين وفي الشرق الأوسط عموماً، وما يحدث في العراق.

ولم يكن كوفي عنان وحده الذي أعلن بصفته الدولية حقيقة ما يواجهه المسلمين من حملة كراهية منظمة، فقد سبقه إلى هذا الموقف بابا الفاتيكان الراحل يوحنا بولس الثاني حين انتقد القانون الفرنسي الذي يحظر ارتداء الحجاب في المدارس الحكومية على الفتيات المسلمات في فرنسا، وأبدى البابا مخاوفه من تعرض الحريات الدينية في أوروبا للخطر بسبب تعنت السلطات في موقفها من منع الفتيات من تغطية رؤوسهن. وكان لكلمات البابا أصداء سببت إخراجاً لعدد من الحكومات الغربية، ولكنها - مع ذلك - لم تغير من الأمر شيئاً.

وتزامن مع ذلك موقف الرئيس الألماني في ذلك الوقت (يوهانس راو) برفض ظواهر التمييز ضد المسلمين في المجتمعات الغربية، وقال: (إذا صدرت في ألمانيا قوانين لمنع غطاء الرأس في المدارس باعتباره رمزاً دينياً، فسيكون من الصعب الدفاع عن ارتداء الرهبان مسوحهم. والدستور

الألماني يقرر معاملة متساوية للأديان في مجالات الحياة العامة ومنها المدارس. وأن مستقبل ألمانيا بوصفها مجتمعا ذا طابع مسيحي لن يتقرر بنوع الملابس التي يرتديها تلاميذ المدارس مهما يكن عددهم.

وكان الرئيس الألماني بذلك يرد على المستشار الألماني جيرهارد شرودر عندما أعلن: أن من حق الثقافة الألمانية، بوصفها وليدة الفلسفة الإغريقية الرومانية والديانة اليهودية المسيحية وأفكار عصر التنوير، أن ترفض غطاء رأس التلميذات المسلمات في المدارس بوصفه رمزا دينيا.

ولا شك أن ما قاله الرئيس الألماني له أهمية كبيرة، لأن أوروبا لم تعرف شخصية عامة في وزن الرئيس الألماني لديها الشجاعة لأن تعارض إصدار قوانين تمنع المسلمات من ارتداء غطاء الرأس في المؤسسات الإسلامية. والرئيس (يوهانس راو) بالذات له أهمية خاصة - غير أنه رئيس دولة غربية - لأنه أقرب السياسيين الألمان إلى الكنيسة الإنجيلية، وهو ابن واعظ.



هكذا نرى أن موقف الغرب من الإسلام قد أصبح موضوعا للجدل على أعلى المستويات السياسية ولم يعد مقصورا على المفكرين والكتّاب ورجال الدين. وهذه هي الحقيقة منذ البداية، ولكن السياسيين كانوا غالبا ما يتحفظون في إعلان مخاوفهم من الإسلام، ويكتفون بوضع الخطط وتنفيذها للحد من انتشار الإسلام في الغرب، وللسيطرة على بلاد المسلمين، والصاق التهم بهم وتصويرهم على أنهم إرهابيون لتبرير العدوان عليهم.

وهذا الموقف ليس جديدا، ففي الغرب كتابات كثيرة تنبه إلى ضرورة تفهم الإسلام والنظر إليه بعين الإنصاف والتعامل معه بما يستحق من الاحترام. لأن عداء الغرب للإسلام هو الذي أدى إلى رد الفعل السائد في العالم الإسلامي تجاه الغرب، كما أن هناك كتابات أخرى تنبه الغرب إلى أن العالم الإسلامي يمر الآن بمرحلة جمود وضعف، لكن هذه المرحلة لن تستمر إلى الأبد، ولا بد أن يعد الغرب نفسه للمرحلة القادمة التي ينهض فيها العالم الإسلامي ويحقق التقدم الذي يستحقه لما يزره من كفاءات بشرية وثروات طبيعية ومالية وموقع حاكم على خريطة العالم، وهؤلاء يرون أن أهم عناصر القوة في العالم الإسلامي هي القوة الروحية، قوة الإيمان واليقين.. وهذه القوة مهمة اليوم، ولم يدرك العالم الإسلامي خطورتها بعد، ولكن سيأتي يوم يعود فيه الوعي إلى العالم الإسلامي وتصبح هذه القوة الروحية أساسا لجمعهم على طريق واحد، ومن هؤلاء الباحث الألماني باول شمتز صاحب كتاب (الإسلام: قوة الغد العالمية) الذي ترجمه من الألمانية الدكتور محمد شامه وصدر باللغة العربية في عام ١٩٧٤، وكتب مقدمته العربية الدكتور محمد البهي وزير الأوقاف الأسبق.

فى رأى هذا الباحث الألمانى أن الحرب العالمية الأولى أدت إلى القضاء على الأفكار الإنسانية فى الغرب ودفنتها فى ساحة القتال، ولم يتبقى لدى الغرب فى علاقته بالعالم سوى الخوف: الخوف من الصين والدول الآسيوية، والخوف من الشعوب الأفريقية ونموها البشرى الهائل، والخوف من العالم الإسلامى لعدة أسباب تحتاج إلى تحليل، منها على سبيل المثال:

١ - الخوف من أن يعيد التاريخ نفسه ويستعيد العالم الإسلامى القوة العالمية التى كانت له لعدة قرون، خاصة إذا تغيرت الروح وتحول المسلمون إلى استثمار عناصر القوة لديهم بالطريقة الصحيحة، وهذا ما سبق أن نبه إليه الكاتب البريطانى هيلير بيلود Hilaire Belod الذى توفى سنة ١٩٥٣ كتب يقول: (لا يساورنى أدنى شك فى أن الحضارة التى ترتبط أجزاؤها، وتتماسك أطرافها وتحمل فى طياتها عقيدة مثل الإسلام ستكون خطرا على الآخرين، وقد يعارض هذا الرأى من يرى أن الإسلام فقد سيطرته على مفاتيح التقدم المادى والتكنولوجى ولم يلحق بالتقدم العلمى الحديث، لكن تعويض ذلك ليس بالأمر المستحيل.. ولا أستطيع أن أدرك لماذا لم يعوض العالم الإسلامى ما فاتته فى ميادين العلم والتكنولوجيا، إذ لا تحتاج علوم الهندسة الحديثة إلى عقلية خاصة، وتحتاج فقط إلى دراستها، ومع ذلك فإن التقدم المادى ليس كل شىء، لأن الحضارة الإسلامية ما زالت محتفظة بجوهر تماسكها وتفوقها وهو الإسلام.

ولعل هذا ما يفسر السياسات الغربية التى تحجب أسرار التفوق العلمى والتكنولوجى وتحتكرها لنفسها لكى يظل العالم الإسلامى على ما هو عليه. كما يفسر سياسات الغرب للحيلولة دون ظهور كيانات عربية أو إسلامية موحدة، والاستمرار فى تنفيذ سياسة فرق تسد بمنتهى الدقة، لأن وحدة العالم الإسلامى مع القوة الروحية التى يملكها إذا أضيف إليها التفوق المادى، أو على الأقل إذا أمكن تجاوز حالة التخلف المادى، فإن هذا (الخطر الإسلامى) الذى يتخوفون منه سوف يعود إلى سابق عهده.



وباول شمتز الألمانى يتساءل: لماذا لا يتعلم العالم الإسلامى ما تعلمناه فى مجال التكنولوجيا، وهذا ليس صعبا، بينما استعادة الغرب للقوة الروحية - التى يتميز بها الإسلام - هى المسألة الصعبة!

٢ - التقدم الاقتصادى الكبير الذى حققه الغرب كان بسبب تخلف العالم الإسلامى، فهذا العالم يضم أكثر من ١٢٠٠ مليون نسمة ويمثل سوقا كبيرة تحقق الانتعاش للاقتصاد الغربى، ويحتل مساحات ومواقع استراتيجية حاکمة على خريطة العالم. وفيه ثروات كثيرة لا يحسن المسلمون استغلالها وهى تمثل عماد النهضة الاقتصادية والصناعية فى الغرب، وفى نفس الوقت



فإن هذا العالم الإسلامي تحدث فيه تغيرات عميقة ، وتظهر كفاءات وطبقات متعلمة لديها تطلعات للحاق بالغرب ، وترى أنها ليست أقل شأنًا من أمثالها الغربيين ، مما يهدد السيطرة الاقتصادية والسياسية للغرب على العالم الإسلامي في المستقبل القريب أو البعيد. ولمواجهة هذه الظاهرة ليس أمام الغرب سوى تفكيك العقيدة الإسلامية ، وتخفيف العلاقة بين المسلمين وبين دينهم ، وتشكيك المسلمين في هذا الدين ، وتوجيه حملات لتشويه الإسلام تصل أصدائها إلى العالم الإسلامي وتؤثر فيه.

يقول باول شمتز : (إن انتفاضة العالم الإسلامي صوت نذير للغرب ، يستلزم تجمع الدول الغربية لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو. ويستشهد على ذلك بالحركات الوطنية التي كانت تقود النضال ضد الاحتلال وتطالب بالاستقلال وإعادة بناء الدول الإسلامية وفقاً لمواصفات الدولة الحديثة. ويشير إلى دور علماء الإسلام في هذه الحركات الوطنية مما أدى إلى التقارب بين العناصر القومية والدينية.

ويقول الباحث الألماني : (إن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ، ولم تنجح الأحداث والهزائم التي مرت على المسلمين في القرون الأخيرة في زعزعة ثقتهم به كقوة روحية تجمع التيارات المختلفة.. إن الروح الإسلامية ما زالت تسيطر على تفكير وعواطف القادة في العالم الإسلامي وستظل هذه الروح ما دامت هناك شعوب ربطت مصيرها بتعاليم الإسلام وتعتقد أن الرباط الجامع بين شعوبها المختلفة في الجنس واللون هو الإسلام ، ويبدو من الصعب جدا تغيير هذه الحال).

ويدلل على فكرته بما حدث في تركيا بثورة كمال أتاتورك التي تحررت من الدين وكانت عنيفة في ذلك ، وعلى رغم مرور السنين على هذا النهج فما زالت في تركيا حتى اليوم مراكز قوى ذات ثقل وتأثير على الشعب التركي تتمسك بالإسلام ، وتدعو إلى العودة إليه. وكذلك الحال في شمال أفريقيا ، فقد اندلعت ثورات ضد الاستعمار الغربي فيها وكانت أهم أسبابها المباشرة: الأزمة الاقتصادية التي سببها الاستعمار وضائق الحياة على أهل البلاد ، بينما يستنزف الاستعمار ثرواتها ، وكان هذا السبب الوطني ينطوى على سبب آخر أقوى هو العامل الديني ، فالدين والوطنية اجتماعا ضد الاستعمار والاستغلال الغربي.



ويستشهد باول شمتز على ارتباط الوطنية بالإسلام في العالم الإسلامي ، بدور الأزهر في مواجهة الاستعمار الفرنسي ثم الاستعمار البريطاني ، ويقول : (إن موقف الأزهر من القوى الغربية معروف ، فهو لا يهادن المستعمر ، ويعيب المسلمين بمشاعر الكراهية للأجانب الذين اقتحموا ديار الإسلام ، ويحرضهم على النضال ضد الاستعمار ومقاومته).

ويصل من تحليله إلى أن نقطة التصادم بين الغرب والعالم الإسلامي هي تضارب المصالح. مصالح الغرب تدفع إلى احتلال واستغلال أسواق وثروات وأرض العالم الإسلامي والإبقاء عليه في حالة انقسام وتخلف لكي تسهل السيطرة عليه، والعالم الإسلامي أدرك أن من حقه أن يعيش حراً، ويوجه ثرواته لصالح الشعوب الإسلامية، ويتقدم في الصناعة والتكنولوجيا، ويخرج من نطاق السيطرة والتبعية للغرب. وهذا الصراع وإن كان في جوهره صراعاً اقتصادياً واستراتيجياً وسياسياً، إلا أن الإسلام يدخل فيه لأنه القوة التي تعوق المخطط الغربي وبالتالي يمكن أن تكون عقبة في طريقه. وليس أمام الغرب إلا أن يحول دون صعود العالم الإسلامي ووحدته.

والوحدة الإسلامية كما يراها باول شمتز لا تعني تجمع الدول الإسلامية في دولة واحدة، لأن هذا الغرض مستحيل، وقد باءت بالفشل كل المؤتمرات واجتماعات القادة في الدول الإسلامية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى اليوم في التقدم خطوة واحدة نحو هذا الهدف، مع أنهم يتحدثون عنه كثيراً، والممكن الآن هو توحيد الأهداف السياسية الوطنية بين الدول الإسلامية ضد الاستبداد الداخلي ومقاومة الهيمنة الخارجية، وحتى هذا الهدف لن يتحقق في المستقبل القريب لوجود عوائق كثيرة لا بد من التغلب عليها أولاً، وهذا يحتاج إلى زمن قد يطول، وربما يحتاج إلى أجيال جديدة بفكر مختلف عن فكر الجيل الحالي من قادة العالم الإسلامي.

وهو يشير أيضاً إلى فكرة (الجامعة الإسلامية) التي كان ينادى بها جمال الدين الأفغاني وكان يدعو إلى أن تكون بلاد المسلمين للمسلمين ينتقلون فيها بحرية ويطردون منها المستعمرين، وكان مفهوم هذه الجامعة الإسلامية هو الرابطة التي تحقق التنسيق بين المسلمين في توجهاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم يكن حلم جمال الدين الأفغاني قادراً على التحليق إلى حد تصور أن يصبح العالم الإسلامي كياناً واحداً.



كان العالم الإسلامي قبل الحرب العالمية الأولى يعيش في سبات عميق، ويعانى من الفقر والتخلف والجهل ويعتبر ذلك قدراً مقدوراً عليه، كما كان الاستعمار الغربي قد فرض سيطرته وتولية أنصاره وعملائه، ولكن الأمر اختلف بعد الحرب العالمية الأولى، وتغيرت مناطق كثيرة في العالم، أما منطقة الشرق الإسلامي فقد تحولت تحولاً جذرياً، فقد بدأت تظهر فيها دول حديثة على أساس قومي، وبدأت الاتصال بالبلاد الغربية، واحتكت بالحضارة الغربية، ونتج عن ذلك أن تغير شكل بنائها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وقامت دويلات مستعمرة أو نصف مستعمرة على أنقاض الأوضاع السياسية في هذه المنطقة الممزقة التي كانت تتنازعها أطماع السياسة الدولية كما كانت على مدى عشرات السنين حقل تجارب لاختبار القوى الاستعمارية الكبرى. ووضعت

الحرب حدا لهذه المنازعات بتقسيم المنطقة على الدول الاستعمارية، غير أن الدول الجديدة حاولت بناء كيائها بمجهودها الذاتي وبمعاونة بعضها البعض. وباختصار فإن الانهيار الذي عم المنطقة أثناء الحرب العالمية الأولى كان سببا في ظهور حركة تدعو إلى إيقاظ الوعي التاريخي وإلى الاستقلال السياسي، وبدأت دول الشرق الإسلامي تظهر على مسرح السياسة العالمية بعد أن ظلت سلبية وغائبة عشرات السنين، وبدأت تطالب بحق تقرير المصير، وبذلك بدأت حقبة جديدة في تاريخ النزاع بين الشرق والغرب.

٣ - يضيف باول شمتز سببا آخر للخوف من الإسلام في الغرب هو الزيادة السريعة في السكان، وبذلك فسوف يتضاعف عدد السكان في العالم الإسلامي بينما يقل عدد السكان في بعض دول الغرب أو يبقى العدد ثابتا تقريبا، مما يترتب على ذلك من خلل في موازين القوى البشرية، وسوف يدعو ذلك الملايين من العالم الإسلامي إلى الضغط على الغرب للحصول على أكبر قدر من الثروات الطبيعية في أرضهم فيكون ذلك على حساب النمو الاقتصادي في الغرب، أو أن تندفع هذه الملايين إلى الهجرة نحو الغرب المتقدم فيتغير التركيب الديموجرافي وتتسع رقعة الإسلام في الغرب.



ويتوقف باول شمتز عند مرحلة النزاع بين بريطانيا والقومية الإسلامية في فلسطين وقد اتجهت السياسة البريطانية فيه إلى حل يخالف ما اتخذته في احتلالها للعراق. فقد استدعت بريطانيا إلى الشاطئ الاستراتيجي المهم - وهو الجناح الشرقي الذي يحمي قناة السويس - حليفا يقف بجانبها ويساعدها على منع التقاء العالم الإسلامي. وكان وعد بلفور لليهودية العالمية في طابعها الصهيوني بمنحها أرضا في فلسطين لإقامة دولة تساعد على حماية المصالح البريطانية ضد القومية العربية والثوار العرب، وكانت بريطانيا تعرف القيمة الاستراتيجية لفلسطين، وكان هناك اقتراح أثناء إعداد معاهدة - سايكس بيكو - بتدويل فلسطين، وكان الهدف إبعاد المصالح الفرنسية عنها لكي ينحصر النفوذ الفرنسي في تونس والجزائر وسوريا ولبنان، وكان هذا الاقتراح يتضمن أن تتولى بريطانيا مراقبة هذا التدويل. ومن هنا بدأ الانتداب البريطاني على فلسطين، وبدأ دخول الصهيونية العالمية في الصراع الدائر على فلسطين، وقدمت نفسها على أنها ستكون الحاجز الذي يخفف الضغط العربي والإسلامي على الاستعمار البريطاني. وحتى عام ١٩٣٠ لم يكن المهاجرون اليهود إلى فلسطين يزدون على ٧ آلاف مهاجر لكن هذه الهجرة أثارت ثائرة العالم العربي والإسلامي ضد بريطانيا، ففتحت بريطانيا باب الهجرة اليهودية حتى بلغ عدد المهاجرين عام ١٩٣٢ حوالي ٩٥٠٠ يهودي، ووصل عددهم في عام ١٩٣٣ إلى ما يزيد على ٣٢ ألفا، وفي عام ١٩٣٤ أصبح عددهم ٤٢ ألفا، وقفز العدد عام ١٩٣٥ ليصبح ٦٢ ألفا، وأدت السياسة البريطانية إلى اقتطاع جزء من المنطقة العربية بالقوة ليعيش فيه مهاجرون من بلاد غير عربية، وكان وعد بلفور إيذانا

بإنشاء وطن قومي لليهود في أرض مملوكة للعرب والمسلمين، لكن هذا الوطن اليهودي كان يحقق مصالح بريطانيا الاستراتيجية التي كانت تستعمر الدول العربية، وكانت بريطانيا حريصة على أن يظل الصراع في المنطقة بين شعب يهودي يحاول إثبات وجوده وبين تزامم الشعوب الإسلامية ودفاعها عن وطنها. وكانت بريطانيا ترى أن استمرار هذا الصراع هو الضمان لاستمرار هيمنتها وسيطرتها على هذه المنطقة الاستراتيجية التي تعتبر مفتاح الشرق، وكان التفكير الاستراتيجي البريطاني قائما على أن كلاً من الدولة اليهودية والدول العربية والإسلامية سوف يزيدان الارتباط بها ويحتميان، وسيجد العرب أنهم محتاجون إلى استمرار استعمارها للمنطقة.

لكن الذي حدث عكس ذلك، فإن الولاء الإسرائيلي لبريطانيا تحول بعد ذلك إلى الولايات المتحدة. وتعمق في نفوس العرب والمسلمين الشعور بمرارة الهزيمة التي كانت هذه المرة هزيمة حاسمة، وقد تفجرت مشاعر العداء في جميع الدول العربية والإسلامية للاستعمار الغربي (البريطاني والفرنسي والإيطالي) وخرجت موجات الرفض من المساجد بما يعيئه هذا الدين (الإسلام) في نفوس أتباعه من كراهية للاستعمار، وقاد علماء المسلمين الثورات ضد الاستعمار في مصر وتونس والمغرب والجزائر وغيرها، وارتكب الاستعمار الغربي أخطاء فادحة بالاعتداء على المساجد والمقدسات الإسلامية فأشعل وعمق الإحساس بأن العدوان من الغرب موجه إلى الإسلام ذاته، بعد أن أصبح الدين والوطنية مزيجا واحدا وقوة دافعة لحركات التحرر في العالم العربي والإسلامي.



ويروى باول شمتز (قصة الخداع الغربي الكبرى للمسلمين) عندما بدأت إيطاليا تحت حكم موسوليني التوسع الاستعماري فوجهت أطماعها إلى العالم الإسلامي، وفي الفترة من ١٩٢٨ حتى ١٩٣٢ واجه الاستعمار الإيطالي في ليبيا مقاومة عنيفة كان دافعها حماية الإسلام من الغزاة الأجانب، ولم تتمكن إيطاليا من فرض سلطتها في ليبيا إلا بعد أن نسّقت الجزء الأكبر من الشعب الليبي إلى معسكرات الاعتقال، ولكن نضال السنوسيين أثبت قوة العقيدة الإسلامية في تحريك الثورة ضد القوات الأجنبية، وقد اعترف بذلك الجنرال (جرازياني Graziani) في تقريره عن المعركة مع السنوسى والذي يتحدث فيه عن صلابة المقاومة بقيادة الشيخ عمر المختار. وبعد أن وقع عمر المختار في الأسر سأله الجنرال: لماذا تصر على المقاومة ضد إيطاليا؟ فكان الجواب: لأنه واجب العقيدة المقدس، ويقول باول شمتز: إن المارك في ليبيا أكدت التضامن النضالي لجميع العالم الإسلامي تجاه الأطماع الاستعمارية للقوى الغربية، فالصحافة في الدول الإسلامية- من القاهرة حتى كابول- هاجمت إيطاليا الفاشية وأثارت الرأي العام الإسلامي ضدها وعبأت الجماهير الإسلامية بالغضب على قوات الاحتلال الإيطالية في ليبيا، وانبرت الأقلام تروى للرأي العام بإسهاب الفظاعة والوحشية الإيطالية لتحريض العالم الإسلامي لاتخاذ موقف مضاد تجاه إيطاليا الفاشية.

وما حدث لإيطاليا في ليبيا حدث لها في اليمن. وهو أيضا ما حدث للاستعمار الغربي في كل دول العالم الإسلامي، فقد كان الإسلام هو القوة المحركة للغضب والرفض والمقاومة ضد الاستعمار وهذا ما جعل الغرب يدرك أن الإسلام يمثل عقبة كبرى أمام أطماعه ومخططاته، وأن العدو هو الإسلام، وأن السبيل الوحيد لاستقرار النفوذ الغربي في العالم الإسلامي يستلزم القضاء على هذا الدين أو تشويهه أو تفكيك العقيدة على الأقل، وذلك بعد أن فشلت الجهود لاستخدام نعمة الصداقة مع الشعوب الإسلامية لتحقيق الأغراض السياسية لدول الغرب الاستعمارية.

ويشير باول شمتز إلى معاهدة (سايكس- بيكو) التي وقعت عام ١٩١٦ بين فرنسا وبريطانيا لتقسيم العالم العربي بينهما بعد هزيمة الامبراطورية العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وبذلك عادت المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب الاستعماري، وبفضل تطور المواصلات أصبح العالم الإسلامي مترامى الأطراف متصلا وازداد فيه الشعور بالجوار وبالرابطة الإسلامية وتأكدت أسس الشعور الجماعي بوحدة مصير الدول الإسلامية. وبدأ العالم الإسلامي يستيقظ. ولذلك واجهت حملة نابليون مقاومة عنيفة، وفي نفس الوقت فإن نظم الحكم الاستبدادية في العالم الإسلامي نجحت في استخدام الإسلام وسيلة لاستمرارها في الحكم، وذلك بإشاعة الكراهية للغرب وتعميق الشعور لدى الشعوب الإسلامية بأن المحافظة على الجمود والتخلف هما الضمان للجمود ورفض نموذج الحكم الغربي الكافر، وعلى رغم أن هذه الأنظمة كانت تدعى الإصلاح. فإنها في الواقع كانت ترفض كل ما هو جديد.. وهذا هو السبب في الجمود الذي أصاب العالم الإسلامي لسنوات طويلة. وقد امتد الجمود إلى النواحي السياسية والاقتصادية والتكنولوجية كما امتد الجمود إلى فهم المسلمين للإسلام.



ويرى باول شمتز أن محاولات الإصلاح في تركيا ومصر وغيرها من الدول الإسلامية استعانت بالغرب لتقليد النموذج الغربي، وفتحت الباب للنفوذ الأوروبي، فدخل الاستعمار الاقتصادي وبعده دخل الاحتلال العسكري البريطاني مصر عام ١٨٨٢ وفقدت الدولة سيادتها، وحدث نفس الشيء في إيران وتركيا، فقد استدعت إيران بعثة عسكرية من إنجلترا وفرنسا عام ١٨١٧ للعمل كخبراء لتدريب القوات الإيرانية على الأساليب الحربية الحديثة، وفي مرحلة تالية استعان شاه إيران بخبراء من النمسا وإيطاليا وفرنسا لتحديث بلاده، فكانت هذه البعثات الأجنبية مقدمة لتغلغل النفوذ الغربي وانهيار الدولة الإيرانية. وكذلك في تركيا فقد فتح أتاتورك الباب للعقل الغربي والنفوذ الغربي، ولم يستطع التخلص منهما بعد ذلك، ولم تستطع البلاد الإسلامية الدفاع عن نفسها ضد أوروبا التي اتخذت موقفا هجوميا، وازداد ضعف العالم الإسلامي، وأدى ذلك كله إلى سقوطه سياسيا، وأدت مأساة سقوط العالم الإسلامي في قبضة النفوذ الغربي إلى تعميق

مشاعر العداء في الجانبين، ولم تكن أمام العالم الإسلامي وسيلة لمقاومة الاحتلال الغربي سوى تعبئة الشعوب دينيا، فأصبح الإسلام هو السلاح السياسي ضد الدول الغربية، وظهرت الدعوة إلى الوحدة الإسلامية كوسيلة دفاعية في مواجهة عدوان الغرب.. وزاد ذلك من مشاعر العداء لدى كل طرف للآخر.



وحاربت دول الغرب فكرة الوحدة الإسلامية، وامتدت حروبها إلى الإسلام ذاته، ويقول باول شمتز إن الغرب يخشى من هذه الوحدة، ويجند قواه لمنع حدوثها. وقد نبه إلى خطورة الوحدة الإسلامية أغاخان زعيم المسلمين في الهند وصديق انجلترا، فقد كتب في عام ١٩١٤ يقول: إن المسلمين في الهند لم ينزلوا عن إخوانهم المسلمين في البلاد الأخرى، فبينهم وبين إخوانهم المسلمين في البلاد الأخرى وحدة لا تقبل الانفصال، وتعلو على الخلافات المذهبية، فقد اجتمع المسلمون على تعاليم القرآن وأسهم في وحدتهم تاريخ وفلسفة العرب والشعر الفارسي، والمصري والمغربي والأسباني، وهناك رابطة روحية تجمع الأتراك والعرب والفرس والهنود.. هذه الرابطة هي الإسلام الذي يعمق فيهم وحدة الفكر والشعور.



وينتهي باول شمتز إلى أن هذه الوحدة الإسلامية هي القوة العالمية الكبرى التي يخشى الغرب ظهورها، ويعمل بكل قواه لمنع ظهورها، وذلك بسياسات متعددة لتفكيك العالم الإسلامي وإثارة الخلافات داخل هذا العالم الإسلامي، وبتعميق النزاعات الوطنية في كل دولة لكي تتغلب على النزعة إلى الوحدة الإسلامية.

ويضرب باول شمتز المثل بما حدث في مصر بعد احتلالها عام ١٨٨٢ وخضوعها للسيطرة البريطانية، فقد ظهرت فيها الحركة الوطنية ضد الحكام الرجعيين أصحاب السيادة المطلقة، وضد الاستعمار الأجنبي في نفس الوقت، وإن كانت بريطانيا قد استخدمت الخديوى وحكومته لتحقيق مآميرها الاستعمارية، ومع ذلك فقد استمرت الحركة الوطنية في مصر وانتشرت بعد الحرب العالمية الأولى إلى الأجزاء الأخرى من العالم العربي والإسلامي فظهرت فيها حركات مماثلة للحركة الوطنية في مصر.

وكان مصطفى كامل - كما يقول باول شمتز - من زعماء الحركة الوطنية الذين تعاطفوا مع إخوانهم في تركيا، وكان قد درس في فرنسا، وأصبح بعد عودته إلى الوطن زعيما لتيار يعادى الاستعمار، ويؤكد مفهوم (الوطن). وأصدر مصطفى كامل في عام ١٨٩٥ نشرة بعنوان (مصر الحرة) حدد فيها معالم الدولة المصرية التي يسعى لتحقيقها، وقال فيها: (أريد أن أبعث الوطنية في بنى

وطنى، تلك الوطنية التي تعيد مصر للمصريين، وتعيد المصريين لمصر، وأسس جريدة اللواء لتحقيق هذا الهدف وتبلورت الحركة الوطنية بعد ذلك فى تيارين: الحزب الوطنى الذى تزعمه مصطفى كامل، وحزب الأمة (الوفد) الذى تزعمه سعد زغلول، وفى عام ١٩٠٧ تألف الحزبان وكونا جبهة سياسية متينة رسمت برنامجها السياسى على الدعوة إلى الاستقلال، وجلاء الجيش البريطانى، وظهر حزب الدستوريين الذى قام على فكرة أن انحسار النفوذ البريطانى يمكن أن يتم تدريجيا، وعلى مدى زمن طويل، يجرى فيه بناء سلطة الدولة المصرية. وبعد ذلك وجد الثوار فى مصر أن عليهم مواجهة عدوين وليس عدوا واحدا أحدهما هو الاحتلال البريطانى، والثانى هم عملاء الاستعمار من المصريين.

وفى تركيا ظهرت ثورة شعارها (تركيا للاتراك) كما فى ثورة مصر التى رفعت شعار (مصر للمصريين) ورفعت الثورة فى إيران أيضا شعار تحرير البلاد من التبعية للروس والبريطانيين الذين منحهم الشاه حقوقا وامتيازات واسعة، والقضاء على استبداد الشاه الذى أفسد البلاد. وكان الإسلام قاسما مشتركا فى كل هذه الثورات.



ولقد تنبه الغرب إلى خطورة الإسلام فى العصر الحديث عندما بدأت الثورة الوطنية فى إيران، بدأت بمظاهرة من المسجد واعتصم المتظاهرون فيه، وكانت هذه بداية الكفاح ضد استبداد الشاه فى ديسمبر ١٩٠٥، واضطر الشاه (مظفر الدين) إلى تنفيذ مطالب الشعب الإيرانى، ووعد بالاعتراف بالدستور الذى يعطى الشعب حقوقه، وأنشئ أول برلمان إiranى نتيجة هذه الثورة الوطنية فى أكتوبر ١٩٠٦، وبعد الشاه (مظفر الدين) جاء ابنه الشاه (محمد) الذى عقد معاهدة فى ١٩٠٧ مع روسيا وانجلترا لتقسيم إيران إلى منطقة نفوذ روسية وأخرى بريطانية، واستمرت الثورات فى إيران ولم تخمد إلا بعد زوال النفوذ الأجنبى.

بعد ذلك ظهرت موجة الإصلاح لتجديد الفكر الإسلامى، وكان جمال الدين الأفغانى أول من رفع لواء هذه النهضة وظل يحجوب العالم الإسلامى شرقا وغربا لتعبئة القوى حول دعوته وأسس مدرسة فكرية تدعو إلى الإصلاح السياسى، وتهاجم الأوضاع الفاسدة فى الحكم وفى الحياة السياسية والاجتماعية، كما تهاجم الحكومات الاستبدادية، ونجح الأفغانى فى دعوته إلى تحرير الأزهر من نظام التعليم التقليدى الذى توارثه الخلف عن السلف، وحين اضطر إلى مغادرة مصر عام ١٨٧٩ ترك فيها عددا من التلاميذ نشروا أفكاره، وكان أبرزهم الشيخ محمد عبده الذى تولى منصب الإفتاء ودعا إلى إصلاح مناهج الأزهر وتحققت معظم آرائه التقدمية بعد معارضة من الشيوخ الذين قاوموا الإصلاح والتجديد، وظل الأزهر مهذا للدعوة إلى النهضة الإسلامية واستمدت منه الجماهير القوة



لمحاربة الاستعمار، وظهرت فيه طبقة الزعماء الإسلاميين الجدد الذين عملوا على تخليص الأزهر من الجمود الذي سيطر عليه لعدة قرون.

ترك جمال الدين الأفغاني مصر مطرودا لأن دعوته أفلقت (الخدوي توفيق) ومستشاريه الأوروبيين وهزت مراكزهم، فقرروا التخلص من هذا المشاغب الخطير - كما كانوا يسمونه - فأتجه إلى الهند وهناك واصل دعوته ضد الاحتلال البريطاني للهند فطرده الإنجليز منها عام ١٨٨٢ بسبب ما وصفوه بالنشاط الهدام الذي أفسد عليهم الجو في البلاد وأيقظ المعارضة ضدهم، فذهب إلى أوروبا، وعاش فيها منفيا سبعة أعوام متنقلا بين عواصمها حتى دعاه الشاه (مظفر الدين) إلى طهران عام ١٨٨٩، فكان نشاطه وتأثيره في إيران مثل نشاطه وتأثيره في مصر وتركيا والهند، وكان تأثيره يسرى بين الناس بسرعة فائقة والتف حوله الناس يطالبون معه بالتجديد والنهضة والثورة على الجمود، فاضطر إلى الهرب إلى لندن عام ١٨٩٢ بعد أن انقلب عليه الشاه، وفي عام ١٨٩٥ طلب السلطان عبد الحميد من الأفغاني أن يعود من لندن إلى القسطنطينية فذهب إلى تركيا وواصل دعوته هناك، وترك له السلطان حرية الدعوة إلى الوحدة الإسلامية، لكنه انقلب عليه بعد ذلك عندما هاجم الأفغاني استبداد السلطان عبد الحميد، وأخيرا دس أعوان السلطان السم للأفغاني، ولكن أفكاره ظلت حية بعد موته، واستمر تأثيرها في كل المدارس الدينية الإسلامية تقريبا.

وبعد فترة ظهرت دعوة أخرى مختلفة عن حركة التجديد التي قادها الأفغاني، وكانت هذه الحركة تتسم بالتعصب والتمسك حرفيا بالنصوص، والدعوة إلى العودة إلى العصور الماضية والرجوع بالمجتمع الإسلامي إلى القرون الأولى، ووصلت إلى تحريم خروج المرأة، وإلزام الرجال بإطلاق اللحية وإلى هدم الأضرحة، اعتبر هؤلاء المتعصبون أنفسهم أنهم هم الذين طهروا الإسلام، وامتد نشاط هذا التيار المتشدد ليغزو العالم الإسلامي ويمحو آثار حركة التجديد التي قادها الأفغاني وتلاميذه، وأفرخت بعد ذلك الجماعات الإرهابية التي عانى منها العالم الإسلامي وامتد خطرها إلى الغرب، وكانت بذلك مفجرة الشرارة لموجة جديدة من العداء للإسلام في الغرب أقوى من كل الموجات السابقة وأشد خطرا على أوطان المسلمين.



وفي رأى باول شمتز أن أهل السنة بدءوا في العودة إلى المبادئ الصحيحة للإسلام، وكانت بداية اليقظة الإسلامية بتأثير عدوان الغرب على بلاد المسلمين، ورد فعل على الاستعمار الغربي الذي اقتحم هذه البلاد بقوة السلاح. ولم تكن اليقظة بين أهل السنة وحدهم، ولكنها شملت الشيعة أيضا، وظهرت قيادات دينية وفكرية في المذهب الشيعي حملت لواء الإصلاح الديني في المجتمع الشيعي ونادت بالعودة بالدين الإسلامي إلى صفائه الأول.



ولكن عملية الإصلاح الدينى لم تكن دائما على الطريق الصحيح، ولم تلتزم بالسماحة، والبساطة، والاعتدال الذى يميز الإسلام، فقد ظهر التشدد والتطرف تحت ستار التمسك بالأصول وبالممارسات والسلوك الذى كان عليه المسلمون الأوائل من أبناء القبائل فى مجتمع المدنية، وكانت دعوة هؤلاء المتطرفين قائمة على استنكار ورفض أدوات الحضارة والتحديث ومبتكرات العلم والتكنولوجيا، وتكرار الهجرة والحياة فى الصحارى والمغارات أو- على الأقل- التمسك بكل ما هو قديم ورفض كل ما هو جديد. كذلك ظهرت فى الشيعة دعوات تطرف من نوع آخر. فقد دعا الشيخ أحمد العاصى الذى توفى عام ١٨٢٦ إلى أن الإمام الثانى عشر المختفى ما زال حيا إلى اليوم وسيعود فى يوم من الأيام ليملا الأرض عدلا، وفى زمن غياب الإمام لا تنقطع صلته بشعبه، ولكنه يتصل به فى أثناء فترة الانتظار عن طريق زعيم روحى، فعاد التصور الذى مضى عليه قرون مرة أخرى، واعتقد كثير من الشيعة أن هذا الشيخ وتلميذه من بعده هم رسل الإمام الثانى عشر الغائب، ملأهم بروحه، وأمدهم من فكره، مع أنهم لم يدعوا أبدا أنهم على صلة شخصية بالإمام الغائب.

وعادت موجة الانحراف مرة أخرى عام ١٨٤٤ حين ظهرت هذه الحركة مرة أخرى فى صورة جديدة، فقد ادعى (ميرزا على محمد) أنه على صلة مباشرة مع الإمام الغائب الذى اختفى قبل ألف عام، وأذاع أنه يمهّد الطريق لعودة الإمام الغائب، ولقب نفسه باسم (باب الله) وصدق كثير من الشيعة هذا القول، وانطلقت حركة فى إيران باسم البابية، تشبه حركة قامت فى الغرب قبل ألف عام ادعت أنها تهىء المسيحيين لاستقبال المسيح الذى أوشك أن يعود ليحكم ويملا العالم عدلا وسلاما.

وازداد اتباع هذا (الباب) وتملكتهم العصبية الدينية، واستولى عليهم شعور العقيدة المتوهج، وأصبحوا خطرا على الإسلام وعلى الفكر الدينى الشيعى، كما كانوا خطرا على السلطة السياسية فبدأت فى مطاردتهم. وربط (الباب) تعاليم الدين بطريقة ملتوية باتجاهات وأفكار غريبة، فأنكر الحدود والجهاد ومنع الحجاب، ودعا إلى تحريم تعدد الزوجات. وتطورت هذه الدعوة حتى تحولت إلى الدعوة إلى القضاء على الدولة وإقامة مملكة دينية جديدة على أنقاضها يكون على رأسها (الباب) الذى يمهّد الطريق لعودة الإمام الغائب. وهكذا تشابكت الأهداف السياسية بالأهداف الدينية، وصارت الدعوة إلى المبادئ الدينية وسيلة بعض الفرق الإسلامية للوصول إلى السلطة.

وفى أوائل عام ١٨٥٠ ألقى القبض على (الباب) وظل فى السجن بضعة أشهر، ثم نفذ فيه حكم الإعدام يوم ٨ يوليو ١٨٥٠ مع أحد تلاميذه، وبعدها ظهرت أساطير حول ما ظهر من كرامات ومعجزات أثناء تنفيذ الإعدام، وانتشرت هذه الأساطير على أيدى أتباعه، ومن هذه الأساطير أن الحراس عندما ربطوا (الباب) وتلميذه مع بعضهما بالحبال وضع التلميذ رأسه على صدر (الباب)

وحين أطلق الحراس أول دفعة من الرصاص، وانقشع الدخان، رأى الواقفون (الباب) وتلميذه واقفين بدون قيود، وكانت المعجزة أن الرصاص أصاب القيود وأصابتها الدفعة الثانية وهما بلا قيود. وأوقدت هذه الأسطورة في أتباعه حماسا لا يوصف، دفع بهم إلى الاستشهاد في سبيل دعوته، فتم إعدام أعداد لا حصر لها، كان يتم وقوفهم صفوفًا أمام حائط ويتم إعدامهم بالرصاص بصورة جماعية فوجًا بعد فوج، ومع ذلك استمرت هذه الدعوة على يد الخليفة الذي عينه (الباب) قبل إعدامه، وكان الخليفة (ميرزا يحيى) لا يقل عنفا في دعوته عن (الباب) إلى أن دبرت الحركة محاولة لاغتيال (الشاه ناصر الدين) وفشلت المحاولة فكانت هذه بداية حملة لإعدام وسجن وطرد أتباع هذه الحركة، ولكن (ميرزا يحيى) زعيم الحركة استطاع أن يهرب من إيران إلى بغداد هو وأخوه غير الشقيق (بهاء الله) وجمع من أتباعه واتخذوها منفي لهم يمارسون منها نشاطهم ويمتد تأثيرهم على إيران عن طريق الإيرانيين الذين يمرون ببغداد وهم في طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة في النجف وكربلاء، وأقلق هذا الأمر شاه إيران (ناصر الدين) فطلب من الباب العالي في تركيا إبعاده، فاستجاب الباب العالي ونقل (ميرزا يحيى) إلى الطرف الغربي من الإمبراطورية العثمانية بعيدا عن إيران. وفي هذا المنفى الجديد أعلن الأخ غير الشقيق (ميرزا يحيى) أن الإمام الثاني عشر الغائب عاد في شخصه، وأن روح الإمام الغائب حلت فيه، فهو الإمام الغائب وقد عاد، وصدقته ناس كثيرون واتبعوه، ووقعت بين هذه الطائفة وبين أنصار أخيه (ميرزا يحيى) مشاحنات، وتطورت العداوة بين أنصار الأخوين إلى صراع حقيقي اضطر السلطة التركية إلى التدخل، فأرسلت الباب (ميرزا يحيى) هو وأتباعه إلى جزيرة قبرص وكان قد سمي نفسه (صبح أزل) أي (الفجر الخالي) بينما أرسلت أخاه (بهاء الله - الإمام العائد) وأتباعه إلى فلسطين واتخذ مدينة عكا منفي له. وصلت العداوة بين الفريقين إلى حد أن أصبح أتباع كل فريق على قائمة المطلوبين للقتل على يد الفريق الآخر، وكان كل فريق قد وصل إلى درجة اليقين بأن قتل أتباع الفريق الآخر عمل من أعمال العبادة والتقرب إلى الله ثوابه الجنة!

مات (ميرزا يحيى) في منفاه في قبرص، وتفرق أتباعه من بعده، أما أخوه (بهاء الله) فقد ظل في عكا ثلاثين عاما محاطا بأتباعه إلى أن مات في عام ١٨٩٢ ودفن في مقبرة على أطراف المدينة تحوطها حديقة فيحاء. وخلال هذه الأعوام الثلاثين التي عاشها في عكا ظل (بهاء الله) على اتصال بأتباعه في إيران حتى وصل عددهم في بعض التقديرات إلى مليون شخص، وكونوا خلايا سرية، وأشعلوا ثورة في إيران عام ١٩٠٨.

وبعد موته انقسم ولدا (بهاء الله) إلى فريقين وتولى كل منهما زعامة طائفة، وبدأ ابنه الأكبر (عبد البهاء) في الدعوة إلى اعتبار الإنجيل والتوراة مصدرا للشريعة الإسلامية مع القرآن، واجتذبت هذه الدعوة أتباعا لها في أوروبا والولايات المتحدة، وأقيمت مراكز للطائفة في فرنسا

وإنجلترا وأمريكا ، وكان من أتباع هذه الطائفة وكيل وزارة فى الولايات المتحدة هو (بريان Bryan) كان يتردد على قبر (بهاء الله) للزيارة ، وترك منصبه أثناء الحرب العالمية الأولى لأنه اعتقد أن سياسة الرئيس الأمريكى ويلسون لا تتماشى مع مبادئ الطائفة. وامتد تأثير البهائية من المجال الدينى إلى المجال السياسى والاجتماعى.

هذه القصة عن البابية والبهائية التى خرجت من عباءة الشيعة ليست شيئاً غريباً ، لأن هناك طوائف وجماعات متطرفة ومنحرفة خرجت من عباءة السنة أيضاً ، وتاريخ الإسلام لا يخلو فى كل مرحلة من مراحله من فئة أو جماعة أو طائفة تلبس أهدافها السياسية وأطماعها فى الوصول إلى السلطة بمظهر دينى ، وتضيف إلى الإسلام ما ليس من طبيعته ، وفى كل مرحلة تجد هذه الطوائف أنصاراً يقدمون على الموت طواعية على ظن بأن هذا الموت يقربهم إلى الله ويجزيهم عنه بالجنة.

ومثل هذه الأفكار والمذاهب والجماعات الغربية تدعو المعتدلين فى الغرب إلى الظن بأن هذا هو الإسلام ، فيشعرون بالخوف من هذا الدين الذى يمتلئ تاريخه بالقتل والدماء ، وهناك جماعات معينة - دينية وسياسية - تجعل رسالتها الإساءة إلى الإسلام واختيار النماذج الشاذة والضالة وتركز عليها الأضواء وتصورها على أنها الممثلة لحقيقة الإسلام ، وتسهم بذلك فى تشويه صورة الإسلام ، حتى أصبح الإسلام هو الضحية دائماً من الجانبين : من أعدائه ، ومن بعض أتباعه.

وهذا ما يدعو المخلصين للإسلام إلى أن يتحركوا فى اتجاهين : الاتجاه الأول التصدى لأمثال هذه الجماعات وكشف ما فى دعواتها من انحراف عن صحيح الدين ، وتوعية جموع المسلمين إلى أن دين الإسلام يتفق مع الفطرة السليمة ، ليس فيه تعقيدات نظرية ولا أساطير ، وهو دين يخاطب العقل السليم ، ويصل إلى القلوب النقية ببساطته وتسامحه ودعوته الدائمة إلى السلام وإلى التعاون بين البشر جميعاً على اختلاف عقائدهم وألوانهم ولغاتهم باعتبار البشر جميعاً أبناء آدم وحواء ، فهم من أب واحد وأم واحدة ، وأن الاختلاف بين البشر لحكمة إلهية أخبرنا بها الله تعالى فى كتابه : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات ١٣).

أما الطريق الثانى للدعوة إلى تصحيح صورة الإسلام فهو التوجه إلى الغرب ، وتقديم الصورة الصحيحة للإسلام بالمنطق وباللغة التى يفهمها الغرب. فهذا العمل الإيجابى لمواجهة الحملات العدائية ضد الإسلام أفضل من الاكتفاء بالشكوى من الظلم الذى يتعرض له الإسلام فى الغرب. وفى الغرب كثيرون يريدون معرفة الإسلام ، ويبحثون عن كتب تشرح الإسلام بأسلوب منطقى وعصرى ، وتتشوق إلى من يحدثها عن الإسلام بلغة العصر وليس بلغة القرون الوسطى ، وما دمنا نؤمن بأن

الإسلام صالح لكل زمان ومكان فلا بد أن نقدمه لأهل كل عصر وكل مكان بما يناسب عقولهم ودرجة تقدمهم الثقافي والحضاري.

وإذا لم يقيم المسلمون بهذا الواجب فسوف يظل الإسلام مظلوما وهدفا لحملات التشكيك والتشويه ،  
ما دام أتباعه هم الذين تخلوا عن واجبهم ، ولم يدركوا ما يفرضه التقدم على الدعوة والدعاة من  
ضرورة التجديد.. تجديد الفكر الديني.. وتجديد الخطاب الديني.. أولا وقبل كل شيء.

## الإسلام والقوى الكبرى !

أصدرت منظمة الأمن والتعاون الأوروبي قراراً يقضى بإنشاء منصب ممثل شخصي لرئيس المنظمة مهمته تعقب مظاهر العداء للإسلام في دول أوروبا، واعتمد هذا القرار في المؤتمر الوزاري الثاني عشر للمنظمة في ٨ ديسمبر ٢٠٠٤. كما قررت المنظمة أيضاً تعيين ممثل شخصي لمكافحة مظاهر العداء للسامية. وفي ذلك اعتراف رسمي بأن ظاهرة العداء للإسلام في أوروبا وصلت إلى درجة تستلزم التحرك على أعلى مستوى سياسى لمواجهة لها، وكذلك الاعتراف بأن معاداة الإسلام أصبحت مساوية لمعاداة السامية.

وكان المفروض أن تدرك الدول الإسلامية أهمية هذا الاعتراف وتبدأ حملة واسعة في الولايات المتحدة ودول أوروبا لمواجهة تيار العداء للإسلام فيها، ولكن الدول الإسلامية - فيما يبدو - لم تنتبه إلى أهمية هذا الاعتراف وهذا القرار.

وقد تم تعيين جونتير مولاك Gunter Mullak مفوض للاتحاد الأوروبي للحوار بين الإسلام والغرب ومقره في بروكسل، ولم تتحرك الدول الإسلامية للتعامل معه والاستفادة من وجوده لإثارة القضايا والمشاكل التي تهم المسلمين في أوروبا.

وفي أبريل ٢٠٠٥ أصدرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة قراراً يدعو إلى محاربة تشويه الأديان وخاصة الإسلام، ونددت اللجنة بالترقية ضد المسلمين في إطار الحرب التي يشنها الغرب على ما يسمى (الإرهاب) وتصعيد الحملات الدعائية لتشويه صورة المسلمين عقب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في الولايات المتحدة. وقد وافقت على مشروع القرار ٣١ دولة، وعارضته ١٦ دولة، وامتنعت عن التصويت ٥ دول وتخلف مندوب دولة واحدة عن الحضور.

وقيل في اجتماع اللجنة الذي تم فيه التصويت: إن ما يحدث ضد الإسلام يمثل تشويهاً لمبادئه، ويكرس ثقافة الكراهية والترقية. وأشارت اللجنة إلى تقرير مبعوث الأمم المتحدة المكلف بالتحقيق في حالات التفرقة العنصرية في العالم وقد تضمن نماذج من أعمال العنف ضد الإسلام،

وأشار إلى طرد عدد كبير من أئمة المساجد في أوروبا . وكان مندوب كوبا آخر المتحدثين في هذا الاجتماع وقال في كلمته : (إن الإسلام تعرض لحملة تشويه بالغة ، وكل ما عليكم أن تشاهدوا الأفلام التي أنتجتها هوليوود في السنوات القليلة الماضية).

والغريب أن بعض الأوروبيين كانوا أكثر حرصاً على الدفاع عن الإسلام من كثير من المسلمين ، وفعلوا ذلك في وقت مبكر جداً . ومثال ذلك ما ذكره المفكر الألماني باول شمتز في كتابه (الإسلام: قوة الغد العالمية) الذي تحدث فيه باستفاضة عن العدوان الغربي على العالم الإسلامي بعد الحرب العالمية الأولى التي كانت الحد الفاصل للنزاع بين دول الغرب الاستعمارية وتركيا التي كانت تمثل الإمبراطورية الإسلامية. فقد أسفرت هذه الحرب عن فقدان العالم الإسلامي للاستقلال ووقوعه فريسة للتبعية للغرب. وكان زحف القوات الأوروبية في أراضي الدول العربية والإسلامية متمماً لعملية إخضاع المارد الإسلامي والقضاء على حريته السياسية. وبذلك وضعت الدول الغربية يدها على غنيمة اعتقدت أن أحداً لن ينازعها عليها. ولكن قيود الاستعمار الغربي التي كبّلت العالم الإسلامي لعشرات السنين تحطمت بعد انفجار ثورات شعبية وتضحيات بأرواح عشرات الآلاف من أبناء الشعوب الإسلامية. وكانت هذه الثورات نتيجة تفاعل قوى كامنة في طبيعة الشعوب الإسلامية لا يعرفها إلا من درس عقائد هذه الشعوب وأخلاقها وتاريخها وتكوين مجتمعاتها. وهذه القوى الروحية الكامنة هي السر في نزعة الاستقلال وقوة الرفض للسيطرة الأجنبية مهما كانت قوة المستعمر ، ومهما طال العهد بسيطرته.

يقول باول شمتز: إن مارداً خرج من بين الأنقاض التي خلفتها الحرب العالمية الأولى ، فانتشرت الثورات ضد الاستعمار الأوروبي رافعة راية العقيدة. وتجمع المسلمون حول أيديولوجية إسلامية جديدة لمواجهة الخطر القادم من الغرب ، وظهر التيار الديني الإسلامي الرافض لكل ما هو غربي. وطوال السنوات التي سيطر فيها الاستعمار خيم الجمود على العالم الإسلامي في القرون الماضية وأصابه الوهن ، وسيطرت عليه أفكار معادية للعلم والتحديث صدّعت بنيانه. وقد ظهر مدى الضعف الذي أصاب العالم الإسلامي حين تقدمت وسائل المواصلات وبدأ اتصاله بالحضارة الغربية. وكان من نتيجة احتكاك العالم الإسلامي بالغرب أن تبلورت حركات التجديد الديني والحركات القومية ، وبدأ الصراع بين الحركة الدينية والحركة القومية ، ولكن كان لهما موقف موحد في مقاومة (تغريب) العالم الإسلامي ورفض الاتجاه الداعي إلى التنازل عن القيم الإسلامية تحت دعاوى التحديث واللاحاق بالعصر وتقليد الغرب على أنه هو الذي يملك مقومات الحضارة الجديدة. فلم يغير مجتمع إسلامي طبيعته الإسلامية ويقلد أسلوب الحياة الغربية، وإن كان ذلك لم يمنع الدول الإسلامية من أن تأخذ من الغرب ما لا يتعارض مع مبادئ الإسلام من ثقافة وتكنولوجيا وعلوم حديثة. وسارت نحو التحديث ولم ترفض كلية التفاعل مع الغرب ، وظهرت حركات قوية تدعو إلى بناء دولة حديثة ولكنها ظلت حريصة على التمسك بالعقيدة والمبادئ الإسلامية.

ويرى باول شمتز أن الوحدة الفكرية للإسلام والعقيدة التى لا خلاف عليها بين سائر المسلمين أيقظت فى جماهير العالم الإسلامى الشعور بوحدة المصير، والسعى إلى استعادة القوة العالمية للإسلام، ويقف المسلمون فى أنحاء العالم تجمع بينهم العقيدة المشتركة التى تجذبهم نحو غاية واحدة مهما اختلفت أساليب حياتهم، كما يجمع بينهم أيضا اشتراكهم فى معاداة الهيمنة الأجنبية. ويقول: إن ظاهرة العداء للاستعمار الغربى يلمسها المرء فى كل مسلم أينما يولى وجهه فى أنحاء العالم الإسلامى، كما يلمس المرء أيضاً أن الحيوية فى العالم الإسلامى بدأت مع قوة الشعور بوحدة مصير المسلمين. وهذا الشعور تولد فى المارك ضد الاستعمار الغربى فى كل رقعة فى العالم الإسلامى. ويوما بعد يوم ازداد رفض هذا العالم الإسلامى للقوى الأجنبية التى تستغل ثروات المنطقة وتعوق تقدمها.



ويدل باول شمتز على التلازم بين الإسلام والكفاح من أجل الحرية باشتراك طلبة وشيوخ الأزهر فى ثورة ١٩١٩ فى مصر، بل إنهم هم الذين كانوا قادة هذه الثورة ووقودها. وعندما حاولت إنجلترا فرض الوصاية على العراق بجعل حقول البترول تحت سيطرتها، وقف رجال الدين مع ضباط الجيش العراقى السابقين فاندلعت ثورة مايو ١٩٢٠ التى استمرت مشتتة ٦ أشهر، وسقط فيها ضحايا كثيرون، وأخيراً اضطرت بريطانيا إلى الاستسلام، وخرج العراق من الوصاية المباشرة لبريطانيا واستعاد حريته وسيادته على أرضه.

ويشير باول شمتز إلى دور العقيدة والشعور بالوحدة الإسلامية فى الكفاح المرير حول مسألة فلسطين. فقد كان العالم الإسلامى ظهيراً وسنداً دائماً للشعب الفلسطينى، ووقف المفكرون المسلمون ضد دعاوى بريطانيا والحركة الصهيونية، ولم يكن أحد فى بريطانيا - وقتذاك - يتصور أن المسلمين سيكون لهم هذا التأثير فى فلسطين. ولم يكن أحد فى الغرب يدرك أن العقيدة الإسلامية تدفع المسلم إلى التضحية بحياته دفاعاً عن حرية بلاده. ولم يعرف الغربيون مدى تغلغل المبدأ الإسلامى فى الحديث: (من مات دون أرضه فهو شهيد، ومن مات دون ماله فهو شهيد).. وهكذا ارتبطت الأيديولوجية الوطنية بالأيديولوجية الدينية فى مواجهة الاستعمار والاحتلال والاستغلال من الغرب.

ويقرر باول شمتز أن الحركات الوطنية فى العالم الإسلامى أظهرت أن الإسلام ليس مجرد طقوس وعبادات، وأنه لا يعادى التطور وبناء الدولة الحديثة، وليس مرتبطاً بالشكل البدائى للحياة التى كان عليها المسلمون منذ قرون كما روج كثير من مفكرى ومستشرقى الغرب، وكما شاع فى فترة انحطاط العالم الإسلامى.



ويرصد باول شمتز بعد ذلك بدء ظهور القومية العربية التي جمعت بين الدول العربية برباط اللغة والثقافة والتاريخ المشترك والدين، وعبأت الرأي العام في الدول العربية نحو العداء للنفوذ الأجنبي، ورفض بعثات التبشير الأوروبية التي كانت طليعة الاستعمار الغربي في كل الدول الإسلامية من مصر إلى شمال أفريقيا، وكذلك في إيران التي قاد فيها علماء الدين الصراع ضد الاحتلال البريطاني دون اعتبار لتفوق القوات البريطانية في السلاح. وحتى تركيا التي قاد فيها أتاتورك ثورة للتحديث ولل قضاء على الدولة العثمانية، وفصلت بين السلطة الدينية والسلطة السياسية، بقي الإسلام فيها قوة كامنة في أعماق الشعب التركي إلى أن ظهر مرة أخرى متوافقاً مع نزعة التحديث والتفاعل مع الغرب.

ويسجل باول شمتز أحداث التحول في تركيا بفصل الدين عن الدولة في نوفمبر ١٩٢٢ بناء على فتوى دينية أعلن فيها رجال الدين الأتراك أن الدين للعبادة وأن الحكم من شأن رجال السياسة على ألا يخرجوا على الدين، ولم يقع الخلاف بين السلطة ورجال الدين إلا عندما قام أتاتورك بطرد أسرة العثمانيين، وتحول الخلاف بمرور الأعوام إلى دعوة متطرفة من نظام الحكم للتحرر من الدين استخدمت فيها السلطة العنف ضد رجال الدين خاصة بعد اكتشاف مؤامرة لاغتيال كمال أتاتورك في ١٥ يونيو ١٩٢٦ واتهام عدد من رجال الدين بالاشتراك فيها، ولكن بقيت في تركيا مراكز قوى ذات ثقل لدى الشعب حافظت على الدعوة إلى عودة الدين إلى مكانته الطبيعية.

ويعتبر باول شمتز أن اجتماع مئات الآلاف من المسلمين من جميع أنحاء العالم في مكان واحد في موسم الحج يخلعون عنهم كل خلاف سياسي ومذهبي ولا يذكرون إلا ما بينهم من رابطة الأخوة في العقيدة مما يؤكد وحدة المسلمين.

ويرصد باول شمتز أيضاً موجة التجديد في المجتمعات الإسلامية منذ انعقاد المؤتمر الإسلامي في عام ١٩٢٦ كبداية لانتزاع القوة العالمية للإسلام.

ويرى باول شمتز أن السلطة الدينية انفصلت عن السلطة السياسية الدنيوية بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . فقد حكم الخلفاء دون أن يدعى أحد منهم أن له الحق في القيام بما كان يقوم به النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ولكنهم مارسوا الحكم وتنظيم شؤون الدولة، ورعاية المسلمين، وإمامتهم في الصلاة، ويشرحون للناس تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يحاولوا الادعاء بأن لهم قداسة. أو أن فيهم صفات النبوة، أو أن لهم الحق في أن يضيفوا أو ينقصوا في الدين، فلم تكن لهم سوى السلطة الدنيوية وتنفيذ ما جاء في الكتاب والسنة وما فيه مصلحة المسلمين في شؤون حياتهم، ولم تكن للخليفة سلطة روحية كذلك التي يتمتع بها بابا روما. بل كان الفقهاء يتمتعون بالاستقلال في الفكر والفتوى عن الخلفاء والحكام في الدولة الإسلامية. ولم يكن للخلفاء



والحكام سلطة الإفتاء في الدين بل كانت لهم سلطة الحكم وإدارة شئون الدولة بما لا يتعارض مع مبادئ الدين. وكان علماء الدين لا يتولون سلطة الحكم، والحكام لا يتولون سلطة استنباط الأحكام الدينية، ويصل باول شمتز من ذلك إلى أن الفصل بين الدين والدولة كان قائماً في العالم الإسلامي منذ البداية، مع التزام الجميع بالأحكام والمبادئ الأساسية للإسلام.

هذا ما رآه باول شمتز، وإن كان من علماء المسلمين من يرى أن الخلفاء الراشدين كانت لهم اجتهادات في الدين يحكم معاشتهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومتابعتهم لنزول الوحي، واستيعابهم لروح الشريعة، ومن ذلك أن عمر أضاف صلاة التراويح في جماعة، وشرع حد شرب الخمر ثمانين جلدة واستعان بالإمام على في ذلك، ولم يكن لشرب الخمر حد قبل ذلك. كما أبطل عمر إعطاء الزكاة للمؤلفة قلوبهم وكانت تصرف لهم وفقاً لنص الآية. ومن الطبيعي أن تختلف رؤية باحث ألماني عن رؤية الباحثين المسلمين في مسائل دقيقة قد لا يكون لديه معلومات كافية عنها، أو لا يحسن فهم المعاني لاعتماده على المصادر الإسلامية مترجمة إلى لغات أجنبية قد تكون مبتورة أو غير دقيقة.



ويسجل باول شمتز مظاهر التقدم الحضارى في الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى بإنشاء المدارس والجامعات، حتى أصبح خريجو بعض هذه الجامعات في مستوى منظرائهم من خريجي جامعات أوروبا، وأسهموا في التطور الاقتصادي والاجتماعي في أوطانهم وتولوا الأعمال التي كانت وفقاً على الأوروبيين. وتقدمت بعض الدول الإسلامية في المجال العسكري وبناء جيوش حديثة. وأصبح في بعض الدول الإسلامية فائض من الخبراء والمثقفين يسهم في بناء نهضة الدول الأخرى. وازداد التعاون الثقافي والعلمي بين البلاد الإسلامية، فأصبح أمراً شائعاً عقد مؤتمرات دورية للأطباء والعلميين والمهندسين ورجال الأعمال والخبراء في الإدارة وفي مختلف المجالات الأخرى ويشارك فيها ممثلون من الدول العربية والإسلامية. وفتحت فروع للبنوك العربية والإسلامية في عدد من الدول الإسلامية دون عوائق. وأصبح تواجد الصحف ووصول الإذاعات وشبكات التلفزيون إلى أنحاء العالم الإسلامي عاملاً من عوامل التقريب بين الشعوب الإسلامية. وازدادت الدعوة في الدول العربية والإسلامية إلى الاعتماد على الذات والتصدي للأطماع الغربية، وكل ذلك يعنى أن العالم الإسلامي لم يعد لقمة سائغة للاستعمار الغربى كما كان في الماضى.



لكن باول شمتز يرى أن ظاهرة نمو السكان في العالم الإسلامي هي التي يمكن أن تؤثر في ميزان القوى بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي. ويشير إلى الدراسات التي دلت على أن السكان في

العالم الإسلامي لديهم خصوصية بشرية تفوق ما لدى الشعوب الأوروبية، ومن الممكن أن يؤدي تزايد السكان إلى نقل السلطة وتحول ميزان القوة العالمية نحو العالم الإسلامي.. هذا في الوقت الذي يعكف الباحثون في أوروبا على دراسة ظاهرة الانخفاض المستمر في عدد السكان وعدم نجاح وسائل التشجيع على زيادة النسل، ويرى أن القوة البشرية ستظل عاملاً من أهم عوامل قوة الدولة.

ويضرب باول شمتز مثالا بمصر فيقول: إن عدد سكانها عام ١٩٣٧ كان ١٦ مليوناً (وأصبح العدد ٧٢ مليوناً في عام ٢٠٠٤) ويقول: مع استمرار زيادة السكان على هذا النحو في مصر وثبات عدد السكان في أوروبا سيأتي يوم تتمكن فيه مصر من استعمار العالم (!) (ولا نحتاج إلى التنبيه إلى أن مثل هذه الحسابات تهدف غالباً إلى إثارة القلق في الغرب من النمو السكاني والحضارى في الدول الإسلامية) ويمضى باول شمتز في حسابات الزيادة السكانية في فلسطين، وسوريا، والجزائر، والمغرب، والسودان، وسائر الدول الإسلامية بالأرقام ليصل إلى أن هذه القوة البشرية ستكون في المستقبل عاملاً من عوامل القوة العالمية للإسلام والمسلمين، خاصة إذا أضيف إليها أن تفوق أوروبا في التكنولوجيا لن يستمر مع اتجاه الشعوب الإسلامية إلى التعليم والبحث العلمى والأخذ بمناهج العلوم الحديثة، ومع دخول الدول الإسلامية في مجالات الصناعة واستخدام المواد الخام التي كان يستغلها الغرب، ومزاحمة منتجات الدول الإسلامية للمنتجات الأوروبية شيئاً فشيئاً في أسواق الدول العربية والإسلامية، وتفتح أذهان العالم العربى إلى أهمية البترول.. كل ذلك أدى إلى تغير ملحوظ، وبعد أن كانت الدول الإسلامية فقيرة ومتخلفة اقتصادياً وثقافياً، ولم يكن لها أهمية سوى موقعها الجغرافى، ووجود الثروات الطبيعية في أرضها، أصبحت الدول الإسلامية على وعى بأهمية الاستفادة بثرواتها وإقامة صناعات بتروكيماوية وغيرها.. ولم تعد النظرية القديمة مؤكدة والتي كانت تقول: إن سيطرة شركات البترول الكبرى وتسلطها في العالم الإسلامى ستكون الضمان لتحويل الاستقلال السياسى للدول الإسلامية إلى مجرد واجهة تخفى وراءها استمرار الهيمنة بصورة أخرى. وإذا استمر معدل التقدم في الدول الإسلامية على ما هو عليه—دون أن ينتكس—فإن الدول الإسلامية سوف تخرج حتماً من دائرة الوصاية الأوروبية في وقت قريب. وإذا كان في الغرب من يرى عكس ذلك ويقول: إن هيمنة الغرب سوف تستمر مع اختلاف الشكل، حيث تكون الهيمنة الاقتصادية أساساً للهيمنة السياسية. وهؤلاء يرون أنه بإمكان دول الغرب أن تشعل المنافسة بين الدول الإسلامية ذاتها لكي تنشغل بها عن الصراع مع الهيمنة الغربية، ويمكن أن يدعوها إلى الاستعانة بالقوى الغربية فى صراعها هذا مع (الأخوة فى العقيدة)، فإن مسار الأحداث يثبت عكس ذلك فى كثير من الأحيان.



ويضرب باول شمتز مثلاً للهيمنة الاقتصادية الغربية على دول العالم الإسلامى بسيطرة الدول الغربية على آبار البترول، ومثلاً آخر بتحويل مصر إلى مزرعة للقطن لسد احتياجات مصانع

الغزل والنسيج فى بريطانيا. وكيف تحصل الدول المتقدمة فى الغرب على المواد الخام من الدول الإسلامية بثمن بخس، ثم تردها إليها بعد تصنيعها بأعلى الأسعار. فقد كانت الملابس المصنوعة من القطن - منذ زمن بعيد - أهم أنواع السلع التى تورد إلى بلاد الشرق الإسلامى. واحتلت إنجلترا المركز الأول فى تصدير ما تحتاج إليه هذه البلاد منها. وكانت فى المنطقة التى خلف ميناء ليفربول تقع مقاطعة لانكشير أكبر المراكز العالمية لصناعة القطن منذ نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وكانت مصانع لانكشير تستورد القطن الخام من غرب الهند، ثم فيما بعد بدأت تستورده من الولايات المتحدة فى منتصف القرن التاسع عشر. أى إنها كانت تعتمد على المواد الخام من مناطق ليست تحت سيطرة السلطة البريطانية مما سبب للصناعة فى لانكشير متاعب كثيرة خاصة عندما اندلعت الحرب الأهلية فى الولايات المتحدة فى ستينات القرن التاسع عشر فتأثرت زراعة القطن وتوقف تصديره، فأدى ذلك إلى توقف مصانع لانكشير، وعاشت هذه المنطقة بعمالها ورجال أعمالها أعواما صعبة من الجذب والفقر والبطالة. وهذا ما جعل بريطانيا تتجه إلى إدخال زراعة القطن فى المناطق الواقعة تحت نفوذها، خاصة بعد أن بدأت أمريكا نهضتها الصناعية بعد انتهاء الحرب الأهلية وأصبحت تستهلك إنتاجها من القطن لتغذية صناعاتها. هنا بدأت السياسة البريطانية فى الاعتماد على القطن من الهند، وإجبار الفلاحين فى مصر على التوسع فى زراعة القطن - على الأسس التى وضعها محمد على قبل ذلك بعشرات السنين - حتى صارت مصر أهم مركز لإنتاج أجود أنواع القطن، إلا أن هذه السياسة البريطانية جعلت مصر بلدا يعتمد على زراعة محصول واحد لصالح بلد واحد يتحكم فى الأسعار. ولم تستطع مصر إنتاج الطعام الذى يكفيها. ومما زاد من تبعيتها وفقدان استقلالها أن بريطانيا كانت تراقب المداخل والممرات ومنافذ الدخول للمواد التموينية المستوردة لكى تكون هى المصدر الوحيد لها. وأدخلت بريطانيا زراعة القطن فى مناطق أخرى خاضعة لنفوذها منها السودان، والعراق، والأناضول. كما قامت فرنسا بجهود مشابهة لتطوير زراعة القطن فى سوريا. ثم عملت ألمانيا أيضا على زيادة زراعة القطن فى إيران لتكون مصدرا لما تحتاج إليه الصناعة الألمانية. وتطورت زراعة القطن فى البلاد الإسلامية بمساعدة الخبراء الأوروبيين واحتلت مركزا اقتصاديا مهما، وأصبح إنتاج القطن مهما فى التجارة العالمية.

لكن صناعة القطن فى بريطانيا واجهت بعد ذلك مصاعب بسبب ظهور النزعة القومية للاستقلال الاقتصادى وبدء إقامة صناعات وطنية للغزل والنسيج فى الهند ومصر وغيرهما من الدول التى تعتمد عليها صناعة الغزل والنسيج فى لانكشير. وعانت بريطانيا من آثار نزعة الاستقلال الاقتصادى هذه؛ لأنها كانت تهدف إلى تحرير البلاد الإسلامية من التبعية للدول الغربية المتقدمة فى الصناعة، وإلى خلق فرص عمل لتحسين حياة الشعوب الإسلامية، وخفض أسعار السلع بتصنيعها فى أماكن إنتاج الخامات وتوفير تكلفة شحن الخامات إلى البلاد الصناعية وإعادة استيرادها بعد تصنيعها،

وهذا ما دعا الدول الكبرى إلى إنشاء مصانع لها في الدول الإسلامية للاحتفاظ بالسيطرة الاقتصادية وتأمين مصالحها التجارية. وحتى هذه السياسة واجهت مقاومة في بعض دول العالم الإسلامي ومنها مصر على سبيل المثال. ففي عام ١٩٣٧ أرادت شركة (Bred Dyers Association) بناء مصنع لها في مصر لتصنيع القطن المصري، للاستفادة من وجود الخام ورخص أجور الأيدي العاملة، ولكن مصر رفضت قيام مصانع أجنبية، وكان الرفض إجماعيا من الشعب والحكومة، لحماية شركات الغزل والنسيج المصرية الناشئة من المنافسة التي سترتب عليها تهديد الصناعة الوطنية والاقتصاد القومي، وكان الدافع لرفض إقامة مصانع أجنبية في مصر أن المصريين رأوا أنها ستؤدي إلى التأثير على الإرادة الوطنية الداعية إلى تصنيع البلاد. وكانت النتيجة أن تقدمت صناعة الغزل والنسيج في مصر وازداد عدد العاملين فيها سنة بعد أخرى، وبدأ الإنتاج المصري يكتسب شهرة عالمية.



وما حدث في مصر حدث في دول إسلامية أخرى، ففي تركيا صدر قانون رعاية الصناعة عام ١٩٢٩ وتضمن تقديم دعم مالي كبير من الدولة للقطاع الخاص، وأدى ذلك إلى زيادة عدد الشركات الصناعية في الفترة من ١٩٢٩ إلى عام ١٩٣٦ وتضاعف عدد الشركات ثلاث مرات في هذه الفترة القصيرة. كذلك قامت الدولة بإجراء مسح شامل للأراضي بحثا عن الثروات المعدنية والمواد الخام، وأنشأت أكبر بنك في تركيا لتمويل شركات البحث عن المعادن، وأصدرت قانونا لحماية الثروة المعدنية من الاستغلال الأجنبي، وكانت النتيجة اكتشاف أغنى مناطق الحديد في العالم في تركيا. كما بدأت تركيا تنفيذ خطة في عام ١٩٣٤ لخمس سنوات لإقامة صناعات النسيج، والتعدين، والورق، والحرير الصناعي، والزجاج، والصناعات الكيماوية، واشترطت أن يكون العمال كلهم من الأتراك. وبعدها نفذت خطة خمسية ثانية شملت صناعات تكرير البترول واستكمال بناء هيكل التصنيع، واستفادت بقرض من روسيا في صورة آلات للمصانع سددت قيمته بعد ٢٠ عاما. وساعد على الإسراع في تنفيذ الخطين مساهمة بنك تركيا (S'umerbank) في التمويل، وحصول المصانع الجديدة على دعم من الدولة، وكانت الخطة الخمسية الثانية بداية لإنشاء الصناعات الثقيلة في تركيا من أجل تلبية احتياجات الدولة في حالة الحرب.

وهذا أيضاً ما تكرر في إيران. وقد كانت سلطة الحكومة في دفع عملية التصنيع أقوى مما حدث في تركيا، فقد بدأت إقامة صناعات بترولية بتمويل من عائدات بيع البترول. واعتمدت الصناعة على المواد الخام المحلية. وتوسعت صناعات القطن والسكر. وقد أسست الحكومة الإيرانية البنك الزراعي الصناعي في عام ١٩٣٣ لتنفيذ مشروعات التصنيع، وركزت على البحث عن المعادن، وتم اكتشاف أنواع جيدة جدا من الحديد والنحاس.

وهكذا صاحبت اليقظة الدينية فى العالم الإسلامى نهضة اقتصادية وعمل كبير لتحقيق الاستقلال الكامل سياسيا واقتصاديا، وهذا ما أدى إلى انزعاج دول الغرب وتحول استراتيجيتها للسيطرة على العالم الإسلامى بأساليب جديدة مختلفة عن الأساليب التقليدية القديمة.



ويسجل باول شمتز أن مصر سبقت كل دول المنطقة فى مجال الصناعة، بهدف إنشاء صناعات وطنية تدعم استقلال الدولة وتستوعب الزيادة فى السكان، وقام بنك مصر بدور كبير فى إنشاء صناعات متعددة وتمويل الصناعات التى يقيمها القطاع الخاص، وساعد ذلك على قيام صناعات وورش كثيرة. وبعد ذلك أنشأت مصر بنك الصناعة، وسيطر على سياسة الحكومة الشعور القومى لذلك صاحب ذلك إجراءات لحماية المنتجات الوطنية. وفى أوائل عام ١٩٣٧ أعلن وزير المالية المصرى أمام البرلمان أن الحكومة قررت إنشاء مصانع لتصنيع الأسلحة لتغطية احتياجات الجيش المصرى، وأنها قررت الاستعانة جزئيا بالشركة البريطانية Imperial Chemicak Industry. وبدأت الحكومة أيضا فى إجراء مسح شامل للأراضى اكتشف من خلاله أن مصر غنية بالمعادن المختلفة، منها البترول، والزنك، والمنجنيز، وعرق الذهب، وفى عام ١٩٣٧ أنشأت مصر سد أسوان وقناطر أسيوط لاستخدام مساقط المياه فى النيل فى توليد الكهرباء لخدمة حركة التصنيع.

ونشطت حركة التصنيع أيضا فى دول إسلامية أخرى. ففى العراق قامت صناعات بتمويل من الدولة.

والخلاصة - كما يقول باول شمتز - أن موجة التصنيع انتشرت فى العالم الإسلامى، وكانت مصاحبة لموجة السعى إلى الاستقلال والتحرر من الاستعمار والتبعية للغرب. وفهم الغرب من ذلك أن العالم الإسلامى بدأ يستيقظ ويكتسب عوامل القوة، وأدرك أن عقيدة الإسلام سوف يرتفع صوتها. ونخلص نحن من ذلك، مما لم يقله باول شمتز، أن موجة العداء للإسلام فى الغرب لها أسباب عديدة؛ من بينها هذه اليقظة والنزعة للاستقلال مما يهدد الغرب فى مصادر ثروته وقوته: البترول، والأسواق، والموقع، وهى العوامل التى اعتمد عليها الغرب فى سيطرته على العالم، ولهذا فلن تسمح دول الغرب للدول الإسلامية بأن تصل إلى درجة من التقدم العلمى والصناعى والحضارى يقارب ما وصل إليه الغرب، ووسائل الغرب لتحقيق ذلك كثيرة منها: عقيدة حتمية الصراع مع الإسلام باعتباره الطاقة الروحية الكبرى المحركة للمسلمين التى تدفعهم إلى اكتساب القوة والشعور بالعزة ورفض الخضوع لأية قوة أجنبية. ومن هنا ظهرت النظرية السائدة فى الغرب بأن الإسلام هو العدو.



ويستمر باول شتمت في بحث العلاقة بين الإسلام والقوى العظمى، ويبدأ بروسيا لأنها في البداية كانت معادية للإسلام وللأديان عموماً وفقاً للنظرية الماركسية المادية التي تنكر وجود الله، وتقول: إن الدين أفيون الشعوب، لكنها أدركت دور الإسلام في الصراع مع الاستعمار الغربي، فسرعان ما غيرت موقفها الأيديولوجي، وأصدرت بياناً للمسلمين في ٢٤ نوفمبر ١٩١٧ - بعد ٦ أسابيع فقط من قيام الثورة الشيوعية - وجهت فيه نداءات للتحريض ضد الدخلاء الأجانب والاستعمار الغربي في العالم الإسلامي، وتضمن البيان نداء إلى المسلمين في روسيا جاء فيه: (لقد سقطت ممالك المغتصبين الرأسماليين، وإن الأرض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين. يا مسلمي روسيا. يا من خربت مساجدكم، نعلن لكم أن عقائدكم الدينية وشعائركم ومنشآتكم الحضارية والقومية ستصبح ابتداء من اليوم مصونة، ولن تمتد إليها يد آثمة. سوف تتمتعون بجو من الحرية وهذا حقكم).

وكان داخل حدود روسيا في ذلك الوقت ٢٠ مليون مسلم. وبعد ذلك وجهت الثورة البلشفية نداء إلى المسلمين خارج روسيا جاء فيه: (يا مسلمي الشرق: يا إيرانيون. يا أتراك. يا عرب. يا من قام المغتصبون الاستعماريون باستغلال ثرواتكم والاعتداء على حرياتكم وأوطانكم وقسموا بلادكم، وأشعلوا الحرب العالمية، إن الجمهورية الروسية ترفض الغزو المسلح لأراضي دولة أجنبية، وستسحب القوات الروسية فوراً من إيران، وإن معاهدتي تقسيم تركيا واغتصاب أرمينيا لم يعد لهما وجود. وكان هدف الشيوعيين عقد تحالف مع المسلمين لمقاومة الغرب الرأسمالي الاستعماري. وفي يناير ١٩١٨ أنشأت حكومة روسيا الجديدة (لجنة إسلامية مركزية) لتتولى شؤون المسلمين في روسيا، ثم في أرمينيا، وعقدت هذه اللجنة مؤتمراً في ديسمبر ١٩١٨ بهدف إنشاء خلايا شيوعية في الدول الإسلامية، وتكونت خلال هذا المؤتمر (رابطة تحرير الشرق) وتأسست فعلاً في عام ١٩٢٠ مدرسة عليا في طشقند لتدريب الكوادر الشيوعية وتعليمهم لغات الدول الإسلامية، وأصبحوا مندوبين للحزب الشيوعي للتحريض على الثورة ضد الاستعمار الغربي ونشر الشيوعية. وفي عام ١٩٢٠ نظمت الحكومة الروسية مؤتمراً في (باك) ووجهت الدعوة إلى ٢٥٠٠ من بلاد العالم الإسلامي وحضر منهم ١٨٠٠، لأن بريطانيا منعت المدعوين من الهند وإيران والعراق وغيرها، وانقسم الحاضرون إلى فريقين: فريق يرى أن الثورة ضد الاستعمار هي مرحلة تؤدي إلى الثورة الاشتراكية في الدول الإسلامية، وفريق يرى أن مساندة روسيا للثورات الوطنية وحركات التحرير ضرورية، أما مسألة التحول إلى الشيوعية بعد ذلك فهي مرفوضة للتعارض الجوهرى بين الإسلام والفلسفة الماركسية المادية. ورفض معظم المشاركين ما كان مطروحا في المؤتمر من الربط بين الإسلام والشيوعية واعتبارهما وجهين لعملة واحدة. كما قيل. ورفضوا التحليل الذي كان معدا لهم بأن الإسلام يدعو إلى المساواة وإلغاء الفوارق بين الطبقات وفقاً للنظرية الماركسية ولذلك فإنه يتفق

مع الفكر الشيوعي، وهذا ما يجعلهما شيئا واحدا. وكان هذا الرفض هو الذى أعاق انتشار الفكر الماركسى فى البلاد الإسلامية، لأن الفكر الاجتماعى، والمساواة، والعدالة الاجتماعية فى الإسلام قائمة على أساس عقيدة مختلفة عن العقيدة التى قامت عليها النظرية الشيوعية.



وساعدت روسيا شعب أفغانستان على مقاومة الاحتلال البريطانى فيها وكانت أفغانستان تحت الوصاية البريطانية - وأسست (حركة الاستقلال الوطنى الأفغانى) وتم اغتيال الأمير حبيب الله حاكم أفغانستان عميل الإنجليز، وتولى شقيقه الحكم وكان مواليا لروسيا فتدفقت الأسلحة الروسية إلى أفغانستان، واضطرت بريطانيا تحت ضغط المقاومة المسلحة إلى التنازل عن تمثيل أفغانستان فى السياسة الخارجية، ثم وافقت على قيام (المملكة الأفغانى) ومنحها الاستقلال فى شئونها الداخلية والخارجية، ووقعت فى نوفمبر ١٩٢١ معاهدة فى كابول بإنهاء الوصاية البريطانية على أفغانستان. وسارعت روسيا بالاعتراف باستقلال أفغانستان، وتوطدت بعد ذلك الصداقة الروسية الأفغانى إلى أن وقعت أفغانستان معاهدة تحالف مع روسيا فى فبراير ١٩٢١، ونصت على التزام الطرفين بعدم عقد معاهدة مع طرف ثالث يمكن أن تضر بمصالح الآخر، وأعطت هذه المعاهدة روسيا الحق فى إنشاء خمس قنصليات فى مدن أفغانستان، بالإضافة إلى السفارة الروسية فى العاصمة كابول، وتعهدت روسيا بتقديم مساعدة مالية لأفغانستان قيمتها مليون روبل من الذهب سنويا، وهو ما يوازى المساعدة التى كانت تقدمها بريطانيا للأمير السابق. وفيما يتعلق بالمنازعات على الحدود تنازلت روسيا عن مناطق الحدود التى ضمتها أفغانستان من أراضى بخارى، وروسيا، وفى مقابل ذلك التزمت أفغانستان بأن توجه خطوط مواصلاتها، عبر روسيا فى الشمال وليس عبر الهند كما كان من قبل.

كل ذلك ولم تحقق روسيا هدفها الحقيقى وهو تحويل أفغانستان، أو تركيا، أو إيران، أو مصر، أو أية دولة إسلامية لتصبح دولة شيوعية تطبق الماركسية اللينينية. ذلك لأن الإسلام كان هو السياج الذى حمى هذه البلاد من الشيوعية، ولم تحقق روسيا سوى إنشاء خلايا شيوعية سرية محدودة لم تؤثر فى الحياة السياسية أو فى العقيدة فى العالم الإسلامى.

ولعل هذا التاريخ القديم للاستعمار البريطانى ثم الاحتلال الروسى لأفغانستان يفسر لنا لماذا جاء الاحتلال الأمريكى لأفغانستان.. فهذه الدولة فى موقع استراتيجى حاكم فى آسيا ووجود أمريكا فيها يجعلها شوكة فى جنب روسيا والصين، ويضمن استمرار نفوذها فى الدول الإسلامية المحيطة.. وهذه هى الأسباب التى جعلت أفغانستان مطمعا للقوى الكبرى التى تظهر فى كل مرحلة من مراحل التاريخ .





وفى سياق استعراض علاقة القوى الكبرى بالعالم الإسلامى فإن بريطانيا كان لها دور كبير فى تخلف العالم الإسلامى باحتلالها لعدد من الدول المهمة مثل مصر والعراق ودول الخليج، كما كان للاحتلال الفرنسى دور فى تخلف دول إسلامية أخرى مثل الجزائر وسوريا ولبنان. وقد أدى الاحتلال إلى ترسيخ العداء من الجانب الإسلامى للغرب باعتباره قوة استعمارية هدفها استغلال الدول الإسلامية والسيطرة على مقدراتها، وهذا ما أدى إلى قيام الثورات الشعبية ضد الاحتلال. وبعد سنوات من النضال سقط فيها ملايين الشهداء اضطرت القوى الاستعمارية إلى أن تتراجع عن مخططاتها القديمة، وتحولت من الاحتلال العسكرى إلى السيطرة الاقتصادية واستنزاف الثروات بطرق مختلفة من الدول الإسلامية. وفى كل الثورات كان الإسلام هو العامل الأساسى الذى أيقظ فى الشعوب الرغبة فى الاستقلال والحرية. وهذا ما حدث أيضا فى إيران التى انتفض شعبها بالثورة على الاحتلال البريطانى.

ولقد كان العالم الإسلامى ميدانا من أهم ميادين الحرب الباردة بين الكتلتين السوفيتية والغربية، وظل السباق مستمرا بين الكتلتين للسيطرة على الدول الإسلامية إلى حين انتهاء الحرب الباردة وانتهاء الاتحاد السوفيتى.

ومن الطريف أن الدول الغربية التى أرسلت جيوشها لغزو الدول الإسلامية واحتلالها، كانت تدعى أنها تحترم الإسلام وتسعى إلى حمايته، ومن أمثلة ذلك ما فعله نابليون حين قاد جيوشه واحتل مصر واقتحم جنوده الأزهر وغيره من المساجد بالخيل والأحذية، فقد أصدر نابليون بيانات يدعى فيها أنه يحترم الإسلام ويؤمن به بل قال فى أول بيان له بعد نزول جيشه فى الإسكندرية: (نحن المسلمون حقاً)! والأكثر من ذلك أن بعض قادة جيش الاحتلال الفرنسى أعلنوا إسلامهم وتزوج أحدهم وهو الجنرال مينو من سيدة مسلمة من رشيد اسمها زبيدة، وأسمى نفسه عبد الله مينو، لكن ذلك لم يخدع الشعب المصرى ولم يخمد ثورته على الاحتلال والمحتلين.



وعندما قام موسولينى برحلته إلى ليبيا عام ١٩٣٣ ليتفقد قوات الاحتلال الإيطالى فيها، حاول أن يكسب الإسلام إلى جانبه فأعلن فى تصريحاته العلنية بأنه صديق للإسلام والمدافع عنه. وكان ذلك أشبه بما فعله القيصر ويلهالم الثانى فى عام ١٨٩٨ إذ أعلن هو الآخر أنه حامى حصى الإسلام، وبعد الاثنى زار المندوب السامى البريطانى السابق فى مصر اللورد لويد أحد المساجد فى لندن وألقى فيه خطبة أشاد فيها بمكانة الإسلام بين القوى العالمية وأهمية أن تعود القوة إلى الإسلام والمسلمين مرة أخرى، وكان مما قاله اللورد لويد: (أعتقد أن الإمبراطورية لا يمكنها البقاء دون حماية كاملة من المسلمين فى جميع أنحاء العالم. وفى اعتقادى أن الإسلام بإمكاناته الروحية قوة من القوى



السياسية في العالم، وسوف أعمل كل ما أستطيع لتوجيه بريطانيا نحو إنشاء علاقات ود وصداقة مع الإسلام ومع المسلمين في كل مكان من العالم).

قبل ذلك، حين كان اللورد لويد ممثلاً للاحتلال ويحتل منصب المندوب السامي البريطاني في مصر كان مثالا للقسوة والفظاظة في تعامله مع المصريين، التي أدت إلى وقوع خلافات حادة بينه وبين الوطنيين المصريين مما اضطر الحكومة البريطانية إلى استدعائه وتعيين آخر مكانه، ولهذا اعتبر البعض أن ما قاله في خطبته في مسجد لندن مفاجأة لم يتوقعها أحد، خاصة وهو أحد الأعضاء المتشددين في الجناح اليميني لحزب المحافظين، لكن المصريين لم يبتلعوا الطعم، وكان رد فعل الصحافة المصرية رافضا لهذا الموقف الراوغ لأن عداؤه للإسلام والمسلمين كان معروفا جيدا لكل المصريين، ولم يخرج عن ذلك رد الفعل في بقية الدول الإسلامية. وفسر المصريون التغيير في موقف اللورد لويد إلى إحساس البريطانيين بالأخطار التي تهدد وجود قوات الاحتلال البريطانية في الدول الإسلامية، وإلى انزعاج الغرب من نشاط اليابان في ذلك الوقت واهتمامها بالإسلام، وصاحب ذلك تنامي القوة الذاتية في عدد من الدول الإسلامية ومنها مصر. ونشرت إحدى الصحف المصرية تعليقا قالت فيه: (إن الصداقة بين دولة الاحتلال والشعوب الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال لا تخرج عن أن تكون علاقة بين السيد والخدام، أو بين القوى والضعيف، مقصود بها خضوع أحد الطرفين للآخر، ولن يقبل المسلمون صداقة بهذا المعنى. وقالت: إنه من الأخطاء الجسيمة أن يعتقد الغرب أن الشرق الإسلامي راضٍ بوضعه الحالي وأن ملايين المسلمين سوف يحنون رءوسهم أمام تفوق قوى الغرب المادية، فهذا الانحناء مؤقت، وسيأتي وقت يصبح فيه المسلمون قادرين على طرد الاستعمار الأجنبي، فإذا تحدث الغرب اليوم عن الصداقة فيجب أن يقبل صيغة أخرى مخالفة لما يريده الغرب، وأن يقدم أدلة مقبولة على طي صفحة الاستعمار وفتح صفحة جديدة قائمة على الاحترام قبل أن ينتظر موافقة المسلمين على هذه الصداقة).

وهكذا كانت تعليقات الصحافة المصرية، ويعلق على ذلك باول شمتز قائلا: إنها تدل على طابع تفكير المسلمين في تلك الفترة، ويشير إلى أن العالم الإسلامي يتأهب للوثوب والنضال، وأن الشعور بالنقص الذي تولد في نفوس المسلمين نتيجة للهزيمة العسكرية والسياسية قد انتهى وحلت مكانه إرادة للبناء وعدم التفريط في شيء للمستعمر.



ويستشهد باول شمتز على اليقظة الإسلامية بما حدث في وسط أفريقيا التي كانت ساحة النضال بين الإسلام والغرب، حيث أحاطت بعثات التبشير المسيحية الغربية بسكان هذه المناطق، ومع ذلك فإن الزحف الروحي الإسلامي امتد وضاعت جهود المبشرين، وانتشر الإسلام لبساطته

وتناوله لأمر الدين والدنيا معا، وهذا ما أثار مخاوف الغرب من أن يكتب الفشل النهائي للبعثات التبشيرية، وخاصة أن انتشار الإسلام كان يصاحبه انتشار روح المقاومة للاستعمار الأجنبي وإيقاظ حركات التحرر الوطني والاجتماعي.



ويرى باول شمتز أن مأساة الحرب العالمية الأولى قد هزت أوروبا من الأعماق، فأدركت بعدها مدى الخسارة التي تكبدتها بسبب هذه الحرب في الشرق الإسلامي، ولذلك بدأت في إعادة تكوين الجبهة الأوروبية الداخلية من جديد حتى تستعيد قدرتها على التحكم في توجيه مجرى التاريخ. كما بدأت أيضاً في تعويض ما فقدته كقوة سياسية وثقافية، لها دور أساسي في السياسة العالمية، ومن هنا ظهرت فكرة الوحدة الأوروبية، وكان ظهورها بعد نشأة فكرة الوحدة الإسلامية، ومع ذلك فقد سارت الوحدة الأوروبية نحو هدفها خطوة بعد خطوة دون أن تفقد مسارها على مدى السنين، بينما تراجعت فكرة الوحدة الإسلامية. وإن كانت الوحدة الأوروبية لم تتم على أساس وحدة العقيدة الدينية، أو وحدة اللغة، أو الأصل العرقي الواحد، إذ بين الدول الأوروبية خلافات واختلافات كثيرة، ولكنها قامت على أساس الوحدة الجغرافية ووحدة المصالح الاقتصادية والسياسية.

ويرصد باول شمتز ظاهرة قد تخفى عن كثير من الباحثين، وهي خوف أوروبا من الشعوب الأفريقية والآسيوية، وتزايدهم السكاني الذي يمكن أن يصبح عاملاً من عوامل القوة إذا أحسنوا توجيهها في بلادهم، وكذلك الخوف من هجرة الأفريقيين والآسيويين والمسلمين إلى أوروبا، فإن مجرد وضع أقدامهم في الدول الأوروبية يمكن أن يؤدي مع الزمن إلى تغيير الطبيعة السكانية في هذه الدول وتغيير الطابع الحضاري والثقافي المميز لها، ونشوب صراع بين القيم الأوروبية والقيم التي يعمل هؤلاء المهاجرون على غرسها في المجتمع الأوروبي.

وفي نفس الوقت فإن باول شمتز يلاحظ أن العالم الإسلامي يستعيد الثقة بالنفس، وتزداد طموحاته لتعويض سنوات التخلّف، وهذا ما جعل بعض المفكرين في الغرب يتوقعون دورة جديدة للتاريخ يمكن أن يعود فيها العالم الإسلامي إلى سابق عهده حين كان قوة سياسية وعسكرية وثقافية في مواجهة الغرب. ويتحدث باول شمتز عن المستقبل كما يراه فيقول: إن قوة العالم الإسلامي سوف تثبت وجودها إذا أدرك المسلمون كيفية استعادتها والاستفادة بها، وحين يحدث ذلك فسوف تنقلب موازين القوى في العالم.

وقد أدرك المفكر البريطاني (هيلير بيلوك) (Hilaire Belloc) مدى فاعلية هذه القوة حين قال: (لا يساورني شك في أن الحضارة التي ترتبط، وتتماسك أجزاؤها، وتحمل في داخلها قوة عقيدة

مثل الإسلام، ستكون خطراً على أعدائها، وربما يقال: إن العالم الإسلامي فقد الكثير من عوامل القوة وأهمها العلم، والتكنولوجيا، وصناعات السلاح الحديثة، وهذا صحيح، وهو أمر يثير الحيرة، لأن العالم الإسلامي قادر على تعويض ما فاتته، ولديه قدرات بشرية وثروات طبيعية وعقلية المسلمين لا تعجز عن التفوق في العلوم الطبيعية والهندسية وغيرها بدلاً من أن يظل تفوق المسلمين في العلوم اللغوية وتفسير النصوص فقط. وعموماً فليس من المستحيل أن يستعيد العالم الإسلامي تفوقه العلمي والمادي، ولكن سيكون من الصعب على العالم الغربي أن يستعيد الطاقة الروحية التي فقدتها وأصبح غارقاً في عبادة المادة).

ويعلق باول شمتز على الفكر البريطاني (هيلير بيلوك) فيقول: يبدو أن ما يقوله هذا المفكر عن استعادة العالم الإسلامي سوف يتحقق يوماً ما، ولن يكون هذا اليوم بعيداً جداً، فقد بدأت بعض الدول الإسلامية في بناء هيكل سياسى ونهضة علمية وهما أهم عناصر القوة بالإضافة إلى الموقع الاستراتيجى. وكلما سار العالم الإسلامى على هذا الطريق أصبح قادراً على التعامل مع القوى العظمى فى العالم دون تردد، ودون شعور بالنقص، ودون خوف مما لدى دول الغرب من قوة تضمن له فى هذه المرحلة تفوقه الاستراتيجى.



والغريب أن باول شمتز بعد كل هذا التفهم والتعاطف مع العالم الإسلامى، وبعد رؤيته المتفائلة لمستقبله وقدرته على استعادة القوة والتعامل مع القوى الكبرى على أساس جديد تنتهى معه سنوات التبعية والاستغلال، فإنه يوجه نداء إلى الدول الغربية قائلاً: إن انتفاضة العالم الإسلامى صوت نذير لأوروبا، ولا بد لها من التجمع والاستعداد لمواجهة هذا العملاق الإسلامى الذى بدأ يصحو وينفض النوم عن عينيه!

وهذا يعنى أن بعض المدافعين عن الإسلام بحرارة لا يستطيعون إخفاء مشاعر الخوف من أن يعود العالم الإسلامى إلى عصور ازدهاره، ويدخل كشريك فاعل مع القوى الكبرى فى التقدم الحضارى وفى توجيه السياسة العالمية وفق معادلة جديدة لا يكون فيها طرف قوى غالب وطرف ضعيف مغلوب.

وأعتقد أن هذا النداء الذى وجهه هذا المفكر الألمانى إلى الغرب هو فى ذات الوقت نداء إلى العالم الإسلامى يدعو إلى اليقظة، والحذر، والعمل، والتماسك، ويجب أن تستوعب مغزاه العقول.

ومع ذلك فإن شمتز يناقش بموضوعية النظرية التى يرددها بعض مفكرى الغرب، التى تقول: إن الإسلام لا يتقبل نظم الحكم الديمقراطية، وأنه حين يأمر المسلمين بطاعة الله والرسول وأولى الأمر فإنه يفرض عليهم الطاعة لله وللحاكم، ويسوى بين طاعة الله ورسوله وطاعة الحاكم

وهذا المفهوم لا يتفق مع مفهوم الديمقراطية الذي يجعل السلطة للشعوب، فهي التي تختار الحاكم بالانتخاب المباشر، وتختار ممثليها في البرلمان الذين يتولون سلطة التشريع وتوجيه ومحاسبة الحاكم.

ويرد على ذلك بأن الإسلام يتوافق مع نظم الحكم في كل عصر، وعندما كان الحكم للخلفاء الراشدين كان اختيارهم بصورة من صور الانتخاب الحر المباشر وكانوا يسمونها (البيعة) وكان للشعب سلطة الرقابة ومحاسبة الحكام، والدليل على ذلك ما قاله الخليفة عمر بن الخطاب للناس: (إن رأيتم في أعوجاجا فقوموني فوقف رجل من عامة الناس وقال له: (لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناك بسيوفنا يا عمر) ولم يغضب عمر، ولم يعاقب الرجل على جرأته، ولكن قال: الحمد لله الذي جعل فيكم من يقوم عمر بسيفه (!).) هذا الموقف يجسد نموذجاً للديمقراطية لا نجده في تاريخ الدول الغربية في أي عصر من العصور القديمة أو الحديثة. وهو دليل على أن الإسلام سبق إلى تطبيق الديمقراطية وإن لم يكن يستخدم هذا اللفظ الذي لم يدخل في القاموس السياسي إلا في العصر الحديث.

والدليل على رفض الإسلام لاستبداد الحكام ظهور الحركات الوطنية مثل حزب القوميين الأتراك (تركيا الفتاة) والقوميين المصريين (مصر الفتاة) وأمثالهما واشتداد المقاومة ضد الباب العالي وإنهاء الحقبة التاريخية التي كانت فيها الخلافة العثمانية تحكم وتدعى أنها تحكم باسم الإسلام، وأن الخارج على سلطتها خارج على الإسلام، وبهذه الثورات الشعبية انتهى عصر الاستبداد والحكم المطلق للدولة العثمانية، وبدأ تنفيذ سياسات للإصلاح في الدول الإسلامية لحد من سلطة استبداد الحكام وإنهاء نظم الحكم التي تضي على نفسها ثوبا إلهيا، وظهرت مكانها نظم أقرب إلى الديمقراطية تعطي للشعوب حق ممارسة السلطة، وأخذت بعض الدول الإسلامية نموذج الديمقراطية الغربية دون أن ترى فيه ما يتعارض مع مبادئ وجوهر الدين الإسلامي، ومع مشاركة الشعوب في الحكم وتقرير مصير بلادها شاركت في الدفاع عن حرية بلادها ومقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وأخذت حركات التحرر في الدول الإسلامية بكثير من فكر الغرب. ولا شك أن تطبيق نظم التعليم وبناء الجيوش والمدن وغيرها من أوجه الحياة وفقا للنظم الغربية قد ساعد على تقدم العالم الإسلامي وانفتاحه على العالم بحيث اقتربت بعض الدول الإسلامية من الدرجة التي وصلت إليها بعض الدول الأوروبية. ولقد تنبه غالبية المسلمين إلى أن الإسلام ليس طقوسا للعبادة فقط، ولكنه - في حقيقته - روح تدفع المؤمنين به للعمل والتقدم ومسايرة حركة التطور والتجديد العالمية، وهذا ما بلوره بعد ذلك الزعيم مصطفى كامل، والمفكر الإسلامي المجدد جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، وامتدت جذور هذه النهضة بعد ذلك فأثمرت العديد من المفكرين المجددين في العالم الإسلامي من أمثال محمد إقبال مؤسس دولة باكستان الحديثة.

وإذا كان فى الغرب من يرى أن الإسلام يرفض الديمقراطية والتطور والحدثة، فإن من بين المسلمين من يردد ذلك وإن كانوا قلة، بينما نجد فى الغرب مفكرين يرون أن الإسلام قوة للتقدم وليس للتخلف، ودعوة للقوة وليس للتخاذل والضعف، ودافعا للتقدم للأمام وليس للتراجع للخلف. والحديث الشريف يقول: «المؤمن القوى خيراً وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»، فالإسلام فى جوهره دعوة للقوة بكل عناصرها ومقوماتها وأدواتها، والقول بغير ذلك جهل بالإسلام وإساءة إليه.



## راهبة تدافع عن الإسلام !

كان سلمان رشدى وروايته (آيات شيطانية) أكبر تعبير عن العداء للإسلام، ولذلك حقق من هذه الرواية أرباحاً تفوق الخيال وحظى باهتمام إعلامى لا مثيل له، لأنه قدّم للتيار المعادى للإسلام فى الغرب مادة تبرر الحرب على الإسلام والمسلمين، بعد أن صور الإسلام فى روايته على أنه دين القتل والإرهاب، وأشار إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - (ماهاوند) ليشير إلى أنه نبي مزيف، مصاب بالهلوسة، وتأتيه نوبات من الصرع يدعى أنها الوحي. ويصور زوجات الرسول (صلى الله عليه وسلم) - أمهات المؤمنين (رضى الله عنهم) - على أنهن غانيات يعملن فى بيت للدعارة اسمه (الحجاب) وكبيرتهن تروى كيف تزوجها النبي (صلى الله عليه وسلم) هى والسيدة عائشة فى يوم واحد.

ويصور سلمان رشدى فى روايته مكة على أنها مدينة الجاهلية، والرسول (صلى الله عليه وسلم) على أنه نبي الجاهلية، وجبريل عليه السلام على أنه مؤيد للواط، وأن الشيطان خدع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأجرى على لسانه آيات تجعل لأوثان الجاهلية شفاعة، ويدعى أن الصحابي الجليل سلمان الفارسي - رضى الله عنه - قام بخداع الرسول وتزوير الوحي.

وسلمان رشدى ليس كاتباً كبيراً على أية حال، وروايته. بإجماع النقاد.. ركيكة ومفككة، ولكنه - مع ذلك - نال شهرة عظيمة ربما تنافس شهرة كبار كتاب الغرب من أمثال هيمنجواي، وأندريه جيد، لمجرد أنه أساء إلى الإسلام، وزاد من قيمته عند أعداء الإسلام أنه كان مسلماً وارتد عن الإسلام. باع دينه بعد أن هاجر من بلده - الهند - ليعيش فى بريطانيا ويحصل على الجنسية البريطانية، وكانت هذه الرواية هى الثمن الذى دفعه وحصل فى مقابله على شهرة عالمية وعلى ملايين الدولارات، واستضافة مفتوحة فى الولايات المتحدة..

ولكن سلمان رشدى على أية حال ليس الأول أو الأخير فى سلسلة أعداء الإسلام، ومع كثرة أعداد هؤلاء الأعداء على مدى التاريخ منذ بداية ظهور الإسلام وحتى اليوم، فإن الإسلام يثبت كل يوم أنه

أقوى من كل أعدائه، وأن الله هو الذى أنزل القرآن وهو الذى يحفظه ويحفظ دينه من سهام العداء والأعداء. وهو - سبحانه - الذى يوحى إلى بعض أصحاب الضمائر فى الغرب ليدرسوا هذا الدين بموضوعية ويقولوا عنه، وعن رسوله، كلمة الحق.

ومن هؤلاء المنصفين للإسلام الكاتبة البريطانية - أيضا - كارين أرمسترونج (Karen Armstrong) وهى فى الأصل راهبة، تحولت إلى البحث فى تاريخ الأديان، وقد تركت الرهبة بعد أن وجدت أن حياة الأديرة لا تناسب طبيعتها وتمسكها بحرية التفكير للوصول إلى الحقيقة دون ضغط عليها. وقد توصلت إلى أن هناك قاسما مشتركا بين الديانات الثلاثة وأن القيم الجوهرية فى كل الديانات واحدة.

وكارين أرمسترونج تقدم الدليل للغرب على أن الإسلام دين من عند الله، وأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) رسول بعثه الله بدين الإسلام، وأن هذا الدين للبشر جميعا - وليس للعرب وحدهم - وبموضوعية ملحوظة قامت بتصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام.. وقد اتخذت من ردود فعل المسلمين إزاء كتاب سلمان رشدى (آيات شيطانية) ومبالغة الغرب فى الدعاية لهذا الكتاب، منطلقا لكتابها (محمد: سيرة النبى)، ولحسن الحظ أن هذا الكتاب ترجمه إلى العربية اثنان من أكفأ المترجمين وأكثرهم خبرة ودقة هما الدكتورة فاطمة نصر، والدكتور محمد عنانى، وقدا للكتاب بمقدمة مهمة قالا فيها: إن حافزهما على ترجمة هذا الكتاب ليس الزهو بذلك الصوت الغربى المسيحى الذى حاول إنصاف الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقدم شهادة موضوعية عنه وعن الإسلام، فهما لن تضيرهما عداوة أو تنصفهما صداقة أجد. والكتاب موجه إلى القارئ الغربى وليس إلى القارئ العربى المسلم، فلن يضيف إليه جديدا، ولكنه نموذج للكتابة الموضوعية غير المتحيزة. خاصة وأنها تكشف فى هذا الكتاب التناقض فى العقلية الغربية بين ادعائها بأنها عقلية علمية وموضوعية ومحيدة، وبين تحيزها المبدئى ضد الإسلام ورسوله دون دراسة أو تحليل كافيين لعقائد الإسلام وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتاريخ الحضارة الإسلامية.



فى مقدمة الكتاب تسجل كارين أرمسترونج كيف أصبح الدين من جديد قوة لم تكن تخطر على بال الذين كانوا يفترضون أن الدين خرافات بدائية تجاوزها الإنسان، وكانت تجليات القوة للدين فى البلاد التى كانت تنتمى إلى الاتحاد السوفيتى وعاشت سنوات طويلة فى ظل سياسة الإلحاد الرسمية. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى عاد أهل هذه البلاد إلى ممارسة شعائرهم الدينية. وفى الغرب ظهرت نزعة العودة إلى الدين بل والتشدد فيما يعرف بالأصولية الدينية، واكتسب الإيمان الدينى طابعا سياسيا حادا. وذلك دليل على أن الناس يحتاجون إلى الدين وإلى الإيمان، بحيث



يمكن القول بأن (الغريزة الدينية) هي أهم غرائز الإنسان، وهذه الغريزة - مثل غيرها من الغرائز - يمكن تسخيرها للخير أو للشر. وقد بدأت تنهار حواجز الخوف التي تفصل بين الأديان، ويحاول علماء اليهودية والمسيحية الآن التوصل إلى التفاهم بعد عداوة المسيحيين للسامية، ولكن لا يزال الإسلام - وهو أحد الأديان الثلاثة الكبرى - خارج دائرة هذه النوايا الطيبة، وما يزال مرتبطاً بنظرة سلبية، مع أن بعض الديانات غير السماوية مثل البوذية، والتاوية، وغيرها من عقائد الشرق الأقصى ينظر إليها في الغرب بتعاطف لا يحظى به الإسلام مع أنه الدين الأقرب إلى تراث اليهودية والمسيحية.

تقول كارين أرمسترونج: إن لدينا في الغرب تاريخاً طويلاً من العداوة للإسلام، راسخ الجذور، ولم يعد يمنع الناس شيء عن مهاجمة هذا الدين حتى لو كانوا لا يعرفون عنه غير أقل القليل. ويرجع هذا العداوة إلى الفترة التي نشأت فيها الإمبراطورية الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وكانت أوروبا منطقة متخلفة، وامتدت الفتوحات الإسلامية بسرعة إلى معظم مناطق العالم المسيحي في الشرق الأوسط، وإلى الكنيسة المسيحية العظيمة في شمال أفريقيا، وكان زحف الإسلام بهذه القوة والسرعة خطراً داهماً يتهدد الغرب، إذ تساءلوا: هل تخلى الله عن المسيحيين ومنح رضاه لهؤلاء (الكفار)؟ وحتى بعد أن خرجت أوروبا من عصورها المظلمة وأنشأت حضارتها العظيمة ظل لديها الخوف من توسع الإمبراطورية الإسلامية، خاصة وقد تأكد لأوروبا عجزها عن التأثير في تلك الثقافة القوية، وكان الفشل هو نهاية المشروع الصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ولم يلبث العثمانيون أن جاءوا بالإسلام إلى داخل أوروبا نفسها، وكان من المحال على المسيحيين الغربيين أن يلتزموا بالعقلانية أو الموضوعية تجاه العقيدة الإسلامية، فكانوا ينسجون من خيالهم صوراً مخيفة عن اليهود، ويرسمون في نفس الوقت صورة شائنة (قبيحة) للإسلام تعبّر عن الشعور بالقلق في أعماقهم من هذا الدين.

وتقول كارين أرمسترونج: إن علماء الغرب كانوا يهاجمون الإسلام ويصفون محمداً (صلى الله عليه وسلم) بأنه المدعى الأكبر، ويتهمون به بأنه أنشأ ديناً قائماً على العنف والسيوف لفتح العالم، وحرفوا اسم محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى (ماهوميت) تعبيراً عن كراهيتهم للاسم ولصاحبه، وقد أصبح اسم (ماهوميت) البعيع الذي يخيف الناس في أوروبا حتى إن الأمهات كن يستعملن الاسم لتخويف أطفالهن. وكانت المسرحيات الغربية تصور (ماهوميت) ودعوته في صورة العدو للحضارة الغربية، حتى أصبحت هذه الصورة الزائفة للإسلام من الأفكار الراسخة التي لا تزال تؤثر حتى اليوم في آراء ونظرة الغربيين إلى العالم الإسلامي. وزاد من تعقيد المشكلة أن المسلمين قابلوا عداوة الغرب لهم بالعداوة للغرب.



وتدلل كارين أرمسترونج على خطأ التصور الشائع في الغرب عن الإسلام على أن مبادئه في جوهرها تدعو إلى العنف والتعصب، وتقول: إن ما يقال عن أن الإسلام دين عدائي يحمل في دعوته الكراهية للغرب غير صحيح، والدليل على ذلك أن المسلمين عندما التقوا بالغرب الاستعماري في القرن الثامن عشر شعر معظمهم بالانبهار بحضارة الغرب وحاولوا تقليدها. ولكن هذا الإعجاب زال كما زال الحماس لتقليد الغرب بعد أن قاسى المسلمون من الظلم والاستغلال من الاستعمار الغربي. وكان ذلك هو السبب في ظهور الأصولية الإسلامية المعادية للغرب رداً على الأصوليات الغربية المعادية للإسلام.

وترى كارين أرمسترونج أن القرن العشرين شهد في أواخره نمو الأصوليات في كل الديانات تقريباً، السماوية منها وغير السماوية، فقد خرج الأصوليون الهندوس ضد المسلمين في الهند، كما بدأ الأصوليون اليهود في بناء المستوطنات على الأراضي التي اغتصبوها في الضفة الغربية وغزة وأقسموا على أن يطردوا العرب من الأراضي المقدسة. ونجح في الولايات المتحدة القس المسيحي الأصولي جيرى فالويل واليمين المسيحي الجديد في جذب أعداد كبيرة من الأمريكيين منذ الثمانينات من القرن العشرين وحتى اليوم، ويدعو للدهشة النمو الهائل لهذا التيار وتأثيره على السياسة الأمريكية. وهذا يعني أن الأصولية ظهرت في جميع الديانات في موجة واحدة في أنحاء العالم، ومن الخطأ القول بأن المتطرفين الإسلاميين هم الذين يمثلون عقيدة الإسلام، وكذلك من الخطأ القول بأن آية الله الخميني هو التجسيد للإسلام، بنفس القدر الذي يجعلنا نرفض القول بأن الحاخام المتطرف مائير كاهانا بسياساته غير الأخلاقية كان التجسيد لليهودية.

وفي تحليلها لأسباب انتشار الأصولية في العالم الإسلامي تقول: إن ذلك يرجع إلى زيادة السكان، وعلى سبيل المثال فقد كان عدد سكان إيران قبل الحرب العالمية الثانية لا يزيد على ٩ ملايين نسمة، ووصل عددهم في سنة ١٩٩٢ إلى ٥٧ مليوناً ويبلغ متوسط العمر ١٧ سنة، وبالتالي فإن هذا التكدس السكاني وطبيعة الشباب الميالة للتطرف من أهم عوامل الأصولية في إيران وفي غيرها من الدول الإسلامية. ولا يعرف معظم الغربيين الإسلام ليفرقوا بينه وبين الممارسات المتشددة التي ترتكب باسمه، فعندما يحتجز المسلمون الشيعة الرهائن يشعر الناس في أوروبا وأمريكا بالفنور من الدين الإسلامي نفسه دون أن يدركوا أن هذا السلوك ليس تعبيراً عما جاء في القرآن عن حسن معاملة الأسرى، ولكن وسائل الإعلام والصحافة في الغرب لا تتناول مثل هذه الأحداث بموضوعية. والمثال الآخر على ذلك تناول الإعلام الغربي لفتوى الإمام الخميني بإصدار دم سلمان رشدي، دون أن تشير إلى آراء أغلبية علماء المسلمين الذين عارضوا هذه الفتوى، وخاصة من الأزهر - الذي يتمتع بمكانة مرموقة - بالقول بأن الشريعة الإسلامية لا تسمح بالحكم بإعدام أحد دون محاكمة عادلة، ولا تمتد سلطتها القضائية إلى خارج العالم الإسلامي. وفي مارس ١٩٨٩

عقد المؤتمر الإسلامي وأعلنت فيه ٤٤ دولة إسلامية رفضها بالإجماع لفتوى الخميني، مع ملاحظة أن عدد الدول الإسلامية في العالم ٤٥ دولة، لكن الإعلام في الغرب لم يعرض هذا الرفض بالتوسع الذي عرض به فتوى إهدار دم سلمان رشدي وما صاحبه من مقولات عن البربرية والهمجية في الدين الإسلامي. وكثيراً ما تعمل الصحافة ووسائل الإعلام في الغرب على إثارة نوازع التعصب لدى الغربيين، كما فعلت خلال أزمة البترول في حرب أكتوبر ١٩٧٣، فقد أجمعت وسائل الإعلام على إثارة المخاوف الغربية القديمة من (المؤامرة الإسلامية) للسيطرة على أوروبا وأمريكا!

وترى كارين أرمسترونج أن حال المجتمع الإسلامي في المرحلة الحالية يبرر نظرة الغرب النمطية إليه. فحياة الأفراد رخيصة، والحكومات تنجح أحياناً إلى الفساد والاستبداد، والنساء يتعرضن للقهر، ويرجع الغربيون ذلك إلى الإسلام ذاته دون أن يروا أن ذلك راجع إلى المرحلة التي تمر بها المجتمعات الإسلامية وهي مرحلة ما قبل التحديث، فالأسباب اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية وليس من بينها الدين، لأن الدين الإسلامي لا يدعو، ولا يشجع، على الاستبداد أو الفساد أو التخلف أو قهر المرأة. ولكن - مع ذلك - يلاحظ وجود رغبة في الغرب للقاء كل خلل في العالم الإسلامي على الدين، حتى عادة ختان الإناث وهي عادة أفريقية انتقلت إلى المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية، ولكن الغربيين يتحدثون عنها على أنها من تعاليم الإسلام.



تركز كارين أرمسترونج على فكرة أساسية عندها هي أنه يمكن بالطبع لأبناء كل دين أن يرتكبوا أخطاء وينسبوا إلى الدين أو يتصوروا أنها من الدين، لكن ذلك لا يعني أنها من الدين فعلاً، فالدين شيء وممارسات وأفكار الناس الدينية شيء آخر، قد تكون مطابقة وقد تكون مخالفة في كثير أو قليل لجوهر الدين. وتقول: إن الإسلام يتميز بكثير من المثل العليا، واليهودية والمسيحية لا يحق لهما احتكار الإيمان بالله، والدعوة إلى العدل واحترام الإنسانية لأن الإسلام يدعو إلى هذه المبادئ، وتقول: إن الإسلام في تفسيره لعقيدة التوحيد يتميز بعبقريّة خاصة، وعلى الغرب أن يتعلم منه، وتضيف: لقد أدركت هذه الحقيقة منذ بدأت أتعرف إلى الإسلام، وكنت أجهل هذا الدين جهلاً تاماً، وكان أول ما نبهني رحلة قمت بها إلى مدينة سمرقند ورأيت أن العمارة الإسلامية تنطق بروحانية حافلة بأصداء الكاثوليكية التي كنت أدين بها يوماً ما. وفي عام ١٩٨٤ كُلفت بإعداد برنامج تليفزيوني عن مذهب التصوف الإسلامي، فعكفت على دراسة فكر الصوفية المسلمين، فبهرتني تقديرهم للأديان الأخرى، وهذه الصفة لم أعثر عليها في المسيحية، وكان ذلك تحولاً في نظرتي إلى الإسلام، ووجدتني متعطشة لمعرفة المزيد، وأخيراً اهتديت أثناء دراستي للحروب الصليبية والصراع العربي الإسرائيلي الدائر في الشرق الأوسط إلى سيرة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإلى القرآن وهو الكتاب المنزل، وبعد ذلك لم أعد من المؤمنين بالمسيحية أو الممارسين

لشعائرها، ولا أنتمى إلى أى دين آخر، لكنى عكفت على مراجعة أفكارى عن الإسلام، وإعادة النظر فى التجربة الدينية ذاتها، فرأيت أن الأنبياء والرُسل فى الأديان السماوية تتشابه رؤاهم تشابه كبيراً، حول حقيقة الله.

وتشير كارين أرمسترونج إلى الكتابات السابقة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وأهمها كتابى (مونتجومرى وات) وهما: (محمد فى مكة) و(محمد فى المدينة) وتقول عنهما: إنهما كتابان دراسيان موجهان للطلبة، وكل منهما يفترض معرفة القارئ بحياة محمد - وهى غائبة عن كثيرين -، وكتاب (مارتن لنجز) وهو بعنوان (محمد: سيرة حياته استناداً إلى أقدم المصادر) وفيه معلومات باهرة استقاها من كتب السيرة من القرن الثامن الميلادى إلى القرن العاشر، ولكن هذا الكتاب موجه إلى المقتنعين بالإسلام ورسوله ولا يناقش المخالفين والرافضين، وكتاب المستشرق الفرنسى (ماكسيم رودنسون) وهو بعنوان (محمد). وتقول كارين أرمسترونج: لقد تعلمت من كتاب رودنسون كثيراً ولكنه كتبه من وجهة نظر المتشكك، وركز على الجوانب السياسية والحربية فى حياة النبى - صلى الله عليه وسلم - ولذلك لا يساعد قارئه الغربى على تفهم الرؤية الروحية للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وبعد هذا الاستعراض نتحدث عن منهجها فى دراسة شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) فتقول: إن نقطة الانطلاق هى أننا نعرف عن محمد - صلى الله عليه وسلم - أكثر مما نعرف عن أى مؤسس لأى دين من الأديان الرئيسية الأخرى، وأن دراسة حياته يمكن أن تهبنا إدراكاً عميقاً ومهما لطبيعة التجربة الدينية. وترى كارين أرمسترونج أن التجربة الدينية التى خاضها محمد - صلى الله عليه وسلم - تتشابه مع تجارب أنبياء بنى إسرائيل، ومع تجربة القديسة تيريزا، ولقد نجح محمد - صلى الله عليه وسلم - نجاحاً سياسياً غير عادى، ويميل المسيحيون إلى التشكك فى الطابع الإلهى لهذا الانتصار الدنيوى، وتتساءل: ألا يوجد طريق آخر يوصلنا إلى الله سوى طريق الإخفاق الذى سلكه المسيح؟



الفصل الأول من كتاب كارين أرمسترونج بعنوان (العدو محمد) تقول فيه: إن الغربيين أدانوا المشهد الذى ظهر فيه المسلمون فى إحدى المدن البريطانية وهم يحرقون رواية سلمان رشدى، ولكنهم لم يتذكروا حوادث إحراق الكتب فى أوروبا المسيحية على مر القرون. وعلى سبيل المثال فقد قام الملك لويس التاسع ملك فرنسا بإدانة التلمود اليهودى باعتباره هجوماً خبيثاً على شخص السيد المسيح، وكان الملك لويس التاسع يشغل منصب قديس رسمى فى الكنيسة الكاثوليكية، وأصدر أمراً بحظر الكتاب، وأضرم النار فى جميع النسخ أمام الملك، ولم يقبل مناقشة خلافاته مع الجاليات اليهودية

في فرنسا بالوسائل السلمية، وقال: إن الأسلوب الوحيد للمناقشة مع اليهودى أن تقتله بطعنة نافذة فى بطنه بأقصى ما يصل إليه السيف. وكان لويس التاسع هو الذى بدأ الحملة الأولى من محاكم التفتيش، ولم يكتف بإحراق كتب من اعتبرهم المارقين من المسيحيين بل أحرق المئات من الرجال والنساء منهم، كما كان يكره المسلمين، وقاد حملتين من الحملات الصليبية ضد العالم الإسلامى.

وتعتبر كارين أرمسترونج أن التاريخ المرير للعلاقات بين المسلمين والغرب بدأ بالهجوم على النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - فى الأندلس. فى عام ٨٥٠ ميلادية خرج راهب اسمه (بير فكتوس) إلى السوق فى قرطبة وكانت عاصمة الأندلس الإسلامية، فقابل بعض المسلمين وسأله أن يفاضل بين النبى عيسى والنبى محمد، فانطلق يصب وابلا من الشتائم زعم خلالها أن نبى الإسلام دجال ومولع بالجنس وأنه هو المسيح الدجال، وسرعان ما ألقى به فى السجن. وكانت تلك حادثة شاذة فى قرطبة، لأن العلاقات كانت طيبة بين المسلمين والمسيحيين، وكان الحكم الإسلامى فى الأندلس يعطى الحرية الدينية للمسيحيين واليهود، وكانت الحضارة الإسلامية وروح التسامح الدينى فيها سابقة لجميع دول أوروبا.

وعندما وصل (بير فكتوس) إلى القاضى كان يرتعد خوفاً ورعباً، ولكن القاضى لم يصدر حكماً بإعدامه لإهانتته الإسلام ورسوله، لأنه رأى أنه كان ضحية استفزاز من المسلمين، ولكن (بير فكتوس) بعد إطلاق سراحه ظل يسب نبى الإسلام سبا بذيئاً فلم يجد القاضى بدا من الحكم بإعدامه، فجمع عدد من المسيحيين وكونوا جماعة اعتبرت (بير فكتوس) شهيداً، وبعدها بأيام ظهر راهب آخر يدعى (إسحق) ظل يسب الإسلام ونبى الإسلام بحرارة جعلت القاضى يظن أنه مخمور أو مختل عقلياً، ولما استمر فى السباب وهو فى كامل وعيه لم يجد القاضى بدا من الحكم عليه. ولم يكن المسلمون يضيقون بمعتقدات الديانات الأخرى بما فيها نقاط الخلاف مع الإسلام، لأن الإسلام ولد فى ظل التعددية الدينية، وتعايش مع جميع العقائد على مر العصور، ولم يكن القانون فى الامبراطورية الإسلامية يحرم الدعوة المسيحية وكان يشترط فقط ألا يتعرض المسيحيون فى دعوتهم للهجوم على النبى محمد - صلى الله عليه وسلم -.

ولم تمض أيام على إعدام إسحق حتى وصل ٦ رهبان من الدير نفسه وقاموا بالتهجم على النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - بصورة مقذعة، وانتشرت هذه الظاهرة حتى بلغ عدد من حكم عليهم ٥٠ واشترك أسقف قرطبة فى إدانتهم ولكنهم اعتبروا (شهداء قرطبة) وانتشرت هذه القصة فى الغرب. وكان الإسلام فى ذلك الوقت قوة عالمية، وكانت أوروبا قد اكتسحتها القبائل الهمجية وأصبحت بركة راكدة، وكان العالم يبدو كأنه قد أصبح كله إسلامياً، كما نرى العالم اليوم كأنه أصبح كله غربياً. وظل الإسلام فى كل العصور يمثل التحدى للغرب.

وكانت صيحات التهجم على الإسلام ورسوله التي أطلقها (شهداء قرطبة) تستند إلى وهم في عقول (سيطر عليها الرعب) أن محمداً دجال، نصب نفسه نبياً ليخدع العالم، وأنه فاسق يدفع أتباعه إلى محاكاته، وأنه يجبر الناس على اعتناق عقيدته بحد السيف.. وانتهت هذه الأوهام إلى القول بأن الإسلام ليس ديناً، بل هو بدعة، أو صورة مشوهة من المسيحية.

هذه الصورة التي تكونت من الأوهام في الأندلس، أسدل عليها ستار النسيان ثم عادت بعد ٢٥٠ سنة لتتردد نفس هذه الأوهام. وهناك بعض الباحثين المتعمقين حاولوا وضع تصور موضوعي لنبي الإسلام وللدین الذي أتى به، لكن الصورة المشوهة استمرت على المستوى الشعبي. وما تزال آثار هذه الأوهام القديمة موجودة حتى يومنا هذا. وما زال شائعا في الغرب القول بأن محمداً ليس سوى رجل قام باستغلال الدين لتحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف وحرب، على الرغم من ظهور دراسات تبين خطأ وفحش هذه الأسطورة.



وكان جهل الأوروبيين بالإسلام في زمن الحرب الصليبية يصل إلى تصورهم للمسلمين بأنهم يركعون أمام ثلاثة آلهة هي (أبولو) و(تيرفاجان) و(محمد) ولم يعتبروا المسلمين بشرا مثلهم، ولذلك قاموا بارتكاب مذبح لا مثيل لها في التاريخ لسكان القدس المسلمين. وقالوا: إن المسلمين وباء لا بد من تطهير الأماكن المقدسة منه. وكانوا عندما يتحدثون عن المسلمين يطلقون عليهم اسم (القذارة).

وتشير كارين أرمسترونج إلى أن اهتمام أوروبا بالنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - كان يكاد يكون معدوماً حتى عام ١١٠٠ ميلادية، وشاعت المعرفة به في ١١٢٠ على أنه (ماهاوند) عدو الممالك المسيحية، ونقل عن الباحث البريطاني (د.و. ساذرن) سطورا عن دراسته بعنوان (صور الإسلام في الغرب في العصور الوسطى) يقول فيها: لا شك أنهم عندما وضعوا هذه الأساطير والأوهام، كانوا يرون أنها الصورة الحقيقية. ولم تتغير صورة محمد وأتباعه كثيراً عن كونهم أبناء الصحراء. وتعلق على ذلك بأن هذا الطابع الخيالي لشخصية (ماهاوند) هو الذي أدى إلى صعوبة النظر إلى النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - في الغرب على أنه شخصية تاريخية جديرة بالدراسة كما يفعلون مع نابليون أو الإسكندر الأكبر، ولهذا كانت الصورة الخيالية لشخصية (ماهاوند) في رواية سلمان رشدی متفقة مع هذه الأوهام الغربية الراسخة بعمق، ومن ذلك الزعم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان ساحراً خدع الناس بمعجزات زائفة، وأنه قام بتدريب حمامة على التقاط حبات البازلاء من أذنيه حتى يبدو للرأي كأن روح القدس تنزل عليه وتهمس له بالوحي، وقالوا أيضاً: إنه - صلى الله عليه وسلم - كان يعاني من الصرع، وأفاضوا في الحديث عن حياته الجنسية.

تعلق كارين أرمسترونج على كل ذلك بأن المسيحيين الغربيين لم يستطيعوا تفسير الرؤية الدينية الرائعة والمقنعة التي أتى بها محمد - صلى الله عليه وسلم - وسر نجاحها إلا بإنكار الوحي والقول بأن الإسلام فرقة خارجة على المسيحية. كما تفسر قلق المسيحيين من الإسلام بالأعمال العدوانية التي ارتكبوها باسم المسيحية ضد المسلمين في الحروب الصليبية وهي ممارسات لا علاقة لها بدعوة السلام التي جاء بها المسيح. وتقول: إن الكنيسة كانت تفرض على رجال الدين الامتناع عن الزواج مع رغبتهم فيه، فكانت المبالغة في الروايات عن الحياة الجنسية للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - تعبيراً عن الكبت الذي يعاني منه هؤلاء أكثر مما هي تعبير عن الحقائق. أما اتهامهم للإسلام بأنه لا يعترف بالحرية الدينية فهو نوع من إلقاء التهمة على الآخر، لأن الغرب - وليس الإسلام - هو الذي منع حرية المناقشة في المسائل الدينية وكان يعاقب كل من يخرج على الفكر الذي تفرضه الكنيسة بالحرق على أيدي (محاكم التفتيش) وكذلك قامت - بعد ذلك حركة اضطهاد البروتستانت والكاثوليك بعضهم بعض بسبب الخلافات الدينية بين الطائفتين.

ولما كانت اليهودية هي الدين الأجنبي الوحيد في أوروبا في ذلك الوقت، فقد بدأت الحملات الصليبية بمذابح لليهود في وادي نهر الراين وكانت تلك أولى المذابح الجماعية في أوروبا وأصبح العداء للسامية مرضاً مزمناً حتى إن الأساطير الأوروبية وصلت في عدائها لليهود إلى حد القول بأن اليهود يقتلون الأطفال ويمزجون دماءهم بخبز عيد الفصح العبراني، وأنهم يدبرون مؤامرة دولية للإطاحة بالمسيحية. وتقول كارين أرمسترونج: إن مثل هذه الأساطير المعادية لليهود لم يظهر مثلها في العالم الإسلامي في أي عصر من العصور. لكن التعصب كان في أوروبا. حتى إنه بعد الاستيلاء على الأندلس وجنوب إيطاليا وصقلية وعودتها إلى المسيحية بقي في هذه المناطق مسلمون ويهود فرضت عليهم العزلة، ومنعت الحكومة المسيحيين من التعامل معهم، وصدرت تشريعات كنيسية خاصة في المجلسين البابويين أحدهما عقد سنة ١١٧٩ والثاني في سنة ١٢١٥ تعتبر اليهود والمسلمين (العدو) وتفرض هذه التشريعات عقوبات على كل من يتعامل مع المسلمين واليهود أو يشاركهم الطعام بالطرد من الكنيسة ومصادرة الممتلكات. وقد أصدر البابا جريجوريوس التاسع في عام ١٢٢٧ مراسيم بابوية تفرض على المسلمين واليهود أن يرتدوا ملابس مميزة، ويحظر عليهم الظهور في الشوارع أثناء الأعياد المسيحية، ويحرم توليهم مناصب حكومية في البلاد المسيحية، ومنع الجهر بالأذان حتى لا يؤذى أسماع المسيحيين. وبعد ذلك أعلن البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤) أن وجود مسلم على الأرض المسيحية يعتبر إهانة لله. وقبل ذلك قام ملك فرنسا (شارل أنشوا) عام ١٣٠١ بإبادة من بقي من المسلمين أبناء صقلية وجنوب إيطاليا. وقد ظلت محاكم التفتيش في أسبانيا تضطهد المسلمين وذريتهم على مدى ٣٠٠ سنة.





هكذا تقلب كارين أرمسترونج صفحات التاريخ بهدف الوصول إلى جذور عداة الغرب للإسلام وللرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أن تصل إلى ملحمة الشاعر الإيطالي دانتي (الكوميديا الإلهية) وفيها يصور النبي - صلى الله عليه وسلم - في الجحيم مع أرباب الفتنة التي أحدثت الانشقاق الديني ويصوره في عذاب مهين، وتورد كارين أرمسترونج أبياتاً من هذه الملحمة تخرج الدكتور محمد عناني والدكتورة فاطمة نصر من ترجمتها لبشاعة ما فيها واضطراً إلى الإشارة إلى ما فعله الأستاذ حسن عثمان الذي ترجم الكوميديا الإلهية وعندما وصل إلى هذه الأبيات ذكر أنه حذفها لأنها لا تليق بمقام النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن دانتي أخطأ خطأ جسيماً بكتابتها متأثراً بما كان سائداً في عصره من عداة وجهل بالإسلام ورسوله. وترى كارين أرمسترونج أن موقف دانتي يدل على الخوف والكراهية للإسلام وهذا يناقض رسالة المحبة التي أتى بها المسيح.

وتبدي كارين أرمسترونج بعد ذلك دهشتها لأن أول صورة إيجابية للرسول - صلى الله عليه وسلم - في الغرب رسمها (بيتر الفونس) اليهودي الأسباني الذي اعتنق المسيحية عام ١١٠٦ وقضى بقية حياته في إنجلترا طبيباً للملك هنري الأول، وكان معادياً للإسلام لكنه صوّره على أنه دين. وفي عام ١١٢٠ كان العداء للإسلام قد بلغ ذروته. لكن (وليم مامزبري) كتب دراسة يفرّق فيها بين الإسلام والوثنية فكان أول أوروبي يفعل ذلك وجاء فيها لأول مرة: (إن الأتراك وأبناء الشرق يعبدون الله الخالق، ويبجلون محمداً - صلى الله عليه وسلم - ليس باعتباره إلهاً بل باعتباره نبياً لهم) وهذه النظرة ما زال في الغرب من يرفض قبولها، ولا يزال في الغرب من يدهش حين يسمع أن المسلمين يعبدون الإله الذي يعبدّه اليهود والمسيحيون (!)



وسجل العداء أكبر مما يصل إليه الخيال، ويمكن لمن يريد معرفة المزيد العودة إلى كتاب كارين أرمسترونج ففيه الكثير، وهي بعد ذلك تتحدث في فصل بعنوان (محمد رجل الله) عن معجزات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأولها: أنه أصبحت كلمة (الله) تتكرر لأول مرة في بلاد العرب، وثانيها أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حقق معجزة بتوحيد العرب وكان مستحيلاً أن تتوحد هذه القبائل المتحاربة، وعلى هذا فإن كان ذلك النصر السياسي هو الإنجاز الوحيد لمحمد - صلى الله عليه وسلم - فمن حقه علينا أن يحوز إعجابنا، لكن النجاح الأكبر لمحمد - صلى الله عليه وسلم - كان في نشر الإيمان بالدين الذي غيّر مجرى التاريخ.

وتتحدث كارين أرمسترونج عن القرآن فتقول: إن الغربيين يجدون أنه كتاب صعب. ولا يعلمون أنه أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - على مدى ثلاثة وعشرين عاماً ولم يهبط من السماء دفعة واحدة مثل التوراة أو الوصايا، وكان الذين يستمعون إلى آياته يحفظونها عن ظهر قلب، بينما كان الذين يستطيعون الكتابة يقومون بتسجيلها كتابة. وقد وجد العرب القرآن مذهشاً، فلم يكن



مثل الشعر الذي كانوا يجيدون نظمهم، ولذلك اعتنقوا الإسلام لاعتقادهم أن ذلك الأسلوب لا بد أن يكون مُنزلاً من السماء. وحتى الذين رفضوا الدعوة أصيبوا بالذهول ولم يجدوا تفسيراً لذلك التنزيل المحير. وحتى يومنا هذا تهتز مشاعر المسلمين حين ينصتون إليه ويشعرون أن صوتاً سماوياً يتحدث إليهم. وتقول: إن عدم إحساس الغربيين بهذا الإحساس بسبب أن النصوص المقدسة يصعب تذوقها حين تترجم إلى لغات غير لغاتها الأصلية، وتضرب على ذلك مثالا معروفا لليابانيين الذين يجيدون الإنجليزية وطلبوا أثناء زيارتهم للولايات المتحدة أن يتعرفوا على الإنجيل ولكنهم بعد قراءته قالوا صراحة: إنهم لم يجدوا فيه أثراً للدين. كذلك فإن أجمل أشعار شكسبير تبدو تافهة عندما تترجم إلى لغات أخرى. وبالنسبة للغة العربية فهي لغة من الصعب ترجمتها إلى لغات أخرى. لأن في العربية شيئاً ما لا يمكن نقله إلى التعبيرات اللغوية الأخرى. وحتى الخطب التي يلقيها الساسة العرب فإنها تبدو غريبة عند ترجمتها إلى لغات أخرى، فإن كانت الترجمة صعبة في النصوص العربية عموماً فإنها بالغة الصعوبة في حالة القرآن حيث اللغة مركبة ومكثفة ومحملة بالمعاني والإيماءات، ولهذا يقول المسلمون الذين يجيدون اللغة الإنجليزية إنهم عندما يقرأون ترجمة معاني القرآن بالإنجليزية يجدون أنفسهم يقرءون كتاباً مختلفاً عن القرآن اختلافاً كلياً. ولا يترك في نفس قارئه ذلك الحضور السماوي الذي يشعرون به عند قراءته باللغة العربية.



وتسجل كارين أرمسترونج تقديرها للقرآن لأنه يتحدث عن المسيح وأمه العذراء مريم باحترام ويحيطهما بقداسة كبيرة، كما يتحدث عن النبي موسى والتوراة بنفس الاحترام. وتقول: إن حياة المسيح غير معروفة بتفاصيلها، ولا يعلم منها إلا القليل، لأن أول كتاب عن المسيح كان للقديس بولس بعد عشرين عاماً من رحيل المسيح، ولم يهتم بحياة المسيح على الأرض بل ركز فقط على المعاني الروحية لحياته وبعثه، وفيما بعد ظهر كتاب مرقس بعد رحيل المسيح بأربعين عاماً، وسجل فيه من أقوال المسيح أكثر مما فعل بولس، ثم ظهر كتابا متى ولوقا بعد خمسين عاماً من رحيل المسيح، وكتاب يوحنا بعد مائة عام من رحيل المسيح، وهذا السرد الإنجيلي يختلف عن سيرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، فقد اهتمت الأناجيل بالمغزى الديني لحياة المسيح، وحتى السرد الإنجيلي للعهد الجديد لوقائع عذابات المسيح وصلبه مشوشة تشويشاً تاماً كما يقول الدارسون المحدثون، ويرون أن تلك الوقائع تم تغييرها ربما لأن المسيحيين في ذلك العصر كانوا يرغبون في الانفصال التام عن اليهود، ولذلك يلقون مسئولية صلب المسيح على اليهود وليس على الرومان، أما أقوال المسيح فلم يسجلوا منها إلا أقل القليل، ولا يعني ذلك - كما تقول كارين أرمسترونج - أن الأناجيل ليست ذات مصداقية، فهي تُعبر عن حقيقة دينية مهمة. وقد وعد المسيح حواريه أن يرسل إليهم روحه ولذلك يمكن القول بأن أكثر ما ألهموا به يمكن إرجاعه إلى السيد المسيح نفسه.

أما شخص محمد (صلى الله عليه وسلم) - كما تقول - وكما تظهر الكتابات فإنه يختلف كل الاختلاف عن شخصية المسيح المثالية الخارقة للطبيعة كما يظهرها الإنجيل، وعلى رغم أنه أصبح لمحمد - صلى الله عليه وسلم - عند المسلمين هالة رمزية إلا أنهم لم يدعوا أبداً أنه مقدس، بل إنه - كما تقدمه السير الأولى - شخصية إنسانية، ليس فيها تشابه مع شخصيات القديسين المسيحيين، وتماثل شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - شخصيات التوراة النابضة بالحياة من أمثال موسى، ودود، وسليمان، وإلياس، وإسحاق، وتبدو شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - شخصية قوية المشاعر ذات أبعاد مركبة، ويتمتع بمواهب روحانية وسياسية عظيمة، وكان يملكه الغضب أحياناً كما كان شديد التأثر والرحمة، وتقول: لم نقرأ أبداً أن المسيح ضحك، ولكن كثيراً ما نقرأ أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان يبتسم ويداعب الأطفال والصحابة، ويختلف مع زوجاته، ويبكى لموت أحد أصحابه، ويعرض ابنه الوليد مزهوا كأي أب، فإذا نظرنا إليه كشخصية تاريخية عظيمة فمن المؤكد أننا سنراه من أعظم العباقر الذين عرفهم التاريخ. ولكي نوفى عبقريته حقها علينا أن ندرس المجتمع الذي ولد فيه، والقوى التي كان عليه أن يدخل معها في صراع، فقد كان اليهود يؤمنون بآله واحد (يهوه) لكنهم كانوا يعتقدون في وجود آلهة أخرى. والوصايا العشر في التوراة تعترف ضمناً بوجود آلهة أخرى يعبدونها، مثل الوصية التي تقول: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي). ولم تتحقق الوحدةانية في اليهودية إلا على يد أشعيا الثاني بعد ٧٠٠ سنة من خروج الإسرائيليين من مصر عام ١٢٥٠ قبل الميلاد. أما محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد انطلق ليجعل العرب يؤمنون بالتوحيد في فترة لا تتعدى ٢٣ عاماً، وهذه عملية صعبة تتطلب تغيير الوعي الإنساني نفسه.



وتقف كارين أرسترونج عند مسألة حساسة في السيرة النبوية، عندما حاولت فهم الآيات: ﴿وَلَمَّا كَادُوا لِيَفْتَنُونَكَ عَلَيَّ أَوْ حِينَئِذٍ لِنَفْقَرَنَّ عَلَيْكَ غَيْرِمُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن تَبْنَتْنَا لَفَدَّكَ تَرَكْنَا إِلَهُهُمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤﴾ إِذَا لَا ذُقْنَاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ (الإسراء ٧٣-٧٥)، فتقول: إن الدارسين في الغرب يفترضون أن تلك الآية تشير إلى حادثة ما يدعى (آيات شيطانية) يدعون بها أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قدم تنازلات مؤقتة للمشركين. والقصة - كما في طبقات ابن سعد وتاريخ الطبري - أن الشيطان تدخل في إحدى المناسبات، وتقول المأثورات: إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - أثناء تلقيه سورة النجم شعر بإيحاء أن ينطق بآيتين تقولان: إن الآلهة الثلاث اللات والعزى ومناة من الممكن أن يكنَّ وسيطات بين الله والبشر، وبما أن قريشاً كانت تعتقد أنهن (بنات الله) وأنهن مقدسات، فقد ظنوا خطأ أن القرآن قد وضع هذه الآلهة في منزلة واحدة مع الله، واعتقاداً منهم

أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - قد تقبل آلهتهم سجدت قريش لتؤدى الصلاة مع المسلمين وبدا وكأن الخلاف قد انتهى، وتقول القصة: إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - تلقى الوحي الإلهي بأن قبوله الظاهري لهذه الآلهة كان وحياً من الشيطان، وبناء على ذلك حذفت الآيتان من القرآن، واستبدلتا بآيات أخرى تلعن الآلهة الثلاث.

وتعلق كارين أرمسترونج على هذه الرواية التي يروج لها كثير من الغربيين فتقول: إن هذه القصة غير صحيحة ومشكوك في صحتها لدى المسلمين، ولا توجد إشارة واضحة إليها في القرآن، وفي التسجيل المبكر للسيرة (في سيرة ابن اسحق) لا توجد أية إشارة إلى هذه الواقعة، كما أنها لم تذكر في مجموعات الأحاديث الكبيرة التي جمعها البخاري ومسلم في القرن التاسع الميلادي. وحينما يرفض المسلمون شيئاً من التراث فإنهم لا يفعلون ذلك بدافع احتمال التأويلات النقدية لما يرفضون، لكن لعدم كفاية الأدلة. ومع ذلك فإن أعداء الإسلام في الغرب - كما تقول - رأوا في هذه القصة مناسبة كي يشككوا في محمد - صلى الله عليه وسلم - وليقولوا كيف لرجل قام بتغيير الكلمات السماوية طبقاً لما ارتآه أن يكون نبياً؟ وعلى رغم ذلك فقد حاول باحثون مثل ماكسيم رودنسون، ومنتجومرى مؤخراً أن يبرهنوا على أن القصة في صياغتها لا تحتل تأويلاً سلبياً. ولكن هذه القصة التي لم يهتم بها المسلمون ظلت على قدر كبير من الأهمية في الغرب وتفجرت عام ١٩٨٨ وهو العام الذي نشر فيه سلمان رشدى روايته (آيات شيطانية) وجعل من هذه القصة محورياً لروايته.

وهذه القصة - كما تقول كارين أرمسترونج - تكرر الأساطير الغربية القديمة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وتكرر القول بأنه مدع، ذو طموحات سياسية. والأكثر إيلاماً للمسلمين أنها تشوه صدق القرآن وهذا ما أثار المسلمين. فقد رأى المسلمون أن كتاب سلمان رشدى اتخذ من القصة المدسوسة عن الآيات الشيطانية عنواناً له، وقد وظّف سلمان رشدى هذه القصة ليبرهن على أن القرآن المقدس عند المسلمين لا يميز بين الطيب والخبيث وأن ما يقال إنه مشيئة الله ما هو إلا إحياءات إنسانية كما يدعى النقاد الغربيون.



وتصل كارين أرمسترونج إلى أن الذين أيدوا سلمان رشدى استغلوا ما جاء في كتابه ليكرروا الادعاء بأن الإسلام ضد حرية الإبداع وحرية البحث العلمى، وقد تبنى سلمان رشدى الرؤية الغربية القائمة على الكراهية للمسلمين ورسولهم. وقد فتح ذلك جراحاً عميقة - كما تقول - بين الغرب والإسلام. وتقول: إن هذه القصة تتعارض مع الروايات الموثقة ومع القرآن نفسه، ومن الثابت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - رفض عروضاً من قريش دون تردد بأن يسمح لهم بعبادة آلهتهم مع عبادة الله. ولكن في الغرب - كما تقول - من تأثر بفكرة (السقوط) بمعناها المسيحية ليخلعها

على محمد - صلى الله عليه وسلم - . كما أن آدم استسلم لغواية الشيطان، وفي رواية الطبري إنكار لهذه الواقعة، ومكانة هذه الآلهة حددها القرآن بصورة قاطعة: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ (النجم ٢٣)، وتقول: هذه هي أكبر إدانة قرآنية لتلك الآلهة، كما أن الإسلام جاء برسالة توحيد لا تقبل أن يكون مع الله إله آخر وليس أدل على ذلك من سورة الإخلاص التي يقرؤها المسلمون في صلاتهم اليومية:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدٌ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ (سورة الإخلاص) فكيف يمكن مع هذا التوحيد الخالص أن يأتي ذكر آلهة قريش وأصنامها على لسان الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أن لها مكانة أو شفاعة ؟

وتخصص كارين أرمسترونج صفحات من كتابها للتدليل على عدم صحة هذه الرواية المدسوسة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقول: إن تاريخ محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ بدايته فيه كراهية لآلهة قريش، ومن الأدلة على ذلك أن كبار قريش ذهبوا إلى أبي طالب - عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) - وقالوا له: (يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أعلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفكه) وبعد فترة عادوا إلى أبي طالب ثائرين وقالوا له: (إنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أعلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين)، وتستدل من هذا الموقف أن محمدا لم يتنازل عن محاربة آلهة قريش، بل إن قريشا عرضت عليه أن يكون ملكا عليهم وأن يجعلوه أكثرهم ثروة مقابل التنازل عن دينه فقال: (والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه).



بهذا المنطق تدافع كارين أرمسترونج عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتكشف عدم صحة هذه الرواية التي أقام عليها سلمان رشدي كتابه، وهي تفعل ذلك من منطلق البحث العلمي النزيه، فهي ليست مسلمة، ولا صلة لها بالدول الإسلامية، ولكنها قرأت كل ما كُتب عن سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعقلية ناقدة. وكتبت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمنهج علمي مدقق لا يخضع لأحكام مسبقة، وهي تسجل بموضوعية نجاح المشروع الإسلامي بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - كدليل على صدق الرسالة، وتتحدث عن الروحانية التي أسسها دون أن يعتزل الحياة، ولم ينتظر إلى حين حلول عالم يخلو من الشرور والصراعات، وسعى إلى إقامة مجتمعه المثالي في المدينة، واحتذى المسلمون حذوه منذ البداية. وتسجل كارين أرمسترونج مشاعر الحب الجارف لمحمد - صلى الله عليه وسلم - لدى المسلمين، ومع ذلك فإنهم يؤكدون أنه لم يكن

إلا رجلا ولم يكن إلها أو ملاكا، والنبى - صلى الله عليه وسلم - هو الذى قال عن نفسه: (إن أنا إلا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة)، وذلك حرصا منه على تأكيد طبيعته كإنسان. وبذلك أصبحت حياة محمد آية من الآيات فى العالم التى يدعو القرآن المسلمين إلى التأمل فيها وتفهمها، فإن رسالته النبوية (رمز) يعكس الاستسلام التام لله، وحب المسلمين له هو ارتباط بالرمز الذى يضىء لهم حياتهم ويضيف إليها معنى جديدا..

وتقول كارين أرمسترونج إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يعتبر على المستوى الرمزي الإنسان الكامل، والنموذج. وتنظر إلى رحلة الإسراء والمعراج على أنها المثال الكامل للقضاء فى الله، والمسلمون يسعون إلى محاكاة الرسول فى حياتهم اليومية لى يقتربوا من هذا الكمال بقدر الإمكان ويقتربوا من الله.

وتختتم كارين أرمسترونج كتابها بقولها: إن الإسلام والغرب يشتركان فى أمور كثيرة، والمسلمون عرفوا ذلك منذ زمن محمد - صلى الله عليه وسلم -، إلا أن الغرب غير قادر على تقبل هذه الحقيقة، والمسلمون يشعرون أن حضارة الغرب امتهنت كرامتهم واحتقرتهم، ونحن فى الغرب بحاجة إلى أن نخلص أنفسنا من بعض أحقادنا القديمة، ولعل شخص محمد - صلى الله عليه وسلم - يكون مناسبا للبدء، فقد كان ذا عبقرية تستعصى على الإدراك، وأسس ديننا وحضارة للإسلام، ولفظ الإسلام ذو دلالة على السلام والوفاق مع سائر البشر.

أليس من واجب المسلمين أن يقدموا التحية لهذه الراهبة العظيمة التى قالت كلمة الحق بجرأة وبراعة تفوق ما فعله المسلمون للدفاع عن دينهم فى الغرب؟



## ولى عهد بريطانيا يحيد للإسلام اعتباره فى الغرب !

الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا من أهم الشخصيات الرسمية ذات الفل التى تبادر إلى إنصاف الإسلام فى الغرب كلما اشتدت على الإسلام حملات الهجوم والتشويه. وهو من أشهر الشخصيات التى تعمل فى مجالات الثقافة، والأعمال الخيرية، وله جهود كبيرة فى المحافظة على روح التسامح الدينى فى المجتمع البريطانى.

وهو يشمل برعايته الشخصية مركز الدراسات الإسلامية الذى أنشئ فى جامعة اكسفورد العريقة، وهو الراعى الفخرى لهذا المركز الذى أنشئ سنة ١٩٨٥ ويعمل فيه مجموعة من الباحثين البريطانيين مع نظرائهم من العالم الإسلامى فى دراسة الإسلام وثقافته وحضارته وتشجيع النشاط العلمى المشترك بين العالمين الإسلامى والغربى، ويهدف هذا المركز إلى إزالة الجهل، والشك، والعصبية التى تؤدى إلى مواقف خطيرة تهدد الشعوب الإسلامية. وقد نجح فى القيام بدور فى إعادة الاحترام إلى الإسلام فى الأوساط الأكاديمية البريطانية. وليس وحده فى هذا الميدان، ففي بريطانيا مراكز أخرى مماثلة مثل معهد الدراسات الشرقية، ومركز الشرق الأوسط فى لندن.

وكان أهم حدث شهدته بريطانيا فى تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب، يوم ذهب الأمير تشارلز إلى جامعة اكسفورد يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٩٣ وألقى فى مركز الدراسات الإسلامية خطابا غير مسبوق لإعادة الاعتبار إلى الإسلام وإزالة ما أحاط به من حملات التشكيك. ومع أن البريطانيين لا يستخدمون التعبير الشائع عندنا لمثل هذا الخطاب بأنه كان خطابا تاريخيا، فإنه كان خطابا تاريخيا بالفعل، ولا زالت آثاره وأصدائه حتى اليوم وامتدت من بريطانيا إلى أوروبا. وقد أصبح وثيقة تشرح للغرب حقيقة الإسلام وتدعو إلى احترامه واحترام المؤمنين به.

خطاب الأمير تشارلز بعنوان (الإسلام والغرب)، بدأه بأن العلاقات بين العالمين الإسلامى والغربى تتسم بأهمية أكثر من أى وقت مضى، لأن درجة سوء الفهم بينهما عالية على نحو خطير. وقال: إن الحقيقة المحزنة أنه على الرغم من التقدم فى التكنولوجيا ووسائل الاتصال، وانتقال

الناس على نطاق واسع عبر الحدود، واختلاط الأجناس، وكشف كثير من الألفاظ فى هذا العالم، فإن سوء الفهم بين الإسلام والغرب ما يزال مستمرا، بل ربما أخذ يزداد.

وقال الأمير تشارلز بعد ذلك صراحة: إن سوء الفهم بالنسبة للغرب لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل. ففى أرجاء العالم أكثر من ألف مليون مسلم، وفى دول الكومنولث وثيقة الارتباط ببريطانيا يعيش ملايين المسلمين، وفى دول الغرب يعيش أكثر من عشرة ملايين مسلم، والجالية الإسلامية فى بريطانيا تنمو منذ عقود، فهناك حوالى ٥٠٠ مسجد فى بريطانيا، والاهتمام الشعبى بالثقافة الإسلامية يتنامى بسرعة.. إن الإسلام يحيط بنا من كل جانب.. ومع ذلك يستمر الشك والخوف.

وكان من أهم ما قاله الأمير تشارلز: إن الصراع الذى يعانى منه العالم الإسلامى هو نتيجة لسوء استخدام السلطة وتضارب الأفكار، والنشاطات المهيّجة التى يمارسها القادة المتعصبون والمجردون من الضمير، ولكن المحزن أن الصراع يندلع نتيجة عدم القدرة على الفهم، وما يؤدى إليه سوء الفهم من تعمق الخوف وانعدام الثقة. ومن الغريب أن يستمر سوء الفهم بين الغرب والعالم الإسلامى مع أن ما يربط بينهما أقوى بكثير مما يفصل بينهما. فالمسلمون والمسيحيون واليهود كلهم أهل كتاب. والإسلام والمسيحية يشتركان فى أن الحياة الدنيا فانية، وبأن الإنسان مسئول عن أفعاله ويحاسب عليها فى الآخرة. ويشترك المسيحيون والمسلمون فى كثير من القيم مثل العدل والإحسان إلى الفقراء واحترام المعرفة والحياة العائلية واحترام الوالدين، ولكن - مع ذلك - فإن معظم فترات التاريخ تميزت بالصراع بين العالمين، واستمرت فترة العداء المتبادل أربعة عشر قرنا، وقد أدى ذلك إلى وجود شعور دائم بالخوف والشك. لأن كلا من العالم الغربى والعالم الإسلامى غالبا ما ينظر إلى الماضى بمنظور مختلف ومتعارض مع منظور الآخر.



وأشار الأمير تشارلز إلى ما يدرس لتلاميذ المدارس فى دول الغرب عن الحروب الصليبية التى استمرت ٢٠٠ عام. ففى مدارس الغرب يلقنون التلاميذ أن هذه الحروب كانت سلسلة من الأعمال البطولية والمجيدة حاول خلالها الملوك والفرسان والأمراء الأوروبيون تخليص القدس من أيدي (المسلمين الكفار الأشرار).. أما المسلمون فإنهم يعتبرون الحروب الصليبية حقبة من الوحشية وأعمال السلب والنهب المروعة قام بها (المرتزقة الغربيون الكفار).. وكذلك الفضاءات المرعبة التى ربما كان أكبر مثال عليها المذابح التى ارتكبها الصليبيون عندما (استردوا) القدس عام ١٠٩٩م وهى ثالث الأماكن المقدسة لدى المسلمين. وبالنسبة للغرب فإن عام ١٤٩٢م كان عام البحوث الإنسانية والآفاق الجديدة باكتشاف كولمبوس للأمريكتين، ولكنه بالنسبة للمسلمين كان عاما مأساويا، لأنه عام سقوط قرطبة فى أيدي فرديناند وإيزابيلا، وفيه انتهت ثمانية قرون من الحضارة الإسلامية فى أوروبا.



وعَلَّق الأمير تشارلز على اختلاف زاوية الرؤية للتاريخ فى العالمين الإسلامى والغربى بأن المسألة ليست فى تحديد أى صورتين أكثر صحة من الأخرى، أو أيهما يخالف الحقيقة، ولكن المسألة هى وجود سوء التفاهم نتيجة الفشل فى فهم رؤية الآخرين للعالم وللتاريخ ودور الغرب فى هذا التاريخ. وبالنسبة للغربيين فإنهم ينظرون على أن الإسلام كان دائما تهديدا لهم، بالفتوحات العسكرية فى العصور الوسطى، وبعدم التسامح والتطرف والإرهاب فى العصر الحديث. وقد أدى فتح القسطنطينية عندما سقطت فى يد السلطان محمد عام ١٤٥٣م وهزائم الأتراك خارج العاصمة النمساوية فيينا عام ١٥٢٩ و١٦٨٣م كل ذلك أدى إلى إثارة الخوف فى نفوس الحكام الأوروبيين. كذلك فإن تاريخ البلقان فى ظل الحكم العثمانى فيه أمثلة على الوحشية ضربت جذورا عميقة فى مشاعر الغربيين. والتهديد لم يكن فى من جانب واحد، لكنه كان من الجانبين، فبعد غزو نابليون لمصر عام ١٧٩٨ وما تلاه من غزوات وفتوحات فى القرن التاسع عشر تغيرت الصورة وأصبحت الدول الغربية تحتل العالم العربى كله، وبدا أن انتصار أوروبا على المسلمين اكتمل بعد سقوط الامبراطورية العثمانية.

بعد ذلك يحلل الأمير تشارلز نتائج وآثار هذه المراحل من التاريخ فيقول: إن أيام الفتوحات انتهت، ولكن موقف الغرب من الإسلام ما يزال معاديا حتى الآن، لأن أسلوب فهمنا للإسلام تأثر بالتطرف والسطحية، فكثيرون فى الغرب ينظرون إلى الإسلام بمنظار الجرب الأهلية المأساوية فى لبنان، وأعمال القتل والتفجير التى تقوم بها جماعات متطرفة فى الشرق الأوسط. وينظرون أيضا بمنظار ما يشار إليه عموما باسم (الأصولية الإسلامية).. وقد تأثر حكمنا على الإسلام بالتحريف نتيجة اعتبار التطرف هو القاعدة فى الإسلام، وهذا خطأ جسيم، مثل الحكم على نوعية الحياة فى بريطانيا من خلال وجود جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء على الأطفال وإدمان المخدرات.. فالتطرف موجود فى المجتمعات الإسلامية ولا بد من معالجته، ولكنه عندما يستخدم أساسا للحكم على مجتمع ما فإنه يؤدى إلى حكم ظالم.

وينتقل الأمير تشارلز إلى قضية أخرى من قضايا سوء الفهم، وهى حكم كثير من الغربيين على قوانين الشريعة الإسلامية بأنها قاسية ووحشية ومجحفة. والصحافة فى الغرب تروج هذه الأفكار الاعتبارية المختلفة بينما الحقيقة مختلفة وأكثر تعقيدا، لأن الشريعة الإسلامية شريعة الإنصاف والرحمة، وعلينا أن ندرس التطبيق الفعلى للشريعة قبل أن نصدر أحكامنا، وعلينا أن نميز بين أنظمة العدالة التى تدار باستقامة، وأنظمة العدالة، كما نراها عند التطبيق، وتكون قد حُرِفَت لأغراض سياسية وتحولت إلى شئ مختلف عن الإسلام. وعلينا أن نتذكر أيضا النقاش الحاد الدائر فى العالم الإسلامى نفسه حول مدى شمولية وأبدية الأحكام والدرجة التى يتغير ويتطور بها تطبيق الأحكام باستمرار.



وكان من أهم ما في خطاب ولى العهد البريطانى أنه وجه نداء إلى العالم الغربى بأن يميز بين الإسلام، وبين العادات السائدة فى بعض الدول الإسلامية. ويشير إلى موقف الغرب الظالم من الإسلام عند الحديث عن وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى بالتركيز على الحالات المتطرفة، مع أن تطبيق الإسلام ليس متماثلاً فى كل البلاد الإسلامية، والصورة ليست بسيطة، فهناك دول إسلامية منحت المرأة حق الانتخاب فى نفس الفترة التى منحت فيها أوروبا المرأة هذا الحق، بل قبل فترة طويلة من اتخاذ سويسرا هذه الخطوة. ومن هذه البلاد الإسلامية مصر، وسوريا، وتركيا. وفى هذه البلاد تتمتع النساء منذ وقت طويل بالمساواة مع الرجال فى الأجور والعمل، وفى الفرصة بالقيام بدور فى المجتمع. كما أن القرآن نص على حقوق المرأة المسلمة فى التملك وممارسة التجارة والإرث ومنحها الحماية فى حالة الطلاق، حتى وإن كانت هذه الحقوق لا توضع موضع التطبيق فى جميع الدول الإسلامية. وعليها أن نتذكر أنه فى بريطانيا كانت بعض هذه الحقوق غريبة حتى على جيل جدتى، ولقد أصبحت بناظير بوتو والبيجوم خالدة ضياء رئيسيتين للوزراء فى مجتمعين تقليديين عندما شهدت بريطانيا أول رئيسة وزراء منتخبة فى تاريخها. وبذلك فإننا لا نستطيع أن نحكم على وضع المرأة فى الإسلام حكماً صحيحاً إذا أخذنا بعض الدول الإسلامية المحافظة كمثال على سائر الدول الإسلامية. فارتداء (البرقع) مثلاً ليس عاماً فى جميع العالم الإسلامى، وقد دهشت حين علمت أن عادة ارتداء (البرقع) ترجع إلى التقاليد البيزنطية والساسانية. وهناك بعض النساء لا يرتدين الحجاب والبعض الآخر يضعن الحجاب أو منديل الرأس كتعبير عن هويتهن الإسلامية، ولكن لا يجوز أن نخلط بين اللباس المحتشم الذى نص عليه القرآن وبين المظاهر الخارجية التى ترجع إلى عادات أو إلى مركز اجتماعى أو نقلاً عن مجتمعات أخرى.



ولأول مرة تعلن شخصية كبيرة فى الغرب مثل الأمير تشارلز أن الغرب لم يتفهم المخاوف الحقيقية لكثير من أبناء العالم الإسلامى من المادية الغربية والثقافة الشعبية واعتبارهما التحدى الذى يهدد ثقافة العالم الإسلامى وأسلوب حياته. ويضيف إلى ذلك أن بعض الغربيين يظنون أن أسلوب الحياة الغربية بما فيه من إغراءات سيجعل العالم الإسلامى يقلد الغرب، ولا شك أن التلفزيون والأجهزة الإلكترونية تنتشر فى العالم الإسلامى ولها تأثير جيد فى تحقيق التقدم والتحديث، ولكن الغربيين يسقطون فى فخ الغطرسة حين يخلطون بين تحديث المجتمعات وفرض النموذج الغربى عليها، لأن التحديث يجب أن يكون نابعا من هذه المجتمعات ومتفقا مع طبيعتها. وعلى سبيل المثال فإن المادية الغربية لا تتفق مع طبيعة المسلمين غير المتطرفين، كما أن الغربيين لا يتفهمون بعض الممارسات والمعاملات فى الحياة الإسلامية، وينظرون إليها على أنها تعبير عن التشدد أو الأصولية. ويحذر الأمير تشارلز من استخدام تعبير (الأصولية) دون ملاحظة الفرق بين

الصحة الدينية والممارسات الدينية الملتزمة، وبين المتعصبين والمتطرفين الذين يستغلون المشاعر الدينية لتحقيق أهداف سياسية. وأنصار الصحة الإسلامية المعتدلين يرون أن التكنولوجيا والأشياء المادية ليست كافية وحدها، وأن الحياة لها هدف ومغزى أعمق فى جوهر العقيدة الإسلامية.

والأمير تشارلز يكرر التنبيه إلى خطأ الاعتقاد السائد فى الغرب بأن التطرف من طبيعة المسلم والإسلام، ويعترف علناً بأن التطرف ليس حكراً على الإسلام، وهو موجود فى الديانات الأخرى بما فيها الديانة المسيحية. ويقرر بأن الغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال، لأن دينهم هو دين الاعتدال، ولأول مرة يعلو صوت فى الغرب مثل صوت الأمير تشارلز بالقول بأن النبی محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان يمتق التطرف ويحذر منه. وعلى الغرب أن يميز بين اعتدال غالبية المسلمين وبين أعمال العنف التى تقوم بها أقلية صغيرة منهم، والمسلمون أول من أعلن إدانة هذه الأقلية المتطرفة.



والأمير تشارلز يقرر أن المشكلة ليست فقط فى وجود قدر كبير من سوء الفهم فى الغرب لطبيعة الإسلام، ولكن هناك أيضاً قدراً كبيراً من الجهل بفضل الثقافة والحضارة الإسلامية على الغرب. فالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى كان مصدر العلم والحضارة للغرب، ولكن الغربيين تجاهلوا أهمية الحضارة الإسلامية فى تقدم الغرب - لأنهم يميلون إلى اعتبار الإسلام عدواً لهم ويرون أنه يمثل عقيدة وثقافة غريبة؛ فقد ازدهرت الثقافة والعلوم الإسلامية فى أسبانيا واستمرت ٨٠٠ سنة بين القرن الثامن والقرن الخامس عشر. ومن أسبانيا (الأندلس) انتقلت العلوم والثقافة والحضارة الإسلامية إلى أوروبا التى كانت تعيش فى عصور الظلام، وكانت هى اللبنة الأولى للنهضة الأوروبية. لقد قام المسلمون فى الأندلس بجمع وحفظ التراث الفكرى للحضارة اليونانية والرومانية وأضافوا الكثير فى مجالات العلوم الطبيعية، والفلك، والرياضيات، والجبر، والقانون، والطب، وعلم العقاقير، والبصريات، والزراعة، والهندسة المعمارية، والعلوم الدينية، والموسيقى. وأوروبا مدينة لكثير من علماء المسلمين فى الأندلس من أمثال ابن رشد، وابن زهر، كما ساهم علماء المسلمين فى الشرق من أمثال ابن سينا والرازى فى علوم الطب وابتكار طرق استفادات منها أوروبا على مدى قرون عديدة..

ويشير الأمير تشارلز إلى تشجيع الإسلام للبحث العلمى وتقديره للعلماء، وقد كانت قرطبة فى القرن العاشر الميلادى أكثر المدن تحضراً فى أوروبا، وكان فى أسبانيا (الأندلس) ٤٠٠ ألف مجلد فى مكتبة حاكم قرطبة، وهو عدد يزيد على عدد الكتب التى كانت موجودة فى جميع أنحاء أوروبا، وقد سبق العالم الإسلامى إلى نقل صناعة الورق من الصين قبل أن تعرف أوروبا صناعة الورق بأكثر

من ٤٠٠ سنة، كما أن كثيراً من المزايا التي تفخر بها أوروبا في العصر الحديث جاءت أصلاً من أسبانيا أثناء الحكم الإسلامي، فالدبلوماسية، وحرية التجارة، ومناهج البحث العلمي، وتطوير الأزياء والفنون التشكيلية والموسيقية، والطب البديل وإدارة المستشفيات جاءت كلها إلى أوروبا من تلك الحضارة الإسلامية العظيمة..

يشير الأمير تشارلز أيضاً إلى أن الإسلام في العصور الوسطى كان هو الدين الذي يتسم بالتسامح، ومنح اليهود والمسيحيين حرية ممارسة عقائدهم، وكان في ذلك قدوة لم تقلدها دول كثيرة في الغرب مع الأسف. والمدعش هو مدى عمق الأثر الذي تركه الإسلام في أجزاء من أوروبا عاش فيها سواء في أسبانيا أم في البلقان، بحيث لا يمكن اعتبار الحضارة الغربية غربية خالصة لأن فيها عناصر ومساهمات من الحضارة الإسلامية، فالإسلام- كما يقول الأمير تشارلز- جزء من ماضينا وحاضرنا، وقد ساهم في إنشاء أوروبا معاصرة، إنه جزء من تراثنا وليس شيئاً منفصلاً عنه. وعلاوة على ذلك فإن الإسلام يعلمنا التفاهم والتعايش في العالم، وهذا ما فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى ضعفها. ويمتاز الإسلام بنظرته المتكاملة للكون، ورفضه الفصل بين الإنسان والطبيعة، أو بين الدين والعلم، أو بين العقل والمادة، ويمتاز أيضاً بالمحافظة على نظرة تجمع بين الإيمان بالغيب ووحدانية البشرية، بينما فقد الغرب هذه الرؤية المتكاملة للعالم مع ظهور كوبرنيكوس وديكارت والثورة العلمية، ولم تعد الفلسفة الشاملة للطبيعة جزءاً من معتقداتنا. ولو أخذنا بنظرية الإسلام لابتعدنا عن موقفنا في دراسة العالم من أجل استغلاله والهيمنة عليه، وهذا الموقف هو الذي أدى إلى اختلال التوازن والفوضى في العالم..

ويقول الأمير تشارلز: لقد أصبحت الحضارة الغربية مركزة على الكسب والاستغلال، وعلينا أن نتعلم من الإسلام هذا الشعور بالوحدانية والطابع القدسي والروحي للعالم.



والأمير تشارلز يدافع عن نفسه من الاتهامات الجاهزة التي توجه في الغرب إلى كل من يقول كلمة إنصاف للإسلام والمسلمين، فيقول في خطابه الشهير: إنني على ثقة من أن بعض الناس سوف يسارعون إلى اتهامي- كما يحدث عادة- بأنني أعيش في الماضي وأرفض التأقلم مع الحياة العصرية، والأمر ليس كذلك، فما أدعو إليه هو فهم أوسع للعالم. إنني أدعو إلى الإيمان بالغيب بالإضافة إلى الحياة المادية المعاصرة وذلك لاستعادة التوازن الذي فقدناه، وأعتقد أن غياب التوازن ستكون نتائجه مدمرة على المدى الطويل..

ويقول الأمير تشارلز بصراحة: إن أساليب التفكير في الإسلام يمكن أن تساعدنا، وهناك أشياء يمكن أن نتعلمها من نظام العقيدة الإسلامية، وأرى أننا نتجاهل هذه العقيدة بشكل يلحق بنا الضرر.

ويقول أيضا: علينا أن نتعلم كيف نتفهم بعضنا، ونعلم الجيل الجديد أن يحسنوا فهم الإسلام، وأن نظهر الثقة والاحترام والتسامح ونتمسك بالقاسم المشترك الذى يجمع بيننا، وأن نتعاون معا لحل مشاكلنا المشتركة. وأن نرفض التصادم والمواجهة. علينا أن نتفاهم ونتسامح، ونفهم أهمية المصالح لكل من الغرب والعالم الإسلامى، وإننى على قناعة بأن العالمين الإسلامى والغربى يمكن أن يتعلما كثيرا من بعضهما، فكما أن مهندس البترول فى الخليج يمكن أن يكون أوروبيا، فإن جراح القلب فى بريطانيا يمكن أن يكون مصريا. وإذا كانت الحاجة إلى التسامح لازمة على المستوى الدولى، فهى لازمة بقوة فى بريطانيا، لأن بريطانيا مجتمع متعدد الأجناس والثقافات. وعلينا أن نحترم ممارسة الشعائر فى العقيدة الإسلامية، وأن نتجنب القيام بأى أفعال يمكن أن تسبب إساءة للمسلمين. وفى نفس الوقت هناك حاجة إلى أن يحترم المسلمون تاريخ بلادنا وثقافتها وأسلوب الحياة فيها، والاندماج فى مجتمعنا.

وحرص الأمير تشارلز على أن يختم خطابه المهم بقوله: إن العالمين الإسلامى والغربى قد وصلا إلى ما يشبه مفترق طرق فى علاقاتهما، ولا يجوز أن ندعهما يفترقان، وأنا لا أوافق على مقولة أنهما يتجهان نحو الصدام وإلى عهد جديد من الخصومة والعداء. وعلينا أن نزيل السموم ونقضى على الشك والخوف بين العالمين الإسلامى والغربى .

وأعتقد أن هذا الخطاب يعتبر خطابا تاريخيا بحق، أولا: لأنه صادر عن شخصية لها مكانتها الرفيعة وتأثيرها فى بريطانيا وفى أوروبا عموما، وثانيا: لأن فيه قدرا من الصراحة قد لا نجد مثلها لدى كثير من النصفين للإسلام فى الغرب، وثالثا: لأننا نلمس فيه معرفة عميقة بالإسلام وحضارته وفضله على الحضارة الأوروبية، وأخيرا لأن فيه دعوة للغرب لكى يتعلم من الإسلام، كما أن المسلمين يتعلمون من الغرب.. وفيه أيضا رفض لنظرية حتمية الصراع بين الغرب والإسلام التى انتشرت فى الولايات المتحدة وانتقلت منها إلى أوروبا.

هكذا بدأ ولى عهد بريطانيا حملة لإنصاف الإسلام وإعادة الاعتبار إليه فى وقت كان الغرب قد وصل إلى قمة العداء وسوء الفهم للإسلام والمسلمين، وكانت نظرية الصراع بين الغرب والإسلام قد أوشكت أن تصبح من مسلمات الفكر الغربى.

ولذلك يجب أن نقدر موقف الأمير تشارلز وشجاعته فى وقت يتردد فيه كثير من قادة وزعماء الغرب فى قول كلمة حق عن الإسلام.



والحقيقة أن الأمير تشارلز ليس وحده الذى أنصف الإسلام، لكن هناك كثيرين من كبار الكتّاب والفلاسفة فى الغرب سبقوه إلى ذلك . نجد بعضهم فى كتاب شيخنا الإمام الراحل الدكتور عبد

الحليم محمود (أوروبا والإسلام) مثل الكونت هنرى دى كاسترى الذى درس الإسلام وله كتاب مشهور بعنوان (الإسلام: سوانح وخواطر) ترجمة فتحى زغلول. وهو يروى قصة اهتمامه بالإسلام فيقول: إنه كان ممثلاً للاحتلال الفرنسى فى الجزائر، وفى يوم كان يسير على حصانه ويسير خلفه ثلاثون من فرسان العرب الأقوياء، وكان فخوراً بمركزه وبالمدح الذى يسمعه طول الوقت ممن يعملون تحت إمرته. وفجأة وجدهم يقولون له: لقد حان موعد صلاة العصر. ودون أن يستأذنه ترجلوا واصطفوا للصلاة، ودوت فى أرجاء الصحراء (الله أكبر).. حينئذ شعر الكونت بشيء من المهانة فى نفسه، وبشيء من الدهشة من هؤلاء الذين اتجهوا إلى الله بكل كيانه، وبدأ منذ تلك اللحظة فى دراسة الإسلام، وبلور خلاصة ما وصل إليه فى هذا الكتاب الذى فند فيه الأكاذيب التى روجها الكتّاب الغربيون عن الإسلام ونبي الإسلام. وأثبت أن الدافع وراء كثير من هذه الكتابات هو تعميق الكراهية للإسلام ويقول: إنه وجد أن هؤلاء الكتّاب لا يقصدون كتابة التاريخ، ولكنهم كانوا يظنون أنهم يخدمون المسيحية عن طريق الإساءة إلى الإسلام. ويفند الكونت هنرى دى كاسترى أقوال الذين ادعوا أن القرآن من تأليف محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول: (إن العقل يحار كيف يتأتى لرجل أُمى أن تصدر عنه هذه الآيات وقد اعترف علماء اللغة العربية بأنها فوق مستوى البشر، ويعجز إنسان عن الاتيان بمثلها لفظاً ومعنى، والدليل على ذلك أن بلغاء العرب عندما سمعوا هذه الآيات اعترفوا بأنها معجزة، وأن فيها سحراً يعجز أى إنسان عن الوصول إليه، وقد حار عتبة بن ربيعة عندما سمع القرآن وقال: إن الإنسان يحار فى جمال ودقة صياغة آياته، وسمعها عمر بن الخطاب فآمن بأنها من عند الله ولا يمكن أن تكون من تأليف إنسان، وكذلك سمعها النجاشى ملك الحبشة ففاضت عيناه بالدموع وجعفر بن أبى طالب يتلو عليه سورة مريم وما جاء عن النبی يحيى، وأعجب النجاشى بهذه المعانى ومنح حمايته للمسلمين الذين هاجروا إليه، ورفض تسليمهم إلى قريش. وبذلك شاعت حكمة الله أن يعيش الإسلام سنواته الأولى فى حماية المسيحية، وفى ذلك ما يدل على أن النفس الصافية تكتشف جوهر الأديان (وهى أن الأديان تصدر من نبع واحد وليس بينها عداوة كما يريد البعض).

ويستدل الكونت هنرى دى كاسترى على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوصف اللحظات التى أسلم فيها الروح، وفى هذه اللحظات تنكشف حقيقة الإنسان إن كان صادقاً فيما ادعاه أو كاذباً، وإن كان مؤمناً ومصدقاً فى أعماقه بدعوته أو كان يظهر غير ما يبطن، وقد كانت مناجاته لله فى النفس الأخير دليلاً على صدقه، فقد اتجه إلى الله وهو يقول: (رب أعنى على سكرات الموت. ادن منى يا جبريل. رب اغفر لى. واجمع بين أصحابى فى ظلك). ومثل هذه الكلمات لا تصدر فى غيبوبة الموت إلا ممن كان ممثلاً باليقين وصادقاً فى دعوته. وهذا ما دعا كارلايل - أحد كبار الكتّاب البريطانيين - إلى أن يخصص فى كتابه (الأبطال) فصلاً عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول

فيه : إن من العار أن يصغى إنسان متدين إلى القائلين بأن دين الإسلام كذب، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم يكن نبيا. لقد آن الأوان أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى - صلى الله عليه وسلم - ظلت مضيئة أربعة عشر قرنا من الزمان، ويعتقها مئات الملايين من الناس من مختلف الأجناس والثقافات، فهل من المعقول أن تكون هذه الديانة بانتشارها واستمرارها مجرد أكاذيب صاغها محمد - صلى الله عليه وسلم - من عنده؟! هل رأيت رجلا كاذبا يستطيع أن يؤسس دينا؟ إن الإنسان المنصف لا يستطيع أن ينكر أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - كان شهابا أضاء العالم. وشخصيته وسلوكه لا يدلان على أنه كاذب، لأنه لم يكن يطلب لنفسه شيئا، ولا يدعى ما ليس فيه، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا، فهو فى ثوبه البسيط يخاطب ملوك الفرس والروم يدعوهم إلى عبادة الله ولا يدعوهم إلى الخضوع لسلطانته أو ملكه. وقد انطلقت من هذا الرجل الأمى أفكار لا تتفق مع ثقافته وثقافة مجتمعه، ولم يكن لديه طمع فى جاه أو سلطة.. لقد كان صوته منبعثا من مصدر علوى، ولهذا كانت الآذان صاغية والقلوب خاشعة أمام ما يقول. وقد كان زاهدا متقشفا فى مأكله وملبسه، فما هو إذن الدافع الذى يجعله يتحمل ما تحمله من مشاق من أجل دعوة كاذبة لا يجنى من ورائها مغنما؟

كان هذا هو المنطق الذى أسس عليه كارلايل ثقته فى صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ويضيف: ولو كان محمد - صلى الله عليه وسلم - غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراماً وإجلالا كما لقي منهم، ولما استطاع أن يقودهم وهم بطبيعة تكوينهم القبلية الصحراوية شديداً المراس، ولما قاتلوا معه وضحوا بأرواحهم فى سبيل دعوته.. وينتهى كارلايل إلى القول بأن من استطاع توحيد وقيادة هؤلاء البدو بما كانوا عليه من جفاء وغلظة لا بد أن يكون بطلا خارقا.



ويذكرنا الدكتور عبد الحليم محمود بموقف الفيلسوف والكاتب الروسى الكبير تولستوى الذى تصدى للحملة الظالمة على الإسلام ورسوله، فكتب يقول: لا شك أن هذا النبى من كبار المصلحين، ويكفيه فخرا أنه هدى أمة بأكملها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام وتكف عن النهب وسفك الدماء. ويكفيه أنه فتح طريق الرقى لقبائل البدو التى كانت تعيش بمعزل عن العلم والحضارة.. وما حققه لا يمكن أن يحققه إلا شخص أوتى قوة وحكمة، وهو جدير بالاحترام.

ويذكرنا الدكتور عبد الحليم محمود أيضا باللورد هيدلى، وهو شخصية بريطانية كانت لها مكانتها فى بريطانيا، وقد أعلن إسلامه بعد أن تفرغ لدراسة هذا الدين من مصادره الأصلية، وكان لإسلامه ضجة كبيرة لما كان له من مركز مرموق فى المجتمع البريطانى. وقد تحدث اللورد هيدلى عن قصة اعتناقه الإسلام فقال: عندما كنت أقضى حياتى الأولى فى جو المسيحية، كنت أشعر أن



الدين الإسلامي فيه بساطة تلفت النظر. وعندما زرت بلاد الشرق انتهزت الفرصة لدراسة القرآن، فوجدت نفسى أنجذب إليه. وبقيت بعد ذلك أربعين سنة أدرس الإسلام وأفكر فيه؛ وأخيرا رأيت أن هذا الدين لا يضع حاجزا أو يفرض وساطة بين الله والإنسان. فالإنسان يستطيع أن يقف في حضرة الله خمس مرات كل يوم، وفي أى وقت آخر، دون أن يلجأ إلى أحد أو يستعين بأحد، وليس في الإسلام إلا الإيمان بإله واحد، لا شريك له، والرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - لم يطلب من أحد أبدا أن يعبد أو يقدسه، بل كان يؤكد ويكرر أنه بشر كسائر البشر إلا أنه يتلقى الوحي من ربه، وفي غير ذلك فحياته حياة إنسانية كاملة، فهو يأكل وينام ويتزوج ويعضب ويتعرض للأذى ويصاب بالجروح في المعارك ويموت كما يموت البشر.. ولا يطلب لنفسه سلطة أو امتياز على سائر الناس. وقد ضرب مثلا في الصبر والثبات يدل على أنه كان صادقا لأن إيمانه لم يتزعزع، ولم يستسلم لجبروت أعدائه. ويكفى تأمل لحظة اختفائه مع أبى بكر فى الغار فى رحلة الهجرة، والكفار واقفون على باب الغار، ولو نظر أحدهم إلى موقع قدمه لرآهما، فى هذه اللحظة لو كان محمد - صلى الله عليه وسلم - كاذبا ومدعيا لظهرت حقيقته وأصيب بالانهيار، ولكنه صمد وقال لصاحبه: «لا تحزن إن الله معنا». فهو إذن نبي بلا شك. والكاذب هو أول من يعلم أنه كاذب. والصادق هو أول من يعلم أنه صادق. وفى هذا الموقف تأكد صدق محمد - صلى الله عليه وسلم - بما لا يدع مجالا للشك.

ولقد كانت صفاته الشخصية موضع احترام الكفار.. ومنها الشجاعة.. والعفو عند المقدرة.. وكانت أخلاقه أخلاقا ربانية.. فهو المثل الكامل الذى أقنع العرب بصدق رسالته، وأقنع الملايين فى العالم بذلك فيما بعد.



وحديث اللورد هيدلى عن الإسلام ورسوله يفوق ما قاله المسلمون بكثير، وقد نقل بعضه شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود كما نقل بعض أقوال الفيلسوف الفرنسى (رينيه جينو) الذى أسلم وأصبح اسمه (الشيخ عبد الواحد يحيى) وهو أستاذ فى الدراسات الفلسفية والدينية. وله مؤلفات كثيرة منها كتاب (أزمة العالم الحديث) يحل فيه الأزمة الروحية التى تعانى منها المجتمعات الأوروبية نتيجة الفلسفة المادية التى أصابت الأوروبيين فى النهاية بالقلق، والإحباط، والتساؤل عن جدوى حياتهم، ودفعتهم إلى الإغراق فى المتع المادية أو الانتحار. وله أيضا كتاب (الشرق والغرب) يشرح فيه عوامل تفوق الشرق فى الفكر والحضارة والنزعة الإنسانية ورفضه للاستغلال الذى أصبح مصدر قوة الغرب.

يقول الدكتور عبد الحليم محمود إن رينيه جينو من الشخصيات التى يجوز اعتبارها مثل الإمام الغزالي وأمثاله من أئمة المسلمين. وقد حرمت الكنيسة قراءة كتبه، والكنيسة لا تفعل ذلك إلا مع



كبار المفكرين الذين تخشى خطرهم. وإذا كان هذا تقديراً سلبياً له أهميته، فهناك تقدير إيجابى أكثر أهمية، يتمثل فى وجود أعداد كبيرة من الأوروبيين استجابوا لدعوته، وأنشئوا جمعيات فى العواصم الأوروبية وخاصة فى سويسرا وفرنسا، وآمنوا بالإسلام، ونشروا كتبه وأعيد طبعها عدة مرات وترجمت إلى اللغات الحية عدا اللغة العربية مع الأسف. ومن الطريف أن بعض كتبه ترجمت إلى اللغات الهندية والصينية واعتبرت فى بعض المناطق شرحاً للوصية الأخيرة من وصايا الدلاى لاما. وبعد وفاته خصصت له مجلة (فرنسا-آسيا) عددا يضم دراسات عنه بأقلام كبار المفكرين والكتّاب فى العالم، وكتب المقال الأول فى هذا العدد الكاتب الفرنسى الكبير أندريه جيد وقال فيه: إن آراء رينيه جينو لا يمكن أن تتعرض للنقد أو النقض. وخصصت أيضاً مجلة (ايتودترا ديسيونيل) عددا خاصا عن حياته وفكره ضم مقالات لكبار الكتّاب أيضاً، وللكتاب الفرنسى الشهير (بول سيران) كتاب ضخم عن حياة وآراء رينيه جينو واعتبره من كبار فلاسفة القرن العشرين وقال: إن اسمه يجب أن يكون إلى جانب أسماء المفكرين الفلاسفة الذين أثروا فى الفكر الإنسانى مثل الغزالى وأفلاطون.



رينيه جينو نشأ فى أسرة فرنسية كاثوليكية ثرية محافظة. اشتهر منذ شبابه بأنه مرهف الشعور ميّالاً إلى التفكير ودقة البحث، وفى مرحلة من مراحل حياته المبكرة وصل إلى مرحلة الشك الذى وصل إليها كبار الفلاسفة فى الشرق مثل الإمام الغزالى، والإمام المحاسبى، والإمام محبى الدين بن عربى وغيرهم، وفى الغرب وصل إليها العديد من المفكرين مثل ديكارت وكانط وعشرات غيرهما.. وخرج من مرحلة الحيرة والشك والبحث عن اليقين إلى الإيمان بالإسلام. وكتب كثيراً فى الدفاع عنه وبيان عدم صحة ما يردده الغربيون دون مناقشة بالعقل مثل القول بأن الإسلام انتشر بحد السيف، أو إنكار روحانية الإسلام وادعاء أنه دين مادى، أو الادعاء بأن شعوب الشرق متخلفة عن الحضارة بحكم طبيعتها وتكوينها.

وله دراسة مشهورة بعنوان (أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب) ذكر فيها بالتفصيل فضل الثقافة والعلوم الإسلامية على أوروبا وقال فيه: (إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما أخذوه فى القرون الماضية من الثقافة الإسلامية، ومن الحضارة العربية، لأن ما ينشر عن ذلك ليس سوى حقائق مشوهة. ولقد عاشت أسبانيا وجزيرة صقلية ومنطقة جنوب فرنسا تحت الحكم الإسلامى ومنها انتقلت العلوم التى كانت مزدهرة فى العالم الإسلامى إلى أوروبا وكانت أوروبا فى ذلك الوقت تعيش فيما يسميه الأوروبيون عصر الظلام. والأوروبيون يدعون أنهم ورثة علوم اليونان والرومان. والحقيقة التاريخية هى أن هذه العلوم لم تنتقل إلى الغرب إلا عن طريق المسلمين الذين حافظوا على هذه الثقافة وأضافوا إليها. ولولا علماء الإسلام وفلاسفتهم لظل الغربيون جاهلين بتلك العلوم. وقد ساهم فى الحضارة الإسلامية العرب وغير العرب، والمسلمون وغير المسلمين، بفضل سماحة الإسلام

واتساع أفق حكام المسلمين. ومن آثار الثقافة الإسلامية تلاحظ وجود ألفاظ في اللغات الأوروبية ذات أصل عربي. وقد كانت الأندلس (إسبانيا) الجسر الذي نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. وما زال علم الكيمياء يحمل الاسم العربي لأن المسلمين هم الذين أسسوا هذا العلم. وكذلك علم الرياضيات وعلم الفلك وما زالت مصطلحاته وأسماء النجوم تحمل أسماء عربية. ولم يعرف الأوروبيون شيئاً عن المناطق البعيدة في آسيا وأفريقيا إلا عن طريق علماء الجغرافيا والرحالة المسلمين، وما زالت قصة الساعة المائية التي أهداها الخليفة هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان تحمل دلالة التفوق العلمي والتكنولوجي في الحضارة الإسلامية. ويضاف إلى ذلك تفوق علماء المسلمين في علوم الجبر والهندسة، كما تأثر الشعراء والأدباء في أوروبا بالثقافة العربية وتأثر الغربيون أيضاً بفنون العمارة الإسلامية، ونقل الغربيون الفلسفة الإسلامية وبخاصة مؤلفات ابن رشد وابن سينا، وتأثر الشاعر الإيطالي الشهير دانتي بكتابات ابن عربي وأبي العلاء المعري. وقد اعترف الباحثون الغربيون بأن المسلمين سبقوا الغربيين بقرون في وضع منهج البحث العلمي التجريبي الذي يعتمد على الملاحظة والاستقراء والتجربة ووضع الفروض والتحقق من صحتها أو كذبها بالتجربة، ويقول رينيه جينو (الشيخ عبد الواحد يحيى): إن الزعم بأن الأوروبيين هم الذين استحدثوا المنهج العلمي زعم خاطئ، فقد أخذ روجر بيكون مؤسس المنهج العلمي الحديث أفكاره من الجامعات الإسلامية في الأندلس. والقسم الخاص من علم البصريات في كتابه منقول من كتاب (المنظر) لابن الهيثم. وقد تأثر روجر بيكون أيضاً بابن حزم في منهجه في البحث.

وينقل رينيه جينو ما توصل إليه الباحث الفرنسي (بريفولت) من أن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلوم العربية، في أكسفورد، وكان أساتذته من تلاميذ العرب في الأندلس، وفي الحقيقة لم يكن روجر بيكون وفرنسيس بيكون مؤسسين لمنهج البحث العلمي الحديث كما هو الشائع في أوروبا، ولكنهما أخذاً أصول هذا المنهج من العلماء المسلمين، وقد كان تعلم اللغة العربية في القرون الوسطى هو الوسيلة الوحيدة لتحصيل العلوم التي كانت مزدهرة في الأندلس.

والخلاصة أن هناك من يعترفون بالحقيقة: وهي أن الحضارة والتقدم العلمي والثقافي في أوروبا مدين بالفضل للعلماء المسلمين ولثقافتهم الإسلامية.



وهذا الاعتراف بالإسلام وحضارته يجد صدًى في كثير من أنحاء العالم، ففي اليابان أنشأت جامعة (تاكو شوكو) في العاصمة طوكيو مركز دراسات الشريعة الإسلامية في ديسمبر ٢٠٠٢ ويقوم هذا المركز بترجمة ونشر كتب الفقه والتفسير والحديث وهدفه تنشيط حركة الوعي بالإسلام وتشجيع الدراسات التحليلية للفتاوى وفكر رجال الدين الإسلامي الكبار، وفي هذا المركز لجنة

متخصصة لدراسات الشريعة الإسلامية يضم عددا من الأساتذة اليابانيين الذين درسوا فى الأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى، وهم حاصلون على الدكتوراه فى العلوم الشرعية والدراسات الإسلامية، وهؤلاء يشرفون على الطلبة الدارسين للعلوم الإسلامية، ولهذا المركز علاقات مع الأزهر، ومع الجامعات الإسلامية فى السعودية مثل جامعة الإمام محمد بن سعود وجامعة أم القرى، وجامعة مسلمى اليابان فى طوكيو.

واهتمام جامعة (تاكو شوكو) بالدراسات الإسلامية يرجع إلى بداية تأسيس الجامعة فى عام ١٩٠٠، وهى أول جامعة فى اليابان تدرس اللغة العربية وعلوم القرآن، ومن أهداف مركز دراسات الشريعة نشر الفهم الصحيح عن الإسلام لدى الشعب اليابانى، وتقديم استشارات للشركات وللحكومة اليابانية للمساعدة على تنمية العلاقات التجارية بين اليابان والعالم الإسلامى. وقد أعلن رئيس الجامعة (الدكتور فوجيتو تاتسونوبو) فى حفل افتتاح هذا المركز أن المهمة الأساسية هى التعريف بحقيقة الإسلام ونشر المعرفة الصحيحة عنه، لأن الإسلام لم يوف حقه فى اليابان.



وفى خطوة ذات دلالة على وجود رغبة لدى بعض مؤسسات وقيادات الغرب لإقامة جسور مع العالم الإسلامى، أقيم فى مجلس العموم البريطانى فى نوفمبر عام ٢٠٠٠ أسبوع للتوعية الإسلامية برعاية البارونة أودين عضو مجلس اللوردات. وكان الهدف من التجمع العلمى فى رحاب البرلمان البريطانى المساهمة فى إزالة سوء الفهم لدى البريطانيين عن الإسلام والمسلمين، ومعالجة ظاهرة (الإسلاموفوبيا) وهى المخاوف المرضية من الإسلام. وقد شارك فى لقاءات وندوات هذا الأسبوع عدد من البريطانيين المهتمين بالقضايا الدينية والسياسية على اختلاف مدارسهم الفكرية. وبدأ مع ندوات هذا الأسبوع إطلاق موقع على شبكة الإنترنت للتعريف بالإسلام وتقديم نبذة عن مساهمات المسلمين فى المجتمع البريطانى. وشارك فى هذا الأسبوع رئيس الوزراء تونى بليير، وزعيم حزب المحافظين وليام هيج، وزعيم حزب الأحرار الديمقراطيين تشارلز كيندى. قبل هذه الندوات كان وزير الداخلية البريطانى قد شكل لجنة لدراسة ظاهرة (الإسلاموفوبيا) وتقديم توصيات عملية للقضاء عليها، وقدمت اللجنة ٦٠ توصية كان من بينها ضرورة توعية المجتمع البريطانى بحقائق الدين الإسلامى، وإزالة ما علق فى الأذهان من أخطاء وأوهام من صنع المعادين للإسلام على مدى التاريخ. ومهما قيل عن نجاح هذا الأسبوع فإنه لا يكفى لإزالة آثار عشرات السنين من الدعايات ضد الإسلام.

وتعبير (إسلاموفوبيا) الذى أصبح شائعاً في أنحاء أوروبا وأمريكا يعكس الشعور السائد في الغرب بالقلق من الإسلام والنظر إليه على أنه الإرهاب الذى يهدد بتدمير الحضارة والحياة الغربية. وهذا ما جعل كاتباً مشهوراً مثل (جرينواى H.D.S. Granway) يحذر في مقال له في صحيفة هيرالد تريبيون الأمريكية من ظهور سور حديدى جديد، هو السور الإسلامى، بعد انهيار السور الحديدى في الاتحاد السوفيتى الذى كان يعزل الاتحاد السوفيتى عن الغرب ويقسم العالم ويستثير العداوات والصراعات بين الجانبين، ويقول: إن الغرب دخل في هذه المرحلة في صراع مع الإسلام السياسى الذى يسعى إلى إسداد ستار حديدى على الدول الإسلامية من الرباط على المحيط الأطلنطى إلى صربيا في قلب أوروبا. ويصل جرينواى إلى أن إزالة هذا الستار الحديدى لن تتحقق إلا بإزالة الظلم الذى يمارسه الغرب على الشعوب الإسلامية وبخاصة في فلسطين التى تمثل للمسلمين جرحاً مفتوحاً ينزف منذ أكثر من نصف قرن، دون أن تعمل الولايات المتحدة بجدية لإقرار العدل، وبدلاً من ذلك فإنها فتحت جرحاً آخر في العراق، ويزيد من آلام المسلمين ما يتكشف لهم من عمليات المهانة والإذلال التى يمارسها الجنود الأمريكيون على رجال ونساء العراق، وستبقى حية في ضمائر المسلمين مشاهد الطائرات والدبابات وهى تقصف مدن العراق، وصور التعذيب المهيئ في سجن أبو غريب ومعتقل جوانتانامو وسجون أفغانستان، ويقول: إن كل ذلك سيؤدى إلى زيادة التطرف الإسلامى بدافع رد العدوان.. ويبدو من هذا المقال - وأمثاله - أن في الولايات المتحدة من يتفهم الواقع ويتعاطف مع قضايا المسلمين العادلة.



وفي إطار هذه الموجة الجديدة من موجات الدفاع عن الإسلام في الغرب ظهرت انتقادات للنظرية التى تدعى أن الإسلام هو السبب في انتشار الفقر والتخلف في العالم الإسلامى، فقد تصدى الاقتصادى الأمريكى (ماركوس نولاند) الأستاذ بمعهد الاقتصاد الدولى بواشنطن لعدد من الباحثين قالوا: (إن المسلمين يفتقدون الحافز للنمو بسبب العقيدة الإسلامية التى تدعوهم إلى الكسل والتخلى عن مسئوليتهم عن العمل والتقدم وترك ذلك إلى الله هو الذى يحقق لهم زيادة الدخل والإنتاج وهم نيام!) فقال ماركوس نولاند: إنه ليس هناك شئ متأصل في كيانات المجتمعات الإسلامية يجعلها عاجزة عن الأداء الاقتصادى بمفاهيمه الحديثة، والإسلام في حقيقته يحفز المؤمنين به على الإيجابية ومواجهة المشاكل وزيادة الثروة عن طريق العمل، وقد كان العالم الإسلامى أكثر تقدماً وازدهاراً من أوروبا في القرن العاشر الميلادى، وكان مصدراً للتقدم العلمى والحضارى والاقتصادى والتجارى، ولم يتمكن الغرب من اللحاق بالعالم الإسلامى حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وبعد ذلك تقدم العالم الغربى وسبق العالم الإسلامى الذى دخل في مرحلة سكوت وفقد كثيراً من حيويته التى كانت تميزه.

وقال ماركوس نولاند أيضا: إن الدارس لتطور المجتمعات الإسلامية منذ ظهور الإسلام يجد أن العقيدة الإسلامية ليست معادية للإبداع والتحديث والاجتهاد كما يشاع عنها، بل كانت على العكس من ذلك قوة دفع للتطور، مع اختلاف سرعة النمو فى مرحلة عن الأخرى، وفى كل مرة أصيب فيها العالم الإسلامى بالجمود وتوقف عن النمو كان ذلك لأسباب سياسية واجتماعية ولم يكن بسبب العقيدة الدينية. ودعا ماركوس نولاند الباحثين فى الغرب إلى تحليل أسباب التقدم الاقتصادى والحضارى للعالم الإسلامى فى مرحلة وأسباب توقف نمو هذه المجتمعات فى مرحلة أخرى، وفى كل المراحل فإن عامل الدين موجود ولم يكن غائبا فى أية مرحلة منها، مما يدل على أن الدين الإسلامى ليس هو السبب فى الفقر والتخلف الاقتصادى والثقافى فى بعض مناطق العالم الإسلامى.

هذا الدفاع عن الإسلام له أهمية كبيرة فى مواجهة الهجمة الشرسة على الإسلام فى الولايات المتحدة وأوروبا. ويدعم هذا الاتجاه اعتراف بعض الأمريكيين بأنهم اكتشفوا فى الإسلام قوة روحية واحتراما للعقل وللإنسانية - كما أعلن ذلك البروفيسور (دونالد كول) أستاذ الانثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وفى حديث له مع الأهرام قال: إنه لم يجد أى تناقض بين الإسلام والحدثة، وفى دول الغرب كثير من المسلمين الناجحين الملتزمين بدينهم ومندمجون فى المجتمعات الغربية.

وفى هذا الحديث قال البروفيسور دونالد كول: إنه نشأ فى أسرة مسيحية متدينة فى ولاية تكساس، تنتمى إلى مجتمع البروتستانت البيض الأنجلو - ساكنون الذين يسيطرون على الإدارة الأمريكية. وقد قرأت القرآن فأنجذبت إلى الإسلام، وتفرغت لدراسته إلى أن اعتنقت الإسلام، ورأيت أن أمريكا فى حاجة إلى الإنقاذ، لينس من المسلمين، ولكن على أيدي المسلمين. وقد بدأ اهتمامى بالإسلام فى مرحلة الدراسة الجامعية فى جامعة بيركلى بكاليفورنيا فى فترة الستينات التى تصاعد فيها الغضب ضد حرب فيتنام. وقررت دراسة اللغة العربية والمجتمع الإسلامى على يد أستاذ يهودى كان يعتبر الإسلام ظاهرة تاريخية اجتماعية وليس ديناً سماوياً، ولكنى باختلاطى مع المسلمين ومعايشة الواقع الإسلامى فى عدد من الدول العربية تغير مجرى حياتى، ثم توالى على صدمة وفاة والدى، ثم صدمة الغزو الأمريكى للعراق، فوجدت نفسى أنتمى إلى هذا العالم الإسلامى، وصرت واحداً من أبنائه، وأعيش فى القاهرة حيث أجد فيها القيم والأخلاق الإسلامية.

هكذا تتجلى مشيئة الله. فلا يخلو مكان أو زمان من أصوات تقول كلمة الحق، وترتفع فى الغرب بإنصاف الإسلام فى مواجهة أصوات الباطل التى تنفث السم وتعمق الكراهية.. والله غالب على أمره. ولن تنطفئ شعلة الحق.. ولو كره الكارهون.



## المنصفون للإسلام من جوتة إلى جارودي !

عندما يذكر المنصفون للإسلام في الغرب فلا بد أن يكون في مقدمتهم الشاعر والكاتب الألماني العظيم جوتة. فهو أول من اعترف بأنه مدين بشاعريته للشرق الذي منحه (الثراء الروحي) كما كان يقول. وهو أول من أعلن أن الدعوة إلى انفصال الشرق الإسلامي عن الغرب المسيحي دعوة باطلة، وأن الإنسان العاقل هو الذي يأخذ من الجانبين وينظر إلى الأمور بحكمة وباتساع أفق. وهو أيضا أكبر من اعترف صراحة بفضل الثقافة والعلوم العربية والإسلامية على أوروبا. وكان مدافعا قويا عن الإسلام في مواجهة الكراهية التي كانت سائدة في الغرب لكل ما يمت للإسلام بصلة.

وتزداد قيمة جوتة عندما نعرف أن دعوته إلى إنصاف الإسلام والاعتراف بقيمته في إثراء الحضارة الإنسانية، جاءت في وقت كان قد تم طمس هذه الحقيقة من عقول الغربيين جميعا، ويستثنى من ذلك قلة قليلة مثل الكاتب الألماني (ليسنج - ١٧٢٩ - ١٧٨١م) الذي كتب رواية مشهورة بعنوان (ناتان الحكيم) تدور حول فكرة أساسية هي أن الأديان السماوية الثلاثة جاءت برسالة واحدة.. ورمز لذلك بأسرة فيها ثلاثة أخوة أشقاء لأب واحد.

ومثل المؤرخ الألماني (يوهان هيردر ١٧٤٤ - ١٨٠٣م) الذي اعترف بأن المسلمين أقاموا مئات السنين في أوروبا فكانت علومهم وفنونهم هي المنهل الذي بدأ الغرب نهضته منها. ويقول: (لقد هبت على أوروبا - عن طريق المسلمين - رياح الدين والشرف وتذوق الجمال فزرعت في تربة الغرب هذه القيم إلى جانب الدين المسيحي.. ولقد تعلم الغرب الكثير من المسلمين خلال الحروب الصليبية. ومثل الأديب الألماني الكبير (الكسندر هومبولدت ١٧٦٩ - ١٨٥٩م) الذي أوضح كيف كان للعرب والمسلمين الفضل في التطور العلمي والثقافي للغرب.



وفي كتاب للباحثة الألمانية د. كاثرينا ممسين بعنوان (جوته والإسلام) - ترجمته شيرين حامد فهمي وأصدرته مكتبة الشروق الدولية - بحث دقيق عن بداية تعرف الغرب إلى العالم الإسلامي في العصر الحديث- بعد عصر النكران لفضل المسلمين- وكان ذلك بصدور أول ترجمة لرواية ألف ليلة وليلة باللغة الفرنسية. فاندلعت شرارة الولع بهذه الرواية وانتشرت ترجماتها في سائر لغات أوروبا، حتى لم يعد في أوروبا كلها من لم يقرأها مرة واحدة على الأقل، وألهمت العديد من كتاب وشعراء الغرب بما فيها من سحر وإثارة وخيال، وما زال هذا السحر باقيا إلى اليوم، حتى إن المستشرقة الألمانية العظيمة (أنا ماري شيمل) كتبت قصيدة عن الروحانية التي تأثرت بها في ألف ليلة قالت فيها:

لقد جعلتني أحلم في ألف ليلة وليلة..

مدينة التوابل والذهب..

الآن استيقظت وأفقت، فذهبت الألوان وبهتت..

إلا أنه ما زال باقيا هناك البخور يملأ الطرقات..

وكان تأثير ألف ليلة وليلة كبيرا على الشاعر الألماني العظيم جوته، وقال: إنه كان يعيد قراءتها بين حين وحين دون أن يشعر بملل. وكان جوته مولعا بالشعر العربي القديم وبخاصة القصائد السبع المشهورة باسم (المعلقات) وقد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية كنموذج للشعر الكلاسيكي العربي قيل الإسلام. ومنها تعمق جوته في دراسة الشعر العربي حتى إنه كتب عن الشاعر العربي (أبي تمام) وغيره، وانشغل بترجمة الشعر العربي إلى اللغة الألمانية حتى إنه وهو في عامه الواحد والثمانين، وقبيل وفاته بعام، كان يحكى عن انشغاله باللغة العربية في شبابه وكانت ذاكرته تحتفظ بالكثير من أبيات الشعر العربي، وكان إعجابه باللغة العربية شديدا حتى أنه اعتبرها اللغة الوحيدة التي تتمتع بالانسجام بين الروح، والكلمة، والخط، ففيها تناسق غريب لا تجده في لغة أخرى.



وتتحدث د. كاثرينا ممسين عن إعجاب جوته بالقرآن، وتأثر كثير من كتاب الغرب بذلك حتى إن (هيردر) عالم الدين البروتستانتي يعترف بأن (تلك اللغة القرآنية المقدسة أعجوبة العجائب). وكان مفهوم (التسامح) هو الذي جذب جوته إلى الإسلام. ولكي يفهم لغة القرآن تعلم اللغة العربية والخط العربي. وكان يصف لغة القرآن بالقوة والعظمة والرهبة والسكون في خليط عجيب.. وتذكر د. كاثرينا ممسين أمثلة من كتابات جوته ورسائله التي تدل على مدى احترامه للإسلام؛ فقد كتب رسالة وهو في الثانية والعشرين من عمره قال فيها: (أريد أن أدعو كما دعا موسى ربه في القرآن ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ (طه: ٢٥) مما يدل على أنه قرأ القرآن وتأثر به. وعندما بلغ السبعين





وقدم جوته بعد ذلك (أغنية محمد) التي تعتبر أول تبجيل للرسول - صلى الله عليه وسلم - من شاعر أوروبي.

وفى هذه الأغنية يظهر انبهار جوته بشخصية النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم انبهاره بجهاده وعدم اكتفائه بالدعوة وكفاحه لتأسيس مجتمع قائم على مبادئ الدين الذي جاء به، وربط بين النبي - صلى الله عليه وسلم - المعلم الروحي والنبي الإنسان ذي الصفات العالية، ويعكس جوته في أشعاره عموماً إعجابه بما في شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المزج بين الشخصية التي تؤسس ديناً جديداً، وبين نفس الشخصية وهي تركز جهدها لتربية البشرية روحياً. وجاء في أشعار (الدراما المحمدية) الكثير من تعبيرات الإعجاب والتقدير للرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل :

بين مضايق الجبال سار

ويخطى أقدام القائد شد معه أصحابه

تنتعش الورود تحت أقدامه

وفى غير ظله لا توجد الورود

وها هو ذا يسير في الوادي متلألئاً بهياً

والأنهار والجداول تهتف به صائحة: يا أخانا

خذ إخوتك وخذنا معك إلى ربك الدائم

والآن يعلو ويكبر ويحمل معه الأمراء

وفى وسط انتصاراته دانت المدن تحت قدميه وهو يسير تاركا الترف والشراء

لا يعبأ بهما.. وهكذا حمل أصحابه وأطفاله

ولا يكتب هذه الصورة المليئة بالتقدير إلا من يؤمن بأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول بحق وأن دينه هو دين الحق. وتذكر كاثرينا ممسين مواقف كثيرة تدل على اعتقاد جوته بالتسليم لله كما في العقيدة الإسلامية؛ ففي عام ١٨٢٠م مرضت أخته غير الشقيقة بمرض خطير فكتب إلى صديق له: (لا أستطيع إلا أن أقول: إننى أجد نفسى - مرة أخرى - باحثاً عن الإسلام) وفى عام ١٨٣١ انتشر وباء الكوليرا فكتب: (هنا لا يستطيع أحد أن ينصح غيره فيما يفعله. فنحن جميعاً نعيش فى الإسلام الذى يعطينا الشجاعة فى مواجهة الحياة). وقبل موته بأربعة أسابيع - وهو فى عامه الثانى والثمانين - كتب: (من أجل أن يتحرر البشر من الخوف. انتهوا بإلقاء أنفسهم فى حضن الإسلام واثقين فى الله وفى أقداره غير المكشوفة لنا). فهو مؤمن بما فى الإسلام من الخضوع لله والرضا بما كتبه، ويعبر عن ذلك بقوله: (إنه لمن اللافت للانتباه أن نرى كيف كان المؤمنون بمحمد - صلى الله عليه وسلم - يقومون بتربية الأجيال المسلمة، وكان الدرس الأول

هو تثبيت عقيدة القضاء والقدر، والإنسان لا يواجه أمراً إلا وقد كتبه الله له، ومن ثم يعيشون حياتهم آمنين مطمئنين).



ولقد واجه جوته الكثير من الانتقادات والاتهامات لإعجابه بالإسلام، ومعارضته للتيار العدائي الغالب للإسلام وللرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان رده على ذلك في كتاب (المقولات) بأبيات قوية وصريحة قال فيها:

من حماقة الإنسان في دنياه

أن يتعصب كل منا لرأيه

وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله

فعلى الإسلام نحيا ونموت أجمعين



هل كان الشاعر العظيم جوته معجباً بروحانية الإسلام فقط، وهو الذي نشأ في أسرة بروتستانتية، أو كان مسلماً بقلبه كما يقول البعض؟.

تقول الباحثة الألمانية د. كاثرينا ممسين: إن جوته عندما أصدر (ديوان الغرب والشرق) في مايو ١٨١٤ ثار معظم الألمان عليه لأن هذا العمل لا يصدر إلا عن شخص على علاقة روحية وثيقة بالإسلام، ثم ازدادت ثورتهم عليه عندما قال بعد ذلك بعامين أى في عام ١٨١٦: (إن مؤلف هذا العمل لا ينفي الفكرة بأن يكون هو نفسه مسلماً). وهو يتحدث في هذا الديوان عن الأصالة الدينية في الشرق، وعن رغبته في تجاوز التناقضات العدائية بين الديانتين، والجمع بين هذين العالمين تحت مظلة واحدة، كما يتحدث فيه عن شخصيات إسلامية أحبها مثل: السلطان سليم، والمتنبى، وحاتم الطائي، والفردوسي وغيرهم.



ويبدو في ديوان الغرب والشرق أن جوته كان دارساً للقضايا التي شغلت المفكرين المسلمين على مدى العصور فهو على سبيل المثال يشير إلى المعركة التي قامت حول (هل القرآن مخلوق أو هو قديم) والتي تعرض فيها الإمام أحمد بن حنبل للتعذيب لأنه تمسك برأيه في أن القرآن قديم. يقول جوته في إشارته إلى (القرآن المقدس):

هل القرآن قديم؟

شيء لا أسأل عنه

هل هو مخلوق؟

شيء لا أدريه

وكثير من أبيات الديوان عن القرآن، فهو يستلهم من الآية (اهدنا الصراط المستقيم..) في سورة الفاتحة مناجاته:

ينازعني الغي والضلال

لكنك تعرف كيف تهديني

اهدني أنت في أعمالي الصراط المستقيم

ويردد جوته الآية: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة ١١٥) فيقول:

لله المشرق

لله المغرب

وله الأرض شمالاً وجنوباً

وكان جوته يعبر دائماً عن حبه للحروف العربية والخط العربي.

وفى كتابات جوته ما يدل على تأثره بالقرآن ويقول: إنه كتاب ليس له مثيل على وجه الأرض ولا مثيل لما فيه من ذكر لأسماء الله الحسنى، وقد رأى في القرآن الرؤية الإسلامية للذات الإلهية، كما كان أسير الإعجاب بشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقول: إنه جمع بين الإنسان والنبى.

وقد اكتشف أحد الباحثين مخطوطة ديوان لم ينشر كتبه جوته بعنوان (بعثة محمد) نشرت في باريس عام ١٩٠٧م يقول فيها:

حينما كان يتأمل فى الملكوت

جاءه الملاك ومعه النور

اضطرب، فهو لم يقرأ أبداً

كلمة (اقرأ) تعنى الكثير بالنسبة له

لكن الملاك بلغه الرسالة وبدأها بالأمر (اقرأ)

واستمع إلى الأمر.. وبدأ طريقه



وعلى رغم إعجاب جوته بالإسلام وكتابه ورسوله، فإنه يوجه اللوم إلى المسلمين لابتعادهم عن روح الإسلام، ويوجه هذا اللوم إلى المسيحيين أيضاً ويتهممهم بالابتعاد عن روح المسيحية، مقارنة

بين ما كان عليه المسيحيون عند ميلاد المسيحية وما صاروا إليه بعد ذلك، عندما تحولت الكنيسة إلى سلطة سياسية وانشغالها بجمع الأموال وتملك الأراضى وبحثها عن أمور الدنيا. وهو ينتقد الانقسام الذين حدث بين الكاثوليك والبروتستانت. وفى ذلك كتب فى عام ١٨١٦م يقترح إقامة احتفال واحد يجمع المؤمنين بالأديان جميعاً أسماه (احتفال الإنسانية النقية) وفيه لا يُسأل أحد عن دينه، (الجميع يذهبون يتلمسون الضوء من شعاع واحد، وتسمى أرواحهم، ويتذكر كل منهم عيده فيحتفل به).

ولقد كان تأثير جوته عظيماً وما زال كذلك حتى اليوم، فقد تأثر به الشاعر الروسى الكبير ألكسندر بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧م) والشاعر البولندى آدم ميليفكس (١٧٩٨-١٨٥٥) فكانت أشعارهما تعكس تعاطفاً تجاه العالم الإسلامى، وامتدت أصداء شعر جوته إلى آسيا فتأثر به الشاعر والفيلسوف الباكستانى محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨م) وله كتاب شهير باسم (سفارة الشرق) يعتبره النقاد الصدى الصافى لديوان الغرب والشرق.

كيف لم تترجم كل أعمال جوته إلى اللغة العربية؟ وكيف لم تفكر منظمة العالم الإسلامى، أو الجامعات الإسلامية بالاحتفال بذكرى هذا الشاعر والمفكر الألمانى الكبير الذى يحتل مكانة عالمية كبرى؟ وكيف يكون أعظم من أنصف الإسلام فى الغرب مجهولاً فى العالم الإسلامى؟.

أسئلة تحتاج إلى إجابات من قيادات المنظمات والجامعات فى الدول الإسلامية.



وأشهر من أنصف الإسلام فى الغرب فى القرن العشرين هو بلا شك الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى الذى كان فى البداية من أكبر المتحمسين للشيوعية وللأسف الماركسية المادية، لكنه أصيب بصدمة عندما اكتشف زيف الشيوعية فى عام ١٩٥٦ بعد أن كشف الرئيس الروسى خروشوف فضائح عهد ستالين والجرائم التى كانت ترتكب باسم الدفاع عن مصالح الطبقة العاملة، فأيقظه ذلك من غفوته كما يقول، وبعد أن كان يعتقد أن الدين أفيون الشعوب كما فى الماركسية، بدأ يستعيد وعيه فيرى أن الغرب يجب أن يعترف بأنه مدين للحضارات الأخرى السابقة على حضارته، ثم قاده البحث فى الحضارات التى كان لها الفضل فى نهضة أوروبا إلى مرحلة أعلن فيها أن الإسلام هو الطريق لإنقاذ البشرية.

فى طفولته تعلم جارودى فى المدرسة الأكليريكية، وفى شبابه كان مسيحياً-مقديناً، وحارب النازية لأنه كان يعادى كل فكر عنصرى يدعى أن هناك جنساً متفوقاً على سائر أجناس البشر، لكنه تمرد على المسيحية وانضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى فى وقت كان العالم يعيش فيه مرحلة صراع مع النازية، ويعانى من أزمة اقتصادية خانقة، رأى جارودى - وفقاً للنظرية الماركسية - أن

هذه الأزمة وليدة النظام الرأسمالي، وبعد ذلك اكتشف أن الماركسية ترفض عبادة الله وتدعو إلى عبادة ستالين، وتفرض على دول الاتحاد السوفيتي ستارا حديديا يمنعها من التواصل مع العالم كما تفرض على العقول ستارا حديديا يمنعها من التفكير الحر. وفي هذه المرحلة من تطور شخصيته نشر كتابه (التحول الكبير للاشتراكية)، قال فيه: (لم يعد من الممكن التزام الصمت، إن الحركة الشيوعية الدولية في أزمة، ومن الظواهر الواضحة لهذه الأزمة انفصال الصين، وغزو الاتحاد السوفيتي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، وهناك مشكلة تفرض نفسها على كل فرد منا في نهاية القرن العشرين، يتوقف على حل هذه المشكلة احتضار العالم أو بعثه من جديد.. إن الشيوعية لم تنجح في دول أمريكا اللاتينية إلا في كوبا فقط، وفي أفريقيا لا توجد دولة شيوعية، وفي إندونيسيا قضى على الحزب الشيوعي، وفي الهند واليابان يعاني الحزب الشيوعي من الضعف والانقسامات، لقد أصبحت (المراجعة الأليمة) أمرا لا مفر منه).

وبدأ جارودي - كمفكر - رحلة الشك بحثا عن اليقين بدراسة الأديان إلى أن توقف عند الإسلام لدراسته كدين وحضارة، وقارن بين ما في القرآن من الإشارات العلمية والاكتشافات العلمية الحديثة، وعبر عن هذه المرحلة من حياته قائلا: كلما تعمقت في الدراسة والمقارنة ازدادت اقتناعا بأن الإسلام هو الدين الذي أبحث عنه.

وأعلن جارودي إسلامه في شهر رمضان عام ١٩٨٢ وأصبح اسمه رجاء جارودي، وأصدر كتابه الشهير (وعود الإسلام) فكان ذلك الكتاب بداية حرب شعواء شنت عليه من أكثر من جهة، خاصة أنه قد أعلن في كتابه هذا (أنه لا توجد اليوم أمة تحمل كلمة الله بأمانة وصدق غير الأمة الإسلامية، ولا يوجد كتاب سماوي يمثل كلمة الله بحق دون تحريف إلا القرآن، ولا أمل في إنقاذ الغرب إلا بأن يعترف بأنه مدين لحضارات أخرى ويغير موقفه المتعنت من الإسلام. لأن الغرب الذي رفض روحانيات الإسلام هو اليوم أحوج ما يكون إليها، ورفض الغرب عقيدة التوحيد وغرق في السادة فانتهى به الأمر إلى خواء روحى وتمزق بين الأيديولوجيات.. والإسلام ليس كفرا كما روج المغرضون القدامى في الحرب الصليبية، وليس إرهابا كما يصوره المغرضون الجدد.. إنه الدين العملى الذى يقدم للإنسان نظاما كاملا شاملا لحياة إنسانية بكل احتياجاتها، وليس مجرد عقيدة منعزلة عن دنيا الناس).



ويركز جارودي على أن الإسلام هو الدين الذى يعترف بالديانات السماوية، وقد ترك الإسلام لأهل الكتاب حرية الاختيار بين ما هم عليه وبين الدخول في الإسلام. والإسلام لم يقل (أفضل الناس عند الله المسلم) ولكنه قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى﴾ (الحجرات ١٣). والمبدأ الذى قرره

الرسول - صلى الله عليه وسلم - سبق به الدعوة إلى حقوق الإنسان بقرون وهو: (لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى) فليس في الإسلام تمييز على أساس اللون أو الجنس أو العقيدة، وليس فيه طبقية، وليس فيه شعب مختار متميز عن غيره من الشعوب.. هو دين ضد العنصرية. ويذكر التاريخ أن كثيرا من المسيحيين واليهود تقلدوا مناصب عليا في الدولة الإسلامية في عصورها المختلفة، وأن هؤلاء كانوا يمارسون شعائرهم الدينية بحرية كاملة وتحت حماية الدولة وحماية المسلمين. وهذا يقود إلى إثبات أن الإسلام لم يكن في حاجة إلى السلاح لكي ينتشر، فقد دخل الناس في هذا الدين عن رضا وقبول وكان في إمكانهم ألا يعتنقوا الإسلام دون أن يتعرضوا لأي نوع من الأذى.

وقد تولى جارودي في كتابه (وعود الإسلام) تفنيد الاتهامات التي تتردد في الغرب ضد الإسلام.

فهو يواجه الاتهام بأن الإسلام دين جهاد أي دين حرب واستعمار، فيقول: إن الجهاد في اللغة العربية له معنى أوسع من معنى الحرب، فهو يعني الجهد، فالعمل جهاد، ولو أن الله - تعالى - أراد الحرب لقال: (وحاربوا في سبيل الله) والمعنى الحقيقي للجهاد يبدو في الحديث (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.. جهاد النفس) وجهاد النفس ضد أهوائها ونزعاتها من الأنانية والجشع للمال والضعف أمام المغريات الحسية.. وهذا درس من النبي - صلى الله عليه وسلم - لأولئك الثوريين الذين يحاولون تغيير كل شيء إلا أنفسهم..

ويذكر جارودي كيف كان الصليبيون يرتكبون في القدس المذابح الوحشية ضد المسلمين ويصيحون (إنهم كفرة). وكيف أقيمت المذابح للمسلمين بالجملة في أسبانيا (الأندلس)، وكيف كان المهاجرون الأوروبيون يرتكبون أبشع الجرائم لقتل الهنود الحمر في أمريكا.. وكلهم كانوا يرفعون راية الدين المسيحي، والدين المسيحي برىء مما كانوا يفعلون.. بينما كانت التعليمات إلى قادة وجنود الجيوش الإسلامية صارمة: (لا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه) فهل هناك سلوك أكثر رقيا وإنسانية من ذلك؟.

ويقول جارودي: إن الغرب غرق في الفردية، فلم يعد للأسرة ولا للصدقة ولا للأخوة الإنسانية وجود، وتحول الإنسان إلى ذنب أمام أخيه، بينما يعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) و: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه) و(كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) و(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا).. هذا هو دستور الإسلام لبناء مجتمع متماسك يصون حقوق أفراد.



ويحكي جارودي تجربة دخوله في الإسلام منذ بدايتها، فيقول: بدأت إسلامي بالشهادتين، وهذا ركن الإسلام الأول وبه يسلم الإنسان قلبه لله الواحد الخالق المدبر الجدير بالعبادة وحده دون شريك.. ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام ١٠٣) ومحمد - صلى الله عليه وسلم - رسول الله المبعوث من الله للناس كافة.. ووجدت في الصلاة تعبيراً جميلاً عن اتصال الإنسان بالله، وتشعر بعظمة الإسلام حين ترى المسلمين وقد وقفوا في وقت واحد صفوفًا منتظمة متجهين إلى قبلة واحدة. وقبل الصلاة يكون الوضوء وهو نوع من الطهارة الجسدية تمهيداً للوقوف بين يدي الله.. ويتحدث عن الزكاة فيقول: إنها في الإسلام لا تعتبر صدقة.. بل هي حق معلوم للفقراء من أموال الأغنياء. والمال كله لله في مفهوم الإسلام، فالزكاة وسيلة التكافل والتضامن الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، تزيل الحقد من نفوس الفقراء كما تزيل الجشع من نفوس الأغنياء.. أما الحج فإنه يجمع المسلمين في وقت واحد ومكان واحد أمام الله بلا تمييز طبقي ليشعرهم بعظمة دينهم ويقوى فيهم الإحساس بالترابط ويؤكد المساواة بين المسلمين أمام الله.

وعن الاقتصاد في الإسلام يقول: إنه يقوم على مبادئ مثل: التوازن في توزيع الدخل - وتحريم الاحتكار - وجعل الملكية الفردية لصالح الفرد والجماعة - واعتبار السوق وسيلة وليس غاية. وأهم من كل ذلك أن المسلم يجعل الله أمام عينيه في كل ما يقول وكل ما يعمل، ولا يسمح لنفسه بأن يتعدى حدود الله. أما في الغرب فإن الهدف هو السعى إلى المزيد من الربح، والمزيد من الإنتاج والمزيد من الاستهلاك.

ويعتبر جارودي أن وضع المرأة في الإسلام هو الوضع الأمثل، فقد رفع الظلم عنها، وساوى بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات.. وصان المرأة وحافظ على كرامتها. ويشير إلى وضع المرأة في الغرب على مدى العصور؛ فقد أباح سقراط أن يقرض الزوج زوجته لمن يشاء من أصدقائه. وأفلاطون قرر ضرورة شيوع النساء أي أن تكون كل النساء لكل الرجال ولا يكون لرجل امرأة بعينها والأبناء هم أبناء المجتمع!!

وقد أعطى الإسلام للمرأة حقوقاً لأول مرة منها: حق التملك، وجعل لها نصيباً في الميراث بعد أن كانت هي نفسها ضمن التركة، وأعطاه حق التعلم والعمل واختيار الزوج وطلب الطلاق. وقرر الإسلام للمرأة حقوقاً بعد الطلاق منها النفقة وحضانة الصغار. وقيد تعدد الزوجات بشرط جعله أقرب إلى التحريم وهو العدل بين الزوجات ومجرد خشية الرجل من عدم استطاعته الالتزام الدقيق بميزان العدل يجعله ملزماً بزوجة واحدة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء ٣). ويسخر جارودي من زيادة الأطفال غير الشرعيين في المجتمعات الغربية والتفاخر بحرية العلاقات



الجنسية خارج الزواج، ويتساءل: أيهما أفضل وأكثر حماية للمرأة وللأبناء: تعدد الزوجات فى إطار الشرعية أو تعدد العلاقات غير الشرعية؟



يعارض جارودى التيار الغربى الذى يتهم الإسلام بأنه دين ينتمى إلى الماضى، فيقول: إن الإسلام قوة روحية عظيمة للإصلاح وللتقدم فى المستقبل كما كان دائما، كما يعارض الذين يقولون: أين هو المجتمع الإسلامى الذى يمكن أن نذهب إليه ونجد فيه الإسلام حيا وموجودا على أرض الواقع، وليس مجرد وعود ودعوات وآراء يرددنها الناس بالسنتهم؟. فيقول: إن على الذين يطرحون هذا السؤال فى الغرب للتشكيك فى صلاحية الإسلام لبناء مجتمع حديث صالح للقرن الحادى والعشرين، عليهم أن يطرحوا على أنفسهم سؤاليين على الأقل بدلا من أن ينصبوا أنفسهم أوصياء على الإسلام.

السؤال الأول: ما هو نصيب الغرب المستعمر من المسؤولية عن تخلف العالم الإسلامى وظهور التعصب فيه؟. أليس سبب التخلف هو استنزاف الاستعمار الغربى لثروات العالم الإسلامى؟. ولقد كان العالم الإسلامى تحت الحكم الاستعماري الغربى فلماذا لم يساعده الغرب على التنمية الاقتصادية والاجتماعية لسد الفجوة الحضارية؟. ثم إن التعصب ظهر فى العالم الإسلامى كرد فعل طبيعى للسيطرة والاستغلال من الاستعمار الغربى، وكان التعصب وظهور الأصولية، هما كل ما تستطيع الشعوب الإسلامية عمله لكى تحافظ على هويتها وتحمى دينها، وبذلك ظل الإسلام محتفظا بنقائه ولم تستطع السيطرة الاستعمارية أن تطمس معالنه أو تغير منه شيئا. لماذا لا يسأل الغرب نفسه هذا السؤال ويعترف بمسئوليته عما وصل إليه العالم الإسلامى؟

والسؤال الثانى: لماذا يقارن معظم الباحثين الغربيين بين النظام الإسلامى كما هو عليه الآن بنظام مسيحى مثالى ليس موجودا على الإطلاق؟. ويقول جارودى هؤلاء يسألون بسخرية حمقاء: أين هو الإسلام الذى تنسبون إليه الكمال؟. وإننى أجيب: هاتوا خريطة العالم وقولوا لنا أين نجد مجتمعا مسيحيا مثاليا يطبق المسيحية ونعتبره النموذج الحى للمبادئ والتعاليم؟. وقولوا لنا لماذا تهاجمون الإسلام لأنه لم يمنع وجود المنازعات بين المسلمين على رغم أنه الدين الذى يقرر أن المسلمين إخوة ويدعو إلى الإصلاح بين الإخوة؟. وإننى أقول: إن المسيحية هى دين التسامح والإخاء والرحمة.. فكيف خرج الصليبيون باسم هذا الدين لذبج المسلمين فى بلادهم؟. وكيف خرجت الجيوش الاستعمارية من دول مسيحية لغزو العالم الإسلامى الذى لم يبادر بالعدوان؟. وكيف سمح الضمير المسيحى باستغلال الشعوب الإسلامية واستنزاف ثرواتها وهو يدعو إلى العدل والحق؟. وأخيرا هل يمكن أن تشيروا إلى ما يدل فى الواقع على أنكم تطبقون تعاليم المسيح وأنتم تقومون

بأعمال لا تليق بالحضارة الغربية المسيحية وتغتصبون سلطة ليست لكم حين تقومون بدور القاضي والمرشد والبوليس في بلاد ليست لكم؟.

ليس قصد جارودي أن يهاجم المسيحية، ولكنه قصد إلى تنبيه الغرب إلى أنه يتهم الإسلام بما يجب أن يتهم به نفسه. ومع ذلك فإنه يشرح للغربيين ما يقدمه الإسلام من حلول للمشكلات التي يعاني منها العالم. فالأصل في الإسلام أن كل شيء في الكون ملك لله، وليس ملكا للحاكم ولا لطبقة ولا للأفراد، وليس للبشر إلا (حق الانتفاع).. وللملكية وظيفة اجتماعية. ولذلك فإن على المالك - سواء كان المالك هو الدولة أم الفرد أم الجماعة - تقديم حساب لله عن ملكيته، فكأنه ليس إلا المدير المسئول أمام المالك الحقيقي.. والقرآن يحذر الذين يكتزون الأموال وهناك آيات كريمة سريعة في ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة ٣٤) ﴿وَيَلْ لَّكُلِّ هُمْزَةٍ لُّزْمَةٌ ۖ ۝۱ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، ۝۲ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ، ۝۳ كَلَّا لَيُبَدِّلَنَ فِي الْخُطْمَةِ ۝۴ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ۝۵ تَارَاهُ اللَّهُ الْمَوْقَدَةُ ۝۶﴾ (الهمزة ١-٦).

ويتكرر التحذير في القرآن من اكتناز الأموال، لأن المال له وظيفة ويجب ألا يحبسها صاحبه عن النفع العام، ومن مبادئ التعميق في فهم الإسلام أنهم لا يملكون شيئا ولا يملكون شيء إلا الله. والإسلام فيه علاج للمشكلة الكبرى في النظام الرأسمالي، الذي يؤدي إلى الاحتكار والتحكم في الأسعار، بينما يقدم الإسلام معالجة لمشكلة الفقر عن طريق الزكاة، فالإسلام قائم على التوازن.



ويواجه جارودي الرأي الذي يتردد في الغرب بأن الإسلام دعوة للعبادة وترك الدنيا وما ترتب على ذلك من تخلف في العلوم، فيقول: إن القرآن يرفع شأن العلماء ويشجع على طلب العلم، ويؤكد ذلك أن المسلمين أسسوا نهضة علمية كبرى شملت جميع العلوم وقدم العلماء العرب إنجازات واكتشافات علمية ذات قيمة عالية كانت الأساس للنهضة العلمية لأوروبا، والحديث يؤكد على طلب العلم: (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله طريقه إلى الجنة) (ويوزن مداد العلماء بدم الشهداء يوم القيامة) والقرآن يوجه المسلمين إلى المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة ويدعوهم إلى أن يسيروا في الأرض، وأن ينظروا في الآفاق وفي أنفسهم، وبذلك يوجه الباحثين إلى العلوم الطبيعية والفلكية والعلوم الإنسانية، ويربط بين العلم والإيمان، لأن الإنسانية كلما تقدمت في المعرفة ازدادت يقينا بقدرة الله وعظمته. وفي نفس الوقت فإن الإسلام ينبه العلماء إلى فضيلة التواضع لأن العلم ليس له نهاية ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف ٧٦). ودعوة الإسلام

للمسلمين إلى البحث العلمي وجدت استجابة لها حتى إن هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩م) عندما استولى على أنقرة، والخليفة المأمون (٨١٤ - ٨٣٣م) عندما حقق النصر على الامبراطور البيزنطي ميشيل الثالث طلبا تعويضا عن أضرار الحرب، وكان التعويض مخطوطات علمية كانت في حوزة الامبراطور، فهل هناك حس حضارى وصل إلى هذه الدرجة في التاريخ القديم والحديث؟.

واستجابة لدعوة الإسلام للمسلمين بالاشتغال بالعلم بدأت في القرن الثامن الميلادي حركة ترجمة ليس لها مثيل في التاريخ. واجتذب هارون الرشيد إلى بلاطه في بغداد كبار العلماء والفقهاء، وأنشأ المأمون بعد ذلك أول مدرسة للترجمة في العالم أدارها عالم فارسي هو (يحيى بن ماسويه) وكان طبيبا، وتولى إدارتها بعده (حنين بن إسحق) المسيحي الذي قام بترجمة أعمال (أبو قراط، وجالينوس)، ومؤلفات علماء الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والطب. ونقل المسلمون عن الصين صناعة الورق وأنشئوا أول مصنع للورق في بغداد عام ٨٠٠م ولم تعرف شعوب أوروبا صناعة الورق إلا بعد ٤٠٠ عام. وفي عام ٨١٥م أنشأ الخليفة المأمون في بغداد (بيت الحكمة) وكان يضم مليون مؤلف، وذكر أحد الرحالة الغربيين أنه قام بإحصاء مائة مكتبة عامة في بغداد عام ٨٩١م. وفي القرن العاشر كانت مدينة صغيرة مثل النجف في العراق تملك ٤٠ ألف مجلد. وجمع مدير المرصد ناصر الدين الطوسي مجموعة من الكتب بلغت ٤٠٠ ألف مجلد. وفي الأندلس (أسبانيا) في القرن العاشر الميلادي كان في مكتبة قرطبة ٤٠٠ ألف كتاب، في حين كانت أكبر مكتبة في أوروبا للملك فرنسا تضم ٩٠٠ كتاب فقط وكان ذلك بعد ٤٠٠ عام من إنشاء مكتبات الأندلس، وليس في التاريخ من ينافس الخليفة العزيز الذي حكم مصر وأنشأ فيها مكتبة تحتوى على مليون و٦٠٠ ألف مجلد منها ٦ آلاف مجلد في الرياضيات و١٨ ألف مجلد في الفلسفة.



يعلق جارودي على هذه الحقائق التاريخية فيقول: إن المسلمين أسسوا نهضة بالمعنى الكامل، شملت الصناعات، والبحث العلمي، والعلاقات الاجتماعية، والثقافة، وهم أول من طبق سياسة الانفتاح على العالم، فأخذوا من القديم والحديث، ومن الشرق والغرب، وتفاعلوا مع الحضارات والثقافات التي كانت قائمة في تلك العصور وكان أهمها حضارة اليونان القديمة، وحضارة الهند والصين المعاصرتان. هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة تحكم بالإعدام على العلماء الذين قالوا إن الأرض كروية، وأنها تدور حول نفسها، وكانت محاكم التفتيش في أسبانيا تحكم بالحرق على المسلمين وعلى الكتب في القرن السادس عشر بعد طرد المسلمين منها.

ويذكر جارودي أسماء جحافل من علماء العرب الذين أسسوا العلوم وأبدعوا في الطب والرياضيات والكيمياء والجغرافيا.

ويصل جارودي إلى الظلم الذي يلحق بالإسلام حين يقال : إنه السبب في تخلف الدول الإسلامية في مجالات البحث العلمي في العصر الحديث، ويذكر أن الجامع الذي كان يعلم الدين كان جامعة للعلوم الطبيعية مثل جامعة القيروان في فاس، وجامعة الزيتونة في تونس، والأزهر في مصر، وجامعة سمرقند، وجامعة قرطبة. فقد كانت مراكز للعلوم وللتعليم الديني في نفس الوقت. ويذكر جارودي لقرائه في الغرب أن أول مرصد فلكي في العالم أنشأه الخليفة الأموي عبد الملك في دمشق عام ٧١٧م- وهو أيضا أول من أنشأ المستشفيات وجعلها كليات للطب، بينما أنشئت كليات الطب في أوروبا بعد ذلك نقلا عن العالم الإسلامي، وكانت تدرس المناهج والعلوم التي تدرسها الكليات الإسلامية. وكان منها كلية (ساليرن) في إيطاليا، وكلية (مونبيلييه) في فرنسا. وحتى أعرق الجامعات الأوروبية أنشئت على النموذج الإسلامي بعد ثلاثة قرون من نشأة الجامعات الإسلامية، وهذا ينطبق على جامعة باريس، وجامعة أكسفورد وهما أقدم الجامعات الأوروبية.

ويذكر جارودي كيف تعلم الغرب من علم العلماء المسلمين؛ فقد كان الخوارزمي هو مؤسس علم الرياضيات الذي نقله الغرب، وهو مؤسس علم الجبر وهو صاحب هذه التسمية التي ما زالت اسما لهذا العلم بكل اللغات الأوروبية، وثابت بن قرة هو مؤسس علم حساب التكامل وأول من ربط الهندسة بالجبر. وكان علماء العرب: الطوسي، والبيروني، والبوزجاني أسبق من كوبرنيكوس في الغرب بعدة قرون. وكان مرصد بغداد سابقاً في دراسة واكتشاف الكواكب وحركتها بصورة منهجية، وتعددت المراصد في جند يسابور، وبيجوار دمشق. وكان من دوافع التقدم العلمي حرص المسلمين على التدقيق في معرفة الاتجاه إلى مكة لتحديد القبلة للصلاة، وتحديد مواقيت الصلاة بدقة، كما كان الحرص على أداء فريضة الصيام يوجب ملاحظة دقيقة للشمس ومعرفة ساعة شروقها وغروبها، وكان تحديد بداية ونهاية شهر رمضان دافعا للتعمق في دراسة علوم الفلك وإنشاء المراصد العلمية. وبنفس الروح تفوق البيروني في علم الجغرافيا وما زال كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) شاهدا على ما بلغه علماء المسلمين من تقدم في مناهج البحث العلمي. وكان الملاحون المسلمون يجوبون المحيط الهندي منذ القرن التاسع الميلادي. وفي القرن العاشر قدم التاجر العربي سليمان أول وصف للصين قبل ماركوبولو (١٢٥٤-١٣٢٤) بثلاثة قرون. وكان ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٥٦) الرحالة العظيم أول من دل العلماء على وصف جميع البلدان العربية حتى بخارى وأفغانستان والهند وسيلان والصين. وكان الجغرافي المسلم العظيم الإدريسي (الولود في ١١٠١م) أول من قام بتأليف كتب مزودة بخرائط للعالم في القرون الوسطى، وقدم مساهمة رئيسية للملاحة، واستندت خرائطه على تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض، ورسم الشواطئ ومجاري الأنهار. والإنسانية مدينة للعالم المسلم ابن ماجد الذي ولد عام ١٤٣٠م صاحب أهم كتاب في الملاحة (الفوائد في أصول علم البحر) وكان بحارا عظيما أطلق عليه اسم (أسد العواصف)، ويحاول الباحثون

الغربيون أن يغفلوا أنه هو الذى قاد أسطول فاسكو دى جاما البرتغالى من الشاطئ الأفريقى إلى كالكوفا فى الهند عام ١٤٩٨، وكان فاسكو دى جاما يعتبره (كنزا عظيما).



ويستمر جارودي فى ذكر فضل الإسلام والمسلمين على الحضارة الغربية إلى أن يصل إلى أن المسلمين هم أول من أنشأ الحدائق الجميلة كما فى أصفهان، وشيراز، وقصر الحمراء، وجنة العريف فى غرناطة.

وفى علم الجيولوجيا كان علماء المسلمين أسبق من علماء أوروبا بقرون، ودرسوا الجبال والسهول، والمحيطات والأنهار، والمياه الجوفية، وقد تعلم المهندس الإيطالى (جيراردو توريانو) من المسلمين أصول الهيدروليكا فى طليطلة، كما درس كيفية صنع المهندسين المسلمين للنافورات ونضاجات الماء المستخدمة للرى وطواحين الهواء والآلات الموسيقية. وكانت اكتشافات واختراعات المسلمين الأساس الذى بدأ منه (توريشلى) فى إيطاليا فى القرن الرابع عشر اختراع مقياس الضغط الجوى (البارومتر). كما كان لعلوم المسلمين الفضل فى نشأة علوم الميكانيكا فى أوروبا.



ويتوقف جارودي بإعجاب شديد عند ابن خلدون، ويرى أنه رجل يندر أن يكون له مثيل، فهو ذو فكر شامل.. فنان، ورجل دولة، وفقه، ورجل قانون، وفيلسوف.. كل ذلك فى رجل واحد. (١٣٣٢-١٤٠٦م). وسيظل مذكورا فى التاريخ بمؤلفه العظيم الذى وضعه فى القرن الرابع عشر الميلادى وأسس به علم التاريخ وعلم الاجتماع، وكان أول من وضع نظرية علمية لارتقاء الحضارات وانهارها، ونظرية فى أصول الحكم، ووضع المنهج العلمى للبحث التاريخى الذى يقوم على التفسير والتعليل ولا يكتفى بسرد الأحداث، وكان ابن خلدون على وعى بأنه يؤسس علما جديدا ولذلك كتب فى المقدمة الشهيرة: (.. ابدأ بذكر الأسباب العامة فى دراسة الأحداث الخاصة.. وسأتناول التاريخ بالتفسير والتعليل مرجعا الأحداث إلى أسبابها وأصولها.. وطريقتنا فى معالجة هذا الموضوع تشكل علما جديدا قائما بذاته) وهو أيضا أول من ربط بين الملاحظة الشخصية والتفكير النظرى، وأول من لفت الأنظار إلى أثر المناخ والجغرافيا والاقتصاد على حياة الشعوب، وأول من درس بنية المجتمعات وتقسيم العمل، وأول من قال بأن (ما نلاحظه من اختلافات فى عادات الشعوب وأفكارها مرده إلى الطريقة التى تتدبر بها قوتها)، وربط بذلك بسين الاقتصاد والظواهر والعلاقات الاجتماعية. وهو أول من وجه النقد إلى المؤرخين الذين اكتفوا بتسجيل وقائع التاريخ دون بحث عن الأسباب الظاهرة والخفية وراء الأحداث التاريخية.

ويطالب جارودي علماء الغرب بالاعتراف بأن علماء الطب المسلمين هم أول من اكتشف العلاقة بين الحالة النفسية والحالة الجسمية التى اكتشفت حديثا باسم (السيكوسوماتيك). ويقول: إن

الكنيسة وقفت في وجه نمو الطب وتطوره، وفي عام ١٢١٥م أصدر البابا أنوسانت الثالث القرار التالي: (يحظر، تحت طائلة الحرمان، على كل طبيب العناية بمريض إذا لم يعترف ويقر بذنوبه، لأن المرض ينجم عن الخطيئة).

ويعلق جارودي على ذلك بأن نتيجة لهذا التفكير فإن كلية الطب في باريس لم تكن تملك - منذ ٦٠٠ عام - سوى مجلد واحد في كل العلوم الطبية في العالم، وكان هذا المجلد للرازي العالم المسلم، الذي ما زال تمثاله قائماً في هذه الكلية إلى جانب تمثال ابن سينا حتى اليوم. وموسوعة الرازي الطبية هي المؤلف العلمي الوحيد الذي استمر تأثيره يشع في الغرب عشرة قرون. وقد طبع بحث الرازي أكثر من أربعين طبعة وهو عن بعض الأمراض مثل الجدري والحصبة وقد كتبه في مطلع القرن العاشر الميلادي، وظل المرجع الوحيد ألف عام. أما ابن سينا فكان تأثيره في الغرب يفوق التصور، فقد ظل كتابه (القانون) الذي ترجمه إلى اللاتينية (جيرارد دي كريمون) هو موسوعة الطب التي تدرّس في أوروبا حتى عصر النهضة وتميز بوضوح تصنيف الأمراض، والدراسة المنهجية لأعراض كل منها، وطريقة تشخيص الأمراض وبخاصة أمراض الكلى، والرئة، وخراج الكبد، وغيرها من الحالات الدقيقة. وكان ابن سينا - مثل الرازي - عبقرية شاملة.. كان طبيباً، وعالماً في الفيزياء، وفيلسوفاً، وعالماً دينياً، وشاعراً. كذلك كان الحسن بن الهيثم المولود في البصرة عام ٩٦٥ ميلادية والمتوفى في القاهرة عام ١٠٣٩م الذي كان عالماً عظيماً في الرياضيات، والفلك، والهندسة، وعلم البصريات، ونقل روجر بيكون مؤسس المنهج العلمي الحديث كتاب ابن الهيثم عن تشريح العين وكيفية الإبصار، وكتب روجر بيكون: (إن الفلسفة مستخلصة من العربية). كما كان ابن الهيثم أول من قدم وصفاً تشريحياً للعين. وكان أبو القاسم الموصلي أول من يعالج العتامة في عدسة العين بإجراء جراحة دقيقة بواسطة الامتصاص بإبرة مجوفة وذلك في عام ١٠٠٠م. ولم ينجح الغرب في إجراء مثل هذه العملية إلا في عام ١٨٤٦م أي بعد ٨ قرون!

وكان العالم المسلم ابن النفيس المتوفى عام ١٢٨٨م أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل هارفي بأربعمئة سنة، وقبل ميشيل سيرفيت بثلاثمئة سنة. ووصف أحد تلاميذ ابن الهيثم (ابن القف) الأوعية الشعرية في العين التي لم يتعرف إليها أول عالم غربي (مالبيجي) إلا عام ١٦٦٠م بالميكروسكوب بعد ثلاثمئة سنة. وقد استخدم المسلمون المصل الواقى من الجدري قبل اكتشاف أول عالم غربي لهذا المصل (جيينر) بألف سنة. ودرس العالم الجراح الأندلسي أبو القاسم المتوفى عام ١٠١٣م مرض السل الذي يصيب الفقرات قبل أول عالم غربي (بيرسيغال بوت ١٧١٣ - ١٧٨٨م) بسبعمئة وخمسين سنة، واخترع طريقة لربط الشرايين بعد بتر الأعضاء قبل أول عالم غربي (امبرواز باريه ١٥١٧ - ١٥٩٠م) بتسمئة سنة، وكان له الفضل في اختراع أدوات جراحية لم تكن معروفة وبعضها ما زال يستخدم إلى اليوم بعد تطويرها بالتكنولوجيا الحديثة.



إن جارودى يعلن للعالم أنه لم يعتنق الإسلام إلا بعد أن تعمق فى دراسة أصول الدين ومبادئ الشريعة والفقه، والتعرف إلى تاريخ الحضارة الإسلامية بالتفصيل، وهو فى ذلك قد تفوق على كثير من المسلمين الذين لا يعرفون فضل الإسلام والحضارة الإسلامية على النهضة العلمية والاجتماعية والفكرية التى تباهى بها دول الغرب اليوم.

ولأن جارودى اكتشف المنبع، فقد عاد إليه مخلصاً بعد رحلة طويلة عايش فيها الإلحاد، والشك، والفلسفة المادية، والفكر الماركسى، والحضارة الغربية، ثم وصل إلى اليقين، وكان صوته مدوياً فى الغرب دفاعاً عن الإسلام، وتحمل بسبب ذلك الكثير من الاضطهاد والمطاردة إلى حد محاكمته والتهديد بسجنه، ولكنه مثل كل المؤمنين الصادقين الذين يختبر الله صدق إيمانهم، وعندما يثبتون على الحق يجزيهم بأحسن ما عملوا.





## عالم فرنسي سبق الباحثين من الإعجاز العلمي في القرآن !

كان موريس بوكاي من أكبر المدافعين عن الإسلام في الغرب، إلى حد أنه ألف كتابا تضمن نتائج دراساته المقارنة للأديان كشف فيه الأدلة التي جعلته يؤمن بالإسلام في النهاية. وكتاب موريس بوكاي (التوراة والإنجيل والعلم) معروف في الغرب بعد أن ترجم إلى عدة لغات، ومعروف أيضا في العالم الإسلامي بعد أن ترجمه إلى اللغة العربية على الجوهري وصدرت منه عدة طبعات، أما موريس بوكاي نفسه فهو أستاذ في الطب في جامعة باريس تفرغ لدراسة الكتب المقدسة والديانات السماوية الثلاث ولد في سنة ١٩٢٠ وحصل على جائزة من الأكاديمية الفرنسية وجائزة أخرى من الأكاديمية الوطنية للعلوم الطبيعية في فرنسا وذلك تقديرا لأبحاثه المبتكرة، وعرض نتائج للدراسات التي أجراها على القرآن والعلم الحديث في العديد من المؤتمرات العلمية ولقيت أبحاثه تقديرا كبيرا من العلماء وترجم كتابه إلى اللغات الفارسية، والتركية، والأردية، والمالوية، وغيرها من لغات الشرق والغرب.

وهو يستنكر موقف المفكرين الغربيين الذين يرفضون الاعتراف بأن القرآن من عند الله، بينما يؤمن المسلمون بكل الأنبياء السابقين على محمد - صلى الله عليه وسلم - وبكل الديانات السابقة على الإسلام، وذلك بأمر إلهي في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: ١٣٦)، وإذا كانت الديانة المسيحية تؤمن بأن اليهودية وكتابها المقدس (التوراة) من عند الله، فإن الديانة اليهودية لا تعترف بصحة أي وحي إلهي بعد التوراة، ومع ذلك فقد أخذت المسيحية التوراة المكتوبة بالعبرية ككتاب مقدس لها إلى جانب الإنجيل، ويشير بوكاي إلى أنه كانت هناك أناجيل كثيرة استبعدت الكنيسة كثيرا منها واعتمدت عددا محدودا من الأنجيل أهمها الأنجيل الأربعة المعروفة، وهي إنجيل متى، وإنجيل مرقس،

وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، ولا تعترف المسيحية بوجود وحى إلهي بعدها، والإسلام يؤكد المكانة البارزة التي يحتلها جميع الأنبياء منذ إبراهيم - عليه السلام - إلى المسيح - عليه السلام - الذى يخصه بمنزلة خاصة؛ ففي القرآن سورة باسم (مريم)، ويشير القرآن إلى معجزة ولادته بغير أب، ويؤكد أن أمه السيدة مريم عذراء شاء الله أن يطهرها ويصطفيها على نساء العالمين، ويبدى مورييس بوكاي دهشته لأن اعتراف الإسلام بالديانات الأخرى غير معلوم على نطاق واسع فى الغرب، وقد أسهم فى الجهل بحقائق الإسلام أن الغربيين عندما يتحدثون عن الإسلام يسمونه (الديانة المحمدية) ويسمون المسلمين (المحمديين) لإعطاء الانطباع بأن هذا دين منسوب لشخص وليس وحيا من الله، وأن المسلمين هم اتباع رجل وليسوا مؤمنين بالله، ويشير أيضا إلى تقصير كثير من الباحثين الغربيين وعدم اهتمامهم بدراسة القرآن، واكتفائهم بدراسة التاريخ الإسلامى، والجوانب الفلسفية والسياسية والاجتماعية فى الإسلام، ولكن السنوات الأخيرة شهدت نوعا من التحول فى الدوائر المسيحية الرسمية بعد أن أصدر المؤتمر الثانى للفاتيكان فى عام ١٩٧٠ وثيقة بعنوان (توجيهات لإقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين) وجاء فى هذه الوثيقة: (أن الفاتيكان ينظر بعين الاعتبار إلى الظلم الذى وقع على المسلمين، وهو ظلم يستحق عليه الغرب اللوم لما كانت عليه نظم التعليم المسيحى)، وتنتقد هذه الوثيقة التصورات الخاطئة التى تعتبر المسلمين كسالى متواكسين ومتعصبين، وجاء فى هذه الوثيقة عبارات فى غاية الأهمية مثل (علينا أن نهتم أولا بأن نغير تدريجيا من عقلية إخواننا المسيحيين، ويجب التخلّى عن الصورة القديمة الملوّنة بالأحكام الخاطئة عن الإسلام. ويجب الاعتراف بالمظالم التى ارتكبتها الغرب المسيحيون فى حق المسلمين). وكان لهذه الوثيقة صداها فى الغرب، وكانت تكملة لخطوة مهمة فى مارس عام ١٩٦٩ حين زار الكاردينال كوننج cardinal konning جامعة الأزهر وألقى كلمة أعلن فيها أن الإسلام دين يؤمن بوحدانية الله.



لكن هذا التفهم للإسلام من جانب الفاتيكان لم يأخذ ما يستحقه من اهتمام المفكرين ورجال الدين والإعلام فى الغرب.. ولم يهتم الإعلام فى الغرب بالخطوة المهمة التى تمثلت فى زيارة الكاردينال بنيدولى cardinal pignedoly للسعودية فى أبريل ١٩٧٤ وهو رئيس سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين وحمل رسالة من البابا بولس السادس إلى الملك فيصل عبر فيها عن إيمان البابا باتحاد العالم الإسلامى والعالم المسيحى فى عبادة إله واحد.

وهذا هو التعبير الذى يستخدمه البابا شنودة الثالث حين يتحدث إلى المسلمين فى حفلات الإفطار فى رمضان، وفى كلمته فى افتتاح المؤتمر الإسلامى العالمى الذى تنظمه وزارة الأوقاف إن

يبدأ دائماً بقوله: باسم الإله الواحد الذي نعبد جميعاً، تعبيراً عن إيمان الكنيسة الأرثوذكسية بأن الله واحد وليس للمسلمين إله وللمسيحيين إله آخر، لكن هذا المعنى السامى لا يؤمن به البعض في الغرب وآخرهم القائد العسكري الأمريكي البارز الذي قال فى كلمته للقوات الأمريكية: إن إلهنا أفضل من إلههم (!) وكان ذلك تعبيراً عن ردة تعيد التفكير إلى ما كان عليه الأمر فى العصور الوسطى.

ويسجل موريس بوكاي الخطوات التى تمت بعد بيان الفاتيكان وزيارة الكاردينال بنيودولى للسعودية واعتراف البابا بولس السادس بالإسلام كدين قائم على عبادة الله الواحد الذى يعبد سائر المؤمنين، ومن هذه الخطوات استقبال البابا بولس السادس رسمياً لوفد من كبار علماء الدين الإسلامى فى أكتوبر ١٩٧٤، ثم عقد ندوة شارك فيها رجال الدين الإسلامى والمسيحى كان موضوعها (حقوق الإنسان الثقافية فى الإسلام)، وبعدها استقبال المجمع المسكونى الأعلى للكنائس عدداً من كبار رجال الدين الإسلامى تحت رعاية الأسقف إلشينجر Elchinger أسقف ستراسبورج، وتم اللقاء فى العاصمة السويسرية (جنيف).

يعتبر موريس بوكاي أن هذه الخطوات الأولى للتقارب كان لها أهمية كبرى لأنها نبهت بعض الغربيين إلى الخطأ فى التعليم الذى تلقوه منذ الصغر الذى غرس فيهم الروح العدائية للإسلام والمسلمين، وينبه أيضاً إلى أن الأديان الثلاثة تواجه تهديداً خطيراً بسبب انتشار النزعات المادية والإلحادية، وبالتالي فإن المعركة يجب ألا تكون بين المؤمنين بالله مع اختلاف دياناتهم، ويجب أن تكون المعركة بين المؤمنين بالأديان الثلاثة والملاحدين، وهذا يفرض على أصحاب الأديان الثلاثة أن يتجمعوا معاً فى جبهة واحدة. ويقول: إن الفكر السائد فى الغرب الآن أن الدين والعلم لا يلتقيان.

ويجعل موريس بوكاي موضوعه الأساسى الذى كرس له حياته: هل الإيمان بالدين يتعارض مع الإيمان بالعلم؟ لكنه وجد نفسه أمام سؤال آخر لابد أن يبحث عن إجابته لكى يؤسس بحثه عن العلم والدين على أساس سليم، وهو: ما مدى مصداقية النصوص الموجودة فى الكتب المقدسة الموجودة فى أيدينا الآن؟



يقول موريس بوكاي: إن الدراسة النقدية للكتب المقدسة فى الغرب دراسة جديدة لم تبدأ إلا منذ سنوات قليلة، قبل ذلك كان توجيه أى نقد لهذه النصوص يعتبر خطيئة من الخطايا الكبرى، وفى السنوات الأخيرة أصبح نقد النصوص الدينية علماً يدرسه علماء متخصصون فيه يمارسون أبحاثهم بعقلية متحررة، وينطبق ذلك فى الدراسات الإسلامية على الأحاديث النبوية، فلم تدون الأحاديث

إلا بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسنوات. وتخصص عدد غير قليل من علماء المسلمين في دراسة مدى صدق أو كذب كل حديث، وقد حددوا بالفعل عددا من الأحاديث المدسوسة، ورتبوا الأحاديث بحسب درجة اليقين في صدورهما عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من حديث متواتر إلى حديث حسن، إلى حديث ضعيف.. وهكذا.. أما القرآن فكان يتم تسجيله وحفظه عن ظهر قلب أولا بأول، وكانت تلاوته مستمرة عند المسلمين في صلواتهم، وفي غير أوقات الصلاة، وخصوصا في شهر رمضان، حيث يرتل المسلمون القرآن كاملا في هذا الشهر، ولا يزال المسلمون يفعلون ذلك إلى اليوم في كل مكان في العالم، وقد رتب النبي - صلى الله عليه وسلم - الآيات والسور بنفسه كما أمره الله، وتم جمع السور القرآنية بعد وفاته وكانت مدونة قبل وفاته.

ويعرض موريس بوكاي نتائج دراساته التي قام بها لبحث ما إذا كان في القرآن إشارات إلى حقائق علمية تتعارض مع ما توصل إليه العلم الحديث، وقد وجد في القرآن آيات كثيرة تشير إلى ظواهر طبيعية أعد موريس بوكاي قائمة بها بعد دراسته للقرآن باللغة العربية، وبعد سنوات من دراسة مدى صدق كل إشارة علمية وردت في القرآن أعلن بوكاي (أن القرآن ليس في آياته إشارة واحدة يمكن نقضها في ضوء مناهج وقوانين العلم الحديث)، ويخصص بوكاي أكثر من نصف كتابه لنقد نصوص التوراة والإنجيل التي في أيدينا، ولكن ما يعيننا هو حديثه عن القرآن والإسلام.



ونكتشف من كتاب موريس بوكاي أنه من أوائل الباحثين عما في القرآن من إشارات إلى ظواهر وحقائق طبيعية أكدها العلم الحديث بعد مرور قرون من نزول القرآن. ويعلن أن الباحث يشعر بالدهشة عندما يكتشف أن القرآن ليس فيه كلمة واحدة تتعارض مع قوانين العلم الحديث، وأن هذه الحقيقة تلطم العلماء الماديين الذين كانوا يرون أن النصوص الدينية لا علاقة لها بالعلم وأنها أساطير وتعاليم أخلاقية. لكن هؤلاء لم ينتبهوا إلى ما في القرآن من آيات تكذب نظريتهم وتؤكد لهم أن هذا القرآن من عند الله ولا يمكن أن يكون غير ذلك، كما أن فهم حقيقة الإسلام يظهر كذب الذين قالوا إن (الله) الذي يعبد المسلمون غير (الله) الذي يعبد المسيحيون واليهود، وقد أشارت وثيقة الفاتيكان إلى ذلك وقالت بالنص: (.. ونرى باطلاً أن نقول مع بعض الغربيين أن (الله Allah) ليس الإله المقصود في المسيحية باسم (God) بالإنجليزية و(Dieu) بالفرنسية. ويدين موريس بوكاي الذين يكتبون كلمة الله بالإنجليزية أو الفرنسية كما هي بالعربية وبحروف لاتينية (Allah) للإيحاء بأنها تشير إلى إله آخر خاص بالمسلمين وهو غير الإله الذي يعبد المسيحيون واليهود. كما أنصفت وثيقة الفاتيكان الإسلام مما يتهمة به الغربيون من أنه قائم على الجبر، وأن الإنسان في عقيدة الإسلام لا يملك حرية التفكير وحرية الاختيار. وذكرت الوثيقة آيات في القرآن تفيد مسؤولية الإنسان عن أعماله، وحرية اختيار الإنسان لأفعاله، وهذا ما يجعل من المنطقي أن يحاسب الله الإنسان على أفعاله ومعتقداته.

وتبرز هذه الوثيقة الحرية الدينية في الإسلام وأنه لا يجبر أحدا بالقوة على اعتناق الإسلام، ويستشهد موريس بوكاي بآيات تؤكد عدم صحة الفكرة الشائعة في الغرب عن أن الإسلام انتشر بقوة السيف، مثل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة ٢٥٦) و﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج ٧٨). كذلك يشير بوكاي إلى ما جاء في وثيقة الفاتيكان من مواجهة للفكرة الشائعة في الغرب عن الإسلام على أنه دين قائم على الكراهية والتخويف وكراهية الآخر، فتشير الوثيقة إلى أن الإسلام دين الحب، والنصوص كثيرة في القرآن والحديث تدل على أن الإيمان لا يكتمل لإنسان ما لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه.



وتشير وثيقة الفاتيكان أيضاً إلى فكرة شائعة عن التعصب في الإسلام وتستشهد بآيات في القرآن تؤكد التسامح وتقول: (لم يكن المسلمون في حقيقة الأمر أكثر تعصبا من المسيحيين عندما كانت لهم السيطرة على مناطق كثيرة في العالم، وإن مفهوم الجهاد شبيه بمفهوم الحرب المقدسة في المسيحية، وتعني بذل الجهد لنشر الإسلام والدفاع عنه كما يفعل المسيحيون ببذل جهودهم لنشر المسيحية والدفاع عنها. وليس الجهاد في الإسلام مثل مفهوم (الخورييم Kherem) في الديانة اليهودية الذي يعني إبادة المخالفين للدين اليهودي.. أما أعمال العنف التي وقعت فقد كانت تخضع لقوانين الحرب، وفي الحرب الصليبية مثلاً لم يكن المسلمون هم الذين ارتكبوا المذابح. كذلك تناقش الوثيقة ما شاع في الفكر الغربي من أن الإسلام دين يتصف بالجمود، وأن ذلك ما جعل المسلمين متخلفين وغير قادرين على مسايرة التطور. وتقرن الوثيقة بين مظاهر التخلف الموجودة في بعض البلاد الإسلامية ومثيلاتها في بعض البلاد الغربية المسيحية، وتقرر في النهاية: (إننا نجد في الفكر الإسلامي مبادئ وإمكانات لتطور المجتمع المدني).

ويعلق موريس بوكاي على هذه الوثيقة التاريخية التي تعمدت أجهزة الإعلام ومراكز البحوث في الغرب التعتيم عليها وعدم الإشارة إليها، فيقول: إنني متأكد أن كل من يطلع على ما في هذه الوثيقة ستصيبه الدهشة، فهي إعلان ودفاع عما في الإسلام من عناصر إيجابية تدل على التفتح العقلي، ومن المؤسف حقاً أن الذين يعلمون بهذه الوثيقة الصادرة عن المؤتمر الثاني للفاتيكان عام ١٩٧٠ ليسوا سوى قلة قليلة جداً، ولو أن المسيحيين في الغرب كانوا على علم ووعي بما فيها من موقف منصف للإسلام ما حدثت هذه المصادمات والأحداث المؤسفة التي نراها ضد الإسلام والمسلمين، ولو علم الغربيون كيف استُقبل وفد علماء المسلمين باحترام في قاعة الاحتفالات الكبرى بكتاترانية ستراسبورج، وكيف دعا الأسقف إلشينجر Elchinger أعضاء الوفد لأداء الصلاة في بهو الكاتدرائية نفسها، وأنهم قاموا بأداء الصلاة أمام المذبح متجهين نحو القبلة لأدركوا أن تلك كانت خطوة مهمة للتفاهم والتقارب بين أصحاب الديانات السماوية، كما أنها كانت إشارة إلى التركيز

على ما بين الديانات السماوية من نقاط التقاء وأهمها الإيمان بالله، وترك نفاط الخلاف التي تثير النفوس، وهي على أى الأحوال لا تتعلق بأسس العقيدة في كل الأديان وهي الإيمان بالله، وبالحياة الآخرة بعد الموت، والحساب أمام الله. مع ملاحظة عدم الخلاف بين الأديان في كل ما يمس القيم الأخلاقية وحماية العلاقات الاجتماعية.



ويبحث موريس بوكاي عن موقف الأديان من العلم فيقول: إن سلطات الكنيسة ظلت لعدة قرون تعارض تطور العلوم الطبيعية، مما دفع بعض العلماء إلى الهرب من أحكام الكنيسة بالحرق أو الإعدام أو التخلي عن الحقائق العلمية التي اكتشفوها بالملاحظة العلمية والتجربة والاستقراء، كما اضطر بعض العلماء إلى التراجع وإنكار ما توصلوا به وطلب الصفح والمغفرة من الكنيسة، ويضرب مثلاً على ذلك ما حدث للعالم جاليليو الذي استكمل اكتشافات كوبرنيكوس الخاصة بدوران الأرض حول الشمس، وحاكمته الكنيسة بتهمة الكفر لأن النصوص فيها إشارات إلى أن الشمس هي التي تدور حول الأرض. وتم إعدام جاليليو ودفع حياته ثمناً لإعلانه الحقيقة العلمية. أما في الإسلام فكان الموقف مختلفاً، فقد جاءت في القرآن آيات كثيرة تشجع على النظر في الكون وظواهر طبيعته وفي تكوين الإنسان ومراحل نشأته، وجاء في الحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة). وإن كان المسلمون قد مروا في مراحل ساد فيها الجهل وإنكار العلم، إلا أن ذلك لا يجعلنا نغفل النهضة العلمية العظيمة للحضارة الإسلامية فيما بين القرن الثامن الميلادي والقرن الثاني عشر، في الوقت الذي كان فيه الغرب أسيراً للقيود على التطور العلمي. ولقد حققت مراكز العلوم في العالم الإسلامي إنجازات واكتشافات علمية أثرت في نهضة أوروبا، وكان الباحثون والعلماء في العالم الإسلامي يجدون من الرعاية والدعم من الدولة والمجتمع ما جعلهم يتفوقون في جميع المجالات.

ويشير موريس بوكاي إلى فترة ازدهار الحضارة والنهضة العلمية في الأندلس، حيث كانت قرطبة مركزاً لدراسة علوم اليونان والهند وبلاد فارس، وكانت مكتبة الخليفة تحوي أربعمئة ألف مجلد، وكانت الجامعات الإسلامية تدرس العلوم الطبيعية والكيمياء والطب والتشريح والجراحة والفلك والرياضيات والجيولوجيا وعلم النبات ولهذا كان كثير من العلماء والطلاب يسافرون من أنحاء أوروبا للدراسة في قرطبة مثلما يحدث في عصرنا هذا عندما يسافر طلاب العلم إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراساتهم. ويدعو موريس بوكاي الغربيين جميعاً إلى معرفة فضل المسلمين على الحضارة الغربية والاعتراف بهذا الفضل، ولم يكن الدين عائقاً أمام حرية البحث العلمي على الإطلاق، بل كان مشجعاً للعلماء لثقة المسلمين من أن اكتشافهم للمزيد من الحقائق العلمية يثبت إيمانهم بقدرة الله في الكون ويزيدهم إيماناً، وهذا ما يفسر وجود علماء في الطبيعة والكيمياء

وغيرهما كانوا علماء في الدين أيضاً وجمعوا بين علوم الدين والدنيا. ولم يحدث الانفصال بين العلم والدين في العالم الإسلامي كما حدث في أوروبا.

ويفسر موريس بوكاي أسباب هذا الانفصال بين العلم والدين في أوروبا بأن البلاد المسيحية عاشت في القرون الوسطى في ركود علمي وتزمت، فتوقف البحث العلمي تحت ضغط أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم خدام التوراة والإنجيل. وعندما بدأ عصر النهضة كان من الطبيعي أن يكون رد الفعل لذلك أن يأخذ العلماء بثأرهم من رجال الدين، فثاروا عليهم، وكسروا الانفصال بين الدين والعلم، ولا يزال ذلك الانفصال مستمرا حتى اليوم إلى درجة أنه لو حدث وتحدث أحد العلماء عن الإيمان بالله يعتبره بقية العلماء شاذا يرغب في الشهرة عن طريق الاختلاف عن سائر العلماء. وهذا الموقف يعمق التنافر بين العلم والدين إلى حد أن أحد العلماء الحاصلين على جائزة نوبل قام بتأليف كتاب يؤكد فيه أن المادة الحية تخلق نفسها بنفسها، ومن المادة الحية الأولية تكونت بقية الكائنات وانتهت بظهور الإنسان في ظروف البيئة الخارجية الملائمة لذلك التطور الحيوي.

يقارن موريس بوكاي بين هذا الموقف لعلماء الغرب وموقف العلماء المسلمين في الماضي والحاضر الذين تعلموا من الإسلام أنه كلما ازدادت معرفتهم العلمية ازدادت ثقتهم من قدرة الله الخلاق التي يرجعون إليها كل ما في الكون والإنسان من ظواهر وازداد إيمانهم بقدرة الخالق. فالعلماء المسلمون ينطلقون في أبحاثهم من نقطة واحدة هي الإيمان بالله خالق ومدبر كل شيء، فإليه وراء كل ما يصل إليه علمهم من اكتشافات. ويوجه بوكاي النقد إلى علماء الغرب الذين يسخرون من هذه العقيدة وينكرون تأثير القوى الروحية والإلهية في الكون. فيقول: إن عجز المسيحية واليهودية عن الصمود والتغلب على هذه الموجة الإلحادية في الغرب أدى إلى ظهور فكر يدعى أن الدين ليس إلا نظاما تبناه البشر منذ ما يزيد على ألفي عام لإنشاء سلطة دينية تعطي امتيازات لرجال الدين على سائر الناس. ويبدى موريس بوكاي أسفه لأن الغربيين لا يعلمون ما في الإسلام من قوة دافعة للتقدم الإنساني، وذلك بتأثير ما يسميه (عملية التشهير المنظم المنهجي) ضد الإسلام منذ القرون الوسطى.

ولذلك فإن كل عربي تتاح له فرصة الاطلاع على حقيقة الإسلام يصاب بالدهشة عندما يدرك إلى أي حد تم تشويه هذا الدين، وكيف ظلت المراجع العلمية إلى اليوم مليئة بالأخطاء المتوارثة عن الإسلام من العصور الوسطى، وما زالت موجودة حتى في دوائر المعارف المشهورة في الغرب مما يجعل مهمة الباحث الذي يعتمد عليها مهمة عسيرة إذا أراد الوصول إلى المعلومات الصحيحة عن كل ما يتعلق بالإسلام. وإلى جانب ذلك فإن الآيات التي تشير إلى حقائق علمية ترجمت في الغرب ترجمات سيئة جعل العلماء يوجهون إليها النقد، وقد يكون الخطأ في الترجمة لصعوبة نقل المعنى بدقة كما في الآيات باللغة العربية، أو لأن اللفظ القرآني متعدد المعاني ولا يحيط المترجم بهذه



المعاني كلها لمعرفة المعنى المقصود، وهناك معانٍ لألفاظ في القرآن لم ينكشف معناها الصحيح إلا في العصر الحديث بعد أن تقدمت المعارف العلمية وفي ذلك عذر للمفسرين القدماء الذين لم يكن في مقدورهم إدراك هذه المعاني.



ويقول موريس بوكاي: إنه أصيب بدهشة بالغة عندما تفرغ لدراسة القرآن باللغة العربية فاکتشف إشارات وحقائق علمية لم يكن يتوقع أن يجدها في كتاب ديني أنزل منذ أربعة عشر قرناً. ويقول: إنه لم يكن لديه في البداية استعداد للإيمان بالإسلام. وإنه كان يدرس نصوص القرآن بعقلية علمية متحررة من العاطفة ومن الأحكام المسبقة، ولم يكن فكره يخلو من تأثير التعاليم المعادية للإسلام التي تلقاها في طفولته وشبابه وأهمها: أن الإسلام دين افتراه رجل عربي أسمه محمد - صلى الله عليه وسلم - ولكن بعد أن تعلم اللغة العربية وأجادها، وعكف على دراسة القرآن آية آية، وجملة جملة، واستعان بكتب التفسير المعتمدة، كانت تذهله الدقة التي يصف بها القرآن الظواهر الطبيعية، ولا يمكن إدراك المعجزة فيها إلا بالرجوع إلى النص الأصلي باللغة العربية. ومن هذه الظواهر التي يتحدث عنها القرآن كيفية خلق الله للعالم، والإشارات المتصلة بعلم الفلك وعلم الأرض وعلم الحيوان وعلم النبات بالإضافة إلى المسائل المتصلة بالتكاثر والتناسل. ويقول: إن ذلك جعلني أتساءل: كيف يقال إن هذا القرآن من تأليف بشر وفيه هذه الحقائق العلمية التي لم يتم اكتشافها إلا في العصر الحديث بعد قرون عديدة من نزول القرآن؟

يتحدث موريس بوكاي كيف تحولت مشاعره إلى الإسلام بعد اكتشافه ما في القرآن من إشارات علمية لا سبيل إلى تكذيبها بعد الاكتشافات العلمية الحديثة، فيقول: لم يعد أمامي مجال للشك في أن القرآن أوحاه الله إلى نبي الإسلام، وأن القرآن الموجود في أيدي الناس اليوم هو ذات النص الذي أنزله الله. وأدركت أيضاً لماذا أساء الغربيون للقرآن في العصر الوسيط وأخطئوا في تفسير الآيات، لأنهم في ذلك الوقت لم يكن باستطاعتهم الوقوف على محتواها العلمي الذي لم تتوصل إليه البشرية إلا بعد قرون.

وينبه موريس بوكاي إلى أن وجود إشارات علمية في القرآن لا تعني أنه كتاب أنزل لتعليم البشرية القوانين العلمية، فهو كتاب ديني بالدرجة الأولى يدعو إلى الإيمان بالله، وأن الحقائق العلمية فيه هي ومضات أو إشارات للقدرة الإلهية لتثبيت الإيمان بقدرة الله خالق كل شيء. وينبه موريس بوكاي إلى مسألة مهمة لمن يبحث عن الحقائق العلمية في القرآن، وهي أن حقائق العلم تتغير كلما تقدمت المعرفة، ولذلك يجب أن نفرق بين القانون العلمي أو الحقيقة العلمية التي تثبتت



صحتها بالأدلة العلمية، وبين النظرية العلمية أو الفرض العلمي الذي ما يزال في مرحلة البحث والملاحظة والدراسة ولم يصل إلى درجة الحقيقة العلمية أو القانون العلمي، فالقرآن فيه إشارات إلى حقائق علمية تأكدت صحتها، وأصبحت من المسائل العلمية الثابتة المؤكدة، مثل حقيقة أن الأرض تدور حول الشمس وأن القمر يدور حول الأرض، ومثل حقيقة أن الماء هو أصل كل شيء حي، ومثل مراحل تطور الجنين البشري.. إلخ.



ويؤكد موريس بوكاي على ما جاء في القرآن من إشادة بالقلم في سورة العلق ﴿أَفَرَأَوْكَ إِلَّا كُمُذًى﴾ (العلق ٣-٤) باعتباره وسيلة الإنسان لتدوين معارفه وحفظها للأجيال على مر الزمان، وهذا ما جعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يحرص على إملاء الآيات على كتبة الوحي مما حفظ القرآن كما أنزل.

ويرى موريس بوكاي أن حديث القرآن عن كيفية خلق السموات والأرض كما جاءت في آيات متفرقة هي الأصدق في هذا الموضوع، لأن التوراة - مثلا - تقول إن عملية الخلق تمت في ستة أيام تبعتها يوم استراح فيه الله هو يوم السبت. واليوم الذي تتحدث عنه التوراة هو أربع وعشرون ساعة، لكن القرآن يشير إلى معنى آخر، ففي الآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ (الأعراف ٥٤) وفي آية أخرى يعلمنا الله أن هذه الأيام ليست بالمعنى الشائع ولكن مفهومها عند الله مختلف، فهي تعني مراحل زمنية Periods أو عصور ages وليست أياما days والدليل على ذلك ما جاء في الآية: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة ٥) ويشير القرآن إلى حدوث مرحلة بعد مرحلة في خلق الكون في الآيات: ﴿وَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَلِ السَّمَاءِ بَنَاهَا ﴿٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿١٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿١١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿١٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿١٣﴾﴾ (النازعات ٢٧-٣٣).

ويشير القرآن إلى ظاهرتين توصل إليهما العلماء مؤخرا أولهما: أن الأرض نشأت عن انفصالها عن الشمس وبردت، وثانيهما: أن الماء هو أصل الخلق لكل شيء: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَاهَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنبياء ٣٠) كما يشير إلى حقيقة توصل إليها العلماء في العصر الحديث وهي أن الكون مر بعصر كان فيه عبارة عن كتلة غازية ذات جزئيات تشكل منها العالم: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ (فصلت ١١).

ويستخلص موريس بوكاي من القرآن الحقائق الآتية عن خلق الكون:

- ١ - وجود ست مراحل للخلق بوجه عام.
- ٢ - تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض.
- ٣ - خلق الكون من كتلة أولية متماسكة العناصر انفصلت عنها أجزاء الكون.
- ٤ - تعدد السماوات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض.
- ٥ - وجود مادة مخلوقة وسيطة بين السماوات والأرض.

وعظمة الله تتجلى في الكون ولذلك يطالبنا بالنظر في المعجزات الكثيرة فيه. فليس من السهل على العقل البشري أن يستوعب حقيقة أن الأرض تبعد عن الشمس مسافة مائة وخمسين مليون كيلو متر تقريبا. ومع ذلك فهي مسافة صغيرة إذا قورنت بالمسافة التي تصل بين الشمس وبين مدار كوكب بلوتو وهي تقدر بما يساوي المسافة بين الأرض والشمس أربعين مرة تقريبا أي ستة آلاف مليون كيلو متر تقريبا، وبناء على تقديرات العلماء فإن قطر مدار كوكب بلوتو يبلغ حوالي ١٢ ألف مليون كيلو متر، ومع أن سرعة الضوء تقدر بحوالي ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية الواحدة، فإن شعاع الضوء يستغرق ست ساعات تقريبا ليصل من الشمس إلى كوكب بلوتو. وفي الكون نجوم يصل الضوء منها إلى الأرض في مليارات من السنوات.. وسبحان الله.



يتحدث موريس بوكاي بالتفصيل عن النظام الشمسي والمجرات والنجوم والكواكب وعن وجود عوالم متعددة، وأن العالم الذي نعيش فيه ليس سوى واحد من هذه العوالم. وما يقوله علماء الفلك عن وجود خمسين مليار نجم في مجرتنا الشمسية ولكل نجم كواكب تابعة له تدور في فلكه. ويقول أيضا: إن في القرآن حوالي أربعين آية تمدنا بمعلومات توضيحية في علم الفلك جاءت في سياق الإشادة بعظمة الله الخالق وبديع صنعه وما في الكون من نظام دقيق محكم، وقد اكتشف نيوتن بعض مظاهر هذه الدقة في قوانين الجاذبية بين الأجرام وغيرها من القوانين العلمية. ويكفي ما في التعبير القرآني من دقة في التمييز بين ضوء الشمس وضوء القمر: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس ٥) ولم يكتشف العلماء إلا بعد قرون من نزول القرآن أن الشمس هي مصدر الضوء وأن نور القمر هو انعكاس لضوء الشمس.

وسوف تدهش عندما تجد موريس بوكاي يتحدث عن إعجاز القرآن في حديثه عن النجوم، والكواكب، والسماوات الدنيا، والنظام الشمسي، وظاهرة التمدد في الكون وهي أعظم اكتشاف علمي في العصر الحديث لم يصل إليه العلماء إلا بعد التوصل إلى نظرية النسبية. ويشير إليها القرآن: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا يَافًى وَيَأْتِيْدُ وَأَنَا الْمَوْمِعُونَ﴾ (الذاريات ٤٧) وكذلك الإشارة إلى ما يتمكن به البشر من النفاذ إلى الطبقات العليا بسلطان العلم: ﴿يَعْمَشَرُ الْيَحْنُ وَالْإِنْسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ



كانت كلها نظريات وأفكار خاطئة ولم يتخل العلماء عنها إلا في عصر النهضة بين عامي ١٤٠٠م) و١٦٠٠م) ويعلق بوكاي على ذلك بأن الدقة التي تحدث بها القرآن لم يستطع أحد من العلماء أن يعارض شيئاً منها، ويبدو الإعجاز في الآية: ﴿الْقُرْآنَ اللَّهُ يُرْسِي سَعَابًا ثُمَّ يُولَفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يُجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَاطِرُ قُوَّةٍ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور ٤٣) وعندما نقارن معلومات علم الهيدروليكا الحديثة عن الماء بما جاء في القرآن سنجد التوافق تاماً مع آخر نتائج الدراسات العلمية. وكذلك ما جاء في القرآن عن البحار خاصة في صفات البحار والأنهار والتقاءهما: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ (الفرقان ٥٣) و﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَبَنَغُومٍ فَضْلُهُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر ١٢) وصدق الله العظيم، فعلى مدى قرون لم يحدث أن اختلط الماء العذب بالماء الملح عند مصب أي نهر من الأنهار في أنحاء العالم.



يعرض موريس بوكاي بالتفصيل نتائج دراساته عن صدق القرآن في كل ما ذكره عن تركيب الأرض، وتوزيع البحار واليابس على سطح الكرة الأرضية، وتركيب الجبال التي قال عنها القرآن: ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْدَادًا ۖ﴾ (النبا ٦-٧) وعرف علماء الجيولوجيا في العصر الحديث أن الجبال في شكل وتد يتعمق في الأرض وينتج عن ذلك تثبيت القشرة الأرضية. والإعجاز في القرآن أيضاً في حديثه عن تداخل الهواء في طبقات الجو العليا حيث يقل الضغط الجوي ويصاب الإنسان بضيق التنفس إذا ارتفع عن سطح الأرض ارتفاعاً كبيراً وهذه المعلومة لم يكتشفها العلماء إلا في العصر الحديث، بينما أشار إليها القرآن في الآية ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشُرْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام ١٢٥) أي إن الإنسان يشعر بانطباق صدره وقد يموت نتيجة لذلك كلما ارتفع في الجو. وليس ذلك فقط بل أشار القرآن إلى وجود الكهرباء الجوية ونتائجها مثل البرق، والبرد: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۖ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ۖ﴾ (الرعد ١٢-١٣).

كما يشير القرآن إلى العلاقة بين الظل والشمس: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۖ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا سَيْرًا ۖ﴾ (الفرقان ٤٥-٤٦) ..

هذا بالإضافة إلى ما في القرآن من آيات عن عالم النبات وعالم الحيوان والتكاثر في النبات:

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج ٥).

ومن المعروف علمياً الآن أن الثمرة هي نتاج عملية تناسل النباتات العليا، والمرحلة التي تسبق الثمرة هي مرحلة الزهرة بأعضائها الذكرية (الإبر) وأعضائها الأنثوية (البويضات) وبعد نقل حبوب اللقاح من الأعضاء الذكرية إلى الأعضاء الأنثوية تعطى الزهور الثمار. فكل ثمرة تتضمن بالضرورة وجود أعضاء ذكورة وأعضاء أنوثة. وحتى الأنواع التي تنتج زهوراً غير ملقحة يسميها علماء النبات (الثمار عذرية التوالد) مثل ثمار الموز وبعض أنواع الأناناس والتين والبرتقال والعنب، فإن هذه النباتات في الحقيقة - وكما اكتشف علماء النبات - لها نشاط جنسي ولكنه مختلف عن النباتات الأخرى. وبالطبع لم يكن أحد في عصر نزول القرآن يعلم شيئاً من هذه الحقائق العلمية.



كذلك يبدي موريس بوكاي انبهاره بما في القرآن من مسائل كثيرة تتعلق بعلم الحيوان مثل: التناسل في عالم الحيوان، ووجود الجماعات الحيوانية، ودقائق عن حياة النحل والعناكب والطيور. وقد أثبت العلم الحديث أن الجماعات الحيوانية تتصف بمستوى من التنظيم الفطري في نطاق جماعة من الحيوانات أو الطيور، وقد ذكر العالم الفرنسي (بلانشير) أنه يمكن تمييز بعض مظاهر السلوك لدى هذه الجماعات من الحيوانات والطيور تبدو كما لو كانت تسببها لله، وقد حظيت مجموعات النحل بأكبر قدر من الدراسات العلمية. وفاز كل من (فون فريش) و(لورنز) و(تينبرجن) بجائزة نوبل في العلوم على دراساتهم في السلوك الجماعي للحيوانات والطيور والحشرات والعنكبوت، وبذلك توصل العلماء إلى معنى ما جاء في الآية: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ (الأنعام ٣٨). كذلك فإن الإعجاز القرآني يبهّر العلماء في حديثه عن التناسل الإنساني من معلومات دقيقة ابتداء من طبيعة السائل المنوي إلى تخصيب البويضة، إلى تطور الجنين في الرحم في مراحل تتفق مع ما يقرره العلم الحديث، ولم يستطع أحد من العلماء العظام أن يقدم دليلاً على عدم دقة هذه الحقائق العلمية. ويكفي الإشارة إلى الآية: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ (المؤمنون ١٤) وكذلك ترتيب ظهور الحواس والأحشاء: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة ٩) وأن الله يخلق الذكورة والأنوثة في الأجنة: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ (النجم ٤٥-٤٦).

ويشير موريس بوكاي أيضا إلى أن القرآن لم يترك شيئا في حياة الناس دون أن يحدد إطاره السليم بما في ذلك العلاقات الجنسية ويذكر الآيات الكثيرة التي تتضمن معلومات جنسية باستخدام ألفاظ تجمع بين الدقة والاحتشام.

كما يشير بإعجاب شديد إلى حرص المسلمين منذ بداية نزول الوحي على تدوين الآيات أولا بأول ومراجعتها دوريا وخاصة في شهر رمضان، وكذلك يبدي إعجابه بحرص العلماء المسلمين على توثيق الأحاديث وتتبع سلسلة الرواة، حتى إنهم أنشئوا لذلك علما من أشد العلوم دقة يعتمد على منهج صارم في دراسة كل واحد من سلسلة الرواة لكل حديث حتى يصلوا إلى المصدر الأول له ويدققوا في التأكد من صدور الحديث عنه ومدى صدق كل راو وسلامته العقلية ومعاصرته لمن سمع منه، ثم رتبوا الأحاديث إلى درجات فبعضها صحيح، وبعضها متواتر، وبعضها حسن، وبعضها ضعيف، وبعضها منحول سواء عن حسن نية للترغيب في عمل الخير أم للترويج لمذاهب وفرق واتجاهات سياسية. ويقول موريس بوكاي: إن (علم الحديث) يستحق الإشادة لأن علماء الحديث اتبعوا المنهج العلمي الدقيق في نقد الأحاديث والشك فيها وإثبات ما أثبتوه وتكذيب ما كذبوه بناء على أدلة وأساليب دون تحرج، لأن الأحاديث منسوبة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وليست وحيا مباشرا وليس لها منزلة القرآن. وهذه النزاهة العلمية لا نجدها في نقد النصوص في الديانات الأخرى.

ولقد أخذ الباحثون عن الإعجاز العلمي في القرآن معظم نظرياتهم من هذا العالم الفرنسي العظيم.



وما يصل إليه موريس بوكاي بعد ذلك يتفق مع ما ذكره الإمام الأكبر الراحل الشيخ جاد الحق على جاد الحق في كتابه (اجتهاد الرسول) الذي فرّق فيه بين أقوال الرسول التي تتعلق بأمور الدين والدنيا معبرا فيها عن مراد الله، وأقوال صدرت عنه كإنسان مثل اقتراح عدم تدكير النخل فلما تبين أن ذلك غير مفيد قال (أنتم أدرى بشئون دنياكم) ومثل حالات كان فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - مجتهدا في استنباط الأحكام وكان بالطبع إمام المجتهدين في هذه الحالات. وقد أوضح الشيخ جاد الحق بأدلة كثيرة الفرق بين النبي والإنسان، وبين المجتهد وناقل الوحي في شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

ودراسات موريس بوكاي عن الإعجاز العلمي في القرآن نرى أصداءها في الدراسات التي قدمها لنا بعد ذلك د. مصطفى محمود، ود. عبد الرزاق نوفل، ود. منصور حسب النبي، ود. محمد شوقي الفنجري، ود. عبد العليم عبد الرحمن خضر، ود. زغلول النجار، وغيرهم، وغيرهم، مما يرجح أنهم تأثروا به وأخذوا عنه.



ويكرر مورييس بوكاي ذكر نتائج أبحاثه عن مدى صحة المعلومات العلمية والتاريخية في الكتب المقدسة، ويتوقف طويلاً عند طريقة تدوين القرآن، والقدسية التي يشعر بها المسلمون لكل آية وكل كلمة وكل حرف في القرآن، ولم ينزل القرآن دفعة واحدة، ولكنه نزل على مدى ثلاثة وعشرين عاماً وهي مدة كافية جداً لحفظ كل آياته، وظل حفظ القرآن من الأمور التي تلفت النظر في العالم الإسلامي، حيث يحفظ كثيرون القرآن كاملاً عن ظهر قلب. وقد تم تدوين القرآن في حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وتحت إشرافه وبمراجعتة، وكان - صلى الله عليه وسلم - يطلب من الكاتب أن يتلو عليه ما كتبه ويطلب من غيره أن يتلو ما كتب للتأكد من صحة الكتابة، وهكذا تجمعت أسباب عديدة لضمان صحة نصوص القرآن: الحفظ في ذاكرة المؤمنين العدول، وتدوين الآيات أولاً بأول بأقلام الكتّاب العدول، وهذا ما جعل جمع القرآن بالكامل عملاً سهلاً في عهد أبي بكر ثم نسخه في عهد عثمان. وهذا ما أخرج ألسنة كل من حاول التشكيك في صحة القرآن وهو الكتاب الوحيد الذي لا يثير أية مشاكل تتعلق بصحة نصوصه. ومن غير المعقول أن يتصور إنسان أن حقائق العلم التي ذكرها القرآن وكانت مجهولة وقت نزوله ولم تكتشف إلا في العصر الحديث يمكن أن تكون من تأليف بشر. وليس أمام الإنسان إلا التسليم بأن هذا الكتاب وحى من الله أنزله على النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي اختاره وكان منذ بداية حياته صادقاً حتى أطلق عليه أهل مكة لقب (الصادق الأمين) وظل كذلك في جميع مراحل حياته، ويكفي أنه لم يطلب لنفسه ثروة أو ملكاً أو يضع تاجاً على رأسه ويجلس على عرش.. وكان في استطاعته أن يفعل ذلك.



ويبدو أن هناك صلة فكرية بين مورييس بوكاي وروجيه جارودي، وأن هناك تكاملاً في رؤيتهما للإسلام، بوكاي درس الإسلام من زاوية العلم الحديث، وجارودي درسه من زاوية الفكر والحضارة والقيم الروحية والإنسانية. فقد ألقى جارودي محاضرة في جامعة الإسكندرية أثناء زيارته لمصر عام ١٩٨٣ في مناسبة العيد الألفي للأزهر، وكان موضوع الندوة (حوار الحضارات) وقال فيها: إن أهم ما يميز الإسلام في نظره أن كل ظاهرة لا تؤخذ منفصلة عن غيرها من الظواهر، وأن العلاقة واضحة في الإسلام بين ظواهر الطبيعة وعلاقة الإنسان بربه، ففي الإسلام ترتبط حركة كل شيء في الكون بإرادة الله، وبالتالي لا ينبغي أن تدرس ظاهرة وحدها وكأنها منقطعة الصلة بغيرها، وإنما يجب أن تدرس من خلال علاقتها بالظواهر الأخرى، وعلاقة جميع الظواهر بالله، وهذه النظرة الكلية الشمولية هي ما تمتاز به العلوم الإسلامية في جوهرها.

أما عن الحوار بين الغرب والإسلام فكان رأى جارودي أن ذلك من الصعوبة بمكان لأنه سيكون حواراً بين جماعات تتفاوت في موازين القوى وبالتالي فهو حوار قائم منذ البداية على أساس خاطئ. فقد كان الاستعمار الغربي السبب الرئيسي لوقف نمو الحضارات والثقافات في البلاد



الإسلامية، وعمل الاستعمار على إنكار الحضارة الإسلامية بل وتدميرها وهي في أوج ازدهارها. وقال جارودي: لقد بهرتني قدرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - على إنشاء مجتمع إسلامي مثالي لا ينقل أسسه من المجتمعات الأخرى ولا على صلة الدم التي كانت تربط وتفرق بين القبائل، ولا على ملكية الأرض مثل الإمبراطوريات، ولا على مجتمع الأسواق كما أنشئت المدن الأغريقية، ولا على أصحاب ثقافة واحدة، ولذلك انتشر الإسلام في دول كثيرة، وقبائل متعددة، وثقافات متباينة، فجمع بين هؤلاء المختلفين في كل شيء على وحدة العقيدة. فالمجتمع الذي أقامه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بنى على الإيمان وهذا ما يجعله مجتمعاً عالمياً مفتوحاً لمن يريد أن يؤمن بعقيدته. وإن في هذا الدين إبداعاً عجباً، لا شبهة فيه لولاية إلهية، أو لطغيان رجل دين. فهو دين يمد يده لجميع البشر والباب مفتوح أمام البشر، للاتصال بالله دون وسيط، وقد عقد الرسول - صلى الله عليه وسلم - اتفاقاً أشبه ما يكون بالاتحاد الفيدرالي مع اليهود في المدينة، واليهود هم الذين نقضوا الاتفاق وانقلبوا عليه. وفي عهد الخلفاء الأوائل عاش اليهود والمسيحيون في الدولة الإسلامية على قدم المساواة مع المسلمين دون تفرقة، وتولوا مناصب سياسية وعلمية واجتماعية رفيعة.

ويُبدى جارودي أسفه لأن الغرب انساق وراء نزعتة للسيطرة والاستغلال والاستعمار، فلم يفهم الإسلام فهماً صحيحاً، ولم يتخلص حتى الآن من حملات العداء التي شوهت هذا الدين الذي يقدم للبشرية نموذجاً فريداً من العلاقة السمحة بين الإنسان والله والطبيعة، بحيث تتكامل العلاقة وتتوحد في الخالق الذي يسبح كل شيء بحمده.

ولا يزال في فكر جارودي ما يستحق العودة إليه.



# دموة للغرب لإعادة اكتشاف الإسلام !

قصة حياة المستشرق الفرنسي رينيه جينو مليئة بالإثارة. فقد بدأ منذ شبابه المبكر رحلة البحث عن الحقيقة، وعاش فترات من حياته مستغرقاً في دراسة الأديان والعقائد واحدة واحدة متبعا في ذلك القاعدة التي وضعها لنفسه وهي : (لكي يدرك الإنسان كنه النور فعليه أن يحاول الصعود إلى مصدره في تجربة ذاتية متفردة).. وقد عاش في المسيحية سنوات وانتقل منها إلى الماسونية ثم تفرغ لدراسة فلسفات الشرق، وأخيراً هُدى إلى الإسلام. وبعد سنوات طويلة من القراءة والتأمل والحياة في البلاد الإسلامية اعتنق الإسلام واختار لنفسه اسم (عبد الواحد يحيى). وكان للإمام الراحل الدكتور عبد الحليم محمود الفضل في تعريفنا بهذا المنصف العظيم للإسلام وبمدى إخلاصه وتفانيه في الإيمان، حتى إن د. عبد الحليم محمود كان يسميه (العارف بالله الشيخ عبد الواحد يحيى).. وبعد ذلك كان الفضل في تقديم فكره للدكتورة زينب عبد العزيز أستاذة الحضارة والباحثة في القضايا الإسلامية.

والمفاجأة الأولى لمن يقرأ سيرة حياة رينيه جينو أنه ولد في فرنسا في ١٥ نوفمبر ١٨٨٦ وتوفي في ٧ يونيو ١٩٥١ في القاهرة التي أحبها وعاش في رحاب مساجدها ومكتباتها. وقد أحب العلوم الرياضية والطبيعية في دراسته الثانوية حتى حصل على البكالوريا ثم التحق بجامعة السوربون ليحصل على ليسانس في الفلسفة وحصل منها على الدكتوراه. وفي سنة ١٩١٠ التقى بالفنان المصور السويدي إيفان آجلى الذى كان قد أسلم واختار لنفسه اسم (عبد الهادى) وعاش في القاهرة سبع سنوات درس فيها التصوف الإسلامى وأصبح متصوفا فكان لهذا المصور تأثير كبير على فكره ومشاعره فأصبح هو الآخر متصوفا كبيرا.

وفى سنة ١٩٣٠ سافر رينيه جينو إلى القاهرة واستقر على مقربة من الأزهر ثم تزوج بمصرية وحصل على الجنسية المصرية فى سنة ١٩٤٨ وأنجب فتاتين هما : فاطمة وليلى وولدين هما أحمد وعبد الواحد. وتلخص لنا الدكتورة زينب عبد العزيز أفكاره الأساسية فى رفضه لأن تكون المادة

والحياة المادية هي الغاية أو الحدود النهائية للإنسان أو أن تكون معياراً لكل شيء. لأنه كان يؤمن إيماناً عميقاً بالعالم الآخر وبالغيب الذي لا يمكن لبشر أن يصل إليه ولا يعلم أبعاده إلا الله.. وعلى الجانب الآخر كان يرى أن الغرب قد ضل الطريق منذ أن انفصل عن الروحانيات واستغرقته الماديات. وأن الشرق هو الذي ظل محتفظاً بالقيم الروحية وبالإيمان بالعالم الآخر وما وراء الطبيعة.. وفي مؤلفاته التي بلغت عشرين كتاباً وعشرات المقالات كانت المحاور التي يدور فيها فكره هي: الإنسان، والكون، والعالم الحديث، وعالم التراث. وهو ينتقد في كتبه الأوهام الغربية حول عبادة الحضارة المادية والإيمان بالعلم دون ارتباط بالخالق الحقيقي الذي يحكم الكون والإنسان وإليه المصير. وهو يدعو إلى تزواج الحضارة الغربية بروح الشرق الإسلامية بشرط ألا يكون ذلك بسيطرة الغرب على الشرق أو العكس، فهو لا يدعو إلى ذوبان الشرق في الغرب أو الغرب في الشرق ولكنه يدعو إلى التفاعل والتكامل بينهما. لأن لدى كل منهما ما يمكن أن يعطيه لتقدم الإنسانية. وهو يرى أن أزمة العالم الحديث تكمن في أن حضارة الشرق الإسلامية قائمة على المعرفة والإيمان، وحضارة الغرب قائمة على العمل والإنتاج وأن التكالب في الغرب على الحياة المادية أدى إلى قيام الصراعات، وأن أزمة الغرب سببها أولاً: أنه يريد أن يفرض على الشرق نموذجاً حضارياً واجتماعياً وثقافياً لا يتفق مع تكوينه وطبيعته، وثانياً: لأن الغرب يعيش في فوضى فكرية أدت إلى تعدد الفرق الدينية وشبه الدينية. وفي نفس الوقت فإن الغرب يعاني من التناقضات في الفكر والسلوك. وعلى سبيل المثال فإن الغرب يباهي بأنه أرسى مبدأ المساواة ويكرر الحديث عن حقوق الإنسان. ومع ذلك فإن الغرب يؤمن في أعماقه بأنه متفوق وأنه خلق ليحظى بالثروة والسيادة. كما يباهي الغرب بالديمقراطية بينما عاش على مدى التاريخ ينكر حق الشعوب الأخرى في الحرية والاختيار ويفرض عليها مبادئه ونظمه، ويحذر رينيه جينو من أن حضارة الغرب لن تعمّر طويلاً فهي قائمة على تراكم المعرفة، وفي غياب الإيمان بالوحدانية الإلهية فإن هذه المعارف الكثيرة تؤدي إلى التشتت وهي معارف قائمة على الظواهر المادية وحدها والمادة متغيرة. والحضارة الغربية بحكم تكوينها هذا سينتهي بها المطاف بأن تدمر نفسها بنفسها بالحروب أو بأدوات الدمار التي تنتجها وتنطوي على احتمالات غير متوقعة. فكان الغرب - كما يقول - ينشئ حضارته على أرض متحركة. وهذا ما جعل الإنسان الغربي في حالة قلق وحركة دائمة، ويبحث عن التغيير.. من أجل التغيير وكل ذلك ليس سوى تعبير عن عدم الاستقرار في المجتمع وفي داخل النفس.



وتلخص لنا د. زينب عبد العزيز المحاضرة التي ألقاها رينيه جينو في جامعة السوربون في سنة ١٩٢٥ عن الميتافيزيقا الشرقية أي الإيمان بعالم ما وراء الطبيعة وفوق العقل ولا يدرك

بالحواس، ولكنه يدرك بالشعور، أو بالحدس، وبإدراك الحقيقة، وهى أن الإنسان الفرد مجرد ظاهرة مؤقتة أو مرحلية. فالمسلم مرتبط بالحقيقة الأزلية وبالخلود وهذا هو الفرق بين الغرب المادى والشرق المؤمن كما يقول.



وهذا المعنى الذى توقف عنده رينيه جينو وتأمل فيه طويلا هو ما توقف عنده أيضا روجيه جارودى وكان أكثر وضوحا فى التعبير عنه حين قال: إنه اكتشف أن الإسلام لا ينظر إلى أية ظاهرة فى الكون أو فى الإنسان على أنها منفصلة عن بقية الظواهر، فالكون بكل ما فيه، والإنسان بكل مكوناته الجسمية والنفسية والعقلية والروحية.. كل ذلك وحدة واحدة. وهذا ما توصل إليه العلم الحديث مؤخرا. وأسس مناهج البحث العلمى على أن الظواهر الطبيعية وكل ما فى الكون من جماد وحيوان وإنسان ومن أفلاك وكواكب كلها تُكوّن فى مجملها منظومة واحدة مترابطة ومتكاملة، وما أضافه الإسلام إلى ذلك أن هذه الحقيقة تقود إلى الإيمان بالله وبقدرته، لأن هذا النظام الكونى بالغ الدقة لا يمكن أن يكون قد نشأ عشوائيا ولا يمكن أن يستمر دون اختلال فى موازين وعلاقات هذه الظواهر إلا بوجود خالق، ومدبر حكيم قادر وقدرته بغير حدود.. وهذا هو جوهر الإيمان، ومن شاء الله أن يهديه إلى الإسلام يستطيع أن يدرك كيف أن كل شيء فى الوجود يسبح بحمد الله.

وإذا كان رينيه جينو قد توقف كثيرا عند نظرة الإسلام إلى البشر جميعا على أنهم متساوون لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود، وكلهم خلق إله واحد شاءت حكمته أن تختلف ألوانهم ولغاتهم وعقولهم لكى يتفاعلوا ويبدعوا. ورأى أن هذا الاختلاف هو قوة الدفع للتقدم. ولو كان الناس جميعا قد خلقوا بصورة واحدة ولغة واحدة وعقلية واحدة لأصبحت البشرية بالعمم وفقدت التنوع والاختلاف والصراع وهى عوامل الحركة والتقدم كما علّمنا القرآن: ﴿وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة ٢٥١).. فإن جارودى أضاف عاملا آخر عند تحليله لأسباب القوة فى المجتمع الإسلامى فرأى أنه مجتمع لا يقوم على وحدة الثقافة، بل اتسع لثقافات متعددة عربية وفارسية وهندية ومسيحية ويهودية. ولم يقم على أساس العرق أو الجنس، ولا حتى على أساس التوسع والسيطرة على مصادر الثروة وعلى الأسواق، إنما قام على الإيمان، وبذلك استحق أن يوصف بأنه المجتمع العالمى الشامل المفتوح لكل من يؤمن بعقيدته من البشر فى كل زمان وكل مكان.

ويلفت جارودى النظر إلى أن الإسلام انتقل بسرعة مذهلة خلال عام واحد من مجتمع صغير فى مدينة واحدة إلى امبراطورية مترامية الأطراف مما أثار مشكلات جديدة لم يعرفها مجتمع المدينة مثل الانتقال من اقتصاد قائم على التجارة والسوق إلى اقتصاد نقدى أشبه بسوق إسلامية مشتركة تمتد من الهند إلى المحيط الأطلنطى.

وقد ظهرت في تلك الحقبة نخبة من جهازة الفكر اجتهدوا لإيجاد حلول للمشاكل المستجدة. فنشأت المدارس الفقهية التي تناولت القضايا الاقتصادية والمعاملات كما تناولت العبادات. ويضيف جارودي أن الحلول الإسلامية في مجالات الاقتصاد تجعله راغبا في أن يحقق الفشل بالنظامين الرأسمالي والاشتراكي على السواء لأنه يراهما وجهين لنموذج واحد قائم على الاستغلال بينما يحقق الإسلام العدالة في صورتها المثالية.

ويطرح جارودي تفسيراً جديداً للمبدأ الذي أعلنه السيد المسيح - عليه السلام - : (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فيقول: إن هذه العبارة بالقياس إلى الزمن التي قيلت فيه تعتبر ثورة تقلب نظام الحياة الذي كان سائداً في ذلك الوقت رأساً على عقب، فقد كان القيصر الروماني إلها يعبدته الناس، وهو المالك القاهر، فجاء المسيح ليقطع جانباً من سلطة قيصر الذي هيمن على النفوس كما هيمن على الأبدان والأراضي والأملاك فلم تعد له سلطة إلهية، واعتبر أتباع المسيح - عليه السلام - ذلك فصلاً جذرياً بين العقيدة والإيمان وبين الحياة السياسية والاقتصادية ولم يكن ذلك هو المقصود لأن المسيح - عليه السلام - أراد أن يربط حياة البشر بالله على أنه الخالق والمدير والمالك لكل شيء وليس القيصر. وهذا ما فعله النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - عملياً، فلم يكن مجرد رسول لا عمل له إلا الدعوة إلى الله. بل كان - بالإضافة إلى ذلك - رجل دولة أرسى أسس المجتمع، وقد صادفته مشكلات لم تكن موجودة في عهد المسيح وفي وجود القيصر، وليس معنى ذلك أن القرآن والسنة فيهما الحلول لكل مشاكل الحياة والمجتمع بالتفصيل لأنها مشاكل تتجدد وتختلف من عصر لآخر. ولكن فيهما المبادئ والمنهج لحل المشكلات، وفيهما البوصلة التي ترشد إلى اتجاه الحركة، وفيهما توضيح لمعنى حياتنا وصلاح أعمالنا، وعلى ذلك فإن حل المشكلات التي تستجد في كل عصر هي مهمة الفقهاء.



ويناقش جارودي موقف العالم الإسلامي اليوم من القوى العظمى. ويختلف في ذلك مع رينيه جينو الذي كان يرى أن العالم الإسلامي يمكن أن يعيش ويزدهر بالإسلام وحده، ويستغنى عن كل ما يأتي من الغرب، أما جارودي فإنه يرى أن هذا هو موقف جماعات تدعو للانغلاق والانزوال للنجاة من الشرور التي تملأ الغرب، يرى أن الحل الصحيح لا يكون بنقل كل ما في الغرب، ولا بالرفض المتزمت لكل ما فيه، ولا بد من البحث والاجتهاد في كل مسألة للوصول إلى الموقف الذي لا يرفض التحديث ويتمسك بالجمود، وقانون الطبيعة يعلمنا إما التطور وإما الانقراض، وعظمة الدين الإسلامي أنه ليس ديناً منعقداً، يكتفى بما لديه ويفرض التفاعل مع ما يطرحه كل عصر وكل مجتمع من قضايا ومشكلات، والله يضرب الأمثال للناس في القرآن ويدعوهم إلى أن يفكروا:

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (إبراهيم ٢٥).

ويقول جارودى: إن الإسلام فيه المرونة والقدرة على التعايش مع كل الظروف وكل العصور، وذلك بالتعامل مع النص القرآنى بعقلية متفتحة، وعلى سبيل المثال فإن القرآن يأمر بالوضوء بالماء قبل الصلاة، فإن لم يجد المسلم ماء جاز له استخدام (صعيد طيب) أى التراب، فلو شئنا أن نشرح ذلك لمسلم من سكان الاسكيمو فلا بد أن نجد له حلا، والحل دائما موجود مادام مسموحا بالتفكير والاجتهاد. ولذلك فإن جارودى يرى أن العالم الإسلامى فقد مقومات القوة، ولا يقصد القوة العسكرية، أو القوة الاقتصادية، ولكنه يقصد قوة الفكر ويقول: إن الإسلام محتاج إلى ثورة فكرية تؤدى إلى صحوة وتجديد فى الفكر الإسلامى خاصة أن النموذج الغربى يواجه بالرفض من حين لآخر، كما حدث فى ثورة الشباب الشهيرة فى فرنسا عام ١٩٦٨، وكانت هذه ثورة على النظام الغربى الرأسمالى وما يؤدى إليه من أزمات، وعلى رغم أن هذه الثورة التلقائية لم تطرح حلا للمشكلة فإنها كانت دليلا على وجود الأزمة، فقد كان المتظاهرون يحملون صور زعماء من خارج فرنسا.. بل من خارج أوروبا، وليس فيهم زعيم أبيض.. كانوا يرفعون صور ماوتسى تونج، ولومومبا، وعبد الناصر، وشخصيات من العالم الثالث، ليس من بينها شخصية تمثل مصدرا للإلهام بالنسبة لهذه الجماهير. ولم يذكروا ماركس ونظريته الثورية. ويبدو أن هذه الثورة كانت تنطوى على إحساس قوى بأن الغرب اغتصب لنفسه السيادة على العالم دون وجه حق، ونصب نفسه معلما يفرض نظرياته وأفكاره على قارات العالم، وكانت هذه الجماهير تريد أن تدعو الغرب إلى الحوار مع العالم الثالث باحترام، وكان تعبیر الشباب عن رفضهم للنموذج الغربى الاستعمارى أنهم ساروا بملابس الرهبان البوذيين وحلقوا رءوسهم، ونظموا مسيرات أشبه باستعراض للفنون الشعبية المختلفة وسرعان ما انتشر هذا الإحساس وكأنه عدوى مما يدل على رد الفعل للنموذج الغربى، بينما يثبت الإسلام أنه بمقدوره أن يقدم البديل لنظريات المفكرين الغربيين التى تجرد الحياة من الروح والمعنى وتروج للأخلاقية، ولاعتبار الحياة وظواهرها ناتجة عن المصادفة وحدها، كما روج لذلك الفيلسوف الفرنسى جاك مونو، وهو فى الأصل عالم أحياء، ويقول جارودى: لقد اشتركت معه فى مناظرة فى التلفزيون الفرنسى وواجهته بأنه وقع فى سقطة فكرية، وأن حدود علمه تقف عند علم الأحياء، بينما هو جاهل تماما بالتاريخ، والأخلاق، والعقيدة وخصوصا عقيدة الإسلام.

وهناك كاتب آخر مشهور هو جان بول سارتر روج للفلسفة الوجودية ورأى أن الحياة هى مجرد عاطفة أو شغف لا يجدى، وكذلك الكاتب الشهير البير كامى الذى روج لفكرة أن الحياة شقاء ليس وراءها طائل، وأنها عبث فى صورة عمل وإصرار، وجسد نظريته فى عرض لأسطورة (سيزيف) البطل الذى يملك إرادة لا تعرف اليأس، ومحكوم عليه بأن يدرج حجرا ثقيلًا من سفح الجبل إلى أن يصل به بعد مجهود شاق إلى القمة فيسقط الحجر، ويعود (سيزيف) لدفع الحجر من جديد أملا فى أن يحقق هدفه، ويظل يفعل ذلك إلى مالا نهاية. يعلق جارودى على ذلك بقوله: إن مثل

هذه الأفكار الرائجة في الغرب تدفع الشباب إلى الإحباط واليأس، ويشعرون - كما قال فلاسفة الوجودية - بأن الحياة ليست سوى جحيم وأن الآخرين هم أيضا جحيم، وأن الإنسان يسير في حياته - بعين مغمضة - نحو هاوية لا بد منها، ومن هؤلاء من حصل على جائزة نوبل أو رشح لها، ولهم تلاميذ كثيرون اعتنقوا أفكارهم. ويتجراً أحدهم إلى حد إعلان موت الله، كما فعل الفيلسوف الألماني نيتشه من قبل. وبعضهم يصف الإنسان بأنه مجرد دمية على مسرح العرائس الذي نسميه الحياة!



يقول جارودي: كيف أصف هؤلاء المفكرين والكتاب؟ إنهم سفاحو الثقافة والفكر، بينما عقيدة الإسلام قادرة على إعطاء الأمل للإنسان، وشحذ عزيمته، وإرشاده إلى طريق الخير والفضيلة ووعدو الإسلام بالحساب في الآخرة ثواباً أو عقاباً تكفي لإعطاء الحياة أعظم المعاني. ويدعو جارودي مفكرى الغرب إلى تفهم الإسلام وأن يتعلموا كيف يمكنهم الوصول إلى الروح، روح الإسلام، وحينئذ سوف تملئ نفوسهم بالأمل في الحياة وما بعد الحياة. وفي نفس الوقت يدعو جارودي المسلمين إلى أن يتحركوا ويجددوا حياتهم في ظل الإسلام وألا يستسلموا للجمود ويقعوا في عبادة الماضي. ويستشهد على ذلك بعبارة بليغة لمفكر فرنسي شهير هو جورس الذي قال: (إن إخلاص المرء لأجداده لا يكون بالإبقاء على رماد المدفأة التي كانوا يستعملونها.. بل بإذكاء جذوة النار فيها).



وفي محاضرة شهيرة في جامعة الأزهر في مارس ١٩٨٣ بدأ روجيه جارودي حديثه بعبارة قاطعة فقال: إن الإسلام اليوم هو الدين الذي مازال في حالة تقدم مستمر، وإن كان قد أصاب المسلمين الضعف في القرن الثامن في الأندلس إلا أن الإسلام ما زال ينتشر في آسيا، والهند، وأندونيسيا، وفي أماكن أبعد مثل ماليزيا، وبورما، وتايلاند، والصين، وكوريا، واليابان، وفي الفترة التي وقف فيها عبد الناصر في مواجهة الغرب حدث اندحار للاستعمار في أفريقيا وتحرر كثير من الدول وأصبحت القارة الأفريقية بأكملها في سبيلها لأن تكون قارة إسلامية. كما وصلت هذه الموجة أيضا إلى الولايات المتحدة، وآسيا الوسطى.. وهكذا فإن هناك صورة جديدة للإسلام بدأت في الظهور تكمل نهضته وتفتحه حتى في البلاد التي تسودها الضغوط السوفيتية. وعندما تتفجر هذه الآفاق سيظهر للعالم أن الإسلام حي، يستطيع مواجهة تحديات القرن، كما استجاب في الماضي لمتطلبات عصور ومجتمعات عديدة).

وانتشار الإسلام - في رأى جارودي - هو رد فعل لطغيان الغرب.. فالغرب يسيطر على العالم بدون شريك منذ خمسة قرون، وفرض نموذجه الحضارى، والثقافى. والنموذج الغربى للتنمية قائم

على نهب الثروات المادية والبشرية التى تمتلكها الشعوب الأخرى، مع أن شعوب الغرب تعادل خمس سكان الكرة الأرضية فقط، والغرب ينتج أى شىء بكميات كبيرة سواء كانت مفيدة أم ضارة أم قاتلة مثل الأسلحة المدمرة التى تعد سوقا رائجة يعتمد عليها الغرب فى تحقيق الرخاء الذى ينعم به حاليا. وذلك النموذج المخيف للتنمية يكشف طبيعته الانتحارية، ففى عام ١٩٨٢ مثلا بلغ الإنفاق على الأسلحة ٦٥٠ مليار دولار، وكان لكل فرد فى العالم ما يوازى أربعة أطنان من المتفجرات التقليدية، وأصبح من الممكن نظريا تدمير كل أثر للحياة فى هذه الأرض، وذلك الاحتمال وإن كان بعيد الوقوع إلا أنه يحدث لأول مرة فى تاريخ البشرية، أى منذ ثلاثة ملايين سنة على الأقل ! بينما تشير إحصاءات الأمم المتحدة عن نفس العام (١٩٨٢) إلى أن الذين ماتوا جوعا بلغوا ٥٠ مليون إنسان فى العالم الثالث، ولا يمكن تخيل صورة أبشع من هذه الصورة التى وصل إليها العالم بعد خمسة قرون من الحضارة والتقدم كما يقولون فى الغرب.



ويستنتج جارودى من ملاحظاته أن المنهج الحضارى الغربى فشل فشلا تاريخيا. ويكمن السر فى هذا الفشل إلى أن الحضارة الغربية قائمة على اتجاه علمى وفلسفى يجعل الإنسان الفرد مركز الكون، ومقياس كل شىء. وهذا ما أفرز الفلسفة الوضعية والسياسة الميكانيكية-الانتهازية-الفردية (الغاية تبرر الوسيلة مهما كانت تتعارض مع الأخلاق) ويرى جارودى أن عصر النهضة لم يبدأ فى إيطاليا عند بعث الثقافة القديمة اليونانية الرومانية، كما يؤرخ الغربيون، ولكنه بدأ قبل ذلك بثلاثة قرون عندما أنشأ المسلمون الجامعة الإسلامية فى قرطبة بالأندلس (أسبانيا) وترجموا الكتب والمراجع العلمية العربية وشجعهم على ذلك القس ريموند من توليدو. وكان هذا التراث الإسلامى قائما على التعايش بين العلم التجريبي والأديان السماوية، وأقامت أوروبا نهضتها العلمية على العلوم الإسلامية ومناهجها. ومعروف أن مؤسس المنهج العلمى التجريبي روجر بيكون اقتبس فصولا من كتاب (الناظر) لابن الهيثم الذى توصل فيه إلى النتائج العلمية الصحيحة لتشريح العين ووظائفها وكيفية الإبصار، وقدم نظرية قلبت ما كان سائدا، فقد كان العلماء فى أوروبا يقولون: إن الرؤية تحدث بسقوط شعاع من العين على الشئ المرئى، فأثبت ابن الهيثم العكس وهو أن الرؤية تتم بسقوط الضوء على الشئ المرئى وانعكاسه على العين. وأهم من ذلك أن ابن الهيثم هو المؤسس الحقيقى للمنهج العلمى التجريبي، وقد أخذ منه روجر بيكون هذا المنهج - وكعادة الغرب نسب هذا التقدم العلمى الكبير لنفسه.

ولقد أخذ الغرب من العالم الإسلامى العلوم وأسرار التقدم التكنولوجى ولم يأخذ منه (الروح) أى الإيمان والحكمة، وهذا ما جعل العقل الغربى يصاب بالقصور فيتساءل دائما عن (كيف) أى عن الطريقة أو الأسلوب، ويغفل عن الأسباب، فيتساءل: كيف نصنع القنبلة الذرية؟ أو كيف نذهب

إلى القمر دون أن يسأل: لماذا نصنع قنبلة ذرية؟ أو لماذا نذهب إلى القمر؟.. وهل هذه أشياء أساسية للإنسان بحيث توضع على سلم الأولويات في المقام الأول، أو يمكن الاستفادة بهذه القدرات المالية والعلمية والعقلية لتحقيق أهداف أخرى أكثر فائدة للبشرية؟



هذه هي مشكلة العقل الغربي، كما يراها جارودي، فهذا العقل تنقصه أنبل وظيفة. تلك التي تجعله يتساءل عن المعنى لحياة الإنسان وتاريخه وأعماله، وبذلك يتحقق رقي الإنسان وتقدمه، لكن فكرة الرقي أو التقدم في العقل الغربي ليس لها سوى معنى واحد هو أن كل ما هو ممكن علمياً وفنياً يجب العمل على تنفيذه. وهذا ما أدى إلى الحالة التي وصلت إليها الحضارة الغربية، فإن أعظم نتاج للعلم والفن في الغرب ليس في خدمة الإنسان، ولكنه لخدمة التنمية لمجرد التنمية ولخدمة السيطرة لمجرد السيطرة، ولخدمة العنف وممارسة القوة كهدف في حد ذاته، ولو أدى كل ذلك إلى تخريب الطبيعة والإنسان وليس إلى خلق مستقبل أفضل للإنسانية.. وينتهي جارودي من هذا التحليل إلى عبارة قاسية يقول فيها: إن حضارتنا الغربية في سبيلها إلى الموت، لأنها تملك الأساليب والقدرة وتفتقد الغايات النبيلة والإيمان، وهذا هو الوجه الخطير لأزمة الحضارة الغربية، أزمة المعنى.. والعلماء والفنانون والكتاب الذين فقدوا الوجهة الصحيحة، متشائمون، ويجسدون هذه الأزمة بدلاً من أن يساعدونا على التغلب عليها، وحتى الكبار منهم يقتلون الأمل، ويقتنعون الشباب بأنه ليس هناك معنى للحياة أو الموت.. بل إن عالماً فرنسياً وصلت به فلسفته الوضعية إلى أن حاول أن يقنعنا بأن الوجود الإنساني كله عشوائي أو تلقائي وعفوي، أي إن كل شيء في الوجود وليد المصادفة، وعلى ذلك فليس لحياة الإنسان غاية وليس لها معنى! وأكبر الفلاسفة الغربيين رأوا أن الحياة عبث والناس الذين يحيطون بنا هم (الجحيم). وهكذا أصبح الفكر الغالب في الغرب ينشر الشعور بعدم جدوى الحياة ذاتها، وأنها عبث أو سلسلة من اللامعقول.

ويرى جارودي أن هذا الإفلاس الروحي في الغرب يواجهه إفلاساً آخر في العالم الاشتراكي الذي لا يتحدث إلا عن التنمية المادية، وحتى الثقافة الاشتراكية لم تكن سوى ترديد لهذه القيم المادية متناسية للقيم الروحية في هذه الحياة.

كيف الخروج من هذا المأزق الذي أدى إلى إفلاس المعسكر الاشتراكي ويوشك أن يؤدي إلى نفس المصير للمعسكر الرأسمالي؟.

يصل جارودي إلى أن المخرج لأزمة الإنسان المعاصر هو التسامي على الماديات وربطها بالجانب الروحي المقدس، أي بالدين. والإسلام هو الذي يقدم الحل المثالي لهذه المعضلة، فهو يدعو كل إنسان للعمل في الدنيا بكل قوة كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرفته في نفس الوقت وكأنه يموت غداً، فيجعل



الإنسان يعيش فى الدنيا بقدوم وبالقدم الثانية فى الآخرة، فيعمل لنفسه ولحياته ويعمل لإرضاء الله ولا يفقد صلته به أبداً فى أية لحظة. والإسلام لا يعتبر المسلمين شعب الله المختار ولا يغلق دائرة المسلمين عليهم وحدهم على أساس العنصر أو الدم، لأن الإسلام موجه لكل الشعوب، فهو دين مفتوح لكل البشر وليس مغلقاً على فئة أو جماعة أو شعب بعينه.

ولذلك فإن جميع الأنبياء من إبراهيم - عليه السلام - إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - هم أنبياء الله ولا تفرقة بينهم، وهذا دليل آخر على أن الإسلام لا يتعارض ولا يتصادم مع الأديان الأخرى، بل يستوعبها ويتعايش معها. ومفهوم الإسلام ذاته ليس مقصوراً على اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ولكنه يشمل كل الأنبياء الذين أسلموا وجوههم لله وآمنوا به على مر العصور. كذلك فإن الإسلام ليس فيه وسيط بين العبد وبين ربه.

والإسلام - كما يقول جارودى - يقرر أن الإنسان هو خليفة الله فى الأرض، والقائم عليها، والمسئول مسئولية كاملة عن أعماله. وله رسالة فى الوجود لا يمكن أن يؤديها إلا داخل الجماعة أو (الأمة). فعلى المسلم أن يدرك أن الله قد خلقه ليكون مسئولاً عن الأمة الإسلامية كلها وليس مسئولاً عن نفسه فقط. كما فى الحديث: (المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً).. وهذه الأمة الإسلامية هى أمة من نوع جديد، هى أمة لا يربط بينها وحدة العنصر أو الدم أو الأرض أو وحدة الحضارة، إنما تقوم على الاختيار.. على الإيمان.. وكل عمل فى الإسلام مهما كان دنيوياً ومهما كان صغيراً فإن له أبعاده الروحية وارتباطه بالله، حتى لقاء الرجل بزوجه.



ويتوقف جارودى بفكره الفلسفى عند مفهوم (الله) فى الأديان، ويرى أن عظمة الله تتجلى فى الإسلام، فالله هو الخالق والمدير واليه المصير ليحاسب كل إنسان عما فعل، وهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وليس كمثله شئ، وبالتالى فلا يمكن تشبيهه بما فى البشر، فإذا تحدث القرآن عن يد الله فإنها لا تعنى اليد المعروفة ولكنها تعنى رحمة الله الواسعة وقدرته، ونحس معها بحرارة هذه اليد العليا التى تحنو على البشر أو تضرب على يد الظالم لتعيده إلى سواء السبيل. وحين يذكر القرآن أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.. فإنه لا يحاول البحث عن المسافة بيننا وبين الله تعالى أو سنشعر بوجوده معنا وداخلنا وكأننا قبس من وهجه؟. وعندما نقرأ فى القرآن أن الله خلق العالم فى ستة أيام ثم استوى على العرش، فهل سنفهم ذلك وكأننا نقرأ كتاباً فى الجيولوجيا أو نتصور أن الله يمكن أن يجلس على عرش كما يجلس الملوك؟. والخلاصة أن فهم معانى القرآن يستلزم التفرقة بين ما هو إنسانى وما هو إلهى.

ومبدأ الاجتهاد من مظاهر عظمة الإسلام - كما يرى جارودي - فالقرآن والسنة يحددان المنهج والطريق، وكلما واجه الإنسان موقفاً جديداً أو مشكلة جديدة، فإن علماء الفقه قادرين على إيجاد الحلول وفقاً لمبادئ التفسير وشروط الاجتهاد، ومن مزايا الفقه الإسلامي أنه أسس علماً قائماً بذاته لا مثيل له في الأديان الأخرى هو علم أصول الفقه، وهو علم قائم على منهج دقيق، يستطيع به التوصل إلى حل كل مشكلة جديدة في إطار إسلامي سليم.

ويرى جارودي في الصلاة رموزاً لمعانٍ وقيم أسمى من مجرد الحركات الظاهرة، فالوضوء رمز للطهارة، طهارة الأعضاء وطهارة الروح، قبل الوقوف بين يدي الله تعالى، وهي وقفة تعيد لحياتنا قيمتها الحقيقية، وتجردنا من كل ما يشغلنا ويحيط بنا من هموم، ولا يتبقى أمامنا إلا عظمة الله تعالى.. وفي حركات الصلاة معنى ارتباط الإنسان بالكون. فالإنسان يصلي واقفاً كالجبال والأشجار، ويسجد ثم يقوم كالنجوم التي تظهر وتختفي، أو كالمخلوقات التي تنحنى إلى الأرض منبع الحياة. والقبلة ترمز إلى وحدة المسلمين في وجهتهم إلى بقعة واحدة من الأرض، ومواقيت الصلاة تتغير مع تغير الفصول وخطوط الطول والعرض ففي كل ساعات الليل والنهار صلاة وعبادة وذكر لله في مختلف أنحاء الكرة الأرض، ويمتلئ العالم بالتسبيح والتكبير، تنتهي الصلاة في بلد لتبدأ في بلد آخر وهكذا، فالكون كله يتردد فيه ذكر الله دون انقطاع.



ويلتفت جارودي إلى الحكمة في أن يكون ألد أعداء الرسول - صلى الله عليه وسلم - هما عمه (أبو لهب) وزوجته، وقد خلد القرآن هذه الحقيقة في سورة خاصة بهما: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ (المسد ١-٥) لكي نستخلص منها عدة معانٍ، منها أن الصلة قد تكون أقوى مع من لا تربطهم رابطة القرابة والدم، وتربطهم رابطة العقيدة والإيمان، فهؤلاء صحابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - أقرب إليه وأشد إخلاصاً له وحرصاً عليه من عمه وزوجته، ومنها أن قرابة الدم للرسول - صلى الله عليه وسلم - لا تشفع لصاحبها. وها هو ذا القرآن ينذر عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وزوجته بالعذاب في الآخرة بنار ذات لهب، ويبشّر بالجنة صاحبه الذين لا تربطهم به صلة الدم. ومنها أيضاً أن أقرب الناس يمكن أن ينقلب عدواً.. كما حذر القرآن من ذلك في موضع آخر من احتمال أن يكون العدو هو الزوج أو الزوجة أو الابن. كما في قوله تعالى في (سورة التغابن ١٤) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتْرَافٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ۝﴾ ومعنى ذلك أن العلاقة المتينة هي القائمة على العقيدة وعلى الإيمان. والمقصود من ذلك رفض العصبية القبلية والعنصرية التي كانت سائدة وما تزال حتى اليوم. كذلك فإن في قصة قارون حكمة، فقد كانت أمواله تملأ خزائن لا حصر لها ثم خسف الله به

وبها الأرض. والحكمة هنا هي تحذير البشر من تكديس الأموال دون هدف إنساني، ومن التنمية وتراكم الثروات بالجشع واستنزاف الآخرين وإهمال المحرومين كما تفعل دول الغرب الآن.

ويعلق جارودي على ذلك بأن تلك هي المبادئ التي تفتح للمسلمين في الغرب الآفاق كي يكسبوا المستقبل، لأنهم قادرون على أن يعلموا الغرب فلسفة الإسلام وهي أن الجرى وراء المادة والثروة والمتعة فقط هو الانتحار البطيء، ولا بد من العودة إلى الأبعاد الروحية لكل ما في الحياة، وإدراك ارتباط كل شيء في الوجود بالله. والإسلام يقدم الحلول لمشكلات العصر، فإنه يقضى على العصبية القومية والعنصرية في صورة راقية للإنسانية كلها يجمعها الإيمان بالله والطاعة لأوامره.



والعقبة التي تحول دون إدراك الغرب لعظمة الإسلام هي النظرة التي يحملها الغرب للإسلام منذ ألف سنة، فقد كانت في البداية نظرة الخوف منه. والخوف - كما يقال - مرشد سيئ. فالحرب الصليبية - كما قال المفكر الفرنسي ماكسيم رودنسون - أعطت صورة بغیضة عن الإسلام لدى جماهير عريضة في الغرب. وبعد فشل الصليبيين تولى المستشرقون الأوائل مهمة تشويه صورة الإسلام في الغرب. وقد قرر مجمع فيينا عام ١٣١٢ (م) تدريس اللغة العربية في جامعات فرنسا وألمانيا وبريطانيا وغيرها لدراسة الإسلام، ولم يكن ذلك بهدف تشجيع البحث العلمي أو التفاهم بين الغرب والشرق. ولكن كان الهدف هو تسهيل مهمة القائمين على تنفيذ المشروع التبشيري للمسيحية الذي قرره مجمع فيينا. وقد لعب الاستشراق دورا غامضا في خدمة الكنيسة والاستعمار وفي تقديم النصائح لصانعي السياسة في الغرب للسيطرة على دول الشرق الإسلامية. ولذلك نجد الجد الأكبر للاستشراق في أوروبا (سلفستر دي ساسي) ١٧٥٧-١٨٣٨ (م) كان يعمل في وزارة الخارجية الفرنسية وهو الذي كان يكتب بيانات جيش نابليون في غزوه لمصر ونداءات الجيش الفرنسي للشعب الجزائري عند احتلال الجيش الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ (م). وكان المستشرق الشهير ماكس مولر (١٨٢٣-١٩٠٠) أكبر أستاذ في جامعة أكسفورد البريطانية يقوم بتدريب وإعداد الكوادر الإدارية للحكم الاستعماري البريطاني للهند. وحتى روث بنديكت (١٨٨٧-١٩٤٨) الأستاذ بجامعة كولومبيا الأمريكية كان كتابه الشهير (السيف والأقحوان) - بطلب من مخابرات الجنرال ماك آرثر ويتمويل المخابرات - دليلا للعمل على ضم اليابان إلى إطار الهيمنة السياسية الأمريكية.

وهكذا كان المستشرقون يدرسون العالم الإسلامي ويكتبون عنه ليس بهدف البحث العلمي أو لمعرفة ثقافة وعقائد المسلمين ولكن لإعداد الإطار النظري للخطط الاستعمارية. ولذلك اتسمت الدراسات الاستشراقية بالنظرة الاستعمارية التي تعتبر الحضارة الغربية هي الوحيدة التي تستحق أن تسيطر على العالم وتقوده. وكان ذلك امتدادا للفكر السائد في الغرب المعادي للإسلام الذي بلغ

القمة في القرن الثامن عشر، فقد عبّر الفيلسوف الفرنسي ديدرو عن الرفض لكل ما يمت للإسلام بصلة، كما عبّر مونتسكيو عن نقده للإسلام، وألف فولتير كتابه (محمد) عام ١٧٤١ وملخصه: أن الرسول يمثل نموذجا للمكر الديني وأنه هو الذي وضع الأساس للاستبداد السياسي!

وهكذا لم يدرس الإسلام بموضوعية، وتأثرت النظرة إليه بالأيديولوجية الاستعمارية الغربية. وعندما جاءت الحملة الفرنسية لغزو مصر اصطحب نابليون معه باحثون وعلماء ووجه إلى شعب الإسكندرية في ٢ يوليو ١٧٩٨ بياناً قال فيه: إنه هو وجيشه هم المسلمون الحقيقيون، وادعى أنه جاء (يقاقل من أجل الإسلام). وبعد ذلك نجد كتابات تتحدث عن الإسلام بلهجة عدائية. فالكاتب الكبير شاتوبريان يقول: إن الحملة الصليبية لم تكن فقط لتخليص القبر المقدس، إنما أيضاً لمعرفة هؤلاء (المسلمين) الذين يمارسون العبودية ويجهلون الحرية ويعبدون القوة وحدها. ونجد الشاعر الفرنسي الشهير لامارتين في كتابه رحلة إلى الشرق الذي صدر عام ١٨٣٣ يكتب عن حق دول أوروبا في اقتسام أرض الامبراطورية الإسلامية العثمانية بعد سقوطها وتكون لكل دولة أوروبية السيادة المطلقة على المناطق التي ستكون من نصيبها لإقامة مستعمرات أوروبية. وحتى الكاتب الكبير جيرار دي نرفال لم يجد في زيارته للشرق الإسلامي عام ١٨٤٢-١٨٤٣ سوى (الفراغ) والقليل من المعرفة). وكتب المؤلف الفرنسي الشهير فلوير روايته (سالمبو) ليصور ما في الشرق الإسلامي من هلوسات. وهذا ما جعل الغربيين يشعرون بأن الشرق الإسلامي متخلف إلى الدرجة التي تجعله محتاجاً لمن يعلمه من جديد. وهذا ما جعل لورانس العرب- رجل المخابرات البريطانية العتيد- يقول في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة): (كنت أقصد العمل على تشكيل أمة جديدة، وأن جميع ولايات الامبراطورية العثمانية لم تكن تساوى في نظري حياة إنسان بريطاني واحد. ولقد أعدت إلى هذه الشعوب قليلاً من الكبرياء، وعلمتها نمطا جديدا للحكم).



ويرصد جارودي كتابات في الغرب اتجهت إلى إنصاف الإسلام، ومحاولة فهمه، ويقول: إن هذه الكتابات كانت في ألمانيا فقط لأنها لم تستعمر بلاد المسلمين كما فعلت بريطانيا وفرنسا، وهذا ما جعل المفكر هيردر (١٧٤٤-١٨٠٣) يعترف بأن العرب هم (أساتذة أوروبا)؛ فنجد فردريك شليجل يشيد بالفنون الشرقية الإسلامية، والشاعر الألماني الكبير جوته الذي كتب عام ١٧٧٤ قصيدة في تمجيد محمد - صلى الله عليه وسلم - ودعا في كتابه (الديوان الشرقي) إلى الهجرة إلى الشرق لينهل الغرب منه شبابا جديدا. وقد أعجب جوته بالشعراء الصوفيين الكبار أمثال ابن الرومي، وحافظ الشيرازي، والسعدي، وكان المستشرق (سلفستر دي ساسي) قد ترجم بعض أشعارهم. كما كان جوته أول من قال في الغرب: إذا كان الإسلام يعني التسليم لله، فإننا جميعا نعيش ونموت على الإسلام. وأبدى الفيلسوف الألماني هيجل تقديره للإسلام لأن الله

الواحد الأحد في الدين الإسلامي يحرم التمييز العرقي والطائفي، ويحرم استعلاء طبقة على أساس الملكية وحدها، ويعود المسلمون الدقة في حياتهم بفروض أهمها الصوم والصلاة والزكاة. وكان الفيلسوف الألماني أوزوالد شبنجلر أكثر جرأة في إنصافه للإسلام في كتابه الشهير (سقوط الغرب) عام ١٩١٧ حيث قال: لم يكن لغز النجاح الخارق للإسلام بسبب اندفاعه الحربي، ولكن لأنه استوعب كل الديانات.



وينبّه جارودي إلى أن الجمود الذي أصاب المسلمين وجعلهم يتخلفون عن مواكبة التقدم والحضارة كان المبرر لهذه النظرة الاستعلائية من الغربيين، وازدادت المشكلة بأن كان رد فعل التقليديين في العالم الإسلامي مزيداً من الانغلاق والدعوة إلى العودة إلى الماضي ورفض كل جديد.. هذه العقلية المنغلقة في حقيقتها تتعارض مع روح الإسلام وهو دين مفتوح ومتجدد ولا يصادر الفكر والاجتهاد.. إلا أن الدعوة إلى رفض التفاعل مع الحضارة الغربية كان لها صداها السلبي في الغرب وخصوصاً لدى من ينظرون إلى الإسلام بالريبة.



وبصراحة يقول جارودي: إن على المسيحية في الغرب ألا تنظر إلى الإسلام على أنه العدو، أو أنه القوة التي تعوق تطوراتها نحو العالمية. فالتعصب في الكاثوليكية يقابله تعصب لدى جماعات إسلامية متجاهلة أن الإسلام يتحدث عن المسيح والمسيحية باحترام. ويقول: لقد حان الوقت أن يدرك الجميع أننا نعيش رؤية توحيدية للتاريخ وأن الأنبياء إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - يمثلون دعوات تنبيه وإيقاظ للبشرية. ويضيف: لقد اقتبس الغرب من نور الإسلام بما نقله من علوم وثقافات العالم الإسلامي وكانت الأساس الذي قام عليه عصر النهضة في أوروبا. فلماذا يعود أصحاب الأديان إلى الوراء؟ إلى عصر التعصب الديني، والجمود العقائدي، وإغلاق العقول؟ وهل ستستمر دول الغرب في سياساتها القائمة على بناء العلاقات على أساس القوة؟ وهل يمكن أن يصبح العالم عالماً إنسانياً يجمع بين المؤمنين بالله تعالى معاً في مواجهة الملحد، وينتهي عصر شريعة الغاب؟ وهل يمكن إعادة النظام التربوي لتنشئة الأجيال الجديدة على التسامح والتسامح؟ وهل يمكن أن يبحث الغرب عما يمكن أن يتعلمه من الإسلام بدلاً من التركيز على أسباب الخلاف؟

ويقول جارودي: إن الغرب يمكن أن ينشئ علاقات جديدة مع العالم الإسلامي، ودعونا نأمل في تحقيق حلم عظيم، هو أن تنشأ مراكز للحوار والتفاعل مع الإسلام في دول الغرب الكبرى التي لقحت عبقريتها بعبقرية الإسلام وثقافته وعقيدته، مثل قرطبة، وباليرمو، وباريس، فتكون

ساحات للقاء الغرب والإسلام، ولتبادل الأفكار في حوار مستمر وبداية لعلاقات جديدة، إنسانية وحضارية بين الغرب والإسلام، علاقات تنبذ عقلية الحرب والعنف وعلاقات التابع بالمتبوع، أو المستغل بالضحية.



يكرر جارودي كثيرا الدعوة للغرب لإعادة دراسة الإسلام بنظرة منصفة، وسيجد أن الإسلام يقدم حلولاً عادلة وإنسانية لمشكلات البشر. ولديه الأسس التي يمكن أن يقوم عليه عالم يخلو من الحروب والعدوات والاستغلال ويعتمد على التعاون والمنافع المتبادلة. وليتعرف الغرب إلى ما لدى الإسلام؛ فإن نموذج التنمية في الإسلام قائم على البعد الإنساني وبعيد عن الاستغلال والجشع كما في نموذج التنمية الغربي. وعلى الغرب أن يتعلم من الإسلام خطأ النظرية الغربية القائلة بأن تطور التكنولوجيا وقوى الإنتاج هما الحل لمشكلات المجتمع الرأسمالي في الغرب بدون تغيير لعلاقات الإنتاج، كما توهمت الدول الاشتراكية أن تغيير علاقات الإنتاج فقط هو الحل لكل مشكلات المجتمع، وكلاهما خطأ، والنتيجة أن قوانين السوق والبحث عن أكبر قدر من الربح هما أهم سمات المجتمعات الغربية. والإسلام هو الذي يضيف على الاقتصاد الطابع الإنساني ويربط العلاقات الاقتصادية بالعقيدة والمبادئ والقيم الدينية، وهذا يعطى للاقتصاد في المفهوم الإسلامي روحاً تجعله لصالح المجتمع كله وليس لصالح طبقة الرأسماليين وحدهم الذين يجمعون عوامل القوة ويتحكمون في سائر مؤسسات المجتمع السياسية والاقتصادية والعسكرية ويوجهونها لتحقيق مصالحهم وأطماعهم. ولو استمر النظام الرأسمالي في الغرب على ما هو عليه فسوف يستمر تزايد ثروات الأغنياء وفقير الفقراء، والدليل على ذلك أن الولايات المتحدة فيها ٢٠٪ من السكان الأكثر ثراء يحصلون على ٤٦٪ من مجموع الدخل، و٢٠٪ من السكان الأكثر فقراً يحصلون على ٤,٦٪ فقط من مجموع الدخل.



ويقول جارودي: إن النظام الاقتصادي والسياسي في الغرب يسمح للأغنياء باستنزاف الثروات الطبيعية والعبث بالبيئة، وسيؤدي ذلك إلى كارثة خاصة إذا استمر النظام في الغرب قائماً على قانون القوة وشريعة الغاب. بينما يضع الإسلام قواعد الحماية للمجتمع وأفراده وللطبيعة وثرواتها، ففي الإسلام الله هو المالك ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة ٢٨٤) - وعلى ذلك فإن المالك ليس مالكا في الحقيقة، ولكنه وكيل عن المالك الأصلي (الله) الذي سيؤول إليه كل شيء في النهاية، وسوف يحاسب كل واحد عما جمع من أموال كانت تحت إدارته. والزكاة أداة مهمة لإعادة توزيع الثروة وحماية الفقراء وضمان الحد الأدنى من المعيشة الكريمة لهم، وهي

الصورة النموذجية للتضامن الاجتماعى ، ويكفى ما حدث فى عهد عمر بن عبد العزيز من وصول المجتمع الإسلامى إلى درجة من النمو وعدالة التوزيع بحيث لم يعد فيه فقير يستحق الزكاة. كما أن الإسلام لا يسمح للإنسان الفرد بأن يبحث عن مصالحه على حساب الآخرين، إنما يفرض عليه أن يحقق مصالحه فى إطار مصالح الآخرين. والمساواة بين الرجل والمرأة مقررة فى القرآن، فللمرأة أن تتصرف فيما تملك وهذا الحق لم يعترف لها به فى التشريعات الغربية إلا فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين، والمرأة معفاة من الإنفاق على نفسها وعلى أسرتها. فالإنفاق مسئولية الزوج حتى لو كان للمرأة دخل أو ثروة. وقد أعطى الإسلام للمرأة الحق فى طلب الطلاق إذا كرهت استمرار العشرة مع زوجها. والإسلام يقر تعدد الزوجات وهذا نظام كان موجودا قبل الإسلام فحدده الإسلام ووضع له شرطا هو العدل بين الزوجات. وأكد أن الرجل لا يستطيع تحقيق العدل، أى إن التعدد بشرطه يكاد يكون غير ممكن.. وإن كان السماح به موجودا، إلا أن قلة قليلة جدا من الرجال المسلمين هم الذين يستخدمون هذا الحق. وفى الغرب هناك تعدد معروف وعلنى ولكنه غير شرعى. ويكفى التعبير القرآنى عن العلاقة بين الزوجين على أنها قائمة على المودة والرحمة لنذكر كيف يقرر الإسلام قيام الأسرة على أساس من المشاعر الرقيقة السامية وليس على مجرد الغريزة وحدها.



والحقيقة أن جارودى من أعظم من أنصفوا الإسلام فى العصر الحديث. ولأنه فى الأصل مفكر وأديب وفيلسوف فقد استطاع أن ينفذ إلى الأعماق ويدرك الجوهر ويكشف عن عظمة الإسلام.





## إنذار كاذب من الإسلام !

فى الغرب أصوات كثيرة تتحدث عن الإسلام باحترام، فى مواجهة العداء للإسلام والمسلمين. بعض هذه الأصوات لرجال الحكم والسياسة، وبعضها لكتاب ومفكرين ورجال دين، ومعظمها من مواطنين يحملون جنسيات دول غربية تعرفوا إلى الإسلام فوجدوا فيه ما كانوا يبحثون عنه من مبادئ وقيم، وعقيدة تخاطب العقل كما تمس القلب وتسمو بالروح.

وقد كان رئيس الوزراء البريطانى أقوى الأصوات التى ارتفعت بالدعوة إلى تفهم حقيقة الإسلام ومعرفة ما ينسب إليه من أكاذيب شوّهت صورته فى الأذهان وفى الإعلام فى الغرب. وفى مجلس العموم تليت رسالة من رئيس الوزراء بمناسبة بدء أسبوع الوعى الإسلامى فى نوفمبر ٢٠٠١ وقال فيها: إن الأحداث الفظيعة التى وقعت فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ (بتدمير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك) جعلت التعامل مع الجهل بهذا الدين العظيم أمراً مهماً، وجعلت زيادة فهم التعاليم الحقيقية للإسلام – بحكمته ورحمته – بين المسلمين وغير المسلمين أكثر أهمية من أى وقت مضى. فقد أجمع المسلمون على أن مثل هذه الأعمال تخالف المبادئ الحقيقية للدين الإسلامى، كما أنه من الضرورى أن نتذكر بأن كثيراً من المسلمين فقدوا حياتهم فى هذه الاعتداءات. ولا يمكن أن نحكم على الدين الإسلامى الذى يتسم بالسلام والتسمح بأفعال مجموعة من الإرهابيين.

وأبدى رئيس الوزراء البريطانى فى كلمته تفهمه لمشاعر القلق لدى المسلمين فى بريطانيا قائلاً: إننى على يقين من أن المسلمين البريطانيين قلقون فى هذه الأوقات العصيبة من أن يتعرضوا لمزيد من الاعتداءات بسبب عرقى أو بسبب الكراهية، ولذلك طلبت حماية المسلمين المعرضين للتهديد أو الهجوم وأن يكون لذلك أولوية مطلقة، ومن المهم أن نكون يقظين تجاه عناصر المجتمع الذين يتصيدون الفرصة لإثارة التوتر فى مجتمعاتنا، وسوف نقف بحزم ضدهم.

وكانت هذه الصيحة من رئيس الوزراء ضرورية فى ذلك الوقت، لأن المسلمين فى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وغيرها من دول الغرب تحملوا الكثير من الإهانات وتعرضوا

لاعتداءات كثيرة وصلت إلى حد الطرد من الوظائف، والتحرش بهم في الأماكن العامة، والاعتداء على بيوتهم ومحلاتهم ومساجدهم.



وفي سياق الجهد الحكومي لإعادة الثقة في الإسلام والمسلمين قام وزير الخارجية في ذلك الوقت - روبين كوك - هو الآخر بزيارة المركز الإسلامي الإسماعيلي وألقى كلمة بعنوان: (حوار جديد مع الإسلام) قال فيها: إن ثقافة الغرب ليست يونانية أو رومانية الأصل فحسب، بل هي إسلامية أيضا. فالعلوم والفلسفة والفنون الإسلامية أسهمت في تكييف نمونا كأفراد، وأثرت في تفكيرنا وأسلوب حياتنا. لذلك فإن ثقافتنا مدينة للإسلام فهو دين يجدر بالغرب ألا ينساه. ولقد سمحنا للأيام بأن تبعدنا عن بعضنا البعض، وسمحنا لسوء الفهم وعدم الثقة بالتفرقة بين الغرب وبين الإسلام. فيجب ألا ندع سوء التفاهم بيننا يستمر أكثر من ذلك، وألا نسمح بأن تحكم ثقافتان عظيمتان حكما جائرا على بعضهما بهذه الصورة المؤسفة. ثم إنه ليس لدينا أى خيار أو مفر من العيش معا في عالم اليوم، والعمل معا بسلام ووثاق. فمشاكل الشباب في الغرب هي مشاكلهم في العالم الإسلامي في مواجهة خطر المخدرات والجريمة والانحراف.

وأعلن وزير الخارجية رفضه لنظرية صراع الحضارات، وقال: إن البعض يقول: إن الغرب بحاجة إلى عدو، ومادامت الحرب الباردة قد انتهت فإن الإسلام سيأخذ مكان الاتحاد السوفيتي القديم ويصبح هو العدو. ويقولون: إن صراع الحضارات قادم لا مفر منه، وأنا أقول: إنهم مخطئون، فنحن لسنا في حاجة إلى الإسلام كعدو، بل نحن في حاجة إليه كصديق. قد تكون حضارتنا مختلفة، والديانات أيضا مختلفة، ولكن ذلك لا يعنى أننا لن نستطيع أن نتعايش معا، ولكن علينا أن نتعاون معا لإفشال هذه النبوءة. والإسلام يدعو إلى تعاون الشعوب المختلفة، كما في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات ١٣).

ويعد أن استشهد وزير الخارجية البريطاني بهذه الآية الكريمة طالب مفكرى الغرب بأن يتفهموا معناها وأن يعملوا على تحسين التفاهم بين الغرب والإسلام، والتخلص من مشاعر عدم الثقة ومن الصور الخاطئة والمشوهة في كل جانب عن الآخر، وقال: إن المشكلة أن أبناء الغرب وأبناء الإسلام يرى كل منهما الآخر من خلال تلك الصورة السطحية والمشوهة والخطيرة الشائعة بغير أساس من الحقيقة. فالإسلام يرى الغرب على أنه مادي يفتقد الاحترام للقيم الروحية، وعلى أنه عدو للإسلام ولديه نوايا لتقويض المجتمعات الإسلامية وفرض قيم الغرب عليها. والغرب من ناحيته يعتبر الإسلام قرينا للتطرف، وكثير من وسائل الإعلام في الغرب لا ترى ما في الإسلام

من ثقافة غنية ومتنوعة تدعمها ديانة من أعظم الديانات. بل يتحدثون عنه على أنه الإرهاب الذى تقوم به قلة باسم الإسلام. وكلتا النظرتين فى غير محلهما. وهناك الكثير مما يمكن أن يتعلمه من بعضنا البعض.



ولأن روبين كوك من كبار المثقفين البريطانيين - وكان بالإضافة إلى ذلك حريصا بحكم منصبه على حصار حالة العداء للإسلام التى تتزايد فى الغرب - فقد أفاض فى حديثه عن عطاء الإسلام ودوره فى الحضارة الإنسانية، وكرر أكثر من مرة أن الغرب مدين للإسلام بالنشء الكثير. وأن الإسلام وضع الأسس الفكرية لمجالات عديدة مهمة وكبيرة فى الحضارة الغربية، وأن هناك الكثير من أسس الحضارة الغربية يعود الفضل فيه إلى العلوم الإسلامية. وقد تفاعلت الثقافة الإسلامية مع ثقافة الغرب عبر التاريخ والأجيال، ويجب أن يستمر هذا التفاعل، لأن مستقبل كل من الغرب والعالم الإسلامى يرتبط كل منهما بالآخر.

لكن روبين كوك اعترف فى نفس الوقت بأن أهم التحديات التى تواجه صانعى السياسة فى الغرب هى كيفية إقامة علاقة إيجابية مع العالم الإسلامى، وإزالة العقبات الرئيسية التى تعكر الجو بين الجانبين. وهذا يقتضى ألا يكون الحوار مقصورا على الحكومات وحدها، وإنما يكون الحوار بين الشعوب أيضا، فيلتقى رجال الدين والمعلمون، والمثقفون، وأساتذة الجامعات، والفنانون من الجانبين، ويستمر الحوار بينهم، وسوف نكسب الكثير من هذه اللقاءات ومن التفاهم المشترك، وأننا سوف نخسر الكثير إذا لم نفعل ذلك. وفى بريطانيا مجتمع مسلم قوامه مليون ونصف المليون، وأكثر من ٩٠٠ مسجد، وأصبح من حق المدارس الإسلامية أن تتلقى الدعم المالى من الدولة.



وفى السعى إلى الحوار مع الآخر شهدت مدينة الإسكندرية فى يناير ٢٠٠٢ حدثا مهما. فقد التقى فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر د. محمد سيد طنطاوى، ورأس الكنيسة الانجليكانية كبير أساقفة كانتربرى فى بريطانيا د. جورج كيرى، وكبير حاخامات إسرائيل الياهو دورون. وتوصل حوارهم إلى إصدار (إعلان الإسكندرية الأول للقيادات الدينية) دعا فيه إلى إحلال السلام والعدل فى الأرض المقدسة، والتزامهم بالدعوة إلى إنهاء العنف، ووقف سفك الدماء، لأن ذلك يتنافى مع كرامة الإنسان وحقه فى الحياة. وأن العنف شر ينبغى أن تتصدى له الشعوب المؤمنة.

وكانت دعوة زعماء الديانات الثلاث كما يلي :

● الدعوة إلى الحفاظ على قدسية المقدسات والأراضى المقدسة لدى الديانات الثلاث وعدم تدنيسها بسفك الدماء أو بالاعتداء عليها، وضمان حرية العبادة فيها وزيارتها.

● دعوة القادة السياسيين للشعبين الفلسطينيين والإسرائيليين إلى أن يعملوا من أجل التوصل إلى حل عادل ودائم بناء على ما جاء به الأنبياء في الكتب المقدسة. ومواصلة السعى من أجل السلام العادل والمصالحة في القدس والأراضي المقدسة لصالح جميع الشعوب.

ولا شك أن هذا اللقاء والإعلان الذي أعقبه يمثلان خطوة على طريق التفهم، ولكن الأمور ليست بمثل هذه البساطة، فإن نداءات زعماء الأديان لم توقف الحكومة الإسرائيلية عن سياسة القتل والتدمير والسجن والعزل التي تفرضها على الشعب الفلسطيني. مما يعني أن النوايا الحسنة لدى رجال الدين لا تعني شيئاً له تأثير على رجال الحكم والسياسة.



وبعيداً عن رجال السياسة والدين هناك كثيرون في الغرب انجذبوا للإسلام وأحسنوا فهمه، والصحف مليئة بالأحاديث مع نماذج يمكن أن نشير إلى بعضها لتتعرف على رؤيتهم للإسلام، وهي رؤية متأثرة بالعقلية وبالثقافة الغربية.

فالكاتب الأمريكي إيان ويليامز في مقال له بعنوان (المسلمون في أمريكا: القوة الصاعدة) يصور فيه كيف يواجه المسلمون في أمريكا مشاكل يمكن أن تنفجر في أية لحظة، ويدافع عن المسلمين لأنهم يجدون معاملة غير عادلة، فالإعلام يهاجمهم، ومكتب التحقيقات الفيدرالي يتعقبهم بينما يسكت عن المتطرفين اليهود الذين يتدربون على استخدام السلاح علناً في معسكرات في الشرق الأمريكي مثل جيش الدفاع اليهودي الذي أسسه الحاخام المتطرف مائير كاهانا. كما أن تعامل الإعلام الأمريكي مع الإسلام والمسلمين يتميز بالسطحية والرغبة في توجيه الاتهام، وهناك من يشير إلى وجود ١٦٠ ألف مسلم في السجون الأمريكية، وفي نفس الوقت فإن التقديرات تؤكد أن ٢٥ ألف شخص يعتنقون الإسلام كل سنة في الولايات المتحدة.

ويقول إيان ويليامز: إن الأمريكيين في نيويورك يتوقفون عندما يسمعون صوت المؤذن، ويشاهدون المسلمين وهم يتوافدون إلى المسجد، وسائقو سيارات الأجرة المسلمون يتركون سياراتهم وينزلون للحاق بالصلاة، ويبدو المشهد مثيراً، فالمسلمون من بلاد وأجناس مختلفة، عرب.. وهنود.. وأمريكيون.. وأتراك.. وألبان.. الخ. ويتكلمون لغات مختلفة، ومع ذلك يقفون في صفوف منتظمة خلف الإمام لأداء الصلاة وهذا المشهد يتكرر في الأحياء والمدن الأمريكية. وفي أمريكا أكثر من ١٢٠٠ مسجد. وكان أول مسجد أنشئ في أمريكا هو مسجد (روس) في نورث داكوتا وقد هدم في سنة ١٩٧٦. ولا يزال الأمريكيون السود يذكرون إدوارد بلايدن الذي كان يقوم في عام ١٨٨٩ بجولات في ربوع الولايات المتحدة داعياً إلى الإسلام ومعلناً أن القرآن هو الذي يحمي الرجل الأسود من التبعية والعبودية، كما يذكرون والاس فارد الأمريكي الأسود الذي اعتنق الإسلام وأصبح اسمه

والاس محمد، وأسس حركة انضم إليها عشرات الآلاف باسم (أمة الإسلام) وخلفه اليجا بولى الذى اعتنق الإسلام هو الآخر وأصبح اسمه اليجا محمد، وكانت دعوته قائمة على إحياء القومية السوداء وأن الجنس الأبيض هو الشيطان، بينما السود هم العنصر السامى، وبهذه الدعوة تجمع حوله كثير من السود الذين عانوا التمييز والإذلال من النظام العنصرى الأمريكى. واتسعت دائرة المسلمين عندما اعتنق مالكولم إكس الإسلام - وهو أيضا أمريكى أسود - وانتشرت دعوته فى المدن والأحياء الفقيرة حيث وجد كثير من السود فى الإسلام الاحترام والكرامة والمساواة وهى المبادئ التى يفتقدها المجتمع الأمريكى. وقد مات مالكولم مقتولا فى سنة ١٩٦٥ على يد منافسيه من أعضاء فى الجماعة. ثم تغيرت الأمور ابتداء من سنة ١٩٧٥ عندما تولى ابنه وارث الدين محمد زعامة الجماعة، وهو يجيد اللغة العربية ودرس القرآن، وبعد خمس سنوات حلت الجماعة نفسها واندمجت فى المجتمع الإسلامى السننى فى أمريكا الذى يضم السود والبيض.



ويقول إيان ويليامز: ليس هذا فقط هو ما يلفت نظر الأمريكيين ولكن يلفت نظرهم - ويثير دهشتهم أيضا - أن الإسلام مازال هو أسرع الأديان انتشارا فى أمريكا على الرغم من الحملات الإعلامية المنظمة التى تنفر الأمريكيين من الإسلام وتثير الخوف فى نفوسهم من المسلمين، ويقول إن تشويه صورة الإسلام بدأ يتصاعد عندما أعلن الرئيس جورج بوش (الأب) النظام العالمى الجديد الذى يعنى إحياء الحرب الباردة بتشجيع من إسرائيل. ويكشف ديفيد هوفمان مراسل صحيفة واشنطن بوست فى تل أبيب هذه الحقيقة بقوله: إن إسرائيل أقنعت الولايات المتحدة بأن المتطرفين الإسلاميين، وبرنامج التسليح الإيرانى هما أكبر خطرين على المصالح الأمريكية وعلى استقرار الشرق الأوسط. ويضيف هوفمان (وهو يهودى مؤيد لإسرائيل): (إن انهيار الاتحاد السوفيتى جعل إسرائيل هى الحصن المنيع ضد التطرف الإسلامى والأطماع الإقليمية الإيرانية. ومع انتهاء المظلة النووية السوفيتية فى الشرق الأوسط بدأت إيران والعراق ودول أخرى تسعى إلى امتلاك الرادع الخاص بها فى مواجهة الترسانة النووية الإسرائيلية. وتعمل إسرائيل على إقناع الإدارة الأمريكية ودول الغرب بأن هذا السعى إلى امتلاك الرادع «تهديد» وأن مقاومة الاحتلال الإسرائيلى «إرهاب»).

هذا التحليل لأوضاع المسلمين وصورة الإسلام فى الولايات المتحدة بقلم كاتب أمريكى يدل على أن الإسلام يجد دائما من يتحدث عنه بموضوعية واحترام فى مواجهة الحملات العدائية الطاغية فى الإعلام والجماعات ومراكز البحوث وحتى فى مراكز القرار الأمريكى.



ومن المثقفين الأمريكيين القلائل الذي أنصفوا الإسلام (مارلين بوث) وهي أستاذ بجامعة الينوى متخصصة في التاريخ الثقافي والأدب العربي، وقامت بترجمة بعض الأعمال الأدبية العربية المعاصرة - تزور القاهرة كثيرا وتربطها علاقات بعدد من الكتاب والمثقفين. وفي حديث صحفي لها قالت: إن الاستشراق حقيقة له دور سياسي، وقام بخدمة الاستعمار، فهي علاقة (جاسوسية) على العالم العربي والإسلامي أكثر مما هي دراسة لحضارة ومجتمع بقصد المعرفة والتقارب. وهي تحذر العالم الإسلامي من الاستعمار الجديد وتقول: إن الاستعمار العسكري انتهى، ولكنه موجود بشكل آخر ممثلا في السيطرة الاقتصادية والغزو الثقافي.

اختارت مارلين بوث مجال الأدب لأنها رأت أن اطلاع الناس في أمريكا على الأدب في العالمين العربي والإسلامي هو أفضل وسيلة تجعل الأمريكيين أقدر على تفهم هذه المجتمعات على حقيقتها، وترد على حملات التشويه السائدة في التلفزيون والصحافة التي يسيطر عليها اليهود. وهي ترى أن الأدب هو جسر التواصل بين الشعوب وأفضل وسيلة للرد على نظرية صراع الثقافات، وأن الجهل في أمريكا بحقيقة العالم والمجتمعات الإسلامية يرجع إلى أن الأدب العربي تأخر كثيرا في الوصول إلى أمريكا، فالأدب الصيني والياباني وحتى الأدب الإفريقي وصل إلى أمريكا قبل الأدب العربي مع أنه أدب غني بالأفكار والقيم التي تمثل انعكاسا لحقيقة الإسلام. والسبب في خوف الأمريكيين من الإسلام ما يحدث في العالم، وما حدث في أمريكا ذاتها في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من حوادث إرهابية. ويضاف إلى ذلك السبب الأساسي وهو تكوين الشعب الأمريكي؛ فهو شعب منغلقة على نفسه، ولديه إحساس بأنه ليس في حاجة إلى معرفة الآخرين وثقافتهم، فالأمريكيون لا يعرفون حقيقة موقف الإسلام من المرأة، وليس لديهم فكرة واضحة عن الحقوق التي قررها الإسلام لها، ومن خلال دراستي فإنني أقرر أن المرأة في بعض البلاد العربية - وخاصة مصر - أفضل من نظيرتها في أمريكا، ففي مصر تتساوى المرأة بالرجل في المرتبات والمعاشات وهذا لا يحدث في أمريكا، ونسبة النساء في هيئات التدريس في مصر أعلى من النسبة في أمريكا، وفي مصر يعطى القانون للمرأة المطلقة الحاضنة الحق في الاحتفاظ بمسكن الزوجية وهذا أمر لا مثيل له في أمريكا، وقد حصلت المرأة مؤخرا على الحق في الخلع وفي منح جنسيتها المصرية لأبنائها من زوج أجنبي. وبذلك لم يعد في المجتمع المصري أية تفرقة بين الرجل والمرأة، وهذا هو المجتمع الإسلامي الحق.



وفي روسيا عدد كبير من الباحثين في اللغة العربية والدين الإسلامي وثقافة المجتمعات الإسلامية، واهتمام الباحثين في روسيا يرجع أساسا إلى وجود الجمهوريات الإسلامية التي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي ولا تزال بينها وبين روسيا علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية، ويزداد اهتمام الروس بالإسلام بسبب الحرب المستعرة في الشيشان باسم الإسلام ضد الوجود

الروسي، ولذلك نجد معظم الباحثين الروس يهتمون بظاهرة الأصولية الإسلامية، ومن هؤلاء البروفيسور (فيتالي ناوومكين) مدير مركز الدراسات الاستراتيجية ونائب معهد الاستشراق في موسكو، وقد توصل من دراساته إلى أن ظاهرة الأصولية الإسلامية تعود قبل كل شيء إلى أسباب اجتماعية، وبدرجة أقل لأسباب سياسية. وهي تنفيس عن استياء الناس من أحوالهم ورد فعل على أحوال معيشتهم من ناحية، ورفضهم لمعايير الحضارة العالمية من ناحية أخرى، وهذان العاملان يدفعان الناس إلى البحث عن بديل فيجدون البديل في الماضي الذي يبدو لهم في صورة زاهية أقرب إلى الكمال. والغرب هو الذي أطلق مصطلح (الأصولية الإسلامية) وهو مصطلح لا ينطبق بدقة على الواقع، لأن الظاهرة السائدة في العالم الإسلامي والتي يسميها الغربيون (الأصولية الإسلامية) فيها جوانب إيجابية وجوانب سلبية. والغربيون يصورون الجانب السلبي وحده، ويغفلون عن الجانب الإيجابي. الجانب السلبي هو التطرف، والجانب الإيجابي هو العودة إلى الأصول والمبادئ في الدين الإسلامي والسير في عملية التحديث والتطوير انطلاقاً من هذه الأصول الإسلامية. فليس في الأمر رفض للتحديث في ذاته، ولكن الرفض موجه إلى فرض نموذج وحيد للتحديث هو النموذج الغربي، ففي مصر تسير عملية التحديث بخطوات واسعة مع التمسك بالقيم الإسلامية في نفس الوقت، وهم يتحصنون بالأصول الإسلامية لحماية أنفسهم من محاولات (التغريب)، فالأصولية في حقيقتها إذن ليست سوى نوع من المعارضة للحضارة الغربية المرتبطة في أذهان المسلمين بالاستغلال وبتاريخ مرير من الاستعمار والإذلال. فالأصوليون لا يرفضون العلم، والتكنولوجيا الحديثة. وقطاع منهم منفتح على الثقافة الغربية ولا يرفض الديمقراطية، لكن الغرب يبالغ في الحديث عن خطر الأصولية الإسلامية، بينما الخطر هو الإرهاب، ولابد من التفرقة بين العودة إلى الأصول وبين استخدام العنف واستباحة الاعتداء على الآخرين، وظاهرة العنف هذه نجدها اليوم في كل الأديان وليس في الإسلام وحده، كما نجدها في المجتمعات التي لا تؤمن بالديانات الثلاث، كما في اليابان، والهند، والصين، وغيرها.. وإذن فالتطرف ظاهرة اجتماعية سياسية وليس ظاهرة دينية وإن كان الدين يستغل لإثارة المشاعر.

ولا يجد المستشرق الروسي البروفيسور (فيتالي ناوومكين) شيئاً غريباً في الدين الإسلامي أو المجتمعات الإسلامية عما هو موجود في الديانات والمجتمعات الأخرى، وإذا كان الغرب ديمقراطياً حقيقة فإن عليه أن يعترف بالحق في الاختلاف، وقبول الثقافة الإسلامية كما هي، والتعامل مع المسلمين وفق معتقداتهم، لأن نفى الآخر، ورفض الآخر، مما يتعارض مع الديمقراطية، فلكل مجتمع الحق في أن يعيش حسب قوانينه وشرائعه، والعلاقات الديمقراطية بين الدول تعني التعايش بين الثقافات المختلفة وليس فرض المعايير الغربية وحدها على العالم، وإدانة كل ما يخالف هذه الثقافة الغربية والحكم عليها بأنها متخلفة.

وفي تحليله لظاهرة الأصولية الإسلامية يرى المستشرق الروسى أنها تختلف من بلد لآخر بحسب التطور الاقتصادى والاجتماعى، ونتيجة لوجود فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء فى البلد الواحد، ووفقا لدرجة التطور الثقافى والاقتصادى الذى وصل إليه كل بلد. ومن أسباب التطرف التى لا يريد الأثرياء فى الدول الإسلامية الاعتراف بها، أن أموال الأغنياء فى العالم الإسلامى تستثمر فى الغرب وتسهم فى ازدهار الاقتصاد الغربى ورفاهية الشعوب الغربية، ولا توجه هذه الأموال للتنمية فى داخل الدول الإسلامية لرفع مستوى شعوبها وتحسين أحوالها..

أما التطرف فى العالم الإسلامى فإنه ينشأ وينمو- فى رأى المستشرق الروسى- لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية، والوسيلة الصحيحة للقضاء عليه هى إزالة هذه الأسباب.

المهم أن مدير مركز الدراسات الاستراتيجية ونائب مدير معهد الاستشراق فى روسيا فيتالى ناوومكين يبرئ الإسلام من الإرهاب، ويعلن نتائج أبحاثه هو وزملاؤه، وتتلخص هذه النتائج فى أن الإسلام لا يعارض التقدم والتحديث، ولا يرفض التكنولوجيا الحديثة، ولا يحرض على العنف إلا لرد الظلم، واستعادة الحق المغتصب، وفى غير ذلك فهو دين سلام ودعوته الأولى هى الأخوة بين البشر على أساس أنهم جميعا من أب واحد وخالقهم إله واحد.



مستشرق روسى آخر هو البروفيسور الكسندر سميرنوف المتخصص فى الدراسات الإسلامية ينصف الإسلام ويدافع عنه ضد الذين يتهمون به بأنه دين التعصب والعنف، فيقول: فى البداية لا يجوز الخلط بين الأصولية الإسلامية والتعصب أو التطرف، فالتعصب أو التطرف يؤدى إلى الإرهاب والعنف حتى ضد المسلمين أنفسهم، وتنتشر هذه الظاهرة فى البلاد الإسلامية التى استعمرها الغرب أو التى فرض عليها الطابع الغربى قسرا وشوه أصولها الروحية وثقافتها، وشوه اقتصادها أيضا، ومثال ذلك إيران، وفى العقود التى سبقت ثورة الخمينى كانت إيران خاضعة للزحف الثقافى للغرب ولنظام بوليسى قمعى، وتبعية كاملة للولايات المتحدة وخاصة فى عهد الشاه رضا بهلوى، وتسبب الفساد السياسى والاقتصادى فى تدهور مستويات المعيشة وتبديد عائدات البترول فى أوجه الإنفاق السفية للامبراطور وحكومته، وكل ذلك أوصل الأوضاع إلى الثورة التى قادها رجال الدين، وانشغل رجال الدين بتصدير هذه الثورة إلى بقية الدول الإسلامية، وصارت فلسطين المحتلة تحتل مكانة خاصة فى السياسة الإيرانية بعد الثورة، وفى فلسطين ظهر التطرف الإسلامى كرد فعل على الإذلال القومى.

وخلاصة نظرية المستشرق الروسى الكسندر سميرنوف أن الإسلام كدين لا يتضمن دعوة لكرهية أصحاب الديانات أو الشعوب الأخرى، ولكنه يدعو إلى رفض الظلم ومقابلة العنف بالعنف، فهو



يدعو لمسالمة من يسالم المسلمين، ومحاربة من يحاربهم: ﴿فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِمْ مِثْلَ مَا أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٤) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُواكُمْ وَلَقَدْ أَلْهَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠).. وهذا يدل على أن كثيرا من الغربيين لم يفهموا قانون الحرب في الإسلام ولا مفهوم الجهاد الإسلامي، فهما في الأساس دفاع ورد على الاعتداء، وليس في الإسلام تحريض للمسلمين على المبادرة إلى العدوان على الآخرين، وعلى ذلك فإن مشروعية الجهاد قائمة على الدفاع ورد العدوان وإزالة آثار العدوان ليس إلا.



ومن الواضح أن الدارسين للإسلام في الغرب انشغلوا بظاهرة الأصولية الإسلامية وعلاقتها بالتطرف والإرهاب، ومدى تعبيرها عن المفهوم الحقيقي للإسلام، فالمستشرق الفرنسي دومينيك شوفالييه الأستاذ بجامعة السوربون يؤكد أن قوة الإسلام تكمن في أنه يمتلك برنامجا أخلاقيا، وأن مصطلح الأصولية هو في الأصل مصطلح غربي مسيحي، والظاهرة الإسلامية التي تسمى أصولية لا تشبه الحركة الأصولية المسيحية، فالظاهرة الإسلامية تقدم نفسها على أنها دعوة إلى العودة إلى الأصول، وهي بذلك ليست جديدة، فهي في الفكر الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر، ويمكن اعتبار الشيخ محمد عبده ورشيد رضا من مؤسسي الأصولية، مع ضرورة الإشارة إلى الاختلاف بين معنى الأصولية الحقيقي ومعناها كما تقدم في الصحافة والإعلام في الغرب. فهي تقدم على أنها دعوة للجمود والتوقف عند الماضي، ورفض التجديد والتطور والتعامل مع الآخر بعدوانية.

الأصولية الإسلامية في رأى دومينيك شوفالييه لها أسباب ثقافية: هي الخوف من طمس الهوية الثقافية الإسلامية والدعوة إلى الحفاظ على هذه الهوية والتمسك بها. وبالإضافة إلى ذلك فهناك تحولات عالمية أثرت في المسلمين وطرحت عليهم سؤالا ملخصه: كيف يمكن للمسلمين والحضارة الإسلامية تحمل مسئولياتهما في هذا العالم الحديث بما يطرحه الدين الإسلامي من قضايا وضرورات جديدة؟.. والسؤال يتضمن التحدي الذي يواجه المسلمين: هل هم قادرون على التفاعل مع العالم والمشاركة فيه بفاعلية وبروح خلاقة دون أن يفقدوا هويتهم؟.. والصعوبة القائمة أن الاختراعات العلمية والتكنولوجيا ووسائل العلم الحديث تتضمن مؤثرات أخلاقية وتفرض القيم المتصلة بها، وهذا ما يجعل التيار الأصولي أمام تحديات يفرضها على سبيل المثال: التلفزيون، والسينما، والانترنت، والهندسة الوراثية، والاستنساخ، ونقل الأعضاء، وأطفال الأنبوب، واستئجار الأرحام، والقتل الرحيم، وعشرات المخترعات والقضايا والمشاكل التي تنتج عن التقدم العلمي والتكنولوجي في الغرب. وقد حقق الغرب الانسجام بين هذه المخترعات والقضايا والقيم

الأخلاقية والروحية المرتبطة بها، لكن ذلك لم يتحقق في العالم الإسلامي بعد، وهذا ما يؤدي إلى القلق والتردد وإلى الرفض من بعض علماء الدين الإسلامي لكل ما يأتي من الغرب. لكن هذه المخترعات تفرض نفسها بعد ذلك، ويؤدي ذلك إلى وجود تناقضات تدفع فريقاً من المسلمين إلى التقوقع والتراجع والانسحاب فتظهر الدعوة إلى الهجرة في الزمان والمكان، وتظهر الدعوة إلى العودة إلى صور الحياة الأولى التي كان عليها المسلمون في السابق.

والإسلام - كما يقول البروفيسور دومينيك شوفالييه - دين قائم على الدعوة إلى الخير والعدل والتعايش مع الآخرين وتبادل المنافع معهم، ولا يظهر المتطرفون الإسلاميون إلا في مواجهة اعتداءات على المسلمين الفلسطينيين أو الأفغان أو الشيشان، وهكذا..

وفي نفس الوقت فإن الشعوب الإسلامية تدين الأعمال الإرهابية وترفض العنف وسفك الدماء. ويجب أن ننترف بأن الأصولية ليست في الإسلام وحده، وكذلك التطرف والعنف والإرهاب، فهذه الظواهر نجدها بين المسيحيين واليهود وغيرها، مع فارق جوهري هو أن المسيحية دين وليست دولة، فقد ولدت المسيحية في فلسطين من خلال مجموعة صغيرة حول المسيح - عليه السلام -، وكانت فلسطين مقاطعة صغيرة في الامبراطورية الرومانية، وبعد المسيح - عليه السلام - جاء القديس بولس وكان يعلن أنه مواطن روماني ولم تكن لديه فكرة التحول إلى دولة، وقد استمرت الامبراطورية الرومانية ثلاثة قرون تحولت الكنيسة خلالها إلى قوة إلى جانب الدولة، وتحالفت الكنيسة والدولة في عهد الامبراطور الروماني قسطنطين، ولكن كانت هناك دائماً مسافة بين الدولة والكنيسة ولم تظهر دولة دينية مسيحية. وفي الإسلام الأمر مختلف. فقد أسس الإسلام دولة في المدينة، ولم تكن فيها دولة قبل هجرة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، إذ كانت كل قبيلة وحدة سياسية واقتصادية واجتماعية وكأنها دولة مستقلة لها قوانينها وحاكمها، وعندما أسس النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - دولة في المدينة كانت له فيها سلطة سياسية كاملة إلى جانب السلطة الروحية دون تمييز بينهما، وكان هو القائد السياسي والعسكري والروحي الذي يقدم الحلول للمشاكل من كل نوع، ثم اختلف الوضع فيما بعد حين اتسعت الدولة وتعددت فيها الوظائف والمسؤوليات، وظهر فيها التخصص. وقدم الاجتهاد حلولاً جديدة للمشاكل الجديدة، وبالتالي ظهرت قوانين جديدة، وسار المسلمون على طريق الانتقال من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة بالمفهوم الحديث، وأصبحت لهذه الدولة علاقات بالدول الأخرى، ونشأت تحالفات وعداوات ليس للعقيدة الدينية دخل فيها، ولكن هناك فئة ظل يداعب خيالها حلم إعادة مجتمع المدينة - وهؤلاء هم الذين نسميهم أصوليين وأمثالهم موجودون في كل المجتمعات - حلم العودة إلى الماضي البسيط الجميل.. وهو حلم جميل، لكن تحقيقه مستحيل في عالم مختلف في كل شيء عن العالم القديم، ومن المستحيل إعادة العالم كله إلى القرون الماضية، وكذلك من المستحيل

فصل المجتمع الإسلامي عن العالم بحيث يتقدم العالم نحو الأمام ويعود المجتمع الإسلامي وحده إلى الوراء ليحقق حلمه السعيد.

هذه هي رؤية الباحث الفرنسي البروفيسور دومينيك شوفالييه الأستاذ بجامعة السوربون.



والبروفيسور (بيار تيبه) الأستاذ بجامعة باريس الأولى له دراسات أيضا عن الأصولية الإسلامية يتفق فيها مع من سبقوه في أن من أسباب ظهورها ما تعرض له المسلمون من اعتداء ونهب في فترة الاستعمار الغربي. وفي هذه الفترة شهدت المجتمعات الإسلامية تحولا عميقا في العادات والأخلاق، فتغيرت الملابس والمساكن وحتى عادات الطعام وآداب المائدة، وهذا يعني أن تحولا قد طرأ على الثقافة والحضارة الإسلامية بالتزاوج مع الثقافة والحضارة الغربية، ولم تشتد الدعوة إلى الأصولية إلا بعد الثورة الإيرانية. لكن قيام الدولة الإسلامية في إيران لم يحقق الحلم بالقضاء على الفقر وتحقيق المساواة والرخاء والسلام، وكل حاكم ظهر بالدعوة إلى إقامة حكم إسلامي تحول إلى دكتاتور واستغل الإسلام ليحكم قبضته على الحكم ويعتبر الراضين له خارجين على الإسلام ويحكم عليهم بالكفر.

ويقول البروفيسور (بيار تيبه): إن هناك قوى في الغرب تعمل على إثارة الخوف من المسلمين الغربيين وتدعى أنهم خطر على الغرب، وهذه هي دعوة الأحزاب المتطرفة في فرنسا ودول أوروبا الأخرى، مع أن هؤلاء المسلمين الغربيين لا يمكن أن تكون لهم مقدرة على إقامة دولة داخل الدولة.. ودول أوروبا دول علمانية تفصل بين الدين والعمل السياسي، وعلى ذلك فإن الأصوليين يمكنهم أن يمارسوا معتقداتهم الدينية، ولن يكون في مقدورهم تحويل هذه المعتقدات الدينية إلى عمل سياسي، وبالتالي فإن وجودهم لا يمثل خطرا على الدولة والمجتمع، والخطر فقط في سعي بعض الدول الأصولية الخارجية إلى تغذية الإرهاب، كما حدث في انفجارات سبتمبر ١٩٨٦ في فرنسا، وكما حدث في عمليات خطف الطائرات.

وعلى ذلك يحذر البروفيسور (بيار تيبه) من أن تتخذ دول الغرب مواقف من الإسلام قائمة على الخوف، وفي رأيه أن الإسلام دين لا يتعارض مع العلمانية، ولا يعادي الأديان الأخرى. وفي ظل دولة علمانية مثل فرنسا يمكن أن تتعايش كل الأديان دون مشاكل، وإن كانت الأصولية ترفض حرية الفكر وتفرض على أنصارها قوالب فكرية جاهزة، وتحظر عليهم ممارسة التفكير النقدي وهو جوهر التقدم في المجتمع وفي الفكر وفي العلوم، فالتقدم مرتبط بالفكر النقدي الحر الذي لا يخضع لشروط مسبقة. ولعل أخطر ما في الحركة الأصولية هو الجمود، وهو جمود غير مبرر في الإسلام. ولكن الأصوليين لا يدركون الفرق بين حقيقة الإيمان والحقيقة العلمية، أي الفرق بين

نتاج العقل ونتاج النقل، كما يقول علماء الدين الإسلامي، فالأصوليون لا يدركون الفرق بين هاتين الحقيقتين، وأنه لا تعارض بينهما وفي نفس الوقت يجب عدم الخلط بينهما ولو أدركوا الفرق بين هاتين الحقيقتين لزال التناقض الذي يولد الفجوة مع الغرب ويؤدي إلى الجمود والتعصب والتطرف وكل أشكال الخروج على طبيعة الإسلام.

هكذا يعلن هؤلاء المستشرقون تبرئة الإسلام من تهمة الجمود، كما أعلنوا من قبل تبرئته من تهمة الإرهاب.



ويؤكد هذا المعنى أيضا المستشرق الفرنسي (بيار دندره) الذي أعلن في أحاديثه الصحفية وأبحاثه أن الإسلام لا يمثل خطرا على العالم، كما يروج البعض، وأن التطرف في جميع الديانات - وليس في الإسلام وحده - هو الخطر، والأديان في جوهرها دعوة لالتقاء البشرية تقودهم إلى التفاهم وليس إلى الاقتتال، فلا يعقل أن يبعث الله رسله ليقودوا البشر إلى الحروب بسبب اختلاف عقائدهم الدينية وعلى الرغم من اتفاقهم على عبادة إله واحد. وإذا كان الغرب يحارب التطرف الإسلامي فإن عليه أن يحارب التطرف المسيحي والتطرف اليهودي والتطرف في جميع الديانات الأخرى غير السماوية وفي جميع المجتمعات في العالم.

ويقدم (بيار دندره) في أبحاثه الأدلة على أن أوروبا استفادت كثيرا من علوم وآداب وثقافة المسلمين، وذلك في كتبه ومنها (الإسلام والمسلمون اليوم) و(الشرق الأدنى)، وكذلك في أبحاثه التي يجريها في المعهد الفرنسي للدراسات العربية والمحاضرات التي يلقيها في الجامعات الفرنسية، ويتصدى فيها لحمولات الإساءة إلى الإسلام في فرنسا وبخاصة في الأوساط الأكاديمية وبين المثقفين.



وفي بولندا كانت (يوانا فرونتسكا) من المدافعين عن الإسلام تطوعا منها للدفاع عن هذا الدين الذي رأت أنه يتعرض لحملة ظالمة وتُلق له اتهامات لا أساس لها من الصحة، و(يوانا فرونتسكا) حاصلة على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، وكانت رسالتها للدكتوراه عن التصوف الإسلامي عن محيي الدين بن عربي الفيلسوف الصوفي الكبير، وقد أصبحت سفيرة لبلادها في القاهرة وتحدثت كثيرا عن تقديرها للإسلام كعقيدة ومنهج حياة، وقالت: إنها كباحثة وسفيرة درست الإسلام وقضاياها المادية والروحية وأنها تحترم هذا الدين على رغم أنها لم تعتنق الإسلام، لكنها عاشت سنوات طويلة في دراسة اللغة العربية ودقائقها، وتخصصت في الفكر الديني في الإسلام والحضارة الإسلامية، وارتبطت بالتصوف الإسلامي وبخاصة ابن عربي، والغزالي، وابن الفارض،

ورابعة العدوية، وقد اكتشفت بعد هذه السنوات من الدراسة أن بين الأديان السماوية نقاطا مشتركة حول المبادئ الروحية والأخلاقية والقيم العليا.

وقالت أيضا: إنها بدأت بدراسة اللغة العربية بجامعة وارسو، وبعد ذلك وجدت نفسها تنجذب لدراسة العقيدة والفلسفة الإسلامية، والتصوف والأدب العربى، ووجدت فى ذلك عمقا كبيرا، وكلما تقدمت فى دراستها وجدت نفسها تتقدم نحو دفعات روحانية تصل بينها وبين الله فى مراحل فكرية وروحانية، واكتشفت فى التصوف الإسلامى نموذجا رفيعا للشفافية والتسامى.

وفى حوار لها مع الأستاذ محمد حسين أبو العلا قالت: إن ابن عربى كان يمثل بالنسبة لها اكتشافا رائعا كرست له حياتها لتفهم فكرته المحورية عن وحدة الوجود وهى فكرة صعبة للغاية، وإننى احترم وأقدر أفكاره وأشعر بتجاذب هائل مع فكره، أما بالنسبة للإمام أبى حامد الغزالى فإن أعظم كتبه كتابان هما: (إحياء علوم الدين) لأنه استخدم فيه مبدأ الاجتهاد القائم على الرؤية النقدية وكتابه (مشكاة الأنوار)، لأنه يتميز بجاذبية خاصة فى تفسيراته لمعانى الإشراق الإلهى حين يعرض لشرح آية النور فى سورة النور، وقد قمت بترجمة هذا الكتاب.

وتحدثت السفيرة البولندية المستشرقة (يؤانا فرونتسكا) عن المد الإسلامى فى أوروبا عموما وبولندا خصوصا فقالت: إن هذه ظاهرة ملحوظة، وبولندا نموذج طيب للمد الإسلامى وفيها أعداد هائلة من المسلمين، وبعضهم حاز شهرة واسعة فى الثقافة والإعلام وهذا ملحوظ فى كثير من دول أوروبا مما فتح الباب لحوار مفتوح ومتصل فى أوروبا عن الإسلام.

ومن بولندا إلى بلجيكا حيث الهجوم على الإسلام والدفاع عنه فى ساحة واحدة، وحيث يعيش ربع مليون مسلم ومع ذلك لم يتم الاعتراف بالإسلام والمسلمين. ومنذ فترة قصيرة سمحت الحكومة البلجيكية بتشكيل لجنة لتمثيل المسلمين لدى الحكومة تقتصر مهمتها فيما يتعلق بتدريس الدين الإسلامى لأبناء المسلمين فى المدارس البلجيكية وزيارة المسلمين فى السجون والمستشفيات، كما أنشئ مركز ثقافى إسلامى فى مسجد قديم فى بروكسل يشرف عليه الدكتور (فندن بروك) ويقوم بتوزيع ترجمات معانى القرآن على المساجد وعلى المسلمين باللغات الأوروبية وخاصة الفرنسية والإنجليزية، وأسس معهدا للعلوم الإسلامية بمساعدة الأزهر ورابطة العالم الإسلامى، كما نظم انتخابات بين المسلمين لتكوين المجلس الأعلى للمسلمين لم تعترف به الحكومة.

وقد بدأ تدريس الدين الإسلامى لأبناء المسلمين فى بلجيكا منذ عام ١٩٧٦ بشكل غير رسمى، وأخيرا شكلت الحكومة لجنة من ١٧ عضوا للمشاركة فى إعداد المناهج والمدرسين لتدريس الدين الإسلامى، ووافقت على أن تُخصَّص ساعتان فى الأسبوع لهذا المنهج، وتعتبر هذه خطوة نحو الاعتراف الرسمى بالإسلام فى بلجيكا.

وفي رأى الدكتور (فندن بروك) أن الوحدة الأوروبية سوف تلعب دوراً في تحقيق التقارب بين المسلمين في أوروبا كلها، وسوف يكون ذلك دعماً لوضع المسلمين في المجتمع الأوروبي يساعد على وقف تيار الكراهية والإساءة إلى الإسلام، وإن كانت المشكلة - في رأيه - أن معظم المسلمين في أوروبا جاءوا عمالاً وليس لديهم ثقافة دينية كاملة ولا يعرفون البلاد التي يقيمون فيها ولا يتفاعلون مع المجتمعات الأوروبية، ولا يتقنون لغاتها، وهذا ما يجعل المسلمين حتى الآن مجرد تجمعات من المهاجرين الغرباء في بعض الدول الأوروبية، وتزداد مشكلة جهل معظم المسلمين بالإسلام في أوروبا لدى أبناء الجيل الثانى والجيل الثالث، فهؤلاء الأبناء يتعاملون مع لغاتهم الأصلية وثقافتهم الدينية، كما لو كانوا أجانب، وهذا عامل مهم يزيد من صعوبة تحسين صورة الإسلام، وإن كان المسلمون قد نشطوا في إقامة المساجد إلا أن ذلك وحده لا يكفي.

وينتقد (فندن بروك) المستشرقين، ولكنهم - في رأيه - أفضل من الذين يكتبون عن الإسلام في الصحف الغربية، فالمستشرقون - على الأقل - درسوا الإسلام، ومنهم من يكره الإسلام ويكتب ضده بنظرة متحيزة، كما أن منهم من يدرسه بمنهج علمي محايد وموضوعي، ومنهم من اعتنق الإسلام، ومنهم بقى على دينه ولم يطعن في الإسلام، وعموماً فإن النظرة إلى الإسلام في الغرب تحسنت عما كانت عليه منذ قرن، وكثير من الغربيين يدخلون في الإسلام ولم يكن ذلك شائعاً من قبل، كما هو الآن، وخصوصاً في ظل ما يسمى (موت الأيديولوجيات)، فالغربيون في عمومهم تخلوا عن الأيديولوجيات وبحثوا عن الحلول العملية لمشاكلهم الاجتماعية والحياتية، وهذا ما يجعل للإسلام جاذبية خاصة لأنه يقدم لهم الحلول التي يبحثون عنها.



يتفق المدافعون عن الإسلام في الغرب بأن مهمتهم تواجّه دائماً بحملات هجوم تستغل العمليات الإرهابية، وغياب الديمقراطية في الدول الإسلامية، وإعلان بعض علماء المسلمين بأن الإسلام يتعارض مع الديمقراطية، كما تستغل أوضاع المرأة المتدنية في بعض المجتمعات الإسلامية.

ففى معسكر المدافعين عن الإسلام نجد كاتباً مثل دينس ماكثين الذى كتب مقالا فى صحيفة الباييس الأسبانية بعنوان (تحدى الديمقراطية الإسلامية) قال فيه: (إن عام ١٤٩٢ كان عام ظلام فى أوروبا، لأنه العام الذى قامت فيه الحكومة الملكية الأسبانية بطرد المسلمين واليهود من وسط أوروبا باسم الدين المسيحى، وكانت هذه قمة الأصولية الدينية، ومع ذلك فقد عاش اليهود فى سراييفو وسالونيكيا متمتعين بالأمن والحرية تحت الحكم الإسلامى، والآن تسنح لأوروبا الفرصة لتصحيح أخطائها التاريخية، وذلك بالاعتراف بأهمية الميراث الإسلامى فى حضارة أوروبا، ولقد تمثلت إبداعات أوروبا الكبرى فى القرن العشرين فى تحول الأحزاب الدينية الرجعية التى

تحكمت في الفكر المحافظ قبل عام ١٩٣٩ لتحل محلها الأحزاب الديمقراطية المسيحية التي استطاعت التوفيق بين المعتقدات الدينية والسياسة العلمانية الديمقراطية. وسيكون إنجازا كبيرا إذا استطاع المسلمون التوصل إلى هذه المعادلة التوفيقية وليس في الإسلام ما يحول دون ذلك، وليس في الإسلام ما يحول دون ذلك - كما يقول دينيس ماكثين - إذا نجحت الدول الإسلامية في نظم حكم ديمقراطية في إطار إسلامي تلبى حاجة الناس إلى هوية دينية وتضع ذلك في إطار الحقوق الديمقراطية، والمشكلة أن بعض الغربيين يطالبون المسلمين بإقامة نظم ديمقراطية على النموذج الغربي، ويجب ألا ننسى دعوة الزعيم الفرنسي شارل ديغول لأوروبا بأن تعترف بذنبها نحو الإسلام واليهودية وهما ينتميان إلى إبراهيم أبو الأنبياء - عليه السلام -، ويجب أن تدرك أوروبا أنها لم تعد كيانا دينيا واحدا، ففيها ملايين يعتنقون ديانات أخرى غير المسيحية، وهذا ما يجعل الحرية الدينية وحرية العبادات أمرا لا مفر منه، وفي نفس الوقت فإن على أوروبا أن تتصدى لتيار الكراهية للإسلام الذي يغذى سياسات الرفض لكل ما هو أجنبي التي تظهر في الحركات الراديكالية بين الشباب وفي الأحزاب العنصرية التي تجد أنصارا كثيرين، بينما تقضى الحكمة والواقعية أن تعمل أوروبا على إدماج المسلمين في الحياة السياسية والنسيج الاجتماعي).



وتتزايد الأصوات المدافعة كلما تزايدت حملة الكراهية على الإسلام وعلى سبيل المثال فإن كاتباً بريطانيا مرموقاً هو فيليب فيرناندو كتب مقالا في صحيفة الصناداي تايمز بعنوان (الإسلام صديق لأبد من الاحتفاظ بصدقاته) انتقد فيه الصحافة الغربية التي صدرت في اليوم التالي للهجوم على مركز التجارة العالمي في نيويورك بعناوين مؤداها أن هذا الهجوم حرب على الغرب، وأن الذين شنوا هذه الحرب ينتمون إلى حضارة معادية! واعتبر بعض الكتاب والسياسيين في الغرب أن هذا الهجوم تعبير عن حرب عالمية ثقافية جديدة يقف فيها الإسلام ضد الغرب، وأن صدام الحضارات حل محل صدام الأيديولوجيات، وقال البعض: إن هذا الهجوم حرب يريد المتعصبون بها إرغام الغرب على الإيمان بمهاتراتهم ودعواهم الدينية التي يستخدمونها كقناع يحجب أعمالهم الوحشية، ويغوى مريديهم بالقيام بالزيد من الهجمات الانتحارية، بينما الحقيقة أن كراهية الإرهابيين لأمريكا لا علاقة لها بالدين، والحرب التي يشنونها ليست حربا دينية بأى معيار، وكل الدول والشعوب الإسلامية تقريبا استنكرت هذه الأعمال الوحشية وأدانت مرتكبيها، ولو ألقينا اللوم على الإسلام فسوف نخسر ود المسلمين، ولو ضيقنا عليهم الخناق ووضعناهم في وضع معاد فسوف ينقلب أصدقاؤنا المحتملون إلى أعداء ويصبحون مصدر خطر علينا، فإن حرب الحضارات لا وجود لها إلا إذا أعلنها الغرب.

ويرى فيليب فيرناندو أن المؤرخين يبالغون فى أثر الحروب الدينية بين المسلمين والمسيحيين وبخاصة الحروب الصليبية، ويرى أنها لم تكن فى حقيقتها حروبا دينية، ولم تكن بسبب الصراع على العقائد، ولكنها كانت لأسباب اقتصادية وسياسية.. وكانت حربا استعمارية استخدمت الدين وسيلة للشحن العاطفى وإثارة المشاعر فى الغرب لتأييدها، ولم تكن الحروب فى ذلك العصر بين المسيحيين والمسلمين فقط.. بل كانت أكثر الحروب داخل العالم المسيحى.

ويبدى فيليب فيرناندو دهشته للتركيز المبالغ فيه على الصراعات بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى والإغفال المتعمد عن نماذج التعايش المسيحى الإسلامى الذى كان فى الدولة الإسلامية فى دمشق وبغداد وقرطبة، وكذلك الإغفال المتعمد لفضل الحضارة والعلوم الإسلامية على النهضة الأوروبية، وأيضا الإغفال المتعمد لنموذج التعايش بين المسلمين والمسيحيين فى إطار هوية وطنية واحدة، وحقوق متساوية كما فى مصر، وإذا كانت الدول الإسلامية لم تصل إلى الدرجة المأمولة فى نموها الاقتصادى، والديمقراطى وتطورها الثقافى والاجتماعى، فإن لذلك أسبابا يرجع معظمها إلى الاستعمار الغربى، وفى نفس الوقت يجب ألا نغفل أن معظم الدول الأوروبية مرت بهذه المرحلة حتى وقت قريب.

ويمضى فيليب فيرناندو خطوة أوسع فيقول: إن الإسلام يسهم اليوم فى الحضارة الغربية كما فعلت المسيحية من قبل، فقد كانت المسيحية عقيدة تعتنقها الأقلية من ذوى الأصول الشرقية، مع تزايد المهاجرين فى الامبراطورية الرومانية، واليوم تشارك أعداد من المسلمين فى المجتمعات الغربية ولهم إسهاماتهم فى تقدم الغرب وعلى الرغم من أنهم يمثلون أقلية إلا أن تأثيرهم واضح ومتزايد.

ويلعل فيرناندو رأيه بأن الحضارة الغربية تستوعب الآن ديانات غير سماوية مثل البوذية والهندوسية وهى تنمو نموا سريعا فى الغرب، ويقال إن بريطانيا فيها من كهنة الهندوس أعداد تقارب أعداد الكهنة الإنجلييين، فلماذا لا يتسع المجتمع الأوروبى للمسلمين وأنتمهم؟.. وما دام المسلمون فى الغرب ملتزمين بالتعايش والتفاعل مع المجتمع المدنى الأوروبى، وبالقانون الأوروبى، وبالتسامح مع أصحاب الديانات الأخرى، وبممارسة الديمقراطية فكيف يقال إن وجودهم فى الغرب خطر على الحضارة الغربية؟.. إن الانذار عن الخطر الإسلامى انذار كاذب!



## كيف يبدو الإسلام في بلاد المسلمين؟

البروفيسور (بروس.ب. لورانس Bruce B. Lawrence) رئيس قسم الديانات في جامعة دوك الأمريكية له كتاب مشهور عنوانه (الإسلام بعيد عن العنف Islam Beyond Violence) دافع فيه عن الإسلام الذي يدعى كثير من الكتاب في الغرب أنه دين يدعو المؤمنين به إلى التطرف، والعنف، والعدوان على المخالفين له في العقيدة. ويناقش لورانس أقوال المستشرقين حول مفهوم الجهاد في الإسلام وادعائهم بأنه يعنى الحرب ضد (الآخر). ويستشهد بعبارة من كتاب الزعيم البوسني على عزت بيجوفيتش (الإسلام بين الشرق والغرب) يقول فيها: (إن الجهاد هو نضال المسلمين من أجل العدالة الاجتماعية والسلام، وإن الهدف الأسمى لكل مسلم هو الاستسلام والخضوع لله).

ويصل بروس لورانس في بحثه إلى أن الإسلام دين الوسطية والدليل على ذلك أنه يتعرض للهجوم من المتطرفين من الاتجاهين المتعارضين: اتجاه المتطرفين في الديانات الأخرى، واتجاه المتطرفين في المادية. بينما يؤمن الإسلام بالمادة والروح، ويدعو إلى السعي للدنيا وللآخرة معا، ويرفض الانغماس في طرف دون الآخر. ومن هنا فإن الإنسان المسلم يعيش على الأرض بقدميه، ويخلق بروحه في السماء.

وملخص نظرية (بروس لورانس) أن آخر التشوه الذي أصاب المجتمعات الإسلامية بلغ قمته في القرن الثامن عشر وما بعده بالغزوات الاستعمارية. وكان من نتائج ذلك تشويه التطور الاقتصادي، وإخضاع العالم الإسلامي للأطماع التجارية للغرب، وظهور الطبقات البيروقراطية العليا التي تحالفت مع المصالح الاستعمارية، وطمس الهوية الوطنية، وعانى المسلمون من العنف المنظم ضدهم وأصبحوا ضحايا الهيمنة السياسية والاقتصادية. ومع ذلك فإنه مما يحسب للإسلام أنه على الرغم من كل هذه الضغوط ظل محتفظا بالقيم والمعتقدات كما جاءت في القرآن والسنة، وظل حيا وقادرا على مسيرة التطورات العالمية، ولم يتجمد أو يتخلف. وقد شهد القرن التاسع عشر والقرن العشرون

تحديات واجهت الإسلام والمسلمين. فقد كان التحدى الخارجى هو الاستعمار والسيطرة والأطماع الغربية، وتمثل التحدى الداخلى فى الدعوة إلى العودة للحياة فى الماضى والتنكر لكل ما استجد فى الحياة المعاصرة. وأخيرا ظهر تيار السلفية، كما ظهرت الحركات الإصلاحية للنخبة. وفى كل هذه الأحوال عاشت المجتمعات الإسلامية فى معارك من أجل الاستقلال والتحرر من التبعية، ومعارك أخرى مع التيارات المتشددة التى سببت التوترات والأزمات التى تعاني منها المجتمعات الإسلامية اليوم.



ويكرر بروس لورانس كثيرا أن الصورة النمطية عن الإسلام فى الغرب ظالمة، فالصور النمطية Stereo Types السائدة عن الإسلام أنه دين عنف، وأن العنف هو الطبيعة الأساسية للمسلمين، ويقول: إن هذه الأفكار وغيرها من الأوصاف المبتذلة لا تعتمد على دراسة موضوعية منصفة للإسلام والمسلمين ولكنها مدفوعة بمشاعر العداوة ومعبرة عن المصالح الغربية. وأهم من ذلك أنها تغفل حقيقة مهمة، وهى أن المسلمين ليسوا مجتمعا واحدا، وأن هناك مجتمعات إسلامية لكل منها تاريخ وثقافة وميراث حضارى خاص بها، ومن الطبيعى أن يتأثر مفهوم الإسلام فى كل مجتمع بهذه العوامل، وهذا أمر طبيعى، فكما أن فى أوروبا مجتمعات متعددة بينها عوامل تجمعها وعوامل تجعل لكل مجتمع أوروبى خصوصية، فإن ذلك ينطبق أيضا على ما نسميه العالم الإسلامى. هناك عوامل تجمع هذا العالم فى إطار روحى واحد، وهناك اختلافات فى اللغة والثقافة والأصول العرقية داخل هذا العالم الواحد. فالإسلام فى الدول العربية ليس صورة طبق الأصل للإسلام فى آسيا وأفريقيا.. وحتى فى داخل هذه الكتل هناك أيضا اختلافات، وعلى ذلك يخطئ الباحثون عندما يتحدثون عن المسلمين كأنهم كيان واحد ويحكمون على الإسلام بما يلاحظونه فى مجتمع إسلامى واحد، فهذا التعميم غير علمى وغير واقعى، وهو السبب الأول فى وصول معظم المتحدثين عن الإسلام فى الغرب إلى نتائج خاطئة أو منحرفة أو مضللة.

ويروى بروس لورانس أن صديقا أندونيسيا قال له ذات مرة إن هناك ثلاثة إسلامات وليس إسلاما واحدا. هناك الإسلام الشعبى الذى يحب علماء الأنثروبولوجيا دراسته، ومعظمهم متفرجون فضوليون، وهناك الإسلام العام الذى يعرفه علماء السياسة وصناع القرارات والصحفيون، وهم غالبا من الخصوم. وهناك الإسلام الأكاديمى الذى يستمتع المستشرقون بالحديث عنه. والساسة الغربيون يكرهون الإسلام ويرون أنه عدو لهم لأنه فى الحقيقة عدو لأطماعهم، ولذلك يتحدثون عن الإسلام المتشدد، وغير المرن، ويتحدثون عن العنف والعدوانية فى الإسلام، وهم فى الحقيقة يتحدثون عن كراهيتهم للمقاومة التى يبديها المسلمون للأطماع الغربية. ولكن فى الغرب من يوجهون هذا الاتهام إلى الإسلام.. ومن أمثلة هؤلاء أستاذ الديانات الأمريكى (روبرت مورى) الذى ألف كتابا بعنوان

(الاجتياح الإسلامي-مواجهة مع أسرع الديانات انتشاراً) يدور حول فكرة واحدة هي أن الإسلام دعوة توسعية إمبريالية كما حدث في القرن السابع الميلادي عندما زحفت الجيوش الإسلامية من الجزيرة العربية للسيطرة على مناطق واسعة في آسيا وأفريقيا وأوروبا. ويعلق البروفيسور بروس لورانس على هذا الطرح بأنه ساذج وعدائي وملئ بالتشويهات، ومع ذلك فإن هذا الكتاب يدرس حتى اليوم في مناهج التعليم الديني في بعض الكليات الأمريكية. كما يشير لورانس إلى مقال في صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية يعتبره نموذجاً لتوجهات الصحافة الأمريكية، والمقال بعنوان (رؤية الأخضر) وفي مقدمته: (ذهب الخطر الأحمر الشيوعي ولكن مازال هناك الإسلام). وهكذا يردد الإعلام الأمريكي أن الإسلام واحد، وأنه خطير، وكل مسلم إرهابي محتمل يتربص بأمريكا. ويقول لورانس: يبدو أن صورة صلاح الدين الأيوبي المقاتل العنيد الذي هزم الصليبيين ماثلة دائماً في العقل الغربي، ويصاحبها تخوف من أن يكون له أشباه كثيرون في الوقت الراهن. ويعتقد الأمريكيون أن النساء المسلمات يتعرضن لقمع الرجال المسلمين المستبدين، ولا تظهر في الإعلام الصورة الحقيقية للمرأة المسلمة المشاركة في الحياة العامة. وهكذا تتلخص فكرة معظم الأمريكيين في أن المسلمين يكرهون الغرب ويسئون معاملة المرأة.

فالإسلام -كما يراه كثير من الغربيين- دين يحابي الذكور ويجعل للرجل مكانة أعلى من مكانة المرأة في الحياة، وفي البيت، وفي المجتمع. وتضاف هذه الصفة إلى الصفات الأخرى: العنف، والعدوان. ويركز الغربيون على نماذج من قيادات الجماعات المتشددة أو الجماعات الإرهابية، ولا يتوقفون أمام نماذج للمسلمين المعتدلين. مثل على عزت بيجوفيتش، فهو مسلم أوروبى شرقى من البوسنة، وهو مفكر تحول إلى مناضل من أجل حرية بلاده، وهو ليس عربياً، ولا آسيوياً ولا أفريقياً، وإنما هو أوروبى بالكامل، وهذا يهدم صورة الإسلام السائدة في الغرب بأنه دين أفريقى وآسيوى وعربى، وأن المسيحية دين أوروبى-أمريكى. والحقيقة التي يكشفها بيغوفيتش أن هناك إسلاماً أوروبياً. وأن الإسلام موجود في أوروبا كما هو موجود في جميع القارات، وهو ينظر إلى العنف باعتباره الحل الأخير لمواجهة اعتداءات الآخرين على المسلمين، وهو يدعو إلى العنف الدفاعي وليس الهجومي، وهو يؤمن بضرورة وجود نظام تعددي في المجتمع الإسلامي، وبضرورة التعاون مع سائر الدول.. وبالإضافة إلى ذلك فإن بيغوفيتش الذي درس القانون واشتغل بالمحاماه متعمق في دراسة الآداب الفرنسية، والتاريخ البريطانى، والأدب الروسى، ويستشهد بفرويد، وماركس وانجلز، وبودلير، فهو مثقف أوروبى من طراز رفيع ومسلم عصرى، ولكنه ظل طويلاً يعاني من الضغوط والعداوات، لأنه أعلن الحقيقة وهي أن الإسلام واقع تحت الهجوم، ويتعرض للتشويه إلى حد تصويره على أنه (دين الشيطان). ووجهة نظره أن العنف في العالم الإسلامى ليس نابعا من الإسلام ولكنه نابع من القهر والاضطهاد من

جانب الغرب. وهو يحاول إعادة دور المثقفين المسلمين في رسم الخريطة المستقبلية للأنظمة السياسية في العالم الإسلامي.



ويرفض بروس لورانس (الموضة) السائدة في الغرب بالحديث عن (نهاية التاريخ) وهذا هو الشعار المضلل الذي اخترعه فرنسيس فوكوياما أو الحديث عن (صراع الحضارات) وهو الشعار الذي اخترعه صموئيل هنتنجتون لعملية الصراع التي تهدف إلى الإقرار بانتصار الغرب بعد انتهاء الحرب الباردة والقول بأنها كانت نهاية التاريخ المعاصر. ومثل هذه النظريات هي وسيلة القوى الغربية الاستعمارية لفرض نفوذها، وتسخير الدين لخدمة الأيديولوجية..

ويقول بروس لورانس: إنني أدرس الإسلام وأنا أنجلو ساكسوني، تعود جذوري إلى أوروبا، لكنني مولود في أمريكا، ونشأت غير مسلم، وماتت غير مسلم، ولكن بعد دراستي للغة العربية وتاريخ الشرق الأوسط أصبحت منجذبا بعمق إلى الإسلام كقوة حية، هذه القوة التي تبعث الحياة في مسلمين كثيرين عشت وعملت معهم، وأعتبرهم من أقرب أصدقائي، وأرى أن على مفكرى الغرب أن يعيدوا التفكير في معتقداتهم السابقة الدينية والسياسية والاجتماعية التي أثرت على فهمهم للإسلام، واتباع منهج علمي محايد لدراسة الفكر الإسلامي والمجتمعات الإسلامية.



ومعظم المفكرين الغربيين يربطون بين الدين الإسلامي والقومية ويرون أنها شيء واحد، بينما ينظر الإسلام إلى القومية على أنها حقيقة منفصلة عن الدين، ولذلك عاشت قوميات متعددة في ظل الإسلام دون وجود تناقض بينها أو محاولة لطمس الشخصية القومية لشعب من الشعوب الإسلامية، والدين الإسلامي - كما قال بيجوفيتش - وسيلة لإصلاح الحياة العامة وضبط العقل والجسد والسلوك، وتكامل الإنسان.. فالإسلام ينظم الحياة الداخلية والخارجية للإنسان المسلم، ويوحد بين العقيدة والإيمان والسلوك الإنساني، ويكفي أن نعرف الدور التاريخي للمسجد في المجتمع الإسلامي، فقد كان دائما مكانا للعبادة، ومدرسة للتعليم وساحة للاجتماع وبحث شؤون المسلمين، وهو ملجأ المظلومين طلبا للعدالة، ولذلك كان القاضي يتخذ المسجد مكانا للفصل بين المتخاصمين. ولأن الإسلام دين العدل فهو أيضا دين القوة، لأن العدالة لا يمكن تحقيقها إلا بوجود قوة تفرضها وتعيد الحق للمظلومين.

ويشير بروس لورانس إلى موقف بعض المفكرين المسلمين تجاه الغرب وهو موقف يتسم بالندية، وليس فيه شعور بالنقص أو بالخل أمام الحضارة الغربية، وهؤلاء يرون أن الإسلام ليس مجرد عبادات، ولكنه حياة كاملة.. والحياة في الإسلام كما يرونها هي حياة عمل وإبداع وعلم وسعى

إلى إحراز التقدم في السباق العالمى، وهؤلاء يرون أن الإسلام دعوة للتوافق والتعاون مع المختلفين معه، وليس تحريضا على التصادم معهم، وأن الإسلام يرفض كل أشكال العبودية.. عبودية الدول.. وعبودية الأفراد والطبقات.. وعبودية الرجال والنساء.. بينما النظم الغربية قائمة على النمط القديم للعبودية فى صورة جديدة.

كما يشير بروس لورانس إلى المصالح الاقتصادية للغرب فى الدول الإسلامية والتي تمثل سببا من أهم أسباب الصراع، فالقوى الرأسمالية فى الغرب تسعى إلى تغيير العالم الإسلامى، وتغيير الإسلام ذاته، وتفكيك النظام الإسلامى، كما فعلت بتفكيك الإمبراطورية العثمانية، وذلك لفتح الأسواق أمام المنتجات الغربية، والسيطرة على منابع البترول، وهو الأساس الذى تقوم عليه الحضارة الغربية فى العصر الحديث، وقد أثبتت الباحثة الأمريكية (ليزا أندرسون) أن البترول أدى إلى المزيد من التخلّف فى البلاد المنتجة له، كما أدى إلى تآكل فى هياكلها الاجتماعية، وقد عملت الدول الغربية على إعادة صياغة عقلية قطاع من النخبة فى العالم الإسلامى لى تكون القوة المؤيدة للغرب فى داخل المجتمعات الإسلامية.



ويذكر لورانس أن تعداد المسلمين فى العالم حوالى ثلث سكان الكرة الأرضية، والمسلمون فى آسيا أكثر عددا من المسلمين فى أفريقيا، والمسلمون فى أفريقيا أكثر عددا من المسلمين العرب، وفى الشرق الأوسط ٢٠٠ مليون مسلم تقريبا، وحوالى ١٠٠ مليون مسلم من العرب، وفى باكستان والهند وبنجلاديش أكثر من ٣٠٠ مليون مسلم، وفى إندونيسيا ما يزيد على ١٥٠ مليون مسلم، وهذه الأرقام التقريبية تدل على عدم صحة الفكرة الشائعة بأن معظم المسلمين من العرب أو من الشرق الأوسط أو أن الإسلام هو الديانة الوحيدة فى الشرق الأوسط. ويجمع المسلمون فى جميع أنحاء العالم شعور بهذا الكابوس الاقتصادى والتوزيع غير العادل للموارد العالمية، وانقسام شعوب العالم إلى أغنياء وفقراء، ويفرض القيود الاقتصادية على العالم الإسلامى، وإعاقة محاولاته للتحديث والتقدم. وقد انقسم العالم إلى دول العالم الأول وهى دول أوروبا وأمريكا، ودول العالم الثالث، وفيها الدول الإسلامية، وهى دول متخلفة اقتصاديا وصناعيا وعلميا مع استثناء بعض الدول مثل تركيا، ومصر، وإيران، وماليزيا. والدول الإسلامية عموما تم تصنيفها كدول قليلة الشأن لأنها تفتقر إلى التكافؤ الاقتصادى والاجتماعى مع أوروبا وأمريكا.. وهذا الوضع جعل مفكرا أمريكيا مثل (إريك هوفر) يقول فى كتابه (المؤمن الحقيقى): لم تتمكن أية دولة إسلامية من إتقان الإنتاج الصناعى، أو تحقيق شىء يمكن مقارنته بما حققته اليابان وتايوان وكوريا الجنوبية وسنغافورة وهونج كونج والهند، وإن كانت ماليزيا وإندونيسيا قد شهدتا مؤخرا ولادة اقتصاد يعتمد على التكنولوجيا المتطورة.



ويشير بروس لورانس إلى أن أزمة البترول في عام ١٩٧٣ جعلت معظم الأمريكيين يرون المسلم خليجيا ويرحبون بالأفلام الكرتونية التي تظهر شيخا مسلما ثريا يحرم الغربيين من البترول، بينما يركز الباحثون الأمريكيون على أن طوفان دولارات البترول لم يحرر الدول العربية والإسلامية من الفقر، ولا بظهور طبقة رأسمالية حقيقية بالمفهوم الحديث للرأسمالية، ولا يزال المسلمون يقدمون حضارتهم للغرب بمجالس القهوة والنجيلة، وفي رأى بعض المفكرين الغربيين أن الثورة النفطية أدت إلى سوء توزيع الثروات وكانت عائقا أمام تطور هذه المجتمعات، ولذلك مازالت محرومة من الدخول في عالم الصناعة والعلم، والأسوأ من ذلك ظهور دعوة تسعى إلى إقناع المسلمين برفض قيم التقدم والحضارة! لأنهم إذا قبلوها سيكون عليهم حتما التخلي عن القيم الإسلامية، وبذلك وضعوا الإسلام في تناقض وتعارض مع التحديث والديمقراطية والعلم.



وينبه بروس لورانس إلى ظاهرة في العالم الإسلامي لم يتنبه إليها كثير من الباحثين المسلمين، وهي أن الاستعمار الأجنبي خرج من الدول الإسلامية ومع ذلك فإنه بقي، لأن قيم المستعمرين استمرت بعد رحيلهم، والدليل على ذلك أن بعض الدول الإسلامية ما زال فيها تقاليد وقيم الاستعمار البريطاني، وبعضها الآخر فيها تقاليد وقيم الاستعمار الفرنسي، وحتى بعض الزعماء الذين ظهروا بعد الاستقلال كانوا يحملون التوجهات الاستعمارية بشكل أو بآخر، خاصة في المرحلة التي يسميها بروس لورانس مرحلة (هوس النفط) التي بلغت ذروتها في السبعينات من القرن العشرين، وفي نفس الوقت تصاعد تيار الأصولية الإسلامية على يد أبو الأعلى المودودي في باكستان. وكان المودودي صحفيا وليس عالما دينيا محترفا، وقام سنة ١٩٤١ بتأسيس (الجماعة الإسلامية) للدعوة إلى التزام السلوك الإسلامي في الهند، ولم يكن متحمسا لإنشاء دولة باكستان، واختلف مع محمد علي جناح مؤسس باكستان، ولكنه عندما أعلنت دولة باكستان هاجر إليها، وعاش في لاهور، وقام بدور نشط من خلال (الجماعة الإسلامية) وعارض الحكومة واتهمها بأنها ليست إسلامية، وتعرض للسجن، وحكم عليه بالإعدام في سنة ١٩٥٣، ولكن أيوب خان- الحاكم العسكري لباكستان- أطلق سراحه، وظل من سنة ١٩٦٢ حتى وفاته سنة ١٩٧٩ يعمل على مهاجمة الحكومات الباكستانية وشيوخ الدين، وكان كتابه الأول عن الجهاد، وأخذ عليه منتقده أنه كان في مرحلة متحالفا مع حكومات عسكرية علمانية، وفي مرحلة أخرى داعيا إلى الجهاد ضد الحكومة لأنها غير إسلامية، دون أن يقدم الأيديولوجية الإسلامية في صورة عملية قابلة للتطبيق: هل هي اشتراكية أو رأسمالية؟.. وهل هي ديمقراطية أو شمولية؟.

ولقد رفع حكام باكستان راية الإسلام دائما.. أيوب خان رفع راية الإسلام الليبرالي، ورفع خليفته يحيى خان راية الإسلام الوطني، ورفع ذو الفقار علي بوتو شعار الإسلام الاشتراكي، وهو

في الحقيقة علماني، ورفع خليفته ضياء الحق شعار الإسلام الأصولي، وعادت بناظير بوتو لتنادي بالإسلام الاشتراكي مثل والدها، بينما دافع خليفته نواز شريف عن الإسلام الرأسمالي، وعندما عادت بناظير بوتو إلى الحكم أبقت على مفهوم الإسلام الرأسمالي، وعندما عاد نواز شريف إلى الحكم سار خطوات واسعة لتطبيق الشريعة الإسلامية على أنها الرأسمالية، وهكذا فإن الإسلام في دولة مثل باكستان ظهر في صور متعددة.

وقد دعا المودودي إلى أن تكريم المرأة يكون بحرمانها من العمل وإبقائها في البيت، ومع ذلك تراجع ودعم بحماس كبير ترشيح امرأة للرئاسة ضد أيوب خان، وانفصل أهم أعوانه عنه عندما رأوا أنه يتعاون مع التيار العلماني، يتقبل أفكارهم الجديدة لتحديث المجتمع الباكستاني.



ويتحدث بروس لورانس عن الإسلام في مصر، فيقول: إن مصر هي قلب العالم العربي، والأفريقي، وموقعها على تقاطع استراتيجي بين البحر الأبيض والبحر الأحمر جعلها رأس الحربة للتوسع التجاري الأوروبي وجعلها في نفس الوقت قاعدة للثورة على الاستغلال الخارجي. وقد تصاعد غضب المثقفين ضد الاحتلال البريطاني للمرة الأولى في القرن التاسع عشر، وفي دعوتهم إلى طرد الأجانب، كان المصريون يعلنون التحدي للهيمنة الأوروبية من خلال مفهوم عصرى للقومية العربية والإسلامية في آن واحد، وإن كان بعض النخب من السياسيين والتجار قد تعاون مع الوجود الاستعماري البريطاني، وقد اجتمعت الحركة الوطنية حول سعد زغلول وكان قد تأثر بالأفكار الإصلاحية الإسلامية للشيخ محمد عبده، وقام بتأسيس حزب الوفد على مبادئ هي مزيج من الاستقلال السياسي والالتزام الديني بالإسلام، وتأسست جماعة الإخوان المسلمين رسمياً سنة ١٩٢٩ ودعوتها استعادة الهوية الإسلامية، وقد تصادمت جماعة الإخوان المسلمين مع نظام عبد الناصر ولم يكن مستغرباً أن يتعرض ناصر لمحاولة اغتيال قام بها عضو في هذه الجماعة سنة ١٩٥٤، ولم يكن ناصر رافضاً للإسلام - كما يقول بروس لورانس - ولكنه كان رافضاً للنشاطات (الإرهابية) لجماعة الإخوان فلم يكن الصدام بين الإسلام ومعارضة الإسلام.. بل كان بين صيغتين مختلفتين للإسلام، وقد دعم ناصر الطبقة المتوسطة ورفع لواء الاشتراكية العربية التي دعمت مصالح الطبقات العاملة وانتشرت هذه الأيديولوجية ووجدت من يسبغ عليها الصبغة الإسلامية فتظهر نظريات عن الاشتراكية في الإسلام، وبعده رفع السادات شعارات إسلامية، وأطلق العنان للجماعات الإسلامية، ولكنه وصل في يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١ إلى لحظة قدره واغتالته مجموعة من خلية سرية أصولية.

ويقول بروس لورانس: إن الأصوليين في مصر ينحدرون من الطبقة المتوسطة الصاعدة، أي إنهم ليسوا فقراء، ولديهم ما يكفي من التعليم، فمنهم أطباء، ومهندسون، وفنيون، وتأثروا بفكر



المودودى على رغم اختلاف الظروف التى كانت سائدة فى باكستان فى عهد المودودى عن الظروف السائدة فى مصر فى هذا العصر، خاصة أن المجتمعات الإسلامية السنية لا تعطى لرجال الدين سلطة أو نفوذا متميزا كما فى المجتمعات الشيعية، ولذلك فإن الأصوليين الإسلاميين من الراديكاليين العاديين وليسوا من رجال الدين، وكانت الدعوة الراديكالية على يد سيد قطب الذى أعلن (الوطنية هى الإسلام، والوطن هو الإسلام، والحاكم هو الله.. والدستور هو القرآن).

وهى دعوة غامضة لأنه لم يحدد كيف يكون الله هو الحاكم وحده وليس هناك حاكم غيره؟. وهل يعنى ذلك أن الحاكم سيكون صوت الله، وحكمه هو حكم الله؟.. أو أن الحاكم فى هذا النظام سيظل بشرا، ويجوز الاختلاف معه، وأحكامه أحكام بشرية يجوز الاعتراض عليها وتعديلها؟.. وهل سيكون الحكم فى الدولة الإسلامية حكما فرديا مطلقا مادام الحاكم يكتسب شرعيته من تطبيق أحكام الله بحيث يكون الخروج عليه كفرا بالله؟.. هذه القضايا تحتاج إلى توضيح كما يرى بروس لورانس.



ويتحدث لورانس عن أحوال المرأة فيقول: إن معظم النساء فى العالم الإسلامى لا يتمتعن بفرص متساوية مع الذكور فى التعليم والعمل ويواجهن القمع.. ويفسر ذلك بأن الإسلام ليس هو السبب، ولكن الأحوال الاجتماعية هى السبب، فالذى يعوق النساء هو ذاته ما يعوق الرجال، مثل التخلف الاقتصادى والاجتماعى، ونقص الفرص للعمل، وقلة الدخل، وعموما فإن الموارد غير متوفرة لمعظم المسلمين بغض النظر عما إذا كانوا رجالا أو نساء، وفى معظم الدول الإسلامية نجد عدم المساواة الاقتصادية، وقلة من الأغنياء فوق جماهير المدن والريف الفقيرة، وما زالت الاعتبارات القبلية أو الطائفية هى التى تحدد درجة الحماية الاجتماعية للفرد، يضاف إلى ذلك قلة عدد الجامعات، وعدم وجود مؤسسات التكنولوجيا الحديثة ذات النوعية العالية، هذه العوامل تؤثر على أوضاع المرأة.. ويضاف إليها التقاليد القبلية السائدة فى كثير من المجتمعات الإسلامية، والنتيجة أن حرمان المرأة من المساواة فى العالم الإسلامى ليس بسبب العقيدة الإسلامية، ولكن بسبب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.. ومع ذلك فإن هناك أصواتا نسائية ترتفع احتجاجا على النظام الحالى، وهناك مجتمعات إسلامية تحظى فيها المرأة بحقوقها.



ويستشهد بروس لورانس بدراسة للباحثة الأمريكية (أرلين ماكليود Arlene Macleode) صدرت فى كتاب لها بعنوان (التعايش مع الاحتجاج: النساء العاملات والتحجب الجديد والتغيير فى القاهرة) تشير إلى أن نساء الطبقة المتوسطة فى القاهرة يعملن فى الوظائف المختلفة، وفى نفس



الوقت يحافظن على المظهر الإسلامي في ملابسهن، وفي نفس الوقت فإن الجماعات الأصولية تمنع الاختلاط وتحصر على الفصل بين الرجال والنساء.

ويتناول بروس لورانس أوضاع المرأة المسلمة في إيران فيقول: إنها في ظل حكم الشاه فرضت عليها قواعد السلوك الأوروبية - الأمريكية. ففي عام ١٩٣٥ تم إجبار النساء على عدم ارتداء الحجاب في الأماكن العامة.. وفي عام ١٩٣٧ قرر رضا شاه أن يكون يوم ٧ يناير من كل عام يوماً للاحتفال به كيوم للمرأة، وفي عام ١٩٣٨ تقرر قبول الفتيات لأول مرة في جامعة طهران، وفي عام ١٩٥٨ أنشئ المجلس الأعلى للمرأة، وفي عام ١٩٦٦ تم استبداله بإنشاء منظمة النساء الإيرانية وكان لها فروع في كل المدن.. وفي يناير ١٩٦٣ أعلن الشاه سياسة الإصلاحات التي أطلق عليها اسم الثورة البيضاء، وتضمنت وعداً بإعطاء المرأة حق الانتخاب.. وفي عام ١٩٦٧ دخلت المرأة الإيرانية سلك القضاء والشرطة والجيش.. وفي عام ١٩٦٧ صدر قانون الحماية العائلي الذي يعطى المرأة الحق في طلب الطلاق.

وفي فترة ٤٤ عاماً، من ١٩٣٥ التي تم فيها حظر الحجاب إلى ١٩٧٩ عام قيام الثورة الإيرانية توسعت شبكة منظمة النساء الإيرانيات وأصبح لها ٤٠٠ فرع، و١١٨ مركزاً، و٥١ جمعية منضوية تحت لوائها.. وكان لها نشاط كبير لرفع مستوى المرأة بالتدريب المهني ومحو الأمية والإرشاد القانوني والأسري وارتفع عدد الفتيات في المدارس حتى بلغ في عام ١٩٧٨ (٣٣٪) من مجموع طلبة الجامعات، وأصبح عدد الطالبات في كلية الطب أكبر من عدد الذكور. وفي عام ١٩٧٩ دخل مليون امرأة إيرانية في عداد القوى العاملة، و٢٠٠ ألف في التخصصات الأكاديمية، و١٥٠ ألفاً في القطاع العام، و١٥٠٠ وصلن إلى درجة مديرة و١٨٠٠ أستاذة جامعية، وازداد عدد النساء في القضاء والجيش والشرطة وسلاح الجو، وانفتح أمام المرأة الفرص في جميع المجالات فيما عدا مدارس الشريعة والنشاطات الدينية، وفي عام ١٩٧٨ تم انتخاب ٣٣ امرأة للمجالس البلدية، و٢٢ امرأة في البرلمان، وتم تعيين وزيرة وسفيرة وحاكمة مقاطعة وخمس رئيسات للبلديات وكانت الحكومة تدعم إشراك المرأة في جميع المجالات.

لكن الحال تغير بعد ثورة الخميني، ففي فبراير ١٩٧٩ تم وقف العمل بقانون الحماية العائلية، وفي مارس ١٩٧٩ تقرر منع تولي المرأة منصب القضاء وكل المناصب الأخرى التي تعطيها الحق في إصدار قرارات.. وفرض الحجاب على المرأة في الأماكن العامة، وتم إغلاق مراكز رعاية الأطفال، ومنعت المرأة من الاشتراك في المنافسات الرياضية الدولية، وفي مايو ١٩٧٩ تقرر حظر الاختلاط في المدارس والأماكن العامة والفصل بين الرجال والنساء في المدارس والجامعات والمواصلات العامة، وفي ديسمبر ١٩٧٩ تمت محاكمة أول امرأة تولت منصب الوزيرة في عهد الشاه وأدينبت بتهمة نشر الفساد في الأرض وحكم عليها بالإعدام رمياً بالرصاص، وفي مارس ١٩٨٠ تم انتخاب أول مجلس

إسلامي عدد أعضائه ٢٧٠ عضوا وليس فيه سوى امرأتين فقط، وفي أبريل ١٩٨٠ تم إغلاق الجامعات إلى أجل غير مسمى، وفي مايو ١٩٨١ قررت الثورة فرض الحجاب الإلزامي وطرد غير المحجبات من الوظائف، وفي يوليو ١٩٨١ صدر قانون لعقاب النساء المخالفات.. وصدر دستور ١٩٧٩ وفيه نصوص عن حقوق المرأة كمربيات أطفال ومعلمات.

ويتساءل بروس لورانس: هل سيادة الرجل على المرأة من أساسيات الإسلام، كما ادعى بعض رجال الدين الكبار في إيران أو أن هذا الوضع هو انعكاس لبناء المجتمع الإسلامي ودرجة تطوره؟.. ويقدم الإجابة بأن علماء الدين هم الذين جعلوا المرأة في مرتبة أدنى من الرجل.. وهذا ما وصلت إليه الباحثة الأمريكية بربارة ستوواسر Stowasser في تحليلها لأوضاع المرأة في العهود الأولى للإسلام فقالت: (إن القوانين والممارسات الظالمة التي تحرم مساواة المرأة بالرجل لا ترجع إلى ما أنزله الله في كتابه، إنما إلى تفسير علماء الدين للقرآن وإلى الأحاديث الموضوعة).. وتجب ملاحظة أن أوضاع النساء لا تحددها النصوص والأحكام الدينية وحدها، ولكن تحددها الأوضاع والتقاليد والقيم الاجتماعية السائدة في كل مجتمع والتي تؤثر في فهم وتفسير النصوص الدينية، وهذا ما يفسر اختلاف الأحكام الدينية (الفقهية) بين البلاد الإسلامية واختلافها بحسب الانتماء إلى الطبقة الاجتماعية، وكذلك اختلافها في الريف عن المدن..

وقد بدأ التغيير بعد وفاة الخميني، ففتحت الأبواب أمام المرأة مرة أخرى وصدرت مجلة (زنان) أي النساء في عام ١٩٩١ تناقش قضايا لم يكن مسموحا بمناقشتها علنا مثل حق المرأة في طلب الطلاق، وسوء أوضاع النساء السجينات، والأفكار المغلوطة عن المرأة في الكتب الدراسية، وصورة المرأة في السينما الإيرانية، والتفسير الرجعي لآيات القرآن المتعلقة بمكانة المرأة. وتمثل هذه المجلة صوت الاحتجاج النسائي على القيود التي فرضتها ثورة الخميني على المرأة، والآن أصبح ٣٥٪ من المعلمين من النساء، واحتلت المرأة مكانا في البرلمان، وفي الإدارة العليا. وهكذا انتصر التيار الإصلاحى في داخل القيادة الإيرانية.



وفى تحليل بروس لورانس لأوضاع المرأة المسلمة في مصر يقول: إن فى مصر ثلاث فئات من النساء:

الفئة الأولى: تشمل الكوادر النسائية المتحالفة مع الأصوليين الذكور، وهى تنحدر غالبا من أصول ريفية من الطبقة الدنيا والطبقة المتوسطة الصغيرة، وأصواتهن الحقيقية غير مسموعة لأنهن لا يشاركن فى الحياة العامة.

والفئة الثانية: تشمل النساء اللاتي يتأثرن سلبا بالقوانين والقواعد المستوحاة من الأصوليين، وهى قواعد وتقاليد تبعدهن عن المجالات العامة التى كانت مفتوحة أمامهن قبل ذلك. وعدد هؤلاء

النساء قليل أيضا، وتنحدر معظمهن من الجيل الثاني والثالث لسكان المدن، ولهن معرفة بمكانة المرأة في أوروبا وأمريكا من خلال التعليم الذي حصلن عليه وفرص السفر للخارج المتاحة لهن، وهن يمارسن قدرا من المساواة، وفي نفس الوقت يوجهن النقد للإفراط الذي يبدر عن المدافعات الغربيات عن حقوق المرأة.

أما الفئة الثالثة: فهن لا يأخذن بعين الاعتبار قضايا المساواة وحقوق المرأة.

وقد تطورت أوضاع المرأة المسلمة في مصر منذ عام ١٩٢٣ وهو عام تأسيس الاتحاد النسائي المصري، وصدر مجلة الاتحاد (المصرية) باللغة الفرنسية، وكانت القاعدة المؤسسة لهذا الاتحاد من نساء الطبقة العليا الداعية للإصلاح الاجتماعي بقيادة هدى شعراوي، وبدأ التحاق الفتيات بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) عام ١٩٢٩، ورفع سن الزواج للفتيات إلى ١٦ سنة في عام ١٩٣٠، وفي عام ١٩٣٣ صدر قانون حماية المرأة العاملة، وفي عام ١٩٣٧ صدرت مجلة الاتحاد النسائي باللغة العربية للدفاع عن حقوق المرأة، وفي عام ١٩٤٤ تأسس الحزب النسائي الوطني في القاهرة فقط، وهو أول حزب نسائي في العالم.. وفي عام ١٩٤٥ تم تأسيس اتحاد الجامعات برئاسة أنجي أفلاطون، وكان دعوة هذا الاتحاد تحرير المرأة وعدم تعارض ذلك مع الإسلام، وفي عام ١٩٤٨ تم تأسيس اتحاد بنات النيل في القاهرة وله فروع في أنحاء البلاد يطالب بالحقوق السياسية والرعاية التعليمية والصحية للنساء الفقيرات. وفي عام ١٩٧١ صدر الدستور ويكفل للمواطنين المساواة أمام القانون دون تمييز بسبب العرق، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين، وفي عام ١٩٧٩ صدر قانون بتخصيص ٣٠ مقعدا في البرلمان للمرأة، وفي عام ١٩٧٩ أيضا صدر قانون الأحوال الشخصية وتم تطويره في قانون جديد صدر عام ١٩٨٥.

ولم يستكمل بروس لورانس التطورات التي حدثت بعد ذلك مثل إنشاء المجلس القومي للمرأة والمجلس القومي للطفولة والأمومة، وإنشاء محاكم الأسرة ومكاتب تسوية المنازعات الأسرية، وقانون الخلع الذي يعطى المرأة الحق في الطلاق، وقانون صرف أحكام النفقة من بنك ناصر، وإصدار قانون الطفل، وتعيين المرأة في المناصب القضائية حتى صارت تشغل ١٢٪ من المناصب في الدستورية العليا وهيئة المفوضين، وتشجيع المرأة على المشاركة السياسية في الأحزاب والانتخاب والترشيح لمجلس الشعب والمجالس المحلية، وعقد مؤتمر قومي للمرأة سنويا. وكان المؤتمر الخامس في مارس ٢٠٠٥ تحت شعار (تنمية أساسها المشاركة)، وعقد دورات تدريبية في مركز تأهيل المرأة سياسيا، وغير ذلك من المؤسسات والأنشطة التي تسعى إلى إعطاء المرأة المسلمة في مصر الفرصة لدخول جميع المجالات دون استثناء وعلى قدم المساواة مع الرجل، ولا يجد ذلك معارضة من المؤسسات الدينية، بل على العكس فإن رجال الدين الإسلامي والمسيحي في مصر يشاركون في حملات التوعية بحقوق المرأة وتدريبها وتشجيعها على المشاركة في العمل السياسي والاجتماعي،

وربما كان القصور في رصد بروس لورانس للتطورات التي حدثت في السنوات العشرين الأخيرة في أوضاع المرأة في مصر يرجع إلى قلة معلوماته عن هذه الفترة الخصبة التي شهدت أسرع مراحل التطور الاجتماعي في مصر.



ويرصد بروس لورانس أوضاع المرأة في بلد إسلامي ثالث - بعد إيران ومصر - هو باكستان، ففي عام ١٩٤٩ أنشئت الجمعية النسائية التي قدمت توصية بفرض قيود على الطلاق وتعدد الزوجات، وفي عام ١٩٦١ صدر قانون يرفع سن زواج الفتيات من ١٤ سنة إلى ١٦ سنة وسن الرجال من ١٨ سنة إلى ٢١ سنة. وفي عام ١٩٧٣ صدر الدستور وينص على المساواة بين المرأة والرجل. وفي عام ١٩٧٤ صدر قانون يسمح للمرأة المتزوجة بالتملك، وفي عام ١٩٧٩ صدر قانون الحدود، وفي عام ١٩٨١ تأسس منبر العمل النسائي وشاركت فيه المحاميات والمشتغلات بالمهن المختلفة، وفي عام ١٩٨٢ نادى الداعية المتشدد (من غير رجال الدين) الدكتور أسرار أحمد إلى عزل النساء وفرض الحجاب ثم صدر قرار من الجنرال ضياء الحق بفرض قيود على مشاركة النساء في مشاهدة المناسبات الرياضية.

وهكذا فإن وضع المرأة في باكستان تعرض لموجات من المد والجزر نتيجة تشدد الأصوليين. وباكستان دولة ريفية في غالبيتها، سكانها حوالي ٩٥ مليون نسمة منهم ٧٥٪ يعيشون في القرى، وتعانى النساء من الفقر الشديد إلى حد أن قال عنها تقرير صادر عن مفوضية الأمم المتحدة: (إن المرأة الريفية العادية تولد في باكستان في وضع أشبه بالعبودية، وتعيش حياة الكادحين طول عمرها، وتموت دون أن يذكرها أحد).

أما تعليم الفتيات فإنه نادر ندرة المياه النقية والكهرباء. وظاهريا فإن انتخاب بناظير بوتو رئيسة للوزراء قد يوحي بأن مسيرة المجتمع الباكستاني قد تغيرت، ولكن الحقيقة أن نجاحها كان بتحالف مع الأصوليين، ولذلك لم تلغ القوانين التي تظلم المرأة.

وفى دراسة لأوضاع المرأة المسلمة في بنجلاديش يركز بروس لورانس على سوء أحوالها الاقتصادية والاجتماعية والقانونية. ويبدى ملاحظة مهمة هي أن هناك مجتمعات إسلامية تعطي للمرأة المساواة، ومجتمعات إسلامية أخرى تحرم المرأة من المساواة، وكلها تفعل ذلك باسم الشريعة الإسلامية، مما يدل على أن المشكلة ليست في الإسلام ولكنها في عقول الذين يتولون تفسير النصوص الدينية واستخلاص الأحكام الفقهية. وفي النهاية فإن وضع المرأة في المجتمعات الإسلامية المختلفة يعكس درجة التطور في كل مجتمع ولا يعكس بالضرورة حقيقة الإسلام.



ومن دراسة أوضاع المرأة في المجتمعات الإسلامية ينتقل بروس لورانس إلى ظاهرة الأصولية الإسلامية فيرى أنه ليست هناك حركة واحدة تسمى الأصولية، وكل أصولية يجب فهمها في سياقها التاريخي وظروف المجتمع الذي نشأت فيه. ويجب الانتباه إلى أن المسلمين في عمومهم ليسوا أصوليين، ولكنهم مسلمون معتدلون، ولذلك فإن الباحث عليه أن يحدد المجتمع الإسلامي ويحكم عليه دون أن يقع في خطأ التعميم على جميع المجتمعات الإسلامية.. فهناك مسلمون معتدلون، ومسلمون أصوليون، ومسلمون عرب، وفرس، وأفارقة، وآسيويون، وهناك مفهوم للإسلام عند السلطات الحاكمة ومفهوم عند رجال الدين، ومفهوم ثالث عند الجماعات المختلفة، وليس في هذا التعدد والاختلاف ما يثير الدهشة، فهناك اختلافات بين الطوائف اليهودية، وبين المذاهب المسيحية، فلماذا نندهش عندما نجد اختلافات بين الطوائف والمذاهب الإسلامية؟



ثم يتوقف بروس لورانس عند مفهوم الجهاد في الإسلام الذي تحول إلى مصدر خوف في الغرب، لأن كلمة الجهاد تترجم إلى الإنجليزية (الحرب المقدسة) ويفهمها الغربيون على أنها الحرب الدينية على غير المسلمين. فهي تثير في ذهن الغربي الحرب الصليبية من الجانب الإسلامي. بينما هذه الحرب دفاع عن الحقوق، سواء كانت ضد الاستعمار، أم ضد الغزو الأجنبي، ولدى بعض المفكرين الإسلاميين فإنه يعنى الدفاع عن العدالة الاجتماعية، وعند مفكرى ماليزيا تعنى التعبئة الاقتصادية للمستقبل، ووراء معجزة ماليزيا مؤسسة فكرية للأبحاث والدراسات أقامتها الحكومة للتنوعية بالقيم الإسلامية الإيجابية، هي المؤسسة الماليزية الإسلامية ويختصر الاسم في حروف أربعة هي (إكيم IKIM) وهي تتولى نشر الكتب التي تقدم المفاهيم التقدمية للإسلام التي تدعو للتفوق والاتفاق والتعاون والاقتصاد، وتقدم هذه المؤسسة مفهوم الجهاد على أنه (التغيير) والتطور والتحديث استنادا على الحديث الذى نص على أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس. والجماعات الإسلامية فى ماليزيا تدرك الخطر الذى يمثله تزايد اللجوء إلى الشعارات الدينية الحماسية للترويج السياسى أو المزايدات الانتخابية. وكانت دعوة مهاتير محمد عندما كان رئيسا للوزراء: علينا أن نعمل على أن تكون ماليزيا قوية. وعندما تكون ماليزيا قوية سيكون الإسلام قويا.

وإن كان الجهاد قد تحول لدى بعض الجماعات إلى مفهوم العنف المسلح واغتيال الشخصيات المخالفة لهم، بينما تزداد حركة المراجعة لمفهوم الجهاد، فهو عند الباحث السورى محمد شحرور يعنى الدفاع عن العقيدة إذا تعرضت للاعتداء، ومعارضة الإكراه فى الدين، والجهاد عنده موجه دائما ضد العنف، وفى الشيعة فإن آية الله مرتضى مطهرى من أهم علماء الدين الإيرانيين قال عنه الخميني (إنه فاكهة حياتي - وجزء من لحمي) وقد قتل فى مطلع الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩

وما زال الباحثون الإيرانيون يستشهدون بخطبه ومقالاته، وله كتيب بعنوان (الجهاد: الحرب المقدسة للإسلام وشرعيته في القرآن) وهو يستند بداية إلى الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْسِدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْسِدِينَ﴾ (البقرة ١٩٠) وعلى ذلك فإن شرعية الجهاد قائمة على شرطين: أن يكون ضد جنود في ساحة معركة، وأن يكونوا معتدين. فالجهاد في الإسلام دفاعي وليس عدواني. ويشمل الدفاع عن المظلومين من المسلمين كما هو الحال بالنسبة للفلسطينيين، وهكذا فإن الجهاد ليس دعوة للحرب من أجل الحرب، ولكنها الحرب من أجل الدفاع عن حقوق المسلمين وغير المسلمين على السواء.



ملخص أفكار البروفيسور بروس لورانس أن الإسلام نظام ديني عالمي، ولا يمكن اختزاله في أقوال فردية لمفكرين مسلمين، وهو دين فيه مرونة وصلاحيات للتعامل مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وليس عقيدة جامدة كما يتصور البعض في الغرب، وبالتالي فإن التشدد والتعصب والجمود ليس التعبير الحقيقي عن الإسلام. وقد حان الوقت لكي يغير الغرب فكرته وموقفه تجاه الإسلام والمسلمين، ولا بد من تحطيم الأسطورة التي صنعتها الدعايات والإعلام والحروب الصليبية وجعلت الإسلام يبدو على أنه الدين الشرير العدوانى الراضى للآخر. فإن من يدرس الإسلام في الغرب لابد أن يكتشف أن المفاهيم السائدة عنه في الفكر الغربي خاطئة، وأن المخاوف منه إنما يتبناها ويروج لها من لديهم معرفة ناقصة بهذا الدين، أو لديهم نوايا مسبقة للإساءة إليه. ومن الضروري أن يفهم الغرب الإسلام في تنوعه واختلاف صورته باختلاف المجتمعات والمذاهب، وإدراك أنه نظام ديني متطور لا ينفصل عن حياة ومصالح المسلمين اليومية.

وبروس لورانس ليس معروفا للكثير من المثقفين في العالم الإسلامى على رغم أن له كتباً عديدة في الدراسات المقارنة للأديان. وتاريخه العلمى يدل على اهتمامه منذ البداية بالإسلام، فقد تخرج في جامعة برنستون، وحصل على الماجستير من جامعة كمبردج البريطانية، وعلى الدكتوراه من جامعة ييل وكل دراساته عن تاريخ الأديان، وقد عاش فترة في دول إسلامية لدراسة الثقافات واللغات فيها، كما درس عقائد غير المسلمين مثل الهندوس، والسيخ، وله مؤلفات عن الشهر ستانى، وابن خلدون. ودرس الجماعات الأصولية في كتابه (مدافعون عن الله) ودرس المجتمعات الإسلامية والاختلافات في المفاهيم الإسلامية في كتابه (تحطم الأسطورة: الإسلام بعيد عن العنف) وكتاب (الثورة ضد العصر الحديث) الذى فاز بجائزة الامتياز في الدراسات التاريخية من الأكاديمية الأمريكية للديانات. وله أيضا كتاب (الإسلام في تركيا والهند) وآخر كتبه بعنوان (شبكات المسلمين) وكتاب (الحضارة الإسلامية). وقد صدرا في عام ٢٠٠٥.

ومثل هذا الأستاذ المتخصص في الدراسات الإسلامية يجب أن تهتم به المؤسسات الإسلامية، سواء بترجمة كتبه، أم بدعوته لزيارة البلاد الإسلامية ولقاء رجال الدين والمفكرين، فهذا هو الحوار الذي يفيد في كسب الأصدقاء وتوضيح صورة الإسلام في الغرب ومواجهة موجات العداء الموجهة ضده.





# حضارة الإسلام في عيون غربية !

ليس في العالم دارس للتاريخ أو الدين أو الأدب الإسلامي ، لا يعتمد على ما كتبه (السير هاملتون جب Hamilton Gibb) باعتباره من أهم المصادر الغربية في هذه المجالات. وهو من كبار المستشرقين الذين تخصصوا في التراث الإسلامي ، وشغل عدة مناصب مهمة أسهم من خلالها في تصحيح نظرة الغرب إلى الإسلام والمسلمين. كان أستاذا للدراسات العربية والإسلامية في جامعة أكسفورد. وطوال الفترة من ١٩٣٠ حتى ١٩٥٥ ظل هو المحرر للطبعة الإنجليزية من الموسوعة الإسلامية ، وبعد ذلك أصبح مديرا لمركز دراسات الشرق الأوسط. وتقديرا لمركزه العلمي منحته ملكة بريطانيا لقب (سير) في سنة ١٩٥٤. وكان بالإضافة إلى ذلك عضوا أصيلا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وعضوا مراسلا في المجمع العلمي بدمشق ، والمجمع العلمي العراقي ، وله عدد كبير من المؤلفات والمقالات درس فيها الحضارة الإسلامية في قلب العالم الإسلامي وفي غرب آسيا وشبه القارة الهندية وأندونيسيا والبلاد الممتدة من جنوب روسيا إلى الصين.

ويلاحظ هاملتون جب أن التاريخ الإسلامي سار في طريق عكس الطريق الذي سار فيه التاريخ الأوروبي على الرغم من أن كليهما قام على أنقاض الإمبراطورية الرومانية. فقد عاشت أوروبا عدة قرون من الفوضى والغزوات البربرية إلى أن وصلت إلى الاستقرار وبدأت تقدمها ، بينما أقام الإسلام بسرعة غريبة إمبراطورية جديدة ، والفضل في ذلك يرجع إلى الجهود التي بذلها المسلمون لحماية الدين الإسلامي في وجه التحديات الداخلية والخارجية ، والوحدة الدينية والثقافية في العالم الإسلامي على اتساعه.

ويرجع هاملتون جب قوة الدولة الإسلامية إلى تعاليم الإسلام التي قامت على مبادئ الأخلاق وترسيخ معنى الأخوة بين أفراد الجماعة الإسلامية وتأكيد المساواة بينهم من حيث القيمة الشخصية دون نظر إلى الطبقة التي ينتمون إليها ، أو الثروة والمكانة.. وكان لمبدأ (لا فرق بين عربي وأعجمي)

مفعول السحر في تماسك المجتمع الإسلامي، كما كان لاحترام الإسلام للديانات السابقة عليه وعدم اضطهاد أصحاب العقائد الأخرى أثر كبير في الخصوبة التي ميزت الحضارة الإسلامية. كما كان التوسع الكبير في الصناعة والتجارة قد أوجد شبكة من المدن فيها حياة مدنية بالغة التقدم. فيها فئات من التجار الأثرياء، تحيط بأحوال العالم، وتمتلك الذكاء والمبادرة، وفيها أيضا فئات من العلماء والمتقنين أسدوا للثقافة الإسلامية خدمة جليلة بترجمة العلوم والفلسفة اليونانية إلى الثقافة ونفع علماء المسلمين في مجالات كثيرة مثل الفيزياء، والفلك، والكيمياء، والجغرافيا. وانتشرت العلوم الإسلامية في فترة قصيرة، وامتدت إلى كل جزء من العالم الإسلامي دون أن تعوق انتشارها الحدود السياسية أو الجغرافية، وظهرت في المجتمعات الإسلامية مدارس فكرية وفقهية وعلمية، وأنشئت مكتبات كبيرة، ومستشفيات، ومراصد، وذابت الفوارق بين العرب وغير العرب وأصبحوا جميعا مسلمين فقط، بل وضعف أثر الفوارق بين المسلمين وغير المسلمين، فاشترك علماء اليهود والنصارى في جميع وجوه النشاط الفكري مع العلماء المسلمين سواء بسواء، وكان لهذه المشاركة أثرها في مكانتهم الاجتماعية، فقد فتحت لهم الطريق إلى المناصب الرفيعة والوظائف العامة.

هذا التوسع الفكري في الدولة الإسلامية أدى إلى اتساع في نطاق العلوم وامتد إلى الفنون، والأدب، والعمارة.. وتم تكوين جيوش قوية. والمهم أن الإسلام كان بالنسبة للمسلمين معناه (تصور ديني للحياة) وكان المسلم مؤمنا بالإسلام دون أن يبحث عن الدليل أو الإثبات، أو يستخدم التحليل العقلي أو المنطقي، وهذا هو الفارق بين المسلم والإنسان الغربي الذي ورث الفكر الإنجليزي العقلاني أو الفكر الألماني، فهذا الإنسان الغربي لا يصدق إلا ما يمكن إدراكه بالحواس والتجربة والدليل العقلي، وهذا ما جعل أحكامه الدينية شديدة الاختلال.



وفي رأى هاملتون جب أن الحج كان له تأثير كبير في توحيد المسلمين، لأن احتشاد جموع منهم في وقت واحد كل عام واشتراكهم في أداء شعائر دينية واحدة في أماكن وأوقات محددة يولد لديهم شعورا بسمو ديني ويقوى الانتماء بينهم. ويرجع إلى الإسلام الفضل في بلورة فكرة (الله) التي كانت غامضة ومضطربة في الديانات السابقة عليه، وكانت الثورة التي حققها الإسلام هي رفع فكرة (الله) إلى مرتبة عالية، منزهة عن الشبيه، ولم يكتف بأن يعتبر الله (الإله الأعلى) بل إنه (الواحد الأحد الصمد) خالق السموات والأرض وما بينهما، أحكم الحاكمين الذي سيحاسب الجميع على ما كسبته أيديهم، وليس كمثله شيء، وهو السميع حتى للنجوى والهمس بين اثنين، والبصير بما تخفيه الصدور. هذا المفهوم لم يكن موجودا على الإطلاق، ولم يصل إليه العقل الإنساني إلا بالإسلام. وبهذا المفهوم أصبح الأفق الديني للعرب ساميا فوق المحسوسات والأشياء المنظورة، وارتفع إدراكهم إلى الإيمان بذات إلهية لا تدركها الأبصار وهي تدرك الأبصار، ذات إلهية مجردة قادرة على كل شيء.. وهذا المفهوم

الناسمى أدى إلى بناء العقيدة على أسس جديدة مختلفة عن الأسس التى قامت عليها العقائد السابقة، ومن الإيمان بالله بدأ الإسلام خطوة خطوة فى بناء هذه العقيدة الدينية وما قام عليها من مبادئ وقم أخلاقية واجتماعية امتدت إلى تنظيم علاقات المسلمين وأحوالهم، من الصلاة والعبادات، إلى أصوب التجارة والقروض والمعاملات، إلى الأحوال الشخصية بتنظيم قواعد الزواج والطلاق والميراث.. إلخ. ويمثل القرآن سجلا لهذا التدرج فى إعادة بناء الفكر الدينى والحياة الاجتماعية.

ويكشف هاملتون جب عن أن الإسلام استطاع بما يشبه المعجزة استئصال العادات والأفكار والطقوس البدائية التى كانت سائدة بين العرب، وأن يبني ويقيم هذا البناء الروحى والسلوكى على أساس توحيدى وإيجابى للكون وما فيه. وقد اكتسبت كلمة (التقوى) معانى جديدة فى الإسلام، فقد اكتسبت معنى الخوف من عذاب الآخرة واقتربت أيضا بلفظة البر لتدل على العلاقة بالله التى تنجم عن الطاعة وتكون حافزا لأعمال البر كما فى الآية: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة ٢) والآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَاكُمْ بِذِكْرٍ كَرِيمٍ فَلَا تَنْجِبُوا بِأَلْثَرِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنْجِبُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المجادلة ٩). ويكرر هاملتون جب أن الإسلام يجعل المسلم يشعر بالخير الإلهى ويتجه بالشكر لله فى كل لحظة، ولذلك يعيش المسلم بين الرهبة والتقوى والشكر تجاه الله، ولذلك تكرر فى القرآن دعوة المسلمين إلى (الذكر) ومما يسهل الذكر أن تصحبه منبهات من حركات منظمة فى أوقات معينة، ولهذا فإن التقوى والبر يشملان أداء الصلاة الموقوتة. والصلاة بما فيها من ركوع وسجود وقيام تغرس فى نفس المسلم التأمل والخشوع والتواضع وإسلام الوجه لله، وتغرس فيه أيضا الحب والطاعة والإخلاص.. ويقول هاملتون جب: إن الإيمان - فى مفهوم الإسلام - هو شعور فى القلب والعمل هو الدليل عليه، ولذلك فإن الإسلام لا يطلب من المؤمنين به التفرغ للعبادات فقط، بل يطالبهم أيضا بالعمل فى الدنيا بما يقتضيه الإيمان، أى أن يكون العمل مرتبطا بالخير وليس بالشر. وتعريف (البر) شامل لكل أفعال الخير وهذا المفهوم انفرد به الإسلام: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة ١٧٧).

هذه هى الرسالة التى جاءت فى القرآن إلى المسلمين.. وهى - كما يقول هاملتون جب - دليل على أن الإسلام ينظم علاقة الإنسان بالله، كما ينظم حياته وعلاقاته مع غيره من الناس. والقرآن يحرك قلوب الناس بالشعور الروحى وينظم حياتهم أيضا.

والإعجاز في القرآن - كما يقول - يظهر في خصائصه الفنية والجمالية التي لا مثيل لها، بما يكاد يشبه السحر في نظم الألفاظ، فتحدث صدى يتردد في النفس والعقل، وتسمو بالروح، وبالإضافة إلى ذلك فإن القرآن فيه من الإعجاز ما يتكشف منه في كل زمن أشياء جديدة لم يكن يدركها المسلمون قبل ذلك، مما يعنى أن عطاءه متجدد، وأنه يقدم لكل جيل ولكل زمن ما يناسبه.. وبضيف هاملتون جب: وليس ذلك كل شيء بل ترتبط شخصية محمد - صلى الله عليه وسلم - مرتبطة ارتباطا لا انفصام له بالقرآن بروابط من المشاعر التي يسبغها الحب وتكمل القدرة العقلية وتجذب الشعور..

ويتوقف هاملتون جب عند ظاهرة إجلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نحو لا مثيل له، فيقول: إن هذا الإجلال شعور طبيعي لدى المسلم منذ بداية الرسالة، وحتى اليوم، وبمرور الزمن يزداد هذا الشعور ولا ينقص، ومشاعر المسلمين تجاه رسولهم لا تنحصر في الإجلال فقط.. بل تتجاوزه إلى العلاقة الشخصية من الحب، والحرص على الاقتداء به حتى في التفاصيل من سلوكه اليومي، مع تسليم المسلم بأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان رجلا.. إنسانا.. بشرا.. وهو في نفس الوقت نموذج الإنسان المثالي الذي يود كل مسلم أن يفعل ما كان يفعله، ويقول هاملتون جب: إن حرارة ذلك الشعور الشخصي نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت دائما أقوى عنصر في الدين عند الجماهير.

وكان ذلك سببا في تحرى علماء الحديث لأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - لاكتشاف الصحيح منها وغير الصحيح. ألف المسلمون كتباً كثيرة عن شمائل النبي - صلى الله عليه وسلم - نثرا وشعرا، وهناك الكثير من الدائع النبوية والأناشيد الصوفية وفيه من قوة العاطفة ما يأسر العقل والقلب. وأيضا فإن الاحتفال بمولد النبي - صلى الله عليه وسلم -، وذكرى الهجرة والإسراء والمعراج، دليل آخر على عاطفة الحب الجارفة التي تميز علاقة المسلمين بنبيهم.



ويتحدث هاملتون جب عن القرآن باحترام يندر أن نجد مثيله من كتاب الغرب، فهو يقول: إن القرآن هو المنبع الذي يعود إليه المسلم بين الحين والحين لينعش رؤاه الروحية، وإنه هو المصدر الذي استمد منه علم الأخلاق وعلم الكلام الإسلامي، وإنه يهيئ للتفكير الديني مثلاً علياً جديدة، وإنه يعيد توجيه الحياة الدينية إذ ينصب أمامها أهدافاً جديدة.. ويضيف إلى ذلك أن القرآن يضع للمسلم تنظيماً وضبطاً للذات الفردية، ويؤسس ملامح مجتمع أخلاقي، ونلاحظ ملامح هذا المجتمع الإسلامي إلى اليوم، والأخلاق فيه آتية عن طريق الوحي وتستمد قوتها من الإيمان بأنها تمثل إرادة الله، كما وضع قواعد العلاقات الأساسية في المجتمع كالزواج والقرابة والميراث والنشاط الاقتصادي

والحرب، ويفصل الحديث ما أجمله القرآن لإقامة (المجتمع الأخلاقى) وتنظيم الحياة والعلاقات الاجتماعية، وسوف نجد عندما ندرس الشريعة الإسلامية أنها أثمرت هذا المجتمع الأخلاقى القائم على القرآن والسنة، وسنجد أن هذا التشريع الإسلامى يحدد واجبات المسلم، وهذه الواجبات نوعان: واجبات نحو الله بالإيمان الصحيح وأداء الفروض الدينية، وواجبات نحو أفراد المجتمع، فالتشريع الإسلامى له غاية قلبية هى الإيمان الصحيح، وغاية عملية هى تنظيم حياة المسلمين فى الأحوال الشخصية والتعاملات الاقتصادية، وكذلك فإن أهم ما يميز الشريعة الإسلامية هو التدرج فى الأحكام، فليس هناك حُكْمَانٌ فقط هما الحلال والحرام، ولكن بين هذين الطرفين درجات خمس هى: الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والمحرم.

وهذا يعنى أن علماء الدين وهم يحكمون على الشئ بأنه حلال أو حرام يخطئون إذا لم يحددوا موقعه فى هذا التدرج.

ومن أهم مزايا التشريع الإسلامى أنه ثمرة جهود العلماء المسلمين فى مجالات عديدة منها علم التفسير، وعلم الحديث، واللغة، والتاريخ. وقد أسهم العلماء المسلمون بتخصصاتهم المختلفة فى مناقشة القضايا التشريعية، ولا نجد لذلك مثيلاً فى أية شريعة أخرى.. لا نجد مثل هذا التغلغل العميق، وهذا التركيز الفكرى حول المسائل الفقهية والتشريبية، مع التزام الجميع بمصدر واحد غير مسموح بتجاوزه، يختلف العلماء فى كل شئ، وفى النهاية فإن مصدرهم الأساسى واحد يحتكمون إليه وهو القرآن، فإذا ورد نص صريح فى أمر لا يستطيع أحد أن يجادل فيه، وكلهم خاضع لتلك القوة العليا، وقد جعلهم هذا الولاء المشترك لتلك القوة قادرين على تجاوز الخلافات المذهبية التى نتجت عن الخلافات السياسية والفكرية، وحتى عندما جاءت مرحلة ظهر فيها الفقه الشيعى وانفصل عن الفقه السنى، فإننا لا نكاد نفرق بينهما، لأن هناك وحدة تجمعهما هى القرآن، وهو المرجع الأساسى الذى لا خلاف عليه بين الشيعة والسنة ولا يجرؤ فريق منهما على تجاوزه، ويلفت النظر فى الشريعة الإسلامية ذلك التساهل فى الخلافات حول الفروع، فلم يحدث أن أدت هذه الخلافات إلى انقسامات بين طوائف المسلمين، والقاعدة التى يؤمن بها الجميع أن المسلمين ماداموا متفقين فى أصول الشريعة فإن الخلافات فى الفروع من الأمور التى يرحبون بها، لأن فيها رحمة وتوسعة على الناس (اختلاف أمتى رحمة)، وقد أدى ذلك إلى حيوية تشريعية فى الفكر الدينى ليس لها مثيل، وكذلك لا نجد مثيلاً لما نجده عند المسلمين من اعتبارهم القرآن هو الدستور الأساسى، وهذا ما أدى إلى الوحدة فى المجتمع الإسلامى على رغم الفوارق العرقية واللغوية. هذه الوحدة تتجلى فى وحدة الشريعة - مع اختلافات فى التفاصيل والفروع غير الجوهرية - ووحدة الحضارة، ووحدة الموقف تجاه الشريعة ذاتها، فلو أن أحداً أنكر صلاحية الشريعة ودعا إلى عدم الالتزام بها فإن عمله هذا كفر ومروق. لأن احترام الشريعة هو أساس التفكير الإسلامى، مع إدراك حقيقة أن الاختلافات فى التفسير والفتوى إثراء للشريعة وليس خروجاً عليها.

333

وللدكتور محمود حمدي زقزوق كتاب مهم بعنوان (الإسلام في مرآة الغرب) فيه فصل كامل عن المستشرق ليوبولد فايس Leopold Weiss وهو مفكر وكاتب ولد في النمسا عام ١٩٠٠، وبعد أن قام بجولة في العالم الإسلامي في الفترة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٦، درس خلالها المجتمعات الإسلامية

ووجد أن النظرة إلى الحياة فيها تختلف اختلافا أساسيا عن النظرة الأوروبية للحياة، فقاده ذلك إلى البحث في تعاليم ومبادئ الإسلام. وقد رأى الاختلاف الكبير بين ماضى الإسلام وحاضره، فانشغل بالبحث عن أسباب تخلف العالم الإسلامى على الرغم من الإمكانيات الكبيرة فيه والمبادئ الدافعة للتقدم فى الإسلام، وانتهى إلى أن هناك سببا واحدا للانحلال الاجتماعى والثقافى الذى أصاب المسلمين، وهو ابتعادهم عن روح الإسلام، وفى وصف رحلته للبحث عن الحقيقة فى المجتمعات الإسلامية يقول: إنه تناقش مع كثير من المفكرين المسلمين فى جميع البلاد الإسلامية من طرابلس إلى الهند، ومن البوسفور إلى بحر العرب، فوجد الحال السائد بين المسلمين يثير الشجن فى نفسه، ويقول: حتى إننى - وأنا غير مسلم - أصبحت أتكلم إلى المسلمين مشفقا على الإسلام من إهمال المسلمين وتراخيهم. ولم يكن هذا التطور واضحا فى نفسى حتى جاء يوم من أيام خريف عام ١٩٢٥ وأنا فى جبال أفغانستان، وتلقانى حاكم إدارى شاب وبعد مناقشة معه قال لى: (إنك مسلم ولا تعرف ذلك) وأثرت فى نفسى هذه الكلمات، غير أنى بقيت صامتا. ولما عدت إلى أوروبا عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة المنطقية لما أشعر به من ميل إلى الإسلام أن أعتقد الإسلام. ويقول: إن ما جذبنى إلى الإسلام هو ذلك البناء الإسلامى الشامخ من التعاليم الأخلاقية ومنهج الحياة العملية. ويبدو لى الإسلام بناء تام الصنع وأجزاؤه ينتم بعضها بعضا. فليس فيه شئ يمكن الاستغناء عنه، وليس فيه نقص. وكل تعاليمه وفرائضه وضعت فى مواضعها المناسبة.

وبعد أن أسلم اتخذ لنفسه اسم (محمد أسد) واكتسب شهرة واسعة فى الغرب وفى العالم الإسلامى أيضا بعد أن ترجم له الدكتور عمر فروخ فى سنة ١٩٤٦ كتابه (الإسلام فى مفترق طرق) وله مؤلفات أخرى يشير إليها الدكتور زقزوق مثل (الطريق إلى مكة) الذى صدر سنة ١٩٥٥ باللغة الألمانية، و(أصول الفقه الإسلامى) باللغة الإنجليزية. وقد تفرغ محمد أسد لدراسة القرآن والحديث واللغة العربية وتاريخ الإسلام، وقضى أكثر من خمس سنوات فى السعودية وعاش فى البقاع التى سار فيها النبى - صلى الله عليه وسلم - وبعد هذه الرحلة أعلن (أن الإسلام بمبادئه الروحية والاجتماعية لا يزال أعظم قوة تنهض بالهمم، على الرغم من العقبات التى تعوق هذا النهوض. وهذه العقبات من صنع المسلمين، ولهذا تجمعت آمالى حول بعث الإسلام من جديد.

وقد ترجم الدكتور زقزوق إجابات محمد أسد عن أسئلة وجهها إليه الدكتور جرهارد تشينسى Gerhard Szezesny وهو أستاذ ألمانى لا ينتمى إلى أى دين من الأديان ولكنه أصدر كتابا بعنوان (إجابات الأديان) يتضمن إجابات عن ٣١ سؤالا وجهها إلى المختصين فى الديانات: اليهودية، والكاثوليكية، والبروتستانتية، والإسلام، والهندوسية، والبوذية. والدكتور جرهارد تشينسى على الرغم من أنه لا يؤمن بدين من هذه الأديان فإنه يعترف فى كتابه بأنه مقتنع بأن الإنسان متدين بطبعه، وأنه كائن لا يكف عن توجيه أسئلة لا يمكن الإجابة عنها إلا عن طريق عقيدة دينية.

أما ليوبولد فايس (محمد أسد) فكانت إجاباته عن الأسئلة تتضمن رؤيته للإسلام وللحضارة الإسلامية ويمكن تلخيص إجاباته فيما يلي :

● من وجهة النظر الإسلامية فإن كل ما يحدث وما يمكن أن يحدث هو نتيجة الفعل الإلهي الخلاق. ولذلك فليس في الإسلام تفرقة بين ما هو في الطبيعة وبين الإرادة الإلهية. والقرآن يسمى ما في الطبيعة (عالم الشهادة) أما ما يسميه (عالم الغيب) فهو ما يقع خارج نطاق الإدراك الإنساني، وهذا العالم سينكشف للإنسان في الحياة الأخرى، وكل شيء من الله، فهو (القيوم) أي إن وجوده قائم به.

● أن تعاليم الإسلام تؤكد على ضرورة النظر في خلق الإنسان، والطبيعة، لكي يتعرف إلى القدرة الخلاقة لله، وهذا ما جعل المسلمين يتفوقون في علوم الطبيعة والفلك بدافع من القرآن الذي يدعوهم إلى النظر في ظواهر الطبيعة وحركة الأفلاك. ومع ذلك فإن العلم وحده لا يكفي لحياة الإيمان، ولكن بالبصيرة يهتدى الإنسان إلى الخير والشر.

● الإسلام يدعو إلى حوار بين أصحاب الديانات السماوية، والقرآن يؤكد هذه الدعوة كما في الآية: ﴿ قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران ٦٤). وبهذا الحوار يواجه أصحاب الديانات السماوية النزعات المادية التي تهدد العالم، والميزة الكبرى في الإسلام أنه يحترم جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ويحرم على المسلمين أن يتفوهوا بكلمة فيها إهانة لنبي من الأنبياء، ولذلك فإن المسلمين ينتظرون من أصحاب الديانات الأخرى أن يتحدثوا باحترام عن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، وإذا لم يكن في وسعهم الاعتراف بأنه نبي - مثلما يعترف المسلمون بإبراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء دون أن يفرقوا بين أحد منهم، فإنه ينبغي عليهم على الأقل أن يذكروا اسمه بالتقدير، وهذا ما يجعل الأديان الثلاثة يقترب بعضها من بعض وتزول الكراهية والعداوة والحساسية بين أهل الأديان.

● والإسلام يقبل الاختلاف والتعدد بين البشر، وعقولهم، وتوجهاتهم. ولا يدعو المسلمين إلى الابتعاد عن غير المسلمين وعدم مخالطتهم، بل يدعوهم إلى التعاون معهم وترك الخلافات القائمة بين الديانات والله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون، والقرآن يقول: ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُومٌ لَهَا ﴾ (البقرة ١٤٨) ومن يدرس الإسلام يجد أن التعايش والتعاون مع أصحاب الديانات الأخرى يمثل واجبا دينيا وأخلاقيا.



والحرب في الإسلام محكومة بقواعد حددها القرآن. فالحرب العدوانية محرمة على المسلمين. ومبررات الحرب تنحصر في حالة الدفاع، وحالة نكث العهود وظهور بؤادر الخيانة. وفي



حالة الدفاع يحرم الإسلام تجاوز الحدود الكافية لرد العدوان كما في الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونََكُمْ وَلَا تَعْسِدُوا إِيَّاهُ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْمُعَصِدِينَ﴾ (البقرة ١٩٠) والآية: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يَقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يَخْرُجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (إنما ينهككم الله عن الذين قتلوكم في الدين وأخرجوكم من دِينِكُمْ وظلهم وأعلى إخراجكم أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ١) (المتحنة ٨ - ٩) والآية: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ مِمَّا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَأَلْفُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (البقرة ١٩٤) والآية: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُواكُمْ وَالْفُؤَادُ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمُ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء ٩٠). والآية: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (الأنفال ٦١).

هذه الآيات تدل على أن الإسلام يرفض البدء بالاعتداء، ويؤكد أن الحرب لا تكون إلا لرد الاعتداء، ويكون الرد بقدر الاعتداء ليس أكثر. وإن لجأ العدو إلى السلام فعلى المسلمين أن يقبلوا السلام. وهذه الحدود تمثل مفهوما حضاريا راقيا جدا يتناقض مع ما يردده المستشرقون من أن مفهوم (الجهاد) في الإسلام مفهوم عدواني. وأن الدعوة إلى الجهاد هي دعوة إلى الاعتداء على الآخرين.

أما الحرب في حالة نكث العهود وظهور بوادر الخيانة فإن الإسلام يضع لها حدودا كما في الآية: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذِلْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (الأنفال ٥٨) والآية: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُوْنَ﴾ (التوبة ١٢).

أما الحالة الثالثة التي يبيح فيها الإسلام الحرب فهي حالة وجود اعتبارات تتعلق بسلامة الدولة، والقضاء على الفتنة، وتأمين الدعوة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ آنَسُوا فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة ١٩٣).

ولم تتجاوز حروب الرسول - صلى الله عليه وسلم - هذه الحالات سواء في حروبه مع مشركي العرب، أم مع اليهود والنصارى والروم في الشام. فالمشركون العرب هم الذين بدءوا بإيذاء الرسول وأصحابه وحاولوا قتله في مكة، واستمروا بعد الهجرة في إيذاء المستضعفين الذين بقوا في مكة، وحاولوا فتنتهم عن دينهم بالتعذيب، وحينئذ أذن الله بقتال أهل قريش ردا على اعتدائهم على الإسلام والمسلمين. وفي هذا يقول الله: ﴿أُوذِيَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج ٣٩) وبعد أن قامت قريش بتحريض القبائل على المسلمين واشتركوا معهم في غزوة الأحزاب كان لا بد من قتال المشركين كافة لأنهم جميعا شاركوا في الاعتداء على المسلمين فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة ٣٦).

أما الحرب مع اليهود فكانت بسبب خيانتهم للعهد، فقد سالمهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعقد معهم معاهدات عدم اعتداء، وحافظ على عهده معهم، ولم يحاربهم إلا بعد أن بدءوهم بالخيانة ونكثوا العهد في غزوة أحد في السنة الثالثة للهجرة، وبعد أن تكررت خيانتهم في غزوة الأحزاب في السنة الخامسة حينما اجتمع المشركون من القبائل المختلفة للقضاء على الإسلام. فبعد أن انتصر المشركون في غزوة أحد نكث يهود بنى النضير عهدهم مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحالفوا مع قريش، وخرج زعيمهم كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة للانضمام إلى المشركين، فقاتلهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأخرجهم من ديارهم. وفسر القرآن ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر ٤) أى لأنهم هم الذين بدءوا بالشقاق ونكث العهد. في غزوة الأحزاب حينما كان المسلمون في أخرج المواقف نكث يهود بنى قريظة عهدهم مع الرسول وساعدوا المشركين، فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم لقاتلهم بعد أن فرغ من غزوة الأحزاب. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقَاتَلُوا وَتَأْسَرُ رُفْقًا﴾ (الأحزاب ٢٦) ويقصد الذين ساعدوا المشركين في غزوة الأحزاب، وهم يهود بنى قريظة.

وأما نصارى الفساسة والروم فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يقاتلهم في غزوة مؤتة إلا بعد أن قتلوا بعض من دخل في الإسلام من أهل الشام، فكان ذلك بدءا بالاعتداء ومحاربة للإسلام. ومن أخلاقيات الحرب في الإسلام أنه لا يجوز قتال الذين بدءوا بالخيانة ونكثوا العهد إلا بعد إخطارهم بأن المسلمين سينقضون العهد ويقابلون عملهم بالمثل إذا أصروا على خيانتهم، وذلك التزاما بالآية: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ فَإِنِذُوا لَهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (الأنفال ٥٨). ومقتضى الأمر الإلهي للمسلمين إذا ظهر من قوم بوادر خيانة - وكان بينهم وبينهم عهد - فلا بد من إخبارهم بالنقض ولا يجوز مفاجأتهم بالحرب وإلا كان ذلك غدراً يتعارض مع أخلاقيات الإسلام. ويحذر الله من ذلك بأن الله لا يحب الخائنين الذين ينقضون العهود. والله لا يحب الخيانة حتى مع الكفار.

هكذا قامت الحضارة الإسلامية على أسس أخلاقية فرضها الله على المسلمين، وجوهر هذه الأسس أن الله لا يحب المعتدين. وهذه هي عظمة الإسلام ودرجة الرقى التي لم تصل إليها دول كبرى في العصر الحديث بعد ١٤ قرناً من نزول القرآن!



وسوف نظل نذكر بالتقدير الأستاذة الألمانية الكبيرة زيجريد هونكه الباحثة المتميزة في العلوم الدينية، وأول كاتبة ألمانية في العصر الحديث قامت بالدفاع عن الإسلام وتفنيد الأحكام المسبقة

والملفقة ضده في الغرب. وكان أول كتاب لها بعنوان (الرجل والمرأة) تناولت فيه مشكلات اجتماعية خاصة بالأسرة والعلاقات في المجتمع الألماني، وكتابها الثاني كان أهم مؤلفاتها وأكثرها توزيعاً وكان بعنوان (شمس الله تسطع على الغرب) صدر سنة ١٩٦٠ واشتهر هذا الكتاب حتى بلغت عدد النسخ المباعة منه حتى يوم وفاتها مليون نسخة في ألمانيا وحدها، وترجم إلى ١٧ لغة كان آخرها اللغة اليابانية.

وعلى الرغم من أن (زيجريد هونكة) عاشت ٨٣ عاماً ونشرت على مدى حياتها الطويلة عدة كتب تناولت قضايا الشعوب، والفلسفة، وعلم الأديان المقارن، فإنها فاجأت النقاد بعد سنوات بكتاب بعنوان (ليس الله كما يزعمون) كشفت فيه الأحكام المسبقة ضد العرب والمسلمين بأسلوب علمي ناقشت فيه الادعاءات التي يرددنها الغربيون عن الإسلام والتي تعكس نزعة الاستعلاء الغربي تجاه الحضارات الأخرى، كما تعكس ضيق الأفق ورفض كل ما يخالف الآراء السائدة في الغرب. وقد تحملت بسبب هذا الكتاب الكثير من الهجوم، ولكن الكتاب صمد بما فيه من دراسة عميقة لجذور العداء للإسلام في الغرب، واعتمدت في ذلك على مصادر عديدة لا يرقى إليها الشك على مدى قرون. وأخيراً نالت شهرة كبيرة واعترف الجميع بأنها صنعت تاريخاً للعلاقات بين الشرق والغرب على أساس موضوعي. وحصلت على جائزة (كانط وشيلر) وهما من أكبر الجوائز في ألمانيا، كما حصلت على وسام الاستحقاق من مصر قدمه لها الرئيس حسنى مبارك، وبعد ذلك نالت التكريم والأوسمة من رؤساء الدول والجامعات في الدول العربية والإسلامية والأوروبية.

وفى آخر مقابلة صحفية جرت معها عام ١٩٩٩ قبل رحيلها قالت: كنت كلما اكتشفت أخطاء وآراء وغير دقيقة عن الإسلام أشعر بضيق وانزعاج بل بغضب شديد، وكان ذلك يدفعنى دائماً إلى تأليف كتاب جديد لكشف الحقيقة.

وقالت أيضاً: كنت أسمع وأقرأ دائماً أن الحضارة الغربية مدينة لليونان والرومان وحدهم، حتى توصلت إلى الحقيقة وهى أن الغرب يعمل على إنكار فضل المسلمين والعرب على الحضارة الغربية، فقد قامت نهضة أوروبا على العلوم التى كانت مزدهرة فى جامعات العالم الإسلامى، وعلى ترجمة الكتب والمراجع التى كانت تخر بها مكتبات المساجد والمكتبات العامة فى الدول العربية، وبخاصة فى أسبانيا (الأندلس). ولقد اكتشفت سوء القصد فيما يروجه البعض من أن المسلمين لم تكن لديهم علوم أو حضارة أو ثقافة من صنعهم، وأنهم كانوا مجرد سعاة بريد نقلوا الفكر الإغريقى إلى لغتهم ثم نقلها الغربيون بعد ذلك إلى لغاتهم، دون أن يضيف المسلمون إلى العلوم والثقافة الإغريقية أو يقدموا إنجازات خلاقة خاصة بهم. ولم يكن فى الغرب من هو مستعد للاعتراف بالتأثير الكبير للحضارة الإسلامية العظيمة والعلوم المتقدمة فى العالم الإسلامى فى العصور الوسطى التى كانت العصور المظلمة فى بلاد الغرب.



وفي نهاية الخمسينات قدمت زيجريد هونكة كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) الذي سبق ذكره ولم يكن كتابا علميا جافا، بل كان متعة جذابة سهلة الفهم، ولذلك انتشر واشتهرت به، ولا يزال هذا الكتاب يستحوذ على إعجاب الباحثين المتخصصين وعامة القراء لما يحتوى عليه من معلومات أساسية موثقة، ويعتبر هذا الكتاب الآن مرجعا أساسيا هو وكتابها الآخر (ليس الله كما يزعمون) الذي ترد فيه على المشككين والجهلة الذين يرددون الأحكام الجاهزة الظالمة للإسلام. وقد نجحت (زيجريد هونكة) في شرح حقائق الإسلام، وتقديم صورة الإنسان المسلم بعيدا عن زيف النظرة السائدة في الغرب. وتناولت عدم صحة ما يقال عن الإسلام من أنه يدعو أنصاره لشن الحروب على الآخرين باسم الجهاد، وأن الإسلام يدعو إلى الكسل بحجة التوكل على الله وهذا هو سر تخلف المسلمين، وأنه قائم على اضطهاد المرأة.. إلى آخر الافتراءات السائدة الأخرى. وقد نجحت في إظهار ثراء الحضارة الإسلامية وأثرها غير المحدود على التطور في أوروبا في الطب والهندسة والكيمياء والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية، كما دعت إلى التفاهم المتبادل بين الغرب والعالم الإسلامي، وكتبت تقول: إن الشهامة والحكمة اللتين تميز بهما السلطان الناصر صلاح الدين برهان تاريخي على عظمة الحضارة الإسلامية، ومن حق المسلمين أن يفخروا بهذا القائد كما يفخر الألمان بالإمبراطور فردريش الثاني الذي كان أول من مد جسرا فكريا عبر البحر الأبيض المتوسط ونقل الكثير من المعارف والإنجازات العلمية من العالم الإسلامي إلى مملكته.

وفي كتاب (شمس الله تسطع على الغرب) تقول (زيجريد هونكة): إن الغرب لم يعرف الأعداد إلا بعد أن تعلمها من المسلمين، فكانت ركيزة للعلوم الطبيعية والاقتصاد والمعاملات في العالم. ونقل الغرب العلوم التي ابتكرها العلماء المسلمون وبخاصة الرياضيات التي تفوقوا فيها، وكذلك علم الفلك الذي تقدم تقدما كبيرا على أيديهم، وقد شرحوا حركة الأفلاك بشكل منهجي دقيق بناء على الملاحظة العلمية، وهم الذين علموا أوروبا بناء الراصد الفلكية، ونقلوا علم الفلك من مجرد مراقبة شخصية للنجوم إلى علم له فوائد عملية منها: قياس الوقت بدقة وكان ذلك ضروريا للمسلمين لتحديد أوقات الصلاة، وأوائل الشهور الإسلامية وبخاصة بداية ونهاية شهر رمضان، وقد اكتشف البيروني - العالم المسلم - أن الشمس لا تدور حول الأرض كما كان العلماء الأوروبيون يعتقدون، وأن العكس هو الصحيح والأرض هي التي تدور حول الشمس فيحدث الليل والنهار، وسبق بذلك العالم الأوربي كوبر نيكوس - بخمسائة عام - العالم الذي ينسب إليه الغربيون كذبا هذا الاكتشاف العلمي. كذلك اثنى المسلمون التراث العلمي الذي نقلوه عن اليونان وكان علما نظريا، فأضاف المسلمون المنهج الحديث القائم على التجربة العلمية المنضبطة. ويجب الاعتراف بأن العلماء المسلمين هم الذين اخترعوا المنهج التجريبي بمعناه الدقيق، وأن المصطلحات العلمية في علم الكيمياء مثلا نقلها العلماء الغربيون من علماء المسلمين ولا زالت تحمل أسماء عربية.. وقد ذكرت

الكثير من الكلمات العربية التى دخلت فى اللغات العلمية الأوروبية مثل الكيمياء، والكحول، والاثميد، والبنزين، والإكسير، ومئات المصطلحات الأخرى. وشرحت كيف كان المسلمون مبدعين فى الميكانيكا، وتوصلوا إلى أفضل الوسائل لاستخدام المياه فى نقل الحركة، وصمموا السواقي والمضخات ومعدات رفع المياه. وفى سنة ٨٨٠ ميلادية قام عباس بن فرناس بأول محاولة لصناعة آلة للطيران فى الجو ولم تكن الفكرة والمحاولة مما يخطر على بال أحد فى الغرب إلا بعد قرون: وقد نجح ابن فرناس فى صناعة آلة مكسوة بالقماش والريش قادرة على البقاء فترة زمنية فى الجو. وكان علماء المسلمين أول من اكتشفوا البارود قبل أن يتوصل إليه العالم الغربى برتولد شفارتس بفترة طويلة. وتمتلى المراجع العربية بالأدلة على معرفة المسلمين للمواد المتفجرة، والأسلحة النارية، ومحركات الصواريخ، وكان المسلمون فى الأندلس أول من استخدم المدفع فى التاريخ. وكان المسلمون هم الذين قاموا بتصميم مصانع الورق بطرق أفضل مما كانت تصنعه به الصين وأنشئوا صناعة كاملة للورق قبل إنشاء أول مصنع لإنتاج الورق فى ألمانيا بستة قرون كاملة.



ودلت (زيجريد هونكة) على أن العالم المسلم ابن الخازن هو مؤسس علم البصريات، وأن ابن سينا أشهر الأطباء فى التاريخ العلمى للبشرية، وهو أول من اكتشف أن السرطان يبدأ فى موضع من الجسم وينتشر بعد ذلك، كما كان أول من اكتشف مرض السل وأنه مُعد، وأن التعرض لأشعة الشمس خطر على المصابين به، ووصف له الدواء. كذلك فإن الطبيب والفيلسوف ابن رشد هو الذى اكتشف بعض الأمراض المعدية والحميات، واكتشف أن الإصابة ببعضها تعطى الجسم مناعة منها مدى الحياة، واكتشف علاجا لمرض الطاعون، فى الوقت الذى قرر فيه القيصر الألماني ماكسيميليان الأول بعد ذلك بمائتى عام أن مرض الطاعون عقاب من الله ليس له شفاء. وبينما كان أطباء الغرب يقولون: إن تكوّن الصديد فى الجروح ضرورى لشفائها كان ابن سينا قبل ذلك بقرون يعلم تلاميذه أهمية تفادى تكوّن الصديد ويعالجه حتى يختفى بين ليلة وأخرى. وكذلك كانت المضادات الحيوية من اكتشافات العلماء المسلمين وكانوا يستخدمون المواد العفنة المكونة للبنسلين ويصنعون منها المراهم والمساحيق، وكانوا يعالجون به الالتهابات وترتكز شهرة الجراح الفرنسى الكبير إمبرواز دى بارى على نجاحه لأول مرة عام ١٥٥٢ فى إيقاف نزيف الأوعية الدموية الكبيرة، وزعم أنه هو صاحب هذا الاكتشاف، بينما كان الجراح المسلم أبو القاسم هو أول من درس هذا النوع من العمليات قبل الفرنسى بستمائة عام وكان يطبقها مما أدى إلى تحسن مستوى عمليات بتر الأعضاء. وكان تأسيس أول مستشفى فى ألمانيا عام ١٥١١ بينما كانت المستشفيات فى العالم الإسلامى موجودة قبل ذلك بثمانمائة عام وكانت أفضل من مثيلاتها فى الغرب التى أنشئت بعد ذلك بقرون.



المفتدين

وتناولت (زيجريد هونكة) فضل المسلمين على الغرب في التعليم والثقافة، وذكرت أن الكنيسة استمرت في استخدام اللغة اللاتينية التي لم يكن يفهمها عامة الشعب، وظلت أكثر من ثمانمائة عام ترددها في الصلوات، بينما كان المسلمون يؤدون صلواتهم بلغة يفهمونها، وبينما كان المسلمون قد تعلموا من رسولهم دعوته إلى العلم كان ٩٥٪ من سكان أوروبا أميين في العصور الوسطى. وكان شباب المسلمين يدرسون القرآن والحديث والنحو والبلاغة والأدب والتاريخ والجغرافيا والمنطق والرياضيات وعلم الفلك ولم يكن الغربيون يتعلمون شيئا من ذلك. وسبق المسلمون الغرب في إنشاء الجامعات منذ القرن التاسع الميلادي، وكانوا سباقين في منح الشهادات والدرجات العلمية وتقسيم الجامعة إلى كليات ووضع مناهج لكل كلية. وكانت الكتب منتشرة، وكان من علامات التفوق في المجتمع الإسلامي أن يمتلك الإنسان مجموعة من الكتب القيمة النادرة، وكانت المكتبة الفاطمية أجمل وأكمل مكتبة في التاريخ إذ كانت تحتوى على مليون و٦٠٠ ألف مجلد منها ما يزيد على ٦٥٠٠ مجلد في الرياضيات، و١٨ ألف مجلد في الفلسفة، وفي القرن العاشر كانت مكتبة الشخص من الطبقة المتوسطة تشتمل على عدد من الكتب تفوق ما في مكتبات الغرب جميعها!

وتقول (زيجريد هونكة) إن أشهر شعراء الغرب أخذوا من الشعراء المسلمين، وبخاصة العباقرة من أمثال دانتي وبتراركة، وكان دانتي دارسا للشعر العربي وللأساطير والفلسفة والتصوف في الثقافة الإسلامية. وكان بتراركة دارسا للشعر الكلاسيكي عند المسلمين. وكذلك نقل الغربيون عن المسلمين الموسيقى والطرب، كما نقلوا التسامح والفروسية. والتسامح عند المسلمين يختلف عن موقف اللامبالاة تجاه الدين كما يظهر في الغرب، والجذور الطبيعية لتسامح المسلم، بل وكرمه تجاه العدو ومن يحمل فكرا مغايرا لفكره، نجدها في صورة الفتوة عند العرب، وقد انتقلت هذه الروح العربية إلى الفروسية في الغرب. وكذلك كان للمسلمين الفضل في التجارة على أسس اقتصادية وكانت الإمبراطورية الإسلامية مركزا للتجارة العالمية، كما كانت لدى المسلمين موهبة إدارية جبارة، وشيدوا جهازا إداريا نموذجيا في إمبراطوريتهم، أصبح مثالا قلده إمبراطوريات الغرب حتى بنظام الجمارك الدقيق الذي وضعه المسلمون ونقله الإمبراطور فردريش الثاني.

هكذا يجد الإسلام دائما من يقول عنه كلمة حق وسط ضباب الظلم والكذب والعداء في الغرب. وستبقى دائما الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ كُلَّ كَلِمَةٍ الَّتِي كَفَرُوا أَلسْفَلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة ٤٠).

## كتب للمؤلف

- البحث عن المستقبل - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٣.
- تاريخ ليس للبيع - الطبعة الأولى - المكتبة الأكاديمية - ١٩٩٣.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ١٩٩٧.
- الأمة الدينية والحرب ضد الإسلام - الطبعة الأولى - دار المعارف - ١٩٩٥.
- الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ١٩٩٧.
- الغرب والإسلام - الطبعة الأولى - دار المعارف - ٢٠٠٠.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ٢٠٠١.
- المصريون في المرأة - سلسلة اقرأ - دار المعارف - ٢٠٠٠.
- الطبعة الثانية - هيئة الكتاب - ٢٠٠٢.
- الأقباط في مصر والمهجر - الطبعة الثالثة - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- معجزات الخلق والخالق - دار المعارف - ٢٠٠١.
- رحلة إلى الصين - دار المعارف - ٢٠٠٢.
- صناعة العداء للإسلام - الطبعة الأولى - دار المعارف - ٢٠٠٢.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- أمريكا.. رؤية من الداخل - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- هيكل بين الصحافة والسياسة - دار المعارف - ٢٠٠٣.
- الشيعة والسنة واختلافات الفقه والفكر والتاريخ - الطبعة الأولى - دار المعارف - ٢٠٠٤.
- الطبعة الثانية - دار المعارف - ٢٠٠٥.





٥	..... مقدمة
٩	..... أنا مارى شيميل
٢٣	..... أساطير وأوهام الخطر الإسلامى
٤٥	..... حقائق وخفايا وراء العداء للإسلام
٥٧	..... هل الإسلام يتعارض مع الديمقراطية وحقوق الإنسان ؟
٧٣	..... لماذا لا يحترمون الإسلام ؟
٨٩	..... المسلمون مقصرون أيضا فى حق أنفسهم
١٠٣	..... مفكر ألمانى يفهم الإسلام أفضل من بعض المسلمين
١١٩	..... لماذا التمييز ضد الأقليات الإسلامية ؟
١٣٥	..... المسلمون ساهموا فى الإساءة إلى الإسلام
١٤٩	..... الغرب هو الجانى دائما والإسلام هو المجنى عليه
١٦٥	..... الإسلام والقوى الكبرى
١٨٣	..... راهبة تدافع عن الإسلام
١٩٩	..... ولى عهد بريطانيا يعيد للإسلام اعتباره فى الغرب
٢١٥	..... المنصفون للإسلام من جوته إلى جارودى
٢٣٣	..... عالم فرنسى سبق الباحثين عن الإعجاز العلمى فى القرآن
٢٤٩	..... دعوة للغرب لإعادة اكتشاف الإسلام
٢٦٥	..... إنذار كاذب من الإسلام
٢٨١	..... كيف يبدو الإسلام فى بلاد المسلمين ؟

رقم الإيداع	٢٠٠٥ / ١٦٤٤٧
التقييم الدولى	ISBN 977-02-6818-6

١/ ٢٠٠٥ / ١٣  
 طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)